التفسير المحرر

للقرآن الكريم

من سورة الطلاق إلى سورة القلم

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت

أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب

أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر (سابقا)

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد التاسع والثلاثون

الدرر السنية

www.dorar.net





التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة الطلاق إلى سورة القلم)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم – المجلد التاسع والثلاثون – من سورة الطلاق إلى سورة القلم/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٤٣ هـ

٥٢٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٣٥٨-٠٥-٤

١– القرآن– تفسير أ– العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤٣/٩١٤٨

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٩١٤٨

ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٨٣٥٨-٠٥-٤

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ – ٢٠٢٢ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)



المملكة العربية السعودية
٠١٣٨٦٨٠١٢٣ ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ nashr@dorar.net
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv



التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة الطلاق إلى سورة القلم)

إعْـدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

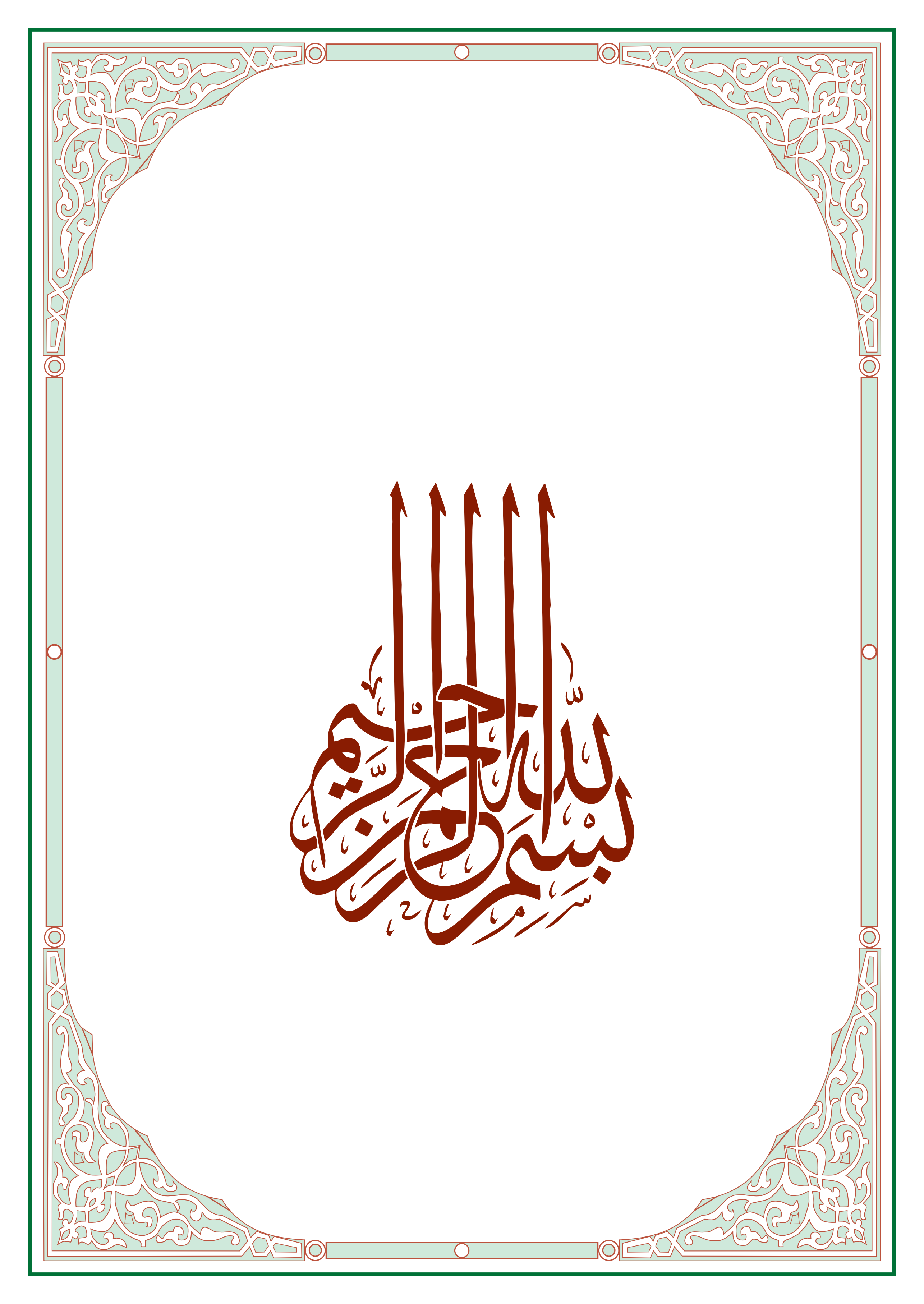
الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْـرَافُ العَامُّ

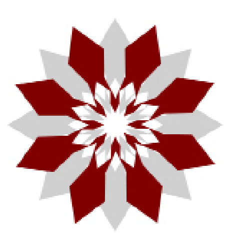
الشَّيخ علوي بن عبد القادر السَّقَّاف

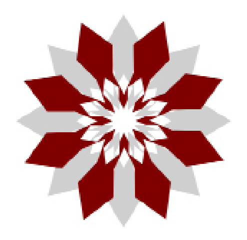
المجلد التاسع والثلاثون

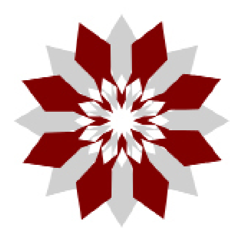



بسم الله الرحمن الرحيم

تَفْسِيرُ
سُورَةِ الطَّلاقِ







سُورةُ الطَّلاقِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الطَّلاقِ)(١).

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الطَّلاقِ مَدَنيَّةٌ، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ(٢).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

من أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:

بيانُ الأحكامِ المتعلِّقةِ بالطَّلاقِ، وما يترتَّبُ عليه(٣).

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- ذِكرُ الطَّلاقِ المشروعِ، وما يَعقُبُه مِن العِدَّةِ والإرضاعِ، والإنفاقِ والإسكانِ.

٢- الإشهادُ على الطَّلاقِ، وعلى المراجَعةِ.

٣- النَّهيُ عن الإضرارِ بالمطَلَّقاتِ، والتَّضييقِ عليهنَّ.

---

(١) سُمِّيت بذلك لبيانِها كيفيَّةَ الطَّلاقِ الشَّرعيِّ، وما يترتَّبُ على الطَّلاقِ مِن العِدَّةِ والنَّفَقةِ والسُّكنى. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٤٩).

(٢) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابن الجوزي، والقرطبيُّ، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٤٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٩)، ((مصاعد النظر)) للبِقاعي (٣/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٦، ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٣)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٤٣٩).



٤- التَّذكيرُ المتكَرِّرُ بوُجوبِ تقوى اللهِ تعالى، والمحافظةِ على أداءِ تكاليفِه.

٥- بيانُ حُسنِ عاقِبةِ التَّوكُّلِ على اللهِ.

٦- ذِكرُ سُوءِ عاقبةِ الَّذين فَسَقوا عن أمرِ رَبِّهم، وخالَفوا رُسُلَه.

٧- تذكيرُ الأمَّةِ برحمةِ اللهِ بهم؛ حيثُ أرسلَ إليهم رَسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم.

٨- بيانُ حُسنِ عاقبةِ المؤمِنينَ الصَّادِقينَ.

٩- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ بما يدُلُّ على كَمالِ قُدرةِ الله، وسَعةِ عِلمِه.



الآيات (١-٣)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾: عِدَّةُ المرأةِ: هي الأيَّامُ الَّتي بانقِضائِها يحِلُّ لها التَّزوُّجُ، وأصلُ (عَدد): يدُلُّ على إحصاءٍ[١].

﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾: أي: احفَظوها واضبِطوها، واعرِفوا ابتِداءَها وانتِهاءَها، وأصلُ (حصي): يدُلُّ على عَدٍّ[٢].

﴿بِفَٰحِشَةٖ﴾: الفاحِشةُ: الزِّنا، وتُطلَقُ الفاحشةُ أيضًا على كلِّ شَيءٍ مُستقبَحٍ مِن قَولٍ أو فِعلٍ، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبحٍ وشَناعةٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٠).

﴿يَتَعَدَّ﴾: أي: يَتجاوَزْ، وأصلُ (عدو): يدُلُّ على تجاوُزٍ في الشَّيءِ[1].

﴿حَسْبُهُۥ﴾: أي: كافِيه، وأصلُ (حسب) هنا: يدُلُّ على كِفايةٍ[2].

﴿قَدْرًا﴾: أي: حَدًّا مَعلومًا، وأجَلًا مُعَيَّنًا، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه[3].

المعنى الإجماليُّ:

ابتدَأَ اللهُ تعالى تلك السُّورةَ الكريمةَ بخِطابِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائِلًا: يا أيُّها النَّبيُّ، ثمَّ خاطَب أُمَّتَه تبَعًا، فقال: إذا أردْتُم طَلاقَ زَوجاتِكم فطَلِّقوهنَّ لوَقتِ عِدَّتِهنَّ؛ وذلك بأنْ تُطلِّقوهُنَّ في طُهرٍ لم تُجامِعوهنَّ فيه، واحفَظوا -أيُّها الأزواجُ- عِدَّةَ المُطَلَّقاتِ، واضبِطوها، واتَّقوا اللهَ رَبَّكم.

ثمَّ بيَّن الله تعالى حُكمًا آخَرَ يَتعلَّقُ بالأزواجِ والزَّوجاتِ، فقال: لا تُخرِجوا المُطَلَّقاتِ الرَّجْعيَّاتِ مِنَ البُيوتِ، ولا يَخرُجْنَ هُنَّ أنفُسُهنَّ حتَّى تَنقَضِيَ عِدَّتُهنَّ، إلَّا أن يَرتَكِبْنَ فاحِشةً واضِحةً قَبيحةً؛ كالزِّنا، أو أذيَّةِ أقارِبِ الزَّوجِ، وتلك الأحكامُ المذكورةُ حدودُ اللهِ؛ فلا تَعْتَدُوها، ومَن يَتجاوَزْ أحكامَ اللهِ فقد ظَلَم نَفْسَه، لا تَدْري؛ فلَعَلَّ اللهَ يُحدِثُ بعْدَ فِراقِ الزَّوجَينِ أمرًا نافِعًا لهما، ويُصلِحُ ذاتَ بَيْنِهما، فيُراجِعُ الزَّوجُ مَن طلَّقها.

ثمَّ بيَّن الله تعالى حُكمًا يتعلَّقُ بالعِدَّةِ، فقال: فإذا قارَبَ المُطَلَّقاتُ الرَّجْعيَّاتُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤١).

انتِهاءَ عِدَّتِهنَّ، فارْجِعوهنَّ بالمعروفِ إن شِئتُم، أو فارِقوهنَّ بمَعروفٍ، وأَشهِدوا -أيُّها الأزواجُ- على رَدِّ زَوجاتِكم رَجُلَينِ مِن عُدولِ المُسلِمينَ، وأدُّوا -أيُّها الشُّهَداءُ- الشَّهادةَ على وَجْهِها إذا طُلِبَ منكم أداؤُها؛ إخلاصًا للهِ تعالى، ذلك يتَّعِظُ به مَن كان يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ.

ثمَّ بشَّر اللهُ تعالى عبادَه الَّذين يتَّقونَه، فقال: ومَنْ يتَّقِ اللهَ بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه؛ يَجعَلْ له مَخرَجًا مِن كُلِّ شِدَّةٍ، ويَرزُقْه مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ، ومَن يَعتَمِدْ على اللهِ فهو كافِيه ما أهَمَّه، إنَّ اللهَ مُنفِذٌ أمْرَه، قد جَعَل اللهُ لكُلِّ شَيءٍ حَدًّا ومِقدارًا ووَقتًا مُعَيَّنًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ -وأمَّتُه تبَعٌ له- إذا أرَدْتُم طَلاقَ زَوجاتِكم فلْيَكُنْ تَطليقُكم لهنَّ مُراعًى فيه زَمَنُ عِدَّتِهنَّ؛ لئلَّا تَطُولَ عليهِنَّ، وذلك بأن تُطلِّقوهُنَّ وَقْتَ طُهرِهنَّ الَّذي لم تُجامِعوهنَّ فيه، فلا تُطَلِّقوهنَّ حالَ حَيضِهنَّ، ولا في زَمَنِ طُهرٍ قد جامَعْتُموهنَّ فيه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٠)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٧٠)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٤، ٢٩٥).
قال الرازي: (قولُه تعالى: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: لِزَمانِ عِدَّتِهنَّ، وهو الطُّهرُ بإجماعِ الأُمَّةِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٩).
=

= وقال الواحدي: (الآيةُ دَلَّت على إيقاعِ الطَّلاقِ في الطُّهرِ، ودلَّت السُّنَّةُ على أنَّ ذلك الطُّهرَ يَجِبُ أن يكونَ غيرَ مُجامَعٍ فيه، حتَّى يكونَ الطَّلاقُ سُنِّيًّا). ((التفسير الوسيط)) (٤/ ٣١٠).

وقال ابن العربي: (المعنى فيه: فطَلِّقوهنَّ لِعدَّتِهنَّ الَّتي تُعتَبَرُ. واللَّامُ على أصْلِها، كما تقولُ: افعَلْ كذا لِكَذا، ويكونُ مقصودُ الطَّلاقِ والاعتِدادِ مآلَه الَّذي يَنتهي إليه). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٢٧٠).

وقال البِقاعي: (هذه اللَّامُ للوَقتِ، مِثلُها في: «كُتِبَ هذا لِخَمسٍ بَقِينَ مِن شَهرِ كذا»). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٤١).

قال السعدي: (فهذا الطَّلاقُ هو الَّذي تكونُ العِدَّةُ فيه واضِحةً بَيِّنةً، بخِلافِ ما لو طلَّقها وهي حائضٌ؛ فإنَّها لا تحتسبُ تلك الحيضةَ الَّتي وقَع فيها الطَّلاقُ، وتَطولُ عليها العِدَّةُ بسببِ ذلك، وكذلك لو طلَّقها في طُهرٍ وَطِئ فيه؛ فإنَّه لا يُؤمَنُ حمْلُها، فلا يتبيَّنُ ولا يتَّضحُ بأيِّ عدَّةٍ تعتَدُّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

وقال الرَّسْعَني: (الطَّلاقُ على ضَربَينِ: طلاقُ السُّنَّةِ، وطلاقُ البِدْعةِ. فأمَّا طَلاقُ السُّنَّةِ: فهو أن يُطَلِّقَها في طُهْرٍ لم يُجامِعْها فيه. وأمَّا طلاقُ البدعةِ: فهو أن يُطَلِّقَها في زمَنِ الحَيضِ، أو في طُهرٍ جامَعها فيه، ويقَعُ الطَّلاقُ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم أمَرَ ابنَ عُمَرَ بمُراجَعةِ زَوجتِه، ويأثَمُ؛ لارتِكابِه ما نُهيَ عنه). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١٦٠).

وقال ابنُ المُنذِرِ: (أجمَعَ أهلُ العِلمِ على أنَّ مَن طَلَّق زَوجتَه طَلقةً واحِدةً، وهي طاهِرٌ من حَيضةٍ لم يُطَلِّقْها فيها، ولم يكُنْ جامَعَها في ذلك الطُّهرِ: أنَّه مُصيبٌ للسُّنَّةِ). ((الإشراف على مذاهب العلماء)) (٥/ ١٨٤). ويُنظر ما سيأتي (ص: ٣٣).

أمَّا كَوْنُه طَلْقةً واحدةً فقد وقع فيه اختِلافٌ؛ قال أبو حيَّانَ: (قال مالكٌ: لا أعرِفُ طلاقَ السُّنَّةِ إلَّا واحدةً، وكَرِهَ الثَّلاثَ مجموعةً أو مُفَرَّقةً. وأبو حنيفةَ كَرِهَ ما زاد على الواحدةِ في طُهرٍ واحدٍ، فأمَّا مُفَرَّقًا في الأطهارِ فلا. وقال الشَّافِعيُّ: لا بأسَ بإرسالِ الطَّلاقِ الثَّلاثِ، ولا أعرِفُ في عدَدِ الطَّلاقِ سُنَّةً ولا بدعةً، وهو مباحٌ. راعى في السُّنَّةِ الوقتَ فقطْ، وأبو حنيفةَ التَّفريقَ والوقتَ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٦). ويُنظر: ((التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد)) لابن عبد البَرِّ (١٥/ ٦٩).

والطَّلاقُ في زمَنِ الحَيضِ، أو في طُهرٍ جامَعها فيه يقعُ باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحَنَفيَّةِ، والمالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ. يُنظر: ((شرح مختصر الطَّحاوي)) للجَصَّاص (٥/ ٢٧)، =

عن عَبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، ((أنَّه طَلَّق امرأتَه وهي حائِضٌ، فذَكَر عُمَرُ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتغَيَّظَ فيه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ قال: لِيُراجِعْها، ثمَّ يُمْسِكْها حتَّى تَطهُرَ، ثمَّ تَحيضَ فتَطهُرَ، فإنْ بدا له أن يُطَلِّقَها فلْيُطَلِّقْها طاهِرًا قبْلَ أن يَمَسَّها؛ فتلك العِدَّةُ كما أمَرَ اللهُ عزَّ وجَلَّ))[١].

وعن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طلَّقَ حَفْصةَ، ثمَّ راجَعَها))[٢].

﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان نَظَرُ الشَّارِعِ إلى العِدَّةِ شَديدًا؛ لِما فيها مِن الحُكمِ بالتَّأنِّي لاحتِمالِ النَّدَمِ، وبالظَّنِّ لبراءةِ الرَّحِمِ احتياطًا للأنسابِ، وبقَطعِ المنازَعاتِ والمُشاجَراتِ المُفْضِيةِ إلى ذَهابِ الأموالِ والأرواحِ، وقد أفهَمَه التَّعبيرُ باللَّامِ- صَرَّح به

= ((الكافي)) لابن عبد البَرِّ (٢/ ٥٧٢)، ((منهاج الطالبين)) للنووي (ص: ٢٣٦)، ((الإنصاف)) للمَرْداوي (٨/ ٣٣٠).

(١) رواه البخاريُّ (٤٩٠٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٤٧١).

قال القرطبي: (قال عُلماؤنا: طلاقُ السُّنَّة ما جمَع شُروطًا سبعةً: وهو أن يُطَلِّقَها واحدةً، وهي ممَّن تَحيضُ، طاهرًا، لم يَمَسَّها في ذلك الطُّهرِ، ولا تَقَدَّمَه طلاقٌ في حَيضٍ، ولا تَبِعَه طلاقٌ في طُهرٍ يَتْلوه، وخلا عن العِوَضِ. وهذه الشُّروطُ السَّبعةُ من حديث ابنِ عُمَرَ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥١). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (١/ ٢٥٨).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٢٢٨٣)، والنَّسائيُّ (٣٥٦٠)، وابنُ ماجه (٢٠١٦) واللَّفظُ له.

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصَّحيح)) (٤٢٧٥)، والحاكم في ((المستدرك)) (٢/ ٢١٥) -وقال: (على شرط الشَّيخين)-، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢٠١٦)، وقال ابن كثير في ((مسند الفاروق)) (١/ ٤٢١): (إسنادُه جَيِّدٌ قَويٌّ ثابت). وحسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٩/ ١٩٧)، وصحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٢٢٨٣).

بصيغةِ الأمرِ؛ فقال[١]:

﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾.

أي: واحفَظوا -أيُّها الأزواجُ- عِدَّةَ المُطَلَّقاتِ، فلا تَتهاوَنوا في ضَبطِ أيَّامِها، ومَعرفةِ بدايتِها ونهايتِها[٢].

قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الطَّلاقُ على غَيرِ هذا الوَجهِ حَرامًا؛ للضِّرارِ ومُخالَفةِ الأمرِ، وكذا التَّهاوُنُ في الضَّبطِ؛ حتَّى يَحتَمِلَ أن تَنكِحَ المرأةُ قبْلَ الانقِضاءِ- أمَرَ بمُجانَبةِ ذلك كُلِّه بقَولِه[٣]:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾.

أي: واتَّقوا اللهَ الَّذي أحسَنَ إليكم -أيُّها الأزواجُ- فاحذَروا عِصْيانَ أمْرِه، وتَعَدِّيَ حُدودِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٨).

قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ يعني في المَدخولِ بها؛ لأنَّ غَيرَ المدخولِ بها لا عِدَّةَ عليها). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٣).

وقال الشنقيطي: (﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ وهي زَمَنُ التَّربُّصِ إجماعًا، وذلك هو المعبَّرُ عنه بثلاثةِ قُروءٍ). ((أضواء البيان)) (١/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٢، ١٤٣)، ((تفسير =

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَر بالتَّقْوى، وناطَ بعضَها بصِفةِ الإحسانِ بقولِه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾؛ فسَّره بقولِه[١]:

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾.

أي: لا تُخرِجوا مَن طلَّقتُم مِن نِسائِكم مِنَ البُيوتِ الَّتي كُنَّ يَسكُنَّ فيها قبْلَ طَلاقِهِنَّ، بل أبقوهنَّ فيها حتَّى تَنتهيَ عِدَّتُهنَّ، ولا يَخرُجْنَ هُنَّ أنفُسُهنَّ حتَّى تَنقَضيَ عِدَّتُهنَّ كذلك[٢].

﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ﴾.

أي: إلَّا أن يرتَكِبْنَ فاحِشةً واضِحةً، وشَديدةَ القُبحِ، كبَذاءةِ اللِّسانِ، أو أذيَّةِ أقارِبِ الزَّوجِ، أو الوُقوعِ في مَعصيةٍ عَظيمةٍ كالزِّنا[٣].

= السعدي)) (ص: ٨٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٤)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٩).
ذكَر ابنُ القيِّم أنَّ الضَّميرَ في قولِه تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ يحتمِلُ أنْ يكونَ للبائنِ، وأنْ يكونَ للرجعيَّةِ، وأنْ يكونَ لهما، ورجَّح حملَه على الرجعيَّةِ. يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٤٨٢).
وقال القاسمي: (هذا إنَّما هو في الطَّلاقِ الرَّجْعيِّ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٥٣). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).
ويُنظر تفصيلُ الكلامِ في مسألةِ النَّفَقةِ والسُّكنى للمطلَّقاتِ (ص: ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢، ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٣، ١٤٤)، ((نظم =

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾.

أي: وتلك الأحكامُ المذكورةُ للطَّلاقِ والعِدَّةِ، والأمرِ ببَقاءِ المُطَلَّقةِ في بَيتِ زَوجِها حتَّى تَنتهيَ عِدَّتُها: قد حدَّدها اللهُ وبيَّنها لكم؛ فَقِفُوا عِندَها، ولا تَعْتَدُوها(١).

= الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٠).

قال الواحدي: (أكثَرُ المفَسِّرينَ على أنَّ المرادَ بالفاحِشةِ هاهنا: الزِّنا، وهو أن تَزنيَ، فتُخرَجَ لإقامةِ الحَدِّ عليها). ((الوسيط)) (٤/ ٣١٢).

واختار السَّمْعانيُّ أنَّ المرادَ بالفاحشةِ هنا الزِّنا، وأنَّه أَولى الأقوالِ، وعلَّل ذلك بقولِه: (لكَثرةِ مَن قال به، ولأنَّه مُوافِقٌ لِقَولِه: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [النساء: ١٥]، وأجمَعوا على أنَّ المرادَ به الزِّنا). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٥٩، ٤٦٠).

وقال موفَّقُ الدِّين ابنُ قُدامةَ: (﴿...بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ وهي أن يَطولَ لِسانُها على أحمائِها، وتُؤذيَهم بالسَّبِّ ونحوه، رُويَ ذلك عن ابنِ عبَّاسٍ، وهو قولُ الأكثَرينَ). ((المغني)) (٨/ ١٦٠).

وقيل: المرادُ بالفاحشةِ في هذا الموضعِ: كلُّ معصيةٍ لله. وقيل: هي نُشوزُها على زَوجِها. وقيل: هي خُروجُها من بَيتِها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ الفاحِشةَ تَشملُ الزِّنا وغيرَه: ابنُ جرير، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢، ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٣، ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٠).

قال ابنُ عاشور: (الاستِثناءُ في قَولِه: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ يحتَمِلُ أن يَرجِعَ إلى الجُملتَينِ اللَّتَينِ قبْلَه، كما هو الشَّأنُ فيه إذا ورَدَ بعْدَ جُمَلٍ على أصَحِّ الأقوالِ لعُلَماءِ الأُصولِ. ويحتمِلُ أن يَرجِعَ إلى الأخيرةِ مِنهما). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٠).

وممَّن قال بأنَّ الاستثناءَ عائِدٌ إلى كِلا النَّهيَينِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٣).

وقيل: الاستثناءُ عائدٌ إلى قَولِه تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ﴾. وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾.

أي: ومَن يَتجاوَزْ أحكامَ اللهِ الَّتي شَرَعَها لِعبادِه في الطَّلاقِ وغَيرِه، فقد أضَرَّ نَفْسَه بتَضييعِ مَصلَحتِها في الدُّنيا والآخِرةِ، واكتِسابِها الآثامَ(١).

﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾.

أي: لا تَدْري ما يَحدُثُ في مُستَقبَلِ الأيَّامِ؛ فلَعَلَّ اللهَ يُحدِثُ بعدَ طَلاقِ الرَّجُلِ لزَوجتِه أمرًا نافِعًا لهما، وذلك بأن يُصلِحَ ذاتَ بَيْنِهما، ويُغَيِّرَ ما في قُلوبِهما مِنَ البُغضِ والعَداوةِ إلى المودَّةِ والمحَبَّةِ؛ فيُراجِعَها(٢).

= (٨/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٧)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٥، ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٦).

قال البقاعي: (﴿لَا تَدْرِى﴾ -أي: يا أيُّها النَّبيُّ الكريمُ- ما يكونُ عن ذلك مِن الأمورِ الَّتي يُحدِثُها اللهُ؛ لِتُشيرَ على المُطلِّقِ بشَيءٍ مِمَّا يُصلِحُه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٤٥).

وممَّن اختار أيضًا أنَّ الخِطابَ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٧/ ٨٣).

وقيل: الخِطابُ للمُتَعدِّي لحدودِ الله. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦١).

وقال النَّسَفي: (﴿لَا تَدْرِى﴾ أيُّها المُخاطَبُ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٩٧).

واختار ابنُ عاشور أنَّ الخِطابَ لِغَيرِ مُعَيَّن. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٧).

قال ابن العربي: (قال جميعُ المفَسِّرينَ: أراد بالأمرِ هاهنا الرَّغبةَ في الرَّجعةِ، ومعنى القَولِ: التَّحريضُ على طلاقِ الواحِدةِ، والنَّهيُ عن الثَّلاثِ؛ فإنَّه إذا طَلَّق ثلاثًا أضَرَّ بنَفْسِه عندَ النَّدمِ على الفِراقِ، والرَّغبةِ في الارتجاعِ، ولا يجِدُ عندَ إرادةِ الرَّجْعةِ سَبيلًا). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٢٧٨). ويُنظر الخلافُ فيمَن طلَّق ثلاثًا (ص: ٣٨).

وقال ابنُ جُزي: (﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ المرادُ به الرَّجْعةُ عندَ الجمهورِ). =

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حَدَّ سُبحانَه ما يُفعَلُ في العِدَّةِ؛ أتْبَعَه ما يُفعَلُ عندَ انقِضائِها[1].

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

أي: فإذا قارَبَ المُطَلَّقاتُ الرَّجْعيَّاتُ انتِهاءَ عِدَّتِهنَّ فارْجِعوهنَّ إن شِئتُم، بشَرطِ إعطائِهنَّ جَميعَ حُقوقِهنَّ؛ كالنَّفَقةِ، والكِسوةِ، والمَسكَنِ، وحُسنِ الصُّحبةِ، مِن غَيرِ قَصدِ الإضرارِ بهِنَّ وحَبْسِهنَّ، أو اترُكوهنَّ حتَّى تَنقَضِيَ عِدَّتُهنَّ فيَصِرْنَ بائِناتٍ مِنكم، بلا تعنيفٍ ولا مُشاتَمةٍ ولا مُخاصَمةٍ، مع إعطائِهنَّ جَميعَ حُقوقِهنَّ أيضًا؛ كبَقيَّةِ المَهرِ، ومُتعةِ الطَّلاقِ، وغَيرِ ذلك[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: ٢٣١].

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

أي: وأَشهِدوا -أيُّها الأزواجُ- على رَدِّ زَوجاتِكم المطلَّقاتِ قبْلَ انتِهاءِ عِدَّتِهنَّ،

= ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٤).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٧، ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٦).

قال ابنُ القيم: (الإمساكُ هنا: الرَّجْعةُ. والمُفارَقةُ: تَركُ الرَّجْعةِ، لا إنشاءُ طَلقةٍ ثانيةٍ. هذا ممَّا لا خِلافَ فيه البتَّةَ). ((زاد المعاد)) (٥/ ٢٩٢).

رَجُلَينِ مِن عُدولِ المُسلِمينَ، ممَّن تَرضَونَ دِينَهما وأمانتَهما(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٠)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

ممَّن قال بأنَّ المرادَ: الإشهادُ على الرَّجْعةِ: ابنُ جرير، والماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّة، واستظهره القرطبيُّ، واختاره ابنُ تيميَّةَ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٠)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٣/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٥).

قال القرطبي: (فائدةُ الإشهادِ ألَّا يقَعَ بيْنَهما التَّجاحُدُ، وألَّا يُتَّهَمَ في إمساكِها، ولئلَّا يموتَ أحدُهما فيَدَّعيَ الباقي ثُبوتَ الزَّوجيَّةِ لِيَرِثَ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٧).

وقال ابنُ تيميَّة: (قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ فأمَرَ بالإشهادِ على الرَّجعةِ. والإشهادُ عليها مأمورٌ به باتِّفاقِ الأُمَّة. قيل: أمرُ إيجابٍ. وقيل: أمرُ استِحبابٍ ... ومِن حِكمةِ ذلك: أنَّه قد يُطَلِّقُها ويَرتَجِعُها، فيُزَيِّنُ له الشَّيطانُ كِتمانَ ذلك حتَّى يُطَلِّقَها بعدَ ذلك طلاقًا مُحرِّمًا ولا يَدري أحدٌ، فتَكونُ معه حرامًا؛ فأمَرَ اللهُ أن يُشهِدَ على الرَّجعةِ لِيَظهَرَ أنَّه قد وقعتْ به طَلْقةٌ، كما أمَرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مَن وجَدَ اللُّقَطةَ أن يُشهِدَ عليها [أحمد «١٧٤٨١»، وأبو داود «١٧٠٩»]؛ لئلَّا يُزيِّنَ الشَّيطانُ كِتمانَ اللُّقطةِ؛ وهذا بخِلافِ الطَّلاقِ؛ فإنَّه إذا طلَّقها ولم يُراجِعْها بل خلَّى سبيلَها فإنَّه يَظهَرُ للنَّاسِ أنَّها ليست امرأتَه، بل هي مُطَلَّقةٌ، بخِلافِ ما إذا بَقِيَتْ زوجةً عِندَه؛ فإنَّه لا يَدري النَّاسُ أطَلَّقَها أمْ لم يُطَلِّقْها). ((مجموع الفتاوى)) (٣٣/ ٣٣، ٣٤).

وممَّن قال: المرادُ: الإشهادُ على الرَّجْعةِ والفِراقِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والواحدي، وابن جُزَي، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٠٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ الإشهادَ على الطَّلاقِ والرَّجعةِ: ابنُ عبَّاسٍ، والسُّدِّيُّ، وعَطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٥).

قال ابن جُزَي: (هذا أظهَرُ؛ لأنَّ الإشهادَ به يُرفَعُ الإشكالُ والنِّزاعُ، ولا فرقَ في هذا بيْنَ الرَّجعةِ والطَّلاقِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٥).

قال ابنُ عطية: (وتقييدُ تاريخِ الإشهادِ: مِنَ الإشهادِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٤).

واستحبابُ الإشهادِ على الرَّجعةِ هو باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحَنَفيَّةِ، والمالِكيَّةِ، =

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾.

أي: وأدُّوا -أيُّها الشُّهَداءُ- الشَّهادةَ صَحيحةً على وَجْهِها إذا طُلِبَ منكم أداؤُها، بلا زِيادةٍ ولا نُقصانٍ، ولا تبديلٍ ولا تغييرٍ؛ إخلاصًا للهِ تعالى، وامتِثالًا لأمْرِه[1].

﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.

أي: ذلك الَّذي بيَّنَّاه لكم، وأمَرْناكم به مِن الأحكامِ: إنَّما يتَّعِظُ ويَعمَلُ به مَن كان يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ؛ فهو الَّذي يخافُ عِقابَ اللهِ إن خالَفَ شَرْعَه[2].

= والشَّافِعيَّة، والحَنابلة. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي (٢/ ٢٥٢)، ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ٤٢٤)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢١٦)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٣٤٢، ٣٤٣).

وحُكيَ الإجماعُ على أنَّ الطَّلاقَ بدونِ إشهادٍ جائزٌ. ((تيسير البيان لأحكام القرآن)) لابن نور الدين (٤/ ٢٦٥)، ((سبل السلام)) للصنعاني (٢/ ٢٦٧)، ((نيل الأوطار)) للشوكاني (٦/ ٣٠٠).

قال ابنُ عبدِ البَرِّ: (والاشهادُ على الطَّلاقِ ليس بواجبٍ فرضًا عندَ جمهورِ أهلِ العِلمِ، ولكنَّه نَدبٌ وإرشادٌ واحتياطٌ للمُطلِّق). ((الكافي في فقه أهل المدينة)) (٢/ ٥٧٤).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (ظَنَّ بعضُ النَّاسِ... أنَّ الطَّلاقَ الَّذي لا يُشهَدُ عليه لا يَقَعُ! وهذا خِلافُ الإجماعِ، وخِلافُ الكتابِ والسُّنَّةِ، ولم يَقُلْ أحَدٌ مِن العلماءِ المشهورينَ به). ((الفتاوى الكبرى)) (٣/ ٢٩٦).

وقال ابن جرير: (﴿ذَوَىۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ وهما اللَّذانِ يُرْضَى دينُهما وأمانتُهما). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٠، ٤١).

وقال ابنُ عطيَّة: (قال النَّخَعيُّ: العَدلُ: مَن لم تَظهَرْ منه رِيبةٌ، وهذا قَولُ الفُقَهاءِ، والعَدلُ حقيقةً الَّذي لا يَخافُ إلَّا اللهَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٩، ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

قيل: المرادُ بـ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الإشارةُ إلى إقامةِ الشَّهادةِ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عطية، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٥). =

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾.

أي: ومَنْ يتَّقِ اللهَ بامتِثالِ ما أمَرَ به، واجتنابِ ما نهى عنه؛ في شأنِ الطَّلاقِ وغيرِه، يَجعَلِ اللهُ له مَخرَجًا ممَّا وَقَع فيه مِن شِدَّةٍ، فيَدفَعْ عنه ضُرَّه، ويُسَهِّلْ له أمْرَه[١].

﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن دَواعي الفِراقِ والخِلافِ بيْنَ الزَّوجَينِ ما هو مِنَ التَّقتيرِ في الإنفاقِ؛ لِضِيقِ ذاتِ اليَدِ، فكان الإحجامُ عن المراجَعةِ عارِضًا كثيرًا للنَّاسِ بعْدَ التَّطليقِ- أَتْبَعَ الوَعدَ بجَعلِ المَخرَجِ للمُتَّقينَ بالوَعدِ بمَخرَجٍ خاصٍّ، وهو مَخرَجُ التَّوسِعةِ في الرِّزقِ[٢].

﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾.

أي: ومَن يتَّقِ اللهَ يُسَهِّلْ له أسبابَ الرِّزقِ مِن خَيرِ الدُّنيا والآخِرةِ؛ مِن جِهةٍ

= قال ابنُ عطيَّة: (ذلك أنَّ جميعَ فُصولِ الأحكامِ والأمورِ فإنَّما تدورُ على إقامةِ الشَّهادةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٤).

وقال البِقاعي: (﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: الَّذي ذكَرْتُ لكم -أيَّتُها الأُمَّةُ- مِن هذه الأُمورِ البَديعةِ النِّظامِ، العاليةِ المَرامِ، وأَوْلاها بذلك هنا الإشهادُ وإقامةُ الشَّهادةِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٤٩، ١٥٠).

وقيل: المرادُ: ما ذُكِرَ مِن أمرِ الطَّلاقِ، والواجِبِ لبَعضِ الأزواجِ على بعضٍ عندَ الفِراقِ والإمساكِ. وممَّن ذهب إلى هذا في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٥٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١٢).

لا تَخطُرُ ببالِه، وعلى وَجهٍ لا يَشعُرُ به[١]!

كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [الزمر: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾.

أي: ومَن يَعتَمِدْ على اللهِ وَحْدَه، ويُفَوِّضْ جميعَ أمرِه إليه في طَلَبِ الخَيرِ أو دَفعِ الشَّرِّ؛ فاللهُ كافِيه ما أهَمَّه مِن أمرِ دينِه ودُنياه وآخِرتِه[٢].

عن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لو أنَّكم توَكَّلْتُم على اللهِ حَقَّ توَكُّلِه، لَرزَقَكم كما يرزُقُ الطَّيرَ؛ تَغْدو خِماصًا، وتَرُوحُ بِطانًا[٣]))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٥٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

(٣) أي: تَغْدو بُكرةً وهي جِياعٌ، وتَروحُ عِشاءً وهي مُمتَلِئةُ الأجوافِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٨٠).

(٤) أخرجه من طُرُقٍ: الترمذيُّ (٢٣٤٤) باختلافٍ يسيرٍ، وابنُ ماجه (٤١٦٤)، وأحمدُ (٣٧٠) =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾.

أي: إنَّ اللهَ مُمْضٍ أمْرَه، فلا بُدَّ مِن نُفوذِ أمْرِ اللهِ وقَضائِه في خَلْقِه بما يَشاؤُه، وإن تأخَّرَ وَقتُه بحَسَبِ ما تَقتَضيه حِكمتُه سُبحانَه[١].

قال تعالى: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ كِفايتَه للمُتوَكِّلِ عليه، فرُبَّما أوهَمَ ذلك تعجيلَ الكِفايةِ وَقتَ التَّوكُّلِ؛ فعَقَّبَه بقَولِه: ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾، أي: وَقتًا لا يتعَدَّاه، فهو يَسوقُه إلى وَقتِه الَّذي قَدَّرَه له؛ فلا يَستَعجِلِ المتوكِّلُ ويقولُ: قد توكَّلتُ ودَعَوتُ فلم أرَ شَيئًا، ولم تحصُلْ لي الكفايةُ؛ فاللهُ بالِغُ أمْرِه في وَقتِه الَّذي قَدَّرَه له[٢].

﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾.

= واللَّفظُ لهما.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ لا نعرِفُه إلَّا مِن هذا الوجهِ). وصحَّحه ابنُ حِبَّان في ((الصَّحيح)) (٧٣٠)، وابنُ العربي في ((أحكام القرآن)) (٢/ ٤٧١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤١٦٤)، وشعيبُ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١/ ٤٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

قال العليمي: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾ قرأ حفصٌ عن عاصمٍ: ﴿بَٰلِغُ﴾ بغير تنوينٍ ﴿أَمۡرِهِۦ﴾ بالخَفض، بإضافةِ ﴿بَٰلِغُ﴾ إليه، وقرأ الباقونَ: بالتَّنوين، ونَصبِ ﴿أَمۡرِهِۦ﴾، والمعنى على القِراءتَين: مُنفِذٌ حُكمَه). ((تفسير العليمي)) (٧/ ٨٥). ويُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٨).

وقال ابن عاشور: (ومعنَى ﴿بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾: واصلٌ إلى مُرادِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٢٣).

أي: قد جَعَل اللهُ لكُلِّ شَيءٍ ممَّا شَرَعَه وخَلَقَه وقدَّرَه حَدًّا مَعلومًا، ومِقدارًا مُعَيَّنًا، ووقتًا مَضروبًا؛ كالطَّلاقِ والعِدَّةِ، وحالِ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، وغيرِ ذلك[1].

كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٦)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

قال ابن جرير: (وقولُه: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: قد جعَل اللهُ لكلِّ شَيءٍ من الطَّلاقِ والعِدَّةِ وغيرِ ذلك حدًّا وأجَلًا وقَدْرًا يُنتهَى إليه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨).

وقيل: المعنى: جعَل لكلِّ شَيءٍ مِن الشِّدَّةِ والرَّخاءِ. وممَّن قاله: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٦٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٩).

قال الشوكاني: (قد جعَل سُبحانَه للشِّدَّةِ أجَلًا تَنتهي إليه، وللرَّخاءِ أجَلًا يَنتهي إليه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٩).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (يعني متى يكونُ هذا الغنيُّ فقيرًا؟ ومتى يكونُ هذا الفقيرُ غنيًّا؟ فقدَّر اللهُ ذلك كلَّه، لا يُقدَّمُ ولا يؤخَّرُ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٦٤).

وقال أبو السعود: (﴿... قَدْرًا﴾ أي: تقديرًا وتوقيتًا، أو مِقدارًا). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٢).

وقال السعدي: (﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي: وقتًا ومِقدارًا، لا يَتعدَّاه، ولا يَقصُرُ عنه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

وقال البِقاعي: (﴿لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي: تقديرًا لا يَتعدَّاه في مِقدارِه وزَمانِه ومَكانِه، وجميعِ عَوارِضِه وأحوالِه، وإن اجتهَد جميعُ الخلائقِ في أن يَتعدَّاه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٥٣).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾. قولُه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾ تحذيرٌ مِن التَّساهُلِ في أحكامِ الطَّلاقِ والعِدَّة، ذلك أنَّ أهلَ الجاهليَّةِ لم يَكونوا يُقيمونَ للنِّساءِ وَزنًا، وكان قَرابةُ المُطَلَّقاتِ قَلَّما يُدافِعونَ عَنهنَّ، فتناسى النَّاسُ تلك الحُقوقَ وغَمِصوها[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ أنَّ مسائلَ الطَّلاقِ يَجِبُ على الإنسانِ أنْ يَعتنِيَ بها ويَعرِفَها؛ وألَّا يَخرُجَ مِن النِّكاحِ إلَّا بحَسَبِ الحُدودِ الشَّرعيَّةِ[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾ فيه أنَّ الزَّوجَ له حَقٌّ في بدَنِ الزَّوجةِ، ولها حقٌّ في بَدَنِه وذِمَّتِه، فكُلُّ مَن له دَيْنٌ في ذِمَّةِ غيرِه، سواءٌ كان مالًا، أو مَنفعةً مِن ثَمَنٍ أو مُثَمَّنٍ أو أُجرةً، أو صَداقًا أو نَفَقةً، أو بَدَلَ مُتلَفٍ، أو ضَمانَ مَغصوبٍ- فعليه أن يؤدِّيَ ذلك الحَقَّ الواجِبَ بإحسانٍ، وعلى صاحِبِ الحَقِّ أن يَتْبَعَ بإحسانٍ، كما قال تعالى في آيةِ القِصاصِ: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وكذلك الحَقُّ الثَّابِتُ في بَدَنِه، مِثلُ حَقِّ الاستِمتاعِ، والإجارةِ على عَينِه، ونحوِ ذلك، فالطَّالِبُ يَطلُبُ بمَعروفٍ، والمطلوبُ يُؤدِّي بإحسانٍ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ فيه حَثٌّ على أداءِ الشَّهادةِ؛ لِما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ١٥٤)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣١٣).

فيه مِنَ العُسرِ على الشَّاهِدِ بتَركِ مُهِمَّاتِه، وعُسرِ لقاءِ الحاكِمِ الَّذي يؤدِّي عِندَه، ورُبَّما بَعُدَ مَكانُه، وكان للعَدلِ في الأداءِ عوائِقُ(١).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ فيه أنَّ مَن يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ يُوجِبُ له ذلك أن يتَّعِظَ بمَواعِظِ اللهِ، وأن يُقدِّمَ لآخِرتِه مِن الأعمالِ الصَّالِحةِ ما تمكَّنَ منها، بخِلافِ مَن ترحَّلَ الإيمانُ عن قَلبِه؛ فإنَّه لا يُبالي بما أقدَمَ عليه مِن الشَّرِّ، ولا يُعظِّمُ مَواعِظَ اللهِ؛ لعَدَمِ المُوجِبِ لذلك(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، وقَولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤] دَلالةٌ على أنَّ الإنسانَ كلَّما اتَّقى اللهَ زالتْ عنه الهُمومُ، وفُرِّجَتْ عنه(٣).

٧- عن عَونِ بنِ عبدِ الله، قال: قيل لرجُلٍ مِن الفُقَهاءِ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، فقال الفقيهُ: واللهِ إنَّه لَيَجعَلُ لنا المَخرجَ وما بلَغْنا مِن التَّقْوى ما هو أهلُه، وإنَّه لَيَرزُقُنا وما اتَّقَيْناه كما يَنبغي، وإنَّه لَيَجعلُ لنا مِن أمْرِنا يُسرًا وما اتَّقَيناه، وإنَّا لنرجو الثَّالثةَ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾(٤) [الطلاق: ٥].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ يُفهِمُ أنَّ مَن لم يتَّقِ اللهَ يُقتَّرُ عليه(٥).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ فيه أنَّ كُلَّ مَن اتَّقى اللهَ تعالى،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٩)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (٤/ ٢٤٨، ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٤).

ولازَمَ مَرضاةَ اللهِ في جميعِ أحوالِه؛ فإنَّ اللهَ يُثيبُه في الدُّنيا والآخِرةِ، ومِن جُملةِ ثَوابِه أن يَجعَلَ له فَرَجًا ومَخرَجًا مِن كُلِّ شِدَّةٍ ومَشَقَّةٍ، وكما أنَّ مَن اتَّقى اللهَ جَعَل له فَرَجًا ومَخرَجًا، فمَن لم يتَّقِ اللهَ وَقَع في الشَّدائِدِ والآصارِ والأغلالِ الَّتي لا يَقدِرُ على التَّخَلُّصِ منها، والخُروجِ مِن تَبِعَتِها[١].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ فيه أنَّ تقوى اللهِ سَبَبُ تَفريجِ الكُرَبِ، والخَلاصِ مِن المَضايِقِ. ومُلاحَظةُ المُسلِمِ ذلك ويَقينُه بأنَّ اللهَ يَدفَعُ عنه ما يَخطُرُ ببالِه مِن الخواطِرِ الشَّيطانيَّةِ الَّتي تُثَبِّطُه عن التَّقوى: يُحَقِّقُ وَعْدَ اللهِ إيَّاه بأن يَجعَلَ له مَخرَجًا، ويَرزُقَه مِن حَيثُ لا يَحتَسِبُ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا أراد بعَمَلِه الحُسْنَيَينِ؛ حُسْنَى الدُّنيا، وحُسْنَى الآخِرةِ، فلا شَيءَ عليه؛ لأنَّ اللهَ رَغَّبَه في التَّقْوى بذِكْرِ المَخْرَجِ مِن كلِّ ضيقٍ، والرِّزقِ مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ[٣].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾ هذا بَيانٌ لوُجوبِ التَّوكُّلِ على اللهِ تعالى، وتفويضِ الأمرِ إليه؛ لأنَّه إذا عُلِمَ أنَّ كلَّ شيءٍ مِنَ الرِّزقِ ونَحْوِه لا يكونُ إلَّا بتَقديرِه وتَوقيتِه، لم يَبْقَ إلَّا التَّسليمُ للقَدَرِ، والتَّوكُّلُ[٤].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾ يُفهِمُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٢).

أنَّ مَن لم يتوكَّلْ لم يُكْفَ شَيئًا مِنَ الأشياءِ[1].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أنَّه يَجبُ على كلِّ مؤمنٍ إذا أراد أنْ تُقْضى أمورُه وتُسَهَّلَ أنْ يُفَوِّضَ أمْرَه إلى اللهِ[2].

١٥- قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ والتَّوَكُّلُ على اللهِ هو مِن أقوى الأسبابِ الَّتي يَدْفَعُ بها العَبدُ ما لا يُطيقُ مِن أذى الخَلْقِ وظُلْمِهم وعُدوانِهم؛ فإنَّ اللهَ حَسْبُه، أي: كافيه، ومَن كان اللهُ كافيَه وواقيَه فلا مَطْمَعَ فيه لِعَدُوِّه، ولا يَضُرُّه إلَّا أذًى لا بُدَّ منه؛ كالحَرِّ، والبَرْدِ، والجُوعِ، والعَطَشِ، وأمَّا أنْ يَضُرَّه بما يَبْلُغُ منه مُرادَه فلا يكونُ أبدًا[3].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أنَّه إذا صَدَقَ العَبدُ في اعتِمادِه على اللهِ تعالى، كفاه اللهُ تعالى ما أهَمَّه، ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي: كافيه، ثُمَّ طَمْأَنَ المتوكِّلَ بقَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ فلا يُعْجِزُه شَيءٌ أرادَه[4].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ دَلالةٌ -بمفهومِ الآيةِ- أنَّ مَن تَوَكَّلَ على غيرِ اللهِ خُذِلَ؛ لأنَّ غيرَ اللهِ لا يكونُ حَسْبًا، فمَن تَوَكَّلَ على غَيرِ اللهِ تَخَلَّى اللهُ عنه، وصار موكولًا إلى هذا الشَّيءِ، ولم يَحْصُلْ له مَقصودُه، وابتعدَ عنِ اللهِ بمقدارِ توكُّلِه على غَيرِ اللهِ[5].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ أنَّه يَنبغي للعَبدِ ألَّا يَستَبطِئَ نَصْرَه ورِزْقَه وعافيتَه؛ فإنَّ اللهَ تعالى بالِغُ أمْرِه، وقد جَعَل لكلِّ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٤٠).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٥٨).

(٥) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٩٥).

شَيءٍ قَدْرًا لا يَتقدَّمُ عنه ولا يَتأخَّرُ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾ أنَّ الخِطابَ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم خِطابٌ له ولأُمَّتِه؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ يُوَجِّهُ خِطابَه للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمرادُ هو والأُمَّةُ، فالخِطابُ مُفْرَدٌ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ وبَعْدَه ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾ ليس النَّبيَّ وحْدَه، بل كلَّ الأُمَّةِ[٢]، فلو لم يكُنْ قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ يُقصَدُ منه شُمولُ الحُكمِ لجميعِ الأمَّةِ لَأفرَدَ الخِطاباتِ بعْدَه، ولَقال: (إذا طلَّقْتَ النِّساءَ فطَلِّقْهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وأحْصِ) (واتَّقِ اللهَ) (لا تُخرِجْ)، فلمَّا جاء بها مجموعةً تبيَّن أنَّه أراد إدخالَ الأمَّةِ تحت خِطابِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾[٣].

٢- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾، تَعليقُ ﴿طَلَّقۡتُمُ﴾ بـ(إذا) الشَّرطيَّةِ مُشعِرٌ بأنَّ الطَّلاقَ خِلافُ الأصلِ في عَلاقةِ الزَّوجَينِ الَّتي قال اللهُ فيها: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾[٤] [الروم: ٢١].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الروم)) (ص: ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (١/ ٤٨٦).

قال ابن عاشور: (تَوجيهُ الخِطابِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُسلوبٌ مِن أساليبِ آياتِ التَّشريعِ المُهتَمِّ به، فلا يَقْتضي ذلك تَخصيصَ ما يُذكَرُ بعْدَه بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، مِثلُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥]؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الَّذي يَتولَّى تَنفيذَ الشَّريعةِ في أُمَّتِه، وتَبيينَ أحْوالِها، فإنْ كان التَّشريعُ الواردُ يَشملُه ويَشملُ الأُمَّةَ، جاء الخِطابُ مُشتمِلًا على ما يُفيدُ ذلك، مِثلُ صِيغةِ الجمْعِ في قولِه هنا: ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، وإنْ كان التَّشريعُ خاصًّا بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جاء بما يَقْتَضي ذلك، نحْوُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾[المائدة: ٦٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٦).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ فيه سُؤالٌ: هذا عامٌّ يَتناوَلُ المدخولَ بهِنَّ وغَيرَ المدخولِ بهِنَّ مِن ذواتِ الأقراءِ والآيِساتِ والصَّغيراتِ والحوامِلِ، فكيف صَحَّ تَخصيصُه بذواتِ الأقراءِ المدخولِ بهِنَّ؟

الجوابُ: لا عُمومَ ثَمَّ ولا خُصوصَ، لكِنَّ النِّساءَ اسمُ جِنسٍ للإناثِ مِن الإنسِ، وهذه الجِنسيَّةُ مَعنًى قائِمٌ في كُلِّهنَّ وفي بَعضِهنَّ؛ فجاز أن يُرادَ بالنِّساءِ هذا وذاك، فلمَّا قيل: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ عُلِمَ أنَّه أُطلِقَ على بَعضِهنَّ، وهنَّ المدخولُ بهِنَّ مِن المُعتَدَّاتِ بالحَيضِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أنَّ الطَّلاقَ لا يكونُ بيَدِ المرأةِ[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ إلى قَولِه: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ استُدِلَّ به على أنَّه لا نَفَقةَ للمَبتُوتةِ ولا سُكْنى؛ ووَجْهُه: أنَّ اللهَ سبحانه أمَرَ الأزواجَ الَّذين لهم عندَ بُلوغِ الأجَلِ الإمساكُ والتَّسريحُ بألَّا يُخرِجوا أزواجَهم مِن بُيوتِهم، وأَمَرَ أزواجَهنَّ ألَّا يَخْرُجْنَ؛ فدلَّ على جَوازِ إخراجِ مَن ليس لزَوجِها إمساكُها بعدَ الطَّلاقِ؛ فإنَّه سبحانه ذَكَر لهؤلاءِ المطلَّقاتِ أحكامًا مُتلازِمةً لا يَنْفَكُّ بعضُها عن بعضٍ:

أحدُها: أنَّ الأزواجَ لا يُخرِجوهنَّ مِن بُيوتِهنَّ.

والثَّاني: أنَّهنَّ لا يَخْرُجْنَ مِن بُيوتِ أزواجِهنَّ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٤).

(٢) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٧٢).

لا يصحُّ الطَّلاقُ إلَّا مِن زَوجٍ، وذلك باتِّفاقِ المذاهبِ الفِقهيَّةِ الأربعةِ: الحنفيَّةِ، والمالكيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحنابلةِ. يُنظر: ((الهداية)) للمَرْغيناني (١/ ٢٢٤)، ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ٣٦٥)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢٢)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ٧٤).

والثَّالثُ: أنَّ لأزواجِهنَّ إمساكَهنَّ بالمعروفِ قبْلَ انقِضاءِ الأجَلِ، وتَرْكَ الإمساكِ، فيُسَرِّحونَهنَّ بإحسانٍ.

والرَّابعُ: إشهادُ ذَوَيْ عَدْلٍ، وهو إشهادٌ على الرَّجْعةِ، وأشار سُبحانَه إلى حِكمةِ ذلك، وأنَّه في الرَّجْعيَّاتِ خاصَّةً، بقَولِه: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾، والأمرُ الَّذي يُرجَى إحداثُه هاهنا هو المُراجَعةُ، هكذا قال السَّلَفُ ومَن بعدَهم. فهذا يدُلُّ على أنَّ الطَّلاقَ المذكورَ هو الرَّجْعيُّ الَّذي ثَبَتَتْ فيه هذه الأحكامُ، وأنَّ حِكمةَ أَحكَمِ الحاكِمينَ وأرحمِ الرَّاحِمينَ اقْتَضَتْه؛ لعلَّ الزَّوجَ أنْ يَنْدَمَ ويَزولَ الشَّرُّ الَّذي نَزَغَه الشَّيطانُ بيْنَهما، فتَتْبَعَها نفْسُه فيُرَاجِعَها، ثُمَّ ذَكَر سبحانَه الأمرَ بإسكانِ هؤلاء المطلَّقاتِ، فقال: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦]؛ فالضَّمائِرُ كلُّها يَتَّحِدُ مُفَسِّرُها، وأحكامُها كلُّها مُتلازِمةٌ[(١)].

٦- الخُلْعُ يجوزُ في حالِ الحَيضِ؛ لأنَّه ليس بطَلاقٍ، واللهُ إنَّما أمَرَ بالطَّلاقِ للعِدَّةِ؛ قال تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، ويجوزُ أنْ يُخالِعَها ولو كان قد جامعَها في الحالِ؛ لأنَّه ليس بطَلاقٍ، بل هو فِداءٌ، ولأنَّ أصلَ مَنْعِ الزَّوجِ مِن التَّطليقِ في حالِ الحَيضِ، أو في حالِ الطُّهْرِ الذي جامعَها فيه: أنَّ فيه إضرارًا بها؛ لتطويلِ العِدَّةِ عليها، فإذا رضيتْ بذلك فقد أسقَطَتْ حقَّها[(٢)].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ يدُلُّ على

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٤٦٩). ويُنظر الخلافُ في هذه المسألةِ (ص: ٨٠).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٢/ ٤٦٩).

وجوازُ الخُلعِ في الحَيضِ، والطُّهرِ الَّذي أصابَها فيه هو مَذهَبُ الجُمهورِ: الحَنَفيَّةِ والشَّافِعيَّةِ والحَنابِلةِ. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٣/ ٤٤١)، ((منهاج الطالبين)) للنووي (ص: ٢٣٦)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٢١٣).

إباحةِ التَّطليقِ بدَلالةِ الإشارةِ[١]؛ لأنَّ القُرآنَ لا يُقَدِّرُ حُصولَ فِعلٍ مُحَرَّمٍ مِن دُونِ أن يُبَيِّنَ مَنْعَه[٢].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ استدَلَّ بهذه الآيةِ مَن ذهَب إلى أنَّ العِدَّةَ بالأطهارِ لا بالحِيَضِ[٣]؛ ووجْهُ الدَّلالةِ أنَّ الآيةَ دَلَّت على أن يكونَ إيقاعُ الطَّلاقِ عِندَ مَبدَأِ الاعتِدادِ، فلو كان مَبدَأُ الاعتِدادِ هو الحَيضَ، لَكانت الآيةُ أمرًا بإيقاعِ الطَّلاقِ في الحَيضِ، ولا خِلافَ في أنَّ ذلك مَنهيٌّ عنه؛ لحديثِ عُمَرَ[٤] في قَضِيَّةِ طَلاقِ ابنِه عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ زَوْجَه وهي حائِضٌ[٥].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فسَّرَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن تُطَلَّقَ في طُهرٍ لم يُجامِعْ فيه[٦]. وفي لفظٍ عندَ مُسلِمٍ أنَّه قرأ: ((فطَلِّقوهنَّ في قُبُلِ عِدَّتِهنَّ))[٧]، فاستدَلَّ الفُقَهاءُ بذلك على أنَّ طَلاقَ السُّنَّةِ ما

---

(١) دَلالةُ الإشارةِ: مِن أنواعِ دَلالةِ المنطوقِ، وهي دَلالةُ اللَّفظِ على معنًى ليس مقصودًا باللَّفظِ في الأصلِ، ولكنَّه لازِمٌ للمَقصودِ، فكأنَّه مقصودٌ بالتَّبَعِ لا بالأصلِ. يُنظر: ((المستصفى)) للغزالي (ص: ٢٦٣، ٢٦٤)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٤٤٤) و (٧/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٥).

(٣) وهذا مذهبُ المالكيَّةِ والشَّافِعيَّةِ، وهو روايةٌ عن أحمدَ، واختيارُ ابنِ حَزْم. يُنظر: ((حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير)) (٢/ ٤٦٩)، ((تحفة المحتاج)) لابن حجر الهيتمي (٨/ ٢٣٢)، ((الإنصاف)) للمَرْداوي (٩/ ٢٠٥)، ((المحلى)) لابن حزم (١٠/ ٢٨، ٢٩).
وذهَبَ الحَنَفيَّةُ والحنابلةُ إلى أنَّ العِدَّةَ بالحيضِ، وهو اختيارُ ابنِ تيميَّةَ، وابنِ القيِّم. يُنظر: ((المبسوط)) للسرخسي (٦/ ١٢)، ((الإنصاف)) للمرداوي (٩/ ٢٠٤، ٢٠٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٤٧٩)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٥٨، ٥٥٩).

(٤) تقدَّم تخريجُه (ص: ١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٧).

(٦) أخرجه البخاريُّ (٥٢٥١)، ومسلمٌ (١٤٧١).

(٧) أخرجه مسلم (١٤٧١) (١٤).

ذُكِرَ[١]، وأنَّ الطَّلاقَ في الحَيضِ، أو طُهرٍ جُومِعَت فيه: بِدْعِيٌّ حَرامٌ[٢]، فالحَيضَ يَمنَعُ سُنَّةَ الطَّلاقِ، فإذا طَلَّقَها في حالةِ الحَيْضِ كان مُبتَدِعًا بذلك؛ لِقَولِه تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ يعني: طاهِرًا مِن غَيرِ جِماعٍ[٣]. ووَجهُ الدَّلالةِ على أنَّ الطَّلاقَ يَحرُمُ مع الحَيضِ، أو الطُّهرِ الَّذي جامَعَها فيه: هو الأمرُ في قَولِه تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، والأمرُ للوُجوبِ، لا سِيَّما أنَّه أعْقَبَه بقَولِه: ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾، وقال: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾، كلُّ هذا مِمَّا يُؤَكِّدُ أنَّ الأمرَ للوُجوبِ[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ دَلالةٌ على أنَّه لا يجوزُ إردافُ الطَّلاقِ للطَّلاقِ حتَّى تَنقضيَ العِدَّةُ أو يُراجِعَها؛ لأنَّه إنَّما أباح الطَّلاقَ للعِدَّةِ -أي: لاستِقبالِ العِدَّةِ-؛ فمتى طَلَّقَها الثَّانيةَ والثَّالثةَ قَبلَ الرَّجْعةِ بَنَتْ على العِدَّةِ، ولم تَستأنِفْها باتِّفاقِ جماهيرِ المُسلمينَ[٥].

١١- قَولُه تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ المطلَّقةَ حائضًا لا تَعْتَدُّ في عِدَّتِها بالحَيضةِ الَّتي طُلِّقَتْ فيها؛ إذْ لو كانت في كلِّ حالةٍ طُلِّقَتْ فيها دَخَلَتْ في عِدَّتِها مِن فَوْرِ الطَّلاقِ، ما كان في اشتِراطِه وقتًا مَوصوفًا فائِدةٌ[٦].

---

(١) وقد نقَل الإجماعَ على أن الطَّلاقَ إذا وقَع في طُهرٍ لم يُجامِعْها فيه، فهو طَلاقٌ مُوافِقٌ للسُّنَّةِ: ابنُ نصرٍ المَرْوَزيُّ، وابنُ المُنْذِرِ، وابنُ عبدِ البَرِّ. يُنظر: ((اختلاف الفقهاء)) لابن نصر المروزي (ص: ٢٣٦)، ((الإشراف على مذاهب العلماء)) لابن المنذر (٥/ ١٨٤)، ((التمهيد)) لابن عبد البر (١٥/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((شرح العمدة لابن تيمية- كتاب الطهارة)) (ص: ٤٧١).

(٤) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٣/ ٤٤).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٣/ ٧٩).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٢١). =

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أنَّ الصَّغيرةَ والآيِسةَ يُطَلِّقُهما في الحالِ ولو كان قد أصابَهما؛ فعِدَّةُ الآيسةِ والصَّغيرةِ ثلاثةُ أشهُرٍ تَبدأُ مِنَ الطَّلاقِ؛ فيكونُ قد طَلَّقَهما للعِدَّة[1].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أنَّه يُستَثنى مِن مَنْعِ طَلاقِ الحائِضِ إذا كان الحَيضُ في حالِ الحَمْلِ؛ لأنَّه لا عِدَّةَ عليها حينَئذٍ[2]. وذلك على القولِ بأنَّ الحامِلَ تحيضُ[3].

١٤- مَن لم يَدخُلْ بزَوجتِه فيَجوزُ له طَلاقُها حائِضًا وطاهرًا، كما قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ﴾ [البقرة: ٢٣٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وقد دَلَّ على هذا قَولُه تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، وهذه لا عِدَّةَ لها[4].

١٥- الأمرُ في قولِه: ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ لضبطِ أيَّامِ العِدَّةِ، والإتيانِ على جَميعِها، وعدمِ التَّساهُلِ فيها؛ لأنَّ التَّساهُلَ فيها ذَريعةٌ إلى أحَدِ أمْرَينِ: إمَّا التَّزويجِ قبْلَ انتهائِها، فرُبَّما اختلَطَ النَّسَبُ، وإمَّا تَطويلِ المُدَّةِ على المُطَلَّقةِ في أيَّامِ مَنْعِها مِنَ التَّزوُّجِ، ففي الإحصاءِ فوائدُ مُراعاةِ الرَّجعةِ، وزمانِ النَّفَقةِ والسُّكنى، وتوزيعِ الطَّلاقِ على الأقراءِ، وإذا أراد أنْ يُطلِّقَ ثلاثًا، والعِلمُ بأنَّها قدْ بانَتْ فيَتزوَّجَ بأختِها،

= وذلك بناءً على أنَّ القَرْءَ هو الحَيضُ، وأنَّ العِدَّةَ تكونُ به، وهو مذهبُ الحنَفيَّةِ والحنابلةِ، وسبَقَ ذِكرُ الخِلافِ في ذلك (ص: ٣٢). ويُنظر: ((الاستذكار)) لابن عبد البر (٦/ ١٥٣)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٩/ ٣١١).

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٣/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١١/ ٣١٥).

(٣) وسيأتي ذِكرُ الخِلافِ في ذلك (ص: ٦٤).

(٤) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٢٠٠).

وبأربعٍ سِواها[١].

١٦- إنَّ مِن الرِّجال مَن إذا طَلَّقَ زوجتَه طَرَدَها مِن البَيتِ، وهذا محرَّمٌ، إلَّا أنْ تأتيَ بفاحشةٍ مُبيِّنَةٍ، وإنَّ من النِّساءِ مَن إذا طُلِّقَتْ ذَهبتْ إلى أهلِها، وهذا محرَّمٌ؛ قال تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾، فالمطلَّقةُ الرَّجعيَّةُ تبقَى في بَيتِ زَوجِها[٢].

١٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ فيه سُؤالٌ: ما معنى الجَمعِ بيْن إخراجِهم وخُروجِهنَّ؟

الجوابُ: معنى الإخراجِ ألَّا يُخرِجَهنَّ البُعولةُ غَضَبًا عليهنَّ، وكَراهةً لِمُساكَنتِهنَّ، أو لحاجةٍ لهم إلى المساكِنِ، وألَّا تَأذَنوا لهنَّ في الخُروجِ إذا طَلَبْنَ ذلك؛ إيذانًا بأنَّ إذْنَهم لا أثَرَ له في رَفعِ الحَظرِ، ولا يَخرُجْنَ بأنفُسِهنَّ إن أرَدْنَ ذلك[٣].

١٨- قال اللهُ تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ في إضافةِ البُيوتِ إلى ضَميرِ النِّساءِ إيماءٌ إلى أنَّهنَّ مُستَحِقَّاتٌ المُكثَ في البُيوتِ مُدَّةَ العِدَّةِ بمَنزِلةِ مالِكِ الشَّيءِ، وهذا ما يُسَمَّى في الفِقهِ مِلْكَ الانتِفاعِ دونَ العَينِ، ولأنَّ بَقاءَ المُطَلَّقاتِ في البُيوتِ اللَّاتي كُنَّ فيها أزواجًا استِصحابٌ لحالِ الزَّوجيَّةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٩).

(٢) يجبُ على المُعتَدَّةِ من طلاقٍ رَجعيٍّ أن تبيتَ في بيتِ الزَّوجيَّةِ، وذلك باتِّفاقِ المذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحَنفيَّةِ، والمالكيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحَنابلةِ. يُنظر: ((الهداية)) للمَرْغيناني (٢/ ٢٧٩)، ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (٥/ ٥١٠)، ((منهاج الطالبين)) للنووي (ص: ٢٥٧)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهوتي (٣/ ٢٠٦). ويُنظر تفصيلُ حكمِ خروجِها (ص: ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦١).

إذ الزَّوجةُ هي المتصَرِّفةُ في بَيتِ زَوجِها؛ ولذلك يَدعوها العَرَبُ: رَبَّةَ البَيتِ[١].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ دَليلٌ على أنَّ مَن سَكَنَ دارًا جاز أنْ تُضافَ إليه وإنْ كان مِلْكُها لغَيرِه، ولا يكونُ كَذِبًا؛ إذِ البُيوتُ المضافاتُ إلى الزَّوجاتِ في هذه الآيةِ مِلْكُها لا محالةَ لأزواجِهنَّ؛ إذْ لو كان مِلْكُها لَهُنَّ ما كان لأزواجِهنَّ سَبيلٌ عليهنَّ قبْلَ الطَّلاقِ وبعْدَه؛ لأنهنَّ أحَقُّ بأملاكِهنَّ ممَّن لا مِلْكَ له، فإنَّما خاطَبَ المطلِّقينَ بفَرضِ سُكْنى مَن طَلَّقوا مِن الزَّوجاتِ دونَ الثَّلاثِ؛ إذْ هُنَّ في معاني الزَّوجاتِ -كما كُنَّ قبْلَ الطَّلاقِ- مِن وُجوبِ السُّكْنى والنَّفَقةِ كما كُنَّ. واستُدِلَّ بجوازِ إضافةِ البُيوتِ إلى مَن مِلْكُها لغَيرِه على أنَّ مَن حَلَفَ مِن السُّكَّانِ ألَّا يَسْكُنَ دارَه، ولا يَدْخُلَ دارَه فلانٌ: حَنَثَ بالسُّكْنى ودُخولِ فُلانٍ الدَّارَ الَّتي هو فيها بكِراءٍ؛ لأنَّها دارُه بالتَّوطُّنِ والحُلولِ وإنْ كان مِلْكُها لغَيرِه، إلَّا أنْ تكونَ له دارٌ يَمْلِكُها مِلْكَ الرَّقَبةِ، فيَقْصِدُها بيَمينِه، فلا يَحْنُثُ حينَئذٍ في المُكْتَراةِ[٢].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ وُجوبُ السُّكْنَى للمطلَّقةِ ما دامتْ في العِدَّةِ، وتحريمُ إخراجِها وخُروجِها إلَّا أنْ تأتيَ بفاحِشةٍ مُبيِّنَةٍ، فتُنْقَلَ[٣].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أنَّ مُطَلِّقَ الرَّجْعيَّةِ بَعْلٌ وزَوجٌ حقيقةً؛ فقد أَمَرَ سبحانه بإبقاءِ المطلَّقةِ عندَ الزَّوجِ، ونَسَبَ بَيتَ زوجِها إليها، ولو كانت تَبِينُ منه وتَنفَصِلُ ويَنفَصِلُ منها، ما كان بيتُ زَوجِها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٢١-٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٦٦).
وسيأتي تفصيلُ الكلامِ عن حُكمِ السُّكنى للمطلَّقاتِ (ص: ٨٠).

بيتًا لها. إذَنْ هي زَوجةٌ، فتَجِبُ لها النَّفَقةُ، ويَلْزَمُها طاعتُه، ويجوزُ أنْ تَكْشِفَ له، وأنْ يَنْفَرِدَ بها، وأنْ تَتَطَيَّبَ له، وأنْ تُمازِحَه وتَضحَكَ إليه، وأنْ يُسافِرَ بها؛ فكلُّ ما يجوزُ للزَّوجةِ مع الزَّوجِ يجوزُ لها مع زَوجِها، إلَّا في مَسائِلَ قليلةٍ[(١)].

٢٢- قال اللهُ تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ نهى عن إخراجِهنَّ وعن خُروجِهنَّ، وسُنَّةُ ذلك ألَّا تَبيتَ المرأةُ المُطَلَّقةُ بَعيدًا عن بَيتِها، ولا تَغيبَ عنه نهارًا إلَّا في ضَرورةٍ وممَّا لا خَطْبَ له مِن جائِزِ التَّصَرُّفِ؛ وذلك لِحفظِ النَّسَبِ، والتَّحَرُّزِ بالنِّساءِ[(٢)].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أنَّ اللهَ تعالى قد سمَّى أحكامَه حُدودًا[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٣/ ١٨٦).
مذهبُ الحنفيَّةِ، وظاهرُ مذهبِ الحنابلةِ أنَّه يجوزُ الاستمتاعُ بالرجعيَّةِ، والخلوةُ بها، ولمسُها، والنَّظرُ إليها بنيةِ المراجعةِ، وكذلك بدونِها معَ الكراهةِ التنزيهيَّةِ عندَ الحنفيةِ.
وذهَب المالكيَّةُ والشافعيَّةُ -وهو روايةٌ للحنابلةِ- إلى أنَّه لا يجوزُ للمطلِّقِ لزوجتِه طلاقًا رجعيًّا معاشرتُها ومساكنتُها في الدَّارِ التي تعتدُّ فيها. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٩/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٣).
ذهَبَ الحنَفيَّةُ والشَّافعيَّةُ إلى أنَّ المُطلَّقةَ الرَّجعيَّةَ لا يجوزُ لها الخروجُ مِن مَسكَنِ العِدَّةِ لا لَيلًا ولا نَهارًا.
وذهب المالكيَّةُ والحنابلةُ إلى جوازِ خروجِ المطلَّقةِ الرَّجعيَّةِ نَهارًا لقضاءِ حوائجِها، وتَلزَمُ مَنزِلَها باللَّيلِ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٩/ ٣٤٨).
أمَّا المُعتدَّةُ مِن طلاقٍ بائنٍ فأجاز المالكيَّةُ والشَّافعيَّةُ والحنابلةُ خُروجَها نهارًا لقضاءِ حوائجِها، وشراءِ ما يَلزَمُها، إلى غيرِ ذلك، خِلافًا للحنَفيَّةِ الَّذين منَعوا خُروجَها لَيلًا أو نهارًا. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٩/ ٣٤٩).
والمتوفَّى عنها زَوجُها لا تَخرُجُ لَيلًا، ولها أن تَخرُجَ نهارًا لقضاءِ حوائجِها. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٩/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٥/ ٤٢٥).

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ أنَّ كُلَّ مَن خالَفَ أمْرَ اللهِ بفِعلِ مُحَرَّمٍ أو تَرْكِ واجِبٍ، فقد ظَلَمَ نفْسَه؛ فإنَّ النَّفْسَ عندَك أمانةٌ تجِبُ عليك رِعايتُها، وقد أوصاك اللهُ بها فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، وقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦]، فنهى عن قَتْلِ النَّفْسِ وعن ظُلْمِ النَّفْسِ؛ لأنَّها أمانةٌ عندَك(١).

٢٥- قال الله تعالى: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ وقدْ سُلِك في هذِه الآيةِ مَسلَكُ التَّرغيبِ في امتثالِ الأحكامِ المُتقدِّمةِ بعْدَ أنْ سُلِكَ في شأنِها مَسلكُ التَّرهيبِ مِن مُخالَفتِها، فمِن مَصالحِ الاعتدادِ ما في مُدَّةِ الاعتِدادِ مِنَ التَّوسيعِ على الزَّوجَيْنِ في مُهلةِ النَّظَرِ في مَصيرِ شأنِهما بعْدَ الطَّلاقِ، والمقصودُ الإشارةُ إلى أهمِّ ما في العِدَّةِ مِنَ المصالحِ، وهو ما يُحْدِثُه اللهُ مِن أمْرٍ بعْدَ الطَّلاقِ(٢).

٢٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ أي: بعْدَ الطَّلاقِ مُراجَعةً، واستُدِلَّ به على كراهيةِ التَّطليقِ ثلاثًا بمرَّةٍ واحدةٍ؛ لأنَّ إحداثَ الرَّجعةِ لا يكونُ بعدَ الثَّلاثِ(٣) -وذلك على القولِ بأنَّ الطَّلاقَ الثَّلاثَ مجموعًا يقَعُ(٤)-،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٠٦).

(٤) وذلك باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحَنَفيَّةِ، والمالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلة. يُنظر: ((مختصر القدوري)) (ص: ١٥٤)، ((مواهب الجليل)) للحطاب (٥/ ٣٠١)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٨٢)، ((الإنصاف)) للمرداوي (٨/ ٣٣٤).

واختار ابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّمِ، والشَّوْكانيُّ، وابنُ باز، وابنُ عثيمينَ أنَّه يقعُ طلقةً واحدةً، وهو مذهبُ طائفةٍ مِن السَّلَفِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٣/ ٧)، ((إعلام الموقعين)) =

وإنْ طلَّقَها واحدةً يُمكِنُه أن يُراجِعَها[١].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ جوازُ السَّماحةِ في الكَلامِ على مَذهَبِ العَرَبِ فيه، وتَرْكُ التَّنطُّعِ بما يَحسَبُه جُهَّالُ المتنسِّكِين كَذِبًا؛ فإنَّ بُلوغَ الأجَلِ في هذا الموضعِ هو مُقارَبةُ خُلُوِّه لا خُلُوُّه؛ إذْ لو كان خُلُوَّه ما أمكَنَه الإمساكُ بالرَّجْعةِ، ولَاحتاجَ إلى تزوُّجِها، ولا يُقالُ أيضًا للمُتزوِّجِ مُمسِكٌ[٢]!

٢٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فيه أنَّ الإمساكَ مِن صَرائِحِ الرَّجْعةِ، والفِراقَ مِن صَرائِحِ الطَّلاقِ[٣].

٢٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ استَدَلَّ بظاهِرِ الآيةِ مَن أوجَبَ

= لابن القيم (٣/ ٣٤)، ((نيل الأوطار)) للشوكاني (٦/ ٢٩٠)، ((فتاوى نور على الدرب)) لابن باز (٢١/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٠).

قال القرطبي: (... قولُه بعد ذلك: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾. وهذا يُبطِلُ دُخولَ الثَّلاثِ تحتَ الآيةِ. وكذلك قال أكثرُ العُلَماءِ، وهو بديعٌ لهم). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٢٧، ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٦).

قال ابنُ قدامةَ: (أمَّا القولُ فتحصُلُ به الرَّجعةُ بغيرِ خلافٍ، وألفاظُه: راجعْتُك، وارتجَعْتُك، ورَدَدْتُك، وأمسَكْتُك؛ لأنَّ هذه الألفاظَ ورَد بها الكتابُ والسُّنَّةُ). ((المغني)) (٧/ ٥٢٤). ويُنظر الخلافُ في الإمساكِ؛ هل هو من الصَّريحِ أو الكنايةِ في: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٢/ ١١٠).

أمَّا كونُ الفِراقِ، وما يُشتَقُّ منه: مِن ألفاظِ الطَّلاقِ الصَّريحِ، فهو المَشهورُ عند الشَّافِعيَّةِ، وقَولٌ للمالِكيَّةِ، وقَولٌ عند الحَنابِلةِ. ينظر: ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢٣)، ((الكافي)) لابن عبد البر (٢/ ٥٧٢)، ((المبدع)) لبرهان الدين ابن مفلح (٧/ ٢٤٨).

وذهَب الجمهورُ مِن الحَنَفيَّةِ، والمَالِكيَّةِ -على المَشهورِ-، والحَنابِلةِ -وهو قَولٌ عند الشَّافِعيَّةِ- إلى أنَّ لَفظةَ الفِراقِ لا تُعتَبَرُ مِن ألفاظِ الطَّلاقِ الصَّريحِ. ينظر: ((المبسوط)) للسرخسي (٦/ ٦٤)، ((الكافي)) لابن عبد البر (٢/ ٥٧٢)، ((كشاف القناع)) للبهوتي (٥/ ٢٤٥)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢٣).

الإشهادَ على الرَّجعةِ، وإذا وَجَب فيها ففي أصلِ النِّكاحِ أَولى[١].

٣٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فيه أنَّه لا يُقبَلُ في الشَّهادةِ في النِّكاحِ والطَّلاقِ إلَّا الرِّجالُ المَحضُ[٢].

٣١- قَولُه تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فيه أنَّه لا يُقبَلُ في الشَّهادةِ إلَّا العَدْلُ[٣].

٣٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ لم يَصِفِ الرَّجُلَينِ نفْسَيهما بأنَّهما عَدْلٌ، بل وَصَفَهما بأنَّهما ذَوَا عَدْلٍ؛ أي: صاحِبا عَدْلٍ، والعَدلُ في المقالِ هو الصِّدقُ والبَيانُ الَّذي هو ضِدُّ الكَذِبِ والكِتمانِ، كما بَيَّنَه تعالى في قَولِه: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، والعدلُ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ وفي كلِّ طائفةٍ بحَسَبِه؛ فيكونُ الشَّهيدُ في كلِّ قومٍ مَن كان ذا عَدْلٍ فيهم، وإنْ كان لو كان في غَيرِهم لَكان عَدْلُه على وَجهٍ آخَرَ، وبهذا يُمكِنُ الحُكْمُ بيْنَ النَّاسِ، وإلَّا فلوِ اعْتُبِرَ في شُهودِ كلِّ طائفةٍ ألَّا يَشْهَدَ عليهم إلَّا

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٦).

قال ابن عاشور: (ظاهِرُ وُقوعِ هذا الأمرِ بعْدَ ذِكْرِ الإمساكِ أوِ الفِراقِ أنَّه راجعٌ إلى كِلَيْهما؛ لأنَّ الإشْهادَ جُعِلَ تتِمَّةً للمأمورِ به في معْنى الشَّرطِ للإمساكِ أو الفِراقِ؛ لأنَّ هذا العطفَ يُشبِهُ القَيدَ وإنْ لم يكُنْ قَيدًا، وشأنُ الشُّروطِ الوارِدةِ بعْدَ جُمَلٍ أنْ تعودَ إلى جَميعِها، وظاهِرُ صيغةِ الأمرِ الدَّلالةُ على الوُجوبِ؛ فيَترَكَّبُ مِن هذَيْنِ أنْ يكونَ الإشهادُ على المراجَعةِ وعلى بَتِّ الطَّلاقِ واجبًا على الأزواجِ؛ لأنَّ الإشهادَ يَرفَعُ أشكالًا مِنَ النَّوازِلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٩).

بيْنَما ذهَب أصحابُ المذاهبِ الفقهيَّةِ الأربعةِ إلى استِحبابِ الإشهادِ على الرَّجعةِ. يُنظر ما تقدَّم (ص: ١٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَن يكونُ قائمًا بأداءِ الواجباتِ وتَرْكِ المحَرَّماتِ -كما كان الصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عنهم- لَبَطَلَتِ الشَّهاداتُ كُلُّها أو غالبُها(١).

٣٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ فيه أمرُ الشُّهودِ بتَحريمِ الكِتمانِ(٢).

٣٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ وُجوبُ الإخلاصِ للهِ عزَّ وجلَّ في الشَّهادةِ(٣).

٣٥- قولُه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ يَقتضي أنَّه يأتي بها تامَّةً مُستقيمةً؛ فإنَّ الشَّاهِدَ قد يَضْعُفُ عن أدائِها وقد يُحَرِّفُها، فإذا أقامَها كان ذلك لِقُوَّتِه واستِقامتِه(٤).

٣٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ في هذه الآيةِ لَطيفةٌ: وهي أنَّ التَّقْوى في رعايةِ أحوالِ النِّساءِ مُفتَقِرةٌ إلى المالِ، وقريبٌ مِن هذا قولُه: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾(٥) [النور: ٣٢].

٣٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ سُؤالٌ: أنَّه قد نرى مَن يتَّقي وهو محرومٌ، ومَن هو بخِلافِ ذلك وهو مَرزوقٌ!

والجَوابُ: أنَّ الآيةَ اقتضَتْ أنَّ المتَّقيَ يُرزَقُ مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ، ولم تَدُلَّ على أنَّ غيرَ المتَّقي لا يُرزَقُ، بل لا بُدَّ لكلِّ مخلوقٍ مِن الرِّزقِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦]، حتَّى إنَّ ما يَتناوَلُه العبدُ مِن

---

(١) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٥/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٢).

الحرامِ هو داخِلٌ في هذا الرِّزقِ؛ فالكُفَّارُ قد يُرزقَونَ بأسبابٍ مُحَرَّمةٍ، ويُرزَقونَ رِزقًا حَسَنًا، وقد لا يُرزَقونَ إلَّا بتكَلُّفٍ، وأهلُ التَّقوى يَرْزُقُهم اللهُ مِن حيثُ لا يَحتَسِبونَ، ولا يكونُ رِزْقُهم بأسبابٍ مُحَرَّمةٍ، ولا يكونُ خَبيثًا، والتَّقِيُّ لا يُحرَمُ ما يَحتاجُ إليه مِن الرِّزقِ، وإنَّما يُحْمَى مِن فُضولِ الدُّنيا رَحمةً به، وإحسانًا إليه؛ فإنَّ توسيعَ الرِّزقِ قد يكونُ مَضَرَّةً على صاحِبِه، وتقديرَه يكونُ رَحمةً لصاحِبِه؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧]، أي: ليس الأمرُ كذلك، فليس كلُّ مَن وُسِّعَ عليه رِزْقُه يكونُ مُكْرَمًا، ولا كلُّ مَن قُدِرَ عليه رِزْقُه يكونُ مُهانًا، بل قد يُوَسَّعُ عليه رِزْقُه إملاءً واستِدراجًا، وقد يُقْدَرُ عليه رِزْقُه حمايةً وصيانةً له، وضِيقُ الرِّزقِ على عَبدٍ مِن أهلِ الدِّينِ قد يكونُ لِمَا له مِن ذُنوبٍ وخَطايا[١].

٣٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ بيانُ أنَّ المتَّقيَ يَدفَعُ عنه سبحانه المَضَرَّةَ، وهو أنْ يَجعَلَ له مَخرَجًا ممَّا ضاق على النَّاسِ، ويَجلِبَ له المنفعةَ، ويَرزُقَه مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ، وكلُّ ما يَتَغَذَّى به الحَيُّ ممَّا تَستريحُ به النُّفوسُ وتَحتاجُ إليه في طِيبِها وانشِراحِها فهو مِن الرِّزقِ، واللهُ تعالى يَرزُقُ ذلك مَن اتَّقاه بفِعلِ المأمورِ، وتَرْكِ المحظورِ[٢].

٣٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أنَّ الدِّينَ عِلْمًا وعَمَلًا إذا صَحَّ، فلا بُدَّ أنْ يُوجِبَ خَرْقَ العادةِ إذا احتاج إلى ذلك صاحِبُه[٣].

٤٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٢).
(٢) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٤/ ٤٦٦).
(٣) يُنظر: ((مجموعة الرسائل والمسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٤).

جَعَل سُبحانَه للتَّقوى فائِدَتَينِ: أنْ يَجعلَ له مَخرَجًا، وأنْ يَرزُقَه مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ، والمَخْرَجُ هو مَوضِعُ الخُروجِ، وهو الخُروجُ، وإنَّما يُطلَبُ الخُروجُ مِن الضِّيقِ والشِّدَّةِ، وهذا هو الفَرَجُ والنَّصرُ والرِّزقُ؛ فبَيَّنَ أنَّ فيها النَّصرَ والرِّزقَ، كما قال: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤]؛ ولهذا قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((وهل تُنصَرونَ وتُرزَقونَ إلَّا بضُعَفائِكم؟!))[١]: بدُعائِهم وصَلاتِهم واستِغفارِهم. فهذا لِجَلْبِ المنفعةِ، وهذا لِدَفْعِ المَضَرَّةِ[٢].

٤١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ ذكَرَ بعضُ أهلِ العِلمِ أنَّ فيه تأكيدًا على أنَّ المُطَلِّقَ ثَلاثًا بكَلِمةٍ واحدةٍ -وإنْ عُدَّ أيضًا عاصيًا- أَشَدُّ ما قيلَ فيه: إنَّ الطَّلاقَ يَقَعُ عليه، وقد فاتَه المَخْرَجُ بالرَّجْعةِ[٣]!

٤٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ بيانُ التَّوكُّلِ على اللهِ؛ مِن حيثُ إنَّ اللهَ يَكفي المتوكِّلَ عليه، كما قال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، خِلافًا لِمَن قال: ليس في التَّوكُّلِ إلَّا التَّفويضُ والرِّضا[٤]!

٤٣- قال بعضُ السَّلَفِ: (جَعَل اللهُ تعالى لكلِّ عَمَلٍ جَزاءً مِن جِنْسِه، وجَعَل جزاءَ التَّوكُّلِ عليه نَفْسَ كفايتِه لعَبْدِه)، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، ولم يَقُلْ: نُؤْتِه كذا وكذا مِن الأجرِ،كما قال في الأعمالِ، بل جَعَل نفْسَه سُبحانَه كافيَ عَبدِه المتوكِّلِ عليه، وحَسْبَه وواقيَه، فلو تَوَكَّلَ العبدُ على اللهِ تعالى حَقَّ تَوَكُّلِه وكادَتْه السَّمَواتُ والأرضُ ومَن فيهنَّ، لَجَعَل له مَخرَجًا مِن ذلك، وكَفاه

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٨٩٦) من حديثِ سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٣٠).

وتقدَّم ذِكرُ الخِلافِ في المسألة (ص: ٣٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٦).

ونَصرِه[١].

٤٤- عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (إنَّ أكبَرَ آيةٍ في القُرآنِ تفويضًا: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾)[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾

- تَخصيصُ النِّداءِ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع عُمومِ الخِطابِ لأُمَّتِه أيضًا؛ لتَشريفِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإظهارِ جَلالةِ مَنصبِه، وتَحقيقِ أنَّه المُخاطَبُ حقَيقةً، ودُخولُهم في الخِطابِ بطَريقِ استِتْباعِه عليه الصَّلاةُ والسلامُ إيَّاهُم، وتَغليبِه عليهم، كما يُقالُ لرَئيسِ القومِ وكَبيرِهم: يا فُلانُ، افعَلوا كَيْتَ وكَيْتَ؛ إظهارًا لتَقدُّمِه، واعتبارًا لتَرَؤُّسِه، وأنَّه الَّذي يَصْدُرونَ عن رأيِه، ولا يَستبِدُّونَ بأمْرٍ دونَه، فكانَ هو وَحْدَه في حُكْمِ كلِّهم، وسادًّا مَسدَّ جميعِهم، لا لأنَّ نِداءَه كنِدائِهم؛ فإنَّ ذلكَ الاعتبارَ لو كانَ في حيِّزِ الرِّعايةِ لَكانَ الخِطابُ هو الأحقَّ به؛ لشُمولِ حُكمِه للكلِّ قطْعًا. أو معْناه: يا أيُّها النَّبيُّ قلْ لأُمَّتِك: إذا طلَّقْتُم النِّساءَ -أي: أردتُمْ طَلاقَ نِسائِكم- فطلِّقوهن... إلخ[٣]. وقيل: أفرَدَه

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٨).

به أوَّلًا؛ لأنَّه إمامُ أُمَّتِه، وسادُّ مَسَدَّهم[١]. وقيل: الخطابُ للنبيِّ عليه السلامُ بلفظِ الإفرادِ على الحقيقةِ له، وقولُه: ﴿طَلَّقْتُمُ﴾ خبرٌ عنه على جهةِ التَّعظيمِ بلفظِ الجمعِ[٢].

- ومعْنى ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: إذا أردْتُم تَطليقَهنَّ، وهمَمْتُم به، على تَنزيلِ المُقبلِ على الأمرِ المُشارِفِ له مَنزِلةَ الشَّارعِ فيه[٣].

- وتَكريرُ فِعلِ ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾؛ لمَزيدِ الاهتِمامِ به[٤].

- قولُه: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ دَلَّ عليه معنى الكلامِ، أي: مُسْتَقْبِلاتٍ لعِدَّتِهنَّ، يُقالُ: أتَيْتُه لِلَيلةٍ بَقِيَتْ مِن المحرَّمِ، أي: مُسْتقبِلًا لها. وقيل: اللَّامُ في ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ لامُ التَّوقيتِ، وهي بمعْنى (عِندَ)، ولَمَّا كان مَدخولُ اللَّامِ هنا غيرَ زَمانٍ، عُلِمَ أنَّ المرادَ الوقتُ المُضافُ إلى عِدَّتِهنَّ، أي: وقْتُ الطُّهرِ[٥]. قيل: اختِيرَ التَّعبيرُ بلامِ التَّوقيتِ؛ لأنَّها تُفهِمُ أنَّ ما دخَلَت عليه كالعِلَّةِ الحامِلةِ على مُتعَلَّقِها، فصار كأنَّه قيل: طَلِّقوا لأجْلِ العِدَّةِ، وإذا كان لأجْلِها عُلِمَ أنَّ المرادَ تَخفيفُها على المرأةِ بحَسَبِ الطَّاقةِ؛ لأنَّ مبنى الدِّينِ على اليُسرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٨، ١١٩).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤١).

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡعِدَّةَ﴾ للعهدِ؛ فإنَّ الاعتِدادَ مَشروعٌ مِنْ قَبْلُ، والكلامُ على تَقديرِ مُضافٍ؛ لأنَّ المُحصَى أيَّامُ العِدَّةِ[١].

- قولُه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾ في وَصْفِه تعالَى برُبوبيَّتِه لهم تأكيدٌ للأمرِ؛ لزِيادةِ الحِرصِ على التَّقْوى، وللتَّذكيرِ بأنَّه حَقيقٌ بأنْ يُتَّقى غَضبُه[٢].

- قولُه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾ اعتِراضٌ بَيْنَ جُملةِ ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ وجُملةِ ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾، وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لِيَعُمَّ جميعَ ما يُتَّقى اللهُ فيه، فيَكونَ هذا مِن قَبيلِ الاعتِراضِ التَّذييليِّ، وأوَّلُ ما يُقصَدُ بأنْ يُتَّقى اللهُ فيه ما سِيقَ الكلامُ مِن أجْلِه من أحكامِ الطَّلاقِ والعِدَّةِ، فقولُه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾ تَحذيرٌ مِنَ التَّساهُلِ فيها[٣].

- وجُملةُ ﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾، وهو نَهْيٌ لهُنَّ عن الخُروجِ؛ فإنَّ المُطلِّقَ قد يُخرِجُها فترَغَبُ المُطلَّقةُ في الخروجِ؛ لأنَّها تَستثقِلُ البَقاءَ في بَيتٍ زالَتْ عنه سِيادتُها، فنَهاهُنَّ اللهُ عن الخُروجِ. وهذا التَّرتُّبُ بيْن الجُملتَيْنِ يُشعِرُ بالسَّببيَّةِ، وأنَّ لكلِّ امرأةٍ مُعتدَّةٍ حقَّ السُّكْنى في بَيتِ زَوجِها مُدَّةَ العِدَّةِ -على قولٍ-؛ لأنَّها مُعتدَّةٌ مِن أجلِه، أي: مِن أجْلِ حِفظ نَسَبه وعِرضِه[٤].

- قولُه: ﴿بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾، قُرِئَ ﴿مُّبَيِّنَةٖ﴾ بكَسرِ الياءِ التَّحتيَّةِ، أي: هيَ تُبيِّنُ لِمَن تَبلُغُه أنَّها فاحشةٌ عظيمةٌ؛ فيَكونُ التَّبيينُ مُعبَّرًا به عن الوُضوحِ، أو تُبيِّنُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (١٠/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٩).

لوْلاةِ الأُمورِ صُدورَها مِنَ المرأةِ؛ فيكونُ المُبيِّنُ هو مُلابِسَ الفاحِشةِ، وهو الإقرارُ والشَّهادةُ، فيُحمَلُ في كلِّ حالةٍ على ما يُناسِبُ معْنى التَّبيينِ. وقُرِئَ ﴿مُبَيَّنَةٍ﴾ بفتْحِ التَّحتيَّةِ[1]، أي: كانتْ فاحشةً بيَّنَتْها الحُجَّةُ، أو بيَّنَها الخارجُ، ومَحْمَلُ القراءتَيْنِ واحدٌ[2].

- قولُه: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الواوُ اعتِراضيَّةٌ، والجُملةُ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ وجُملةِ ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، أُريدَ بهذا الاعتِراضِ المبادَرةُ بالتَّنبيهِ إلى إقامةِ الأحكامِ المذكورةِ مِن أوَّلِ السُّورةِ إقامةً لا تَقصيرَ فيها، ولا خِيَرةَ لأحدٍ في التَّسامُحِ بها، وخاصَّةً المُطلَّقةَ والمُطلِّقَ أنْ يَحسَبا أنَّ ذلكَ مِن حقِّهما انفرادًا أو اشتراكًا[3].

- قولُه: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الإشارةُ بـ(تِلْكَ) إلى ما ذُكِرَ مِنَ الأحكامِ، وما في اسمِ الإشارةِ مِن مَعْنَى البُعْدِ مع قُرْبِ العَهدِ بالمُشارِ إليه؛ للإيذانِ بعُلُوِّ دَرَجتِها، وبُعْدِ مَنزلتِها[4].

- ووُقوعُ ﴿حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ خبرًا عن اسْمِ الإشارةِ الَّذي أُشِيرَ به إلى أشياءَ مُعيَّنةٍ يَجعَلُ إضافةَ ﴿حُدُودَ﴾ إلى اسمِ الجلالةِ مُرادًا منها تَشريفُ المضافِ وتَعظيمُه، والمعنى: وتلكَ ممَّا حدَّ اللهُ، فلا تُفيدُ تَعريفَ الجمْعِ بالإضافةِ عُمومًا؛ لصرْفِ القَرينةِ عن إفادةِ ذلكَ؛ لظُهورِ أنَّ تلكَ الأشياءَ المُعيَّنةَ ليستْ جميعَ حُدودِ اللهِ[5].

---

(١) قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو بكرٍ بفتحِ الياءِ المُشَدَّدةِ، والباقونَ بكَسْرِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٠، ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٥).

- قولُه: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾، فهو تَتميمٌ[١]، وهو المقصودُ مِنَ التَّذييلِ[٢]، وإذْ قدْ كانَ ﴿حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ جمْعًا مُعرَّفًا بالإضافةِ كان مُفيدًا للعُمومِ؛ إذْ لا صارفَ عن إرادةِ العُمومِ، بخِلافِ إضافةِ ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ السَّابقِ، والمعنى: مَنْ يَتعدَّ شيئًا من حُدودِ اللهِ فقَدْ ظلَمَ نفْسَه[٣].

- قولُه: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لاختِلافِ هذَيْنِ المُركَّبَيْنِ بالعُمومِ والخُصوصِ، وجِيءَ بهذا الإطنابِ لتَهويلِ أمْرِ هذا التَّعدِّي[٤]، والإشعارِ بعِلَّةِ الحُكْمِ في قولِه تعالى: ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾، أي: أضَرَّ بها[٥].

- وأُخْبِرَ عن مُتعدِّي حُدودِ اللهِ بأنَّه ظلَمَ نفْسَه للتَّخويفِ؛ تَحذيرًا مِن تَعدِّي هذه الحُدودِ؛ فإنَّ ظُلمَ النَّفْسِ هو الجَريرةُ عليها بما يَعودُ بالإضرارِ، وذلك مِنه ظُلمٌ لها في الدُّنيا بتَعريضِ النَّفْسِ لعَواقِبَ سيِّئةٍ تَنجرُّ مِن مُخالَفةِ أحكامِ

---

(١) التَّتميم: هو أن يُؤتى في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المراد بفضلةٍ تُفيد نكتةً. أو بعبارةٍ أخرى هو: الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ متمِّمٍ للمقصود؛ لرَفْعِ اللبسِ عنه، وتقريبِه للفَهم، أو لزيادةٍ حسنة، بحيث إذا طُرِح من الكلام نقَص معناه في ذاتِه، أو في صِفاته. يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (١/ ١٢٠)، (٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٢٤٠).

(٢) التَّذييل: هو أن يُذَيِّلَ المتكلِّمُ كلامَه بعْدَ تمامِ معناهُ بجملةٍ تحقِّقُ ما قبْلَها، وذلك على ضربَينِ: ضرْبٍ لا يَزيدُ على المعنى الأوَّلِ، وإنَّما يؤكِّدُه ويحقِّقُه. وضرْبٍ يُخرِجُه المتكلِّمُ مخرجَ المثلِ السَّائرِ؛ ليشتهِرَ المعنى؛ لكثرةِ دوَرانه على الألسِنة. يُنظر: ((البديع)) لأسامة بن منقذ (ص: ١٢٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٣٨٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٧٩، ١٨٠)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٦- ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٠).

الدِّينِ؛ لأنَّ أحكامَه صَلاحٌ للنَّاسِ، فمَنْ فرَّطَ فيها فاتَتْه المصالحُ المَنطويةُ هي عليها، ومنه ظُلمٌ للنَّفْسِ في الآخِرةِ بتَعريضِها للعِقابِ المُتوعَّدِ به على الإخلالِ بأحكامِ الدِّينِ؛ فإنَّ للمؤمنينَ حَظًّا مِن هذا الوَعيدِ بمِقدارِ تَفاوُتِ ما بيْنَ الكفْرِ ومُجرَّدِ العِصيانِ[١].

- وجِيءَ في هذا التَّحذيرِ بـ (مَنْ) الشَّرطيَّةِ؛ لإفادةِ عُمومِ كلِّ مَن تعدَّى حُدودَ اللهِ، فيَدخُلُ الَّذين يَتعَدَّونَ أحكامَ الطَّلاقِ وأحكامَ العِدَّةِ في هذا العمومِ[٢].

- وهذِه الجُملةُ ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ وما أُلْحِقَ بها ممَّا هو إيضاحٌ لها، وتَفصيلٌ لأحوالِها؛ ولذلك جاءَتْ مَفصولةً عن الجُمَلِ الَّتي قَبْلَها[٣]. ويَجوزُ كَونُها بدَلًا مِن جُملةِ ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١]، بدَلَ اشتِمالٍ؛ لأنَّ ظُلْمَ النَّفْسِ بَعضُه حاصلٌ في الدُّنيا، وهو مُشتمِلٌ على إضاعةِ مصالحِ النَّفْسِ عنها[٤].

- وتَنكيرُ كَلمةِ ﴿أَمْرًا﴾ للتَّنويعِ، أي: أمرًا مَوصوفًا بصِفةٍ مَحذوفةٍ، أي: أمرًا نافعًا لهُما[٥].

- قولُه: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ الخِطابُ لغَيرِ مُعيَّنٍ جارٍ على طَريقةِ القصدِ بالخِطابِ إلى كلِّ مَن يَصلُحُ للخِطابِ، ويُهِمُّه أمرُ الشَّيءِ المُخاطَبِ به مِن كلِّ مَن قصُرَ بصَرُه إلى حالةِ الكراهيةِ الَّتي نشَأَ عليها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الطَّلاقُ، ولم يَتدبَّرْ في عَواقبِ الأمورِ، ولا أحاطَ فِكْرُه بصُوَرِ الأحوالِ المُختلفةِ المُتقلِّبةِ، ولعلَّ كَلمةَ ﴿لَا تَدۡرِي﴾ تَجْري مَجْرى المثَلِ، فلا يُرادُ ممَّا فيها مِن عَلامةِ الخِطابِ ولا مِن صِيغةِ الإفرادِ إلَّا الجرْيُ على الغالبِ في الخِطابِ، وهو مَبنيٌّ على تَوجيهِ الخِطابِ لغَيرِ مُعيَّنٍ[١].

وقيل: قولُه: ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ خِطابٌ للمُتعدِّي بطَريقِ الالْتفاتِ؛ لمَزيدِ الاهتِمامِ بالزَّجرِ عن التَّعدِّي[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۞ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ ...﴾ تَفريعٌ على جميعِ ما تقدَّمَ مِن أحكامِ العِدَّةِ، مَعطوفٌ على جُملةِ ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]؛ لأنَّ إحصاءَها بحفْظِ مُدَّتِها، واستيعابِ أيَّامِها، فإذا انتهَتِ المدَّةُ فقَدْ أعذَرَ اللهُ لهُما، والزِّيادةُ عليها إضرارٌ بأحَدِهما أو بكِلَيْهما، وفائدةُ الآجالِ الوُقوفُ عِندَ انتهائِها[٣].

- والإمساكُ: اعتزامُ المراجَعةِ، وعُبِّرَ عنه بالإمساكِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ المُطلَّقةَ الرَّجعيَّةَ لها حُكمُ الزَّوجةِ فيما عدا الاستِمتاعَ -على قولٍ[٤]-، فكأنَّه لَمَّا راجَعَها قدْ أمسَكَها ألَّا تُفارِقَه، فكأنَّه لم يُفارِقْها؛ لأنَّ الإمساكَ هو الضَّنُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٧).

(٤) ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٧).

بالشَّيءِ وعدَمُ التَّفريطِ فيه، وأنَّه إذا لم يُراجِعْها فكأنَّه قد أعادَ فِراقَها وقَسَا قلْبُه، ومِن أجْلِ هذه النُّكْتةِ جُعِلَ عدَمُ الإمساكِ فِراقًا جَديدًا في قولِه: ﴿أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾[١].

- والأمرُ في ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ﴾ ﴿أَوۡ فَارِقُوهُنَّ﴾ للإباحةِ، و(أَوْ) فيه للتَّخييرِ، والباءُ في ﴿بِمَعۡرُوفٖ﴾ للمُلابَسةِ، أي: مُلابَسةِ كلٍّ مِنَ الإمساكِ والفِراقِ للمعروفِ[٢].

- وتَقديمُ الإمساكِ -وهو المراجَعةُ- على إمْضاءِ المفارَقةِ، إيماءٌ إلى أنَّه أرضى للهِ تعالَى، وأوفَقُ بمَقاصِدِ الشَّريعةِ؛ ففُهِمَ أنَّ المراجَعةَ مَندوبٌ إليها[٣].

- ولَمَّا قُيِّدَ أمْرُ الإباحةِ مِن قولِه: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ﴾ ﴿أَوۡ فَارِقُوهُنَّ﴾ بقَيْدِ (بالمعروفِ)، فُهِمَ مِنه أنَّه إنْ كانَ إمساكٌ دونَ المعروفِ فهو غَيرُ مأْذونٍ فيه[٤].

- وقولُه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ عطفٌ على ﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾، والخِطابُ مُوجَّهٌ لكلِّ مَن تَتعلَّقُ به الشَّهادةُ مِنَ المشهودِ عليهِم والشُّهودِ، كلٌّ يَأخُذُ بما هو حظُّهُ مِن هذَينِ الخِطابَينِ، وتَعريفُ الشَّهادةِ للاستغراقِ، أي: كلَّ شَهادةٍ، وهو استِغراقٌ عُرفيٌّ؛ لأنَّ المأمورَ به الشَّهادةُ الشرعيَّةُ[٥].

- ومعْنى إقامةِ الشَّهادةِ: إيقاعُها مُستقيمةً لا عِوَجَ فيها؛ فالإقامةُ مُعبَّرٌ بها عن إيقاعِ الشَّهادةِ على مُسْتَوْفيها ما يجبُ فيها شرْعًا ممَّا دلَّتْ عليه أدلَّةُ الشَّريعةِ[٦].

- وفي قولِه: ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ خصَّ بالذِّكرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣١٠).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَن كان يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ؛ إذْ هو المُنتفِعُ به، والمَقصودُ تَذكيرُه[1].

- وقولُه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ وجُملةِ ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ﴾ [الطلاق: ٤] الآيةَ؛ فإنَّ تلكَ الأحكامَ لَمَّا اعْتُبِرَتْ مَوعِظةً بقولِه: ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، أُعقِبَ ذلك بقَضيَّةٍ عامَّةٍ؛ وهي أنَّ تلك مِن تَقوى اللهِ تعالَى، وبما لِتَقوى اللهِ مِن خَيرٍ في الدُّنيا والآخِرةِ، على عادةِ القُرآنِ مِن تَعقيبِ الموعظةِ والتَّرهيبِ بالبِشارةِ والتَّرغيبِ[2].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ جُملةٌ اعتراضيَّةٌ مُؤكِّدةٌ لِمَا سبَقَ بالوعدِ على الاتِّقاءِ عمَّا نُهِيَ عنه صَريحًا أو ضِمْنًا مِنَ الطَّلاقِ في الحَيضِ، والإضرارِ بالمعتَدَّةِ، وإخراجِها مِنَ المسكنِ، وتَعدِّي حُدودِ اللهِ، وكِتمانِ الشَّهادةِ، وتَوقُّعِ جُعْلٍ على إقامتِها بأنْ يَجعَلَ اللهُ له مَخرَجًا ممَّا في شأنِ الأزواجِ مِنَ المَضايقِ والغُمومِ، ويَرزُقَه فرَجًا وخلفًا مِن وجْهٍ لم يَخطُرْ ببالِه. أو بالوعدِ لعامَّةِ المتَّقينَ بالخَلاصِ عن مَضارِّ الدَّارَيْنِ، والفوزِ بخَيرِهما مِن حيثُ لا يَحتَسِبونَ. ويَجوزُ أنْ يُجاءَ بهذه الجُملةِ على سَبيلِ الاستِطرادِ عِندَ ذِكرِ قولِه -قبْلَها-: ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، يعني: لَمَّا أمَرَ المُؤمِنينَ بأُمورٍ تَتعلَّقُ بالنِّساءِ مِنَ المُجامَلةِ معهُنَّ في الفِراقِ والطَّلاقِ والإمساكِ، وأتَى باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ فَذْلَكةً[3]، وأنَّ المذكورَ تَذكيرٌ مِنَ اللهِ ومَوعظةٌ للمتَّقينَ مِنَ المُؤمِنينَ؛ أتَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١١).

(٣) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حسابَه فَذْلَكةً، أي: أنهاهُ وفرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلَكةُ كلمةٌ منحوتةٌ كـ(البَسملةِ) و(الحَوقَلةِ)، مِن قولِهم: (فذلِكَ كذا وكذا عددًا). ويُرادُ =

بكلامٍ جامعٍ مَنوطٍ به أمورُ الدِّينِ ظاهِرِه وباطنِه. وفائدةُ الإشارةِ إلى أنَّ أُمورَ النِّساءِ مِن عَظائمِ الشُّؤونِ في الدِّينِ، لا سِيَّما المُفارَقةِ بعْدَ العُلْقَةِ التَّامَّةِ، فيَجِبُ على المُتَّقي أنْ يكونَ على حذَرٍ مِن جانبِهِنَّ، وألَّا يُقصِّرَ في المجامَلةِ معهُنَّ، ومَعْنى الكلام: ومَن يتَّقِ اللهَ في كلِّ ما يأتي وما يَذَرُ، يَجعَلْ له مَخرَجًا ومَخْلَصًا مِن غُمومِ الدُّنيا والآخِرةِ(١).

- ولَمَّا كان أمرُ الطَّلاقِ غَيرَ خالٍ مِن حرَجٍ وغَمٍّ يَعرِضُ للزَّوجَيْنِ، وأمْرُ المراجعةِ لا يَخلو في بعضِ أحوالِه مِن تَحمُّلِ أحَدِهما لبَعضِ الكُرهِ مِنَ الأحوالِ الَّتي سبَّبَتِ الطَّلاقَ؛ أعلَمَهُما اللهُ بأنَّه وعَدَ المتَّقينَ الواقِفينَ عِندَ حُدودِه بأنْ يَجعَلَ لهم مَخرجًا مِنَ الضَّائقاتِ، شبَّهَ ما هم فيه مِنَ الحرَجِ بالمكانِ المُغلَقِ على الحالِّ فيه، وشبَّهَ ما يَمنَحُهمُ اللهُ به مِنَ اللُّطفِ، وإجراءِ الأُمورِ على ما يُلائِمُ أحوالَهم بجَعْلِ مَنْفَذٍ في المكانِ المُغلَقِ يَتخلَّصُ مِنه المُتضائقُ فيه، وشَمِلَ المَخرَجُ ما يحُفُّ مِنَ اللُّطفِ بالمتَّقينَ في الآخِرةِ أيضًا بتَخليصِهِم مِن أهوالِ الحسابِ والانتِظارِ، فالمَخرَجُ لهم في الآخِرةِ هو الإسراعُ بهم إلى النَّعيمِ(٢).

= بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلام، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحساب، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١١).

- قولُه: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ احتِراسٌ؛ لئلَّا يَتوهَّمَ أحَدٌ أنَّ طُرقَ الرِّزقِ مُعطَّلةٌ عليه، فيَستبعِدَ ذلكَ فيُمسِكَ عن مُراجَعةِ المُطلَّقةِ؛ لأنَّه لا يَستقبِلُ مالًا يُنفِقُ مِنه، فأعْلَمَه اللهُ أنَّ هذا الرِّزقَ لُطْفٌ مِنَ اللهِ، واللهُ أعلَمُ كيفَ يُهيِّئُ له أسبابًا غيرَ مُرتقَبةٍ؛ فمعْنى ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾: مِن مَكانٍ لا يَحتسِبُ مِنه الرِّزقَ، أي: لا يظُنُّ أنَّه يُرزَقُ مِنه[1].

- وقد ذُكِرَ قولُه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ﴾ ثلاثَ مرَّاتٍ، وختَمَ الأوَّلَ بقولِه: ﴿يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، والثَّانيَ بقولِه: ﴿يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾، والثَّالثَ بقولِه: ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾؛ إشارةً إلى تَعدادِ النِّعَمِ المُترتِّبةِ على التَّقوى، مِن أنَّ اللهَ يَجعَلُ لِمَنِ اتَّقاهُ في دُنياهُ مَخرَجًا مِن كُرَبِ الدُّنيا والآخِرةِ، ويَرزُقُه مِن حيثُ لا يَخطُرُ ببالِه، ويَجعَلُ له في دُنياهُ وآخِرتِه مِن أمرِه يُسْرًا، ويُكفِّرُ عنه في آخِرتِه سيِّئاتِه، ويُعظِمُ له أجْرًا[2].

أو إنَّما اقترَنَ بالطَّلاقِ والعِدَّةِ هذا الوعظُ؛ لأنَّ الطَّلاقَ رفْضُ حالٍ مُتمهِّدةٍ، وقطْعُ آمالٍ مُتأكِّدةٍ، والعِدَّةُ باستيفائِها يَخلُصُ النَّسبُ، ويَصِحُّ للزَّوجِ الثَّاني الولدُ، ولو لم يكُنْ هذا الحدُّ الَّذي حدَّه اللهُ تَعالى، لَكان الفسادُ مُتَّصلًا في انقضاءِ الدُّنيا، فهو أحقُّ الأشياءِ بالمُراعاةِ، وتأكيدِ المَقالِ فيه والوَصاةِ. وأمَّا قولُه بعْدَ ذِكرِ عِدَّةِ الحاملِ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾، أي: مَن لَزِمَ التُّقى، سهَّلَ اللهُ عليه الصَّعبَ مِن أمْرِه، كما يَجعَلُ أمْرَ الولادةِ سهْلًا إذا قامتِ الأُمُّ عن وَلَدِها سُرُحًا[3]، ثمَّ عقَّبَ حالَ الدُّنيا بذِكرِ ما يَفعَلُه في الآخرةِ؛ مِن تَكفيرِ سيِّئاتِه، وإعظامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٧، ٢٣٨)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٩، ٥٧٠).

(٣) السُّرُحُ: السَّهلُ السَّريعُ؛ يُقالُ: ناقةٌ سُرُحٌ، ومِشيةٌ سُرُحٌ، أي: سَهلةٌ، وإذا سهُلتْ وِلادةُ المَرأةِ =

أَجْرِه. فكلُّ شَرْطٍ مِن (تُقى اللهِ) قُرِنَ إليه مِن الجزاءِ ما لاقَ بمَكانِه الَّذي ذُكِرَ فيه. والأخيرُ لَمَّا كان مُقدَّمًا على أحوالٍ احتاجَتْ إلى غايةِ التَّرغيبِ، وإلى المبالَغةِ في التَّرهيبِ، وُعِدَ عليه أفضلُ الجزاءِ، وهو ما يكونُ في الآخرةِ مِن النَّعماءِ[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾ في مَوضعِ العِلَّةِ لجُملةِ ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾، أي: لا تَستبعِدوا وُقوعَ ما وعَدَكم اللهُ حِينَ تَرَوْنَ أسبابَ ذلك مَفقودةً؛ فإنَّ اللهَ إذا وعَدَ وعْدًا فقَدْ أرادَه، وإذا أرادَ اللهُ أمرًا يسَّرَ أسبابَه، ولعلَّ قولَه: ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ إشارةٌ إلى هذا المعنى، أي: عَلِم اللهُ أنْ يَكفيَ مَن يَتوكَّلُ عليه مُهِمَّه، فقدَّرَ لذلكَ أسبابَه، كما قدَّرَ أسبابَ الأشياءِ كلِّها، فلا تشُكُّوا في إنْجازِ وَعْدِه؛ فإنَّه إذا أرادَ أمرًا يسَّرَ أسبابَه مِن حيثُ لا يَحتسِبُ النَّاسُ، وتَصاريفُ اللهِ تعالَى خفيَّةٌ عَجيبةٌ[٢].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ هو تَقريرٌ لِمَا تقدَّمَ مِن تأْقيتِ الطَّلاقِ بزَمانِ العِدَّةِ والأمرِ بإحصائِها، وتَمهيدٌ لِمَا سيأتي مِن مَقاديرِها[٣].

- ولهذه الجُملةِ ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ مَوقعٌ تَتجلَّى فيه صُورةٌ من صُوَرِ إعجازِ القُرآنِ في تَرتيبِ مَواقعِ الجُمَلِ بَعضِها بعْدَ بَعضٍ؛ فهذه الجُملةُ لها مَوقعُ الاستِئنافِ البيانيِّ النَّاشِئِ عمَّا اشتمَلَتْ عليه جُمَلُ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾، إلى قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾؛ لأنَّ استِعدادَ السَّامِعينَ لليقينِ بما تَضمَّنَتْه تلك الجُمَلُ مُتفاوِتٌ، فقَدْ يَستبعِدُ بَعضُ السَّامعينَ تحقُّقَ الوعدِ

= قيل: ولَدَت سُرُحًا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٥٨).

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٨٣-١٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١٢، ٣١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٢).

لأمثالِه بما تَضمَّنَتْه تلك الجُمَلُ بعرْضِها على ارتباكِ أحوالِه، أو يَتردَّدُ يَقينُه فيَقولُ: أينَ أنا مِن تَحصيلِ هذا؟! حينَ يُتبِعُ نَظرَه فيَرى بَوْنًا عن حُصولِ الموعودِ بسَببِ انعدامِ وَسائلِه لَديه، فيَتملَّكُه اليأسُ، فهذا الاستئنافُ البَيانيُّ وقَعَ عَقِبَ الوعدِ تَذكيرًا بأنَّ اللهَ عَلِم مَواعيدَه وهيَّأ لها مَقاديرَ حُصولِها؛ لأنَّه جعَلَ لكلِّ شَيءٍ قَدْرًا. ولها مَوقعُ التَّعليلِ لجُملةِ ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]؛ فإنَّ العِدَّةَ مِنَ الأشياءِ، فلمَّا أمَرَ اللهُ بإحصاءِ أمْرِها علَّلَ ذلك بأنَّ تقديرَ مُدَّةِ العِدَّةِ جعَلَهُ اللهُ، فلا يَسُوغُ التَّهاوُنُ فيه. ولها مَوقعُ التَّذييلِ لجُملةِ ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١]، أي: الَّذي وضَعَ تلك الحدودَ قدْ جعَلَ لكلِّ شَيءٍ قدْرًا لا يَعْدُوهُ كما جعَلَ الحُدودَ. ولها مَوقعُ التَّعليلِ لجُملةِ ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾؛ لأنَّ المعنى: إذا بلَغْنَ القَدْرَ الَّذي جعَلَه اللهُ لِمُدَّةِ العِدَّةِ، فقدْ حصَلَ المَقصدُ الشَّرعيُّ الَّذي أشار إليه قولُه: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١]؛ فالمعْنى: فإنْ لم يُحدِثِ اللهُ أمْرَ المراجَعةِ فقدْ رفَقَ بكُمْ، وحطَّ عنكُمُ امتِدادَ العِدَّةِ. ولها موقعُ التَّعليلِ لجُملةِ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]؛ فإنَّ اللهَ جعَلَ الشَّهادةَ قدْرًا لرفْعِ النِّزاعِ. فهذِه الجملةُ جُزءُ آيةٍ، وهي تَحتوي على حقائقَ مِنَ الحِكمةِ(١)!



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١٣، ٣١٤).

الآيتان (٤-٥)

﴿وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّـٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَجَلُهُنَّ﴾: أي: عِدَّتُهنَّ. والأجَلُ: غايةُ الوَقتِ في الموتِ وغيرِه، والمُدَّةُ المَضروبةُ للشَّيءِ[(١)].

المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى أحكامًا أخرى تتعلَّقُ بعِدَّةِ النِّساءِ على اختِلافِ أحوالِهنَّ، فيقولُ: والمُطَلَّقاتُ اللَّائي انقَطَع حَيضُهنَّ انقِطاعًا لا يُرجَى رُجوعُه إنْ شكَكْتُم في عِدَّتِهنَّ فلم تَدْرُوا ما هي؛ فاعلَموا أنَّها ثلاثةُ أشهُرٍ، والمُطَلَّقاتُ اللَّائي لم يَحِضْنَ مِن قَبْلُ؛ لِصِغَرِ سِنِّهنَّ أو لِغَيرِه، فعِدَّتُهنَّ ثلاثةُ أشهُرٍ كذلك، والمُطَلَّقاتُ الحوامِلُ عِدَّتُهنَّ تَنقَضِي بوضعِ ما في بُطونِهنَّ مِن حَملٍ.

ثمَّ كرَّر الله تعالى الأمرَ بتَقْواه، وبشَّر المتَّقينَ، فقال: ومَن يتَّقِ اللهَ بامتِثالِ أمْرِه واجتِنابِ نَهْيِه، يُسَهِّلْ عليه جميعَ أُمورِه.

ذلك الَّذي بَيَّنَّاه لكم أمْرُ اللهِ أنزَلَه إليكم؛ لتَعمَلوا به، ومَن يتَّقِ اللهَ يَمْحُ عنه سيِّئاتِه، ويُكَثِّرْ له ثَوابَ أعمالِه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١).

تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أمْرَ الطَّلاقِ والرَّجعةِ في الَّتي تَحيضُ، وكانوا قد عَرَفوا عِدَّةَ ذواتِ الأقراءِ؛ عرَّفَهم في هذه السُّورةِ عِدَّةَ الَّتي لا ترى الدَّمَ(١).

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ ﴾.

أي: إنْ شكَكْتُم في عِدَّةِ أزواجِكم المُطَلَّقاتِ اللَّاتي انقَطَع حَيضُهنَّ انقِطاعًا لا يُرجَى رُجوعُه، فلم تَدْرُوا ما هي؛ فاعلَموا أنَّها ثلاثةُ أشهُرٍ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٩، ٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٦)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

ذهب بعضُ المفَسِّرينَ إلى أنَّ المرادَ بـ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ ﴾: اللَّاتي انقَطَع حَيضُهنَّ؛ لِكِبَرِ سِنِّهنَّ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٠٢).

وقيل: هُنَّ اللَّاتي انقطَع حَيضُهنَّ عُمومًا؛ سواءٌ لكِبَرِ سِنٍّ أو لغيرِه مِن الأسبابِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ تيميَّةَ، والسعديُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

قال ابنُ القيِّم: (قال آخَرونَ؛ منهم شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ: اليأسُ يختلِفُ باختِلافِ النِّساءِ، وليس له حدٌّ يتَّفِقُ فيه النِّساءُ. والمرادُ بالآيةِ أنَّ يأسَ كُلِّ امرأةٍ مِن نَفسِها؛ لأنَّ اليأسَ ضِدُّ الرَّجاءِ، فإذا كانت المرأةُ قد يَئِسَت مِن الحَيضِ ولم تَرْجُه فهي آيِسةٌ وإن كان لها أربعونَ أو نحوُها، وغيرُها لا تيأسُ منه وإن كان لها خمسونَ). ((زاد المعاد)) (٥/ ٥٨٤). =

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾.

أي: والمُطَلَّقاتُ اللَّاتي لم يَحِضْنَ مِن قَبْلُ؛ لِصِغَرِ سِنِّهنَّ أو لِغَيرِه كمرضٍ ونحوِه، فعِدَّتُهنَّ أيضًا ثلاثةُ أشهُرٍ[1].

= قال الزَّجَّاجُ: (الَّذي يَذهَبُ إليه مالِكٌ، واللُّغةُ تدُلُّ عليه: أنَّ معناه: إن ارتَبْتُم في حَيضِها وقد انقَطَع عنها الحَيضُ، وكانت ممَّن يَحيضُ مِثلُها، فعِدَّتُها ثلاثةُ أشهُرٍ، وذلك بعدَ أن تُترَكَ تِسعةَ أشهُرٍ بمِقْدارِ الحَملِ، ثمَّ تعتَدَّ بعدَ ذلك ثلاثةَ أشهُرٍ، فإن حاضتْ في هذه الثَّلاثةِ الأشهُرِ تمَّت ثلاثُ حِيَضٍ. وجائزٌ أن يتأخَّرَ هذا الحَيضُ فيكونَ كلَّما قاربت أن تخرُجَ مِن الثَّلاثةِ حاضت، فهذا مَذهَبُ مالكٍ، وهو الَّذي يُروَى عن عُمَرَ رحمه اللهُ.

وقال أهلُ العِراقِ: تُترَكُ ولو بلَغَت في ذلك أكثَرَ مِن ثلاثينَ سَنةً، ولو بلَغَت إلى السَّبعينَ، يَعْنُون حتَّى تبلُغَ مَبلَغَ مَن لا يَحيضُ، وقالوا: ولو شاء اللهُ لَابتلاها بأكثَرَ مِن ذلك). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٨٥).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكورِ في تفسيرِ قَولِه تعالى: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾: ابنُ جرير، ونسَبَه الواحديُّ إلى الأكثرينَ، واختاره ابنُ جُزَي، وابنُ القيِّم، واستظهره ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٩، ٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٦)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٩).

وقال البِقاعي: (لَمَّا كان المُوجِبُ للعِدَّة إنَّما هو الدُّخولُ لا مُجَرَّدُ الطَّلاقِ، قال: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ بأن أجَلْتُم النَّظَرَ في أمْرِهنَّ، فأدَّاكم إلى رَيبٍ في: هل هنَّ حامِلاتٌ أم لا، وذلك بالدُّخولِ عليهنَّ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٥٥).

وقيل: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾: أي: إن رأَيْنَ دمًا وشكَكْتُم في كَونِه حَيضًا أو استِحاضةً، وارتبتُم فيه. وهو قولُ طائفةٍ مِن السَّلفِ؛ كمُجاهِدٍ، والزُّهْريِّ، وابنِ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

قال أبو حيَّان: (الظَّاهرُ أنَّ قَولَه: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾ يَشملُ مَن لم يَحِضْنَ لصِغَرٍ، ومَن لا يكونُ لها حَيضٌ البتَّةَ، وهو موجودٌ في النِّساءِ، وهو أنَّها تعيشُ إلى أن تموتَ ولا تحيضُ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٠).

وقال الشَّوكاني: (هذه الَّتي انقطَع حَيضُها قبْلَ عِدَّتِها أو حالَ عِدَّتِها مُندَرِجةٌ تحتَ قَولِه: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾؛ فإنَّها يَصدُقُ عليها عندَ هذا الانقِطاعِ أنَّها مِن اللَّائي لم يحِضْنَ، فتكونُ عِدَّتُها =

﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾.

أي: وأمَّا المُطَلَّقاتُ الحوامِلُ فإنَّ عِدَّتَهنَّ تَنقَضِي بوضعِ ما في بُطونِهنَّ مِن حَملٍ[1].

= كعِدَّتِهنَّ، وليس في الآيةِ ما يدُلُّ على أنَّ المرادَ أنَّهنَّ لم يَحِضْنَ أصلًا، بل المرادُ عدَمُ وُجودِ الحَيضِ عندَ العِدَّةِ... وقد وقع الاتِّفاقُ على أنَّ الصَّغيرةَ الَّتي لم تَبلُغ التَّكليفَ هي مِنَ اللَّائي لم يحِضْنَ، ومعلومٌ أنَّه لا يُرادُ عَدَمُ حَيضِها في جميع الأزمنةِ ماضيها ومُستَقبَلِها؛ للقَطعِ بأنَّها إذا بلَغَت وحاضت لم يكُنْ ذلك مُبطِلًا لعِدَّتِها الَّتي اعتَدَّتْها حالَ صِغَرِها بالأشهُرِ، ومعلومٌ أيضًا أنَّ المرأةَ إذا حاضت مرَّةً واحدةً صَدَق عليها أنَّها حاضت، فإذا تخَلَّف عنها الحَيضُ يَصدُقُ عليها أنَّها لم تَحِضْ، وإذا عَرَفْتَ هذا عَلِمْتَ أنَّ المرأةَ إذا وَجَبَت عليها العِدَّةُ وحَيضُها مُنقَطِعٌ لعارِضٍ، فهي مِنَ اللَّائي لم يَحِضْنَ، وهكذا إذا انقَطَع عنها وهي في وَسَطِ عِدَّتِها فهي مِنَ اللَّائي لم يحِضْنَ، فعِدَّتُها ثلاثةُ أشهُرٍ كعِدَّةِ اللَّائي لم يحِضْنَ). ((السيل الجرار)) (ص: ٤٢٤، ٤٢٥). ويُنظر: ((الإشراف على مذاهب العلماء)) لابن المنذر (٥/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ١١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤، ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٢٧، ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٩)، ((السيل الجرار)) للشوكاني (ص: ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

قال ابنُ القيِّم: (كان بيْنَ السَّلَفِ نِزاعٌ في المتوفَّى عنها أنَّها تترَبَّصُ أبْعَدَ الأجَلَينِ، ثمَّ حَصَل الاتِّفاقُ على انقِضائِها بوَضعِ الحَملِ). ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) (٢/ ٥١).

وقال ابنُ كثيرٍ: (قَولُه: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ يقولُ تعالى: ومَن كانت حامِلًا فعِدَّتُها بوَضعِه، ولو كان بعدَ الطَّلاقِ أو الموتِ بفُواقِ ناقةٍ [ما بيْنَ الحَلْبَتَينِ مِن الوَقتِ؛ لأنَّ النَّاقةَ تُحلَبُ ثمَّ تُترَكُ سُويعةً يرضَعُها الفَصيلُ]، في قَولِ جُمهورِ العُلَماءِ مِنَ السَّلَفِ والخَلَفِ، كما هو نَصُّ هذه الآيةِ الكريمةِ، وكما ورَدَت به السُّنَّةُ النَّبَويَّةُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٩).

قال السعدي: (﴿يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أي: جميعَ ما في بُطونِهنَّ، مِن واحِدٍ ومُتعَدِّدٍ، ولا عِبرةَ حينَئذٍ بالأشهُرِ ولا غيرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

وقال النَّيسابوري: (ووضْعُ الحَملِ لا يَتفاوَتُ بكَونِه حيًّا أو مَيتًا أو سِقْطًا أو مُضْغةً لا صورةَ فيها). ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٣١٥).

وسيأتي تفصيلُ الكلامِ في السِّقْطِ والعَلَقةِ، والخِلافُ في بعضِ الصُّورِ (ص: ٦٦).

عن سُبَيعةَ الأسلَميَّةِ رَضيَ اللهُ عنها: ((أنَّها كانت تحتَ سَعدِ بنِ خَولةَ، وهو في بَني عامِرِ بنِ لُؤَيٍّ، وكان ممَّن شَهِدَ بَدرًا، فتُوفِّيَ عنها في حَجَّةِ الوداعِ وهي حامِلٌ، فلم تَنشَبْ[١] أن وَضَعت حَمْلَها بعدَ وَفاتِه، فلمَّا تَعَلَّتْ[٢] مِن نِفاسِها تجمَّلَت[٣] للخُطَّابِ، فدَخَل عليها أبو السَّنابِلِ بنُ بَعْكَكٍ -رَجُلٌ مِن بني عبدِ الدَّارِ- فقال لها: ما لي أَراكِ مُتجَمِّلةً؟! لعلَّكِ تُرَجِّينَ النِّكاحَ! إنَّكِ -واللهِ- ما أنتِ بناكِحٍ حتَّى تَمُرَّ عليكِ أربَعةُ أشهُرٍ وعَشْرٌ! قالت سُبَيعةُ: فلمَّا قال لي ذلك جَمَعْتُ علَيَّ ثيابي حينَ أمسَيْتُ، فأتَيْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فسألْتُه عن ذلك، فأفتاني بأنِّي قد حلَلْتُ حينَ وَضَعْتُ حَملي، وأمَرَني بالتَّزَوُّجِ إنْ بدا لي))[٤].

وعن سُلَيمانَ بنِ يَسارٍ أنَّ أبا سَلَمةَ بنَ عبدِ الرَّحمنِ وابنَ عبَّاسٍ اجتَمَعا عندَ أبي هُرَيرةَ، وهما يَذكُرانِ المرأةَ تُنفَسُ[٥] بعدَ وَفاةِ زَوجِها بلَيالٍ، فقال ابنُ عبَّاسٍ: عِدَّتُها آخِرُ الأجَلَينِ، وقال أبو سَلَمةَ: قد حلَّتَ، فجَعَلا يَتنازَعانِ ذلك، فقال أبو هُرَيرةَ: أنا مع ابنِ أخي -يعني: أبا سَلَمةَ- فبَعَثوا كُرَيبًا مَولَى ابنِ عبَّاسٍ إلى أمِّ سَلَمةَ يَسألُها عن ذلك، فجاءَهم فأخبَرَهم أنَّ أمَّ سَلَمةَ قالت: ((إنَّ سُبَيعةَ الأسلَميَّةَ نُفِسَت بعدَ وَفاةِ زَوجِها بلَيالٍ، وإنَّها ذَكَرَت ذلك لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأمَرَها أن تتزَوَّجَ))[٦].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾.

---

(١) لم تَنشَبْ: أي: لم تمكُثْ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ١١٠).

(٢) تعَلَّتْ: أي: طَهُرَت. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ١٠٩).

(٣) تجَمَّلت: أي: تزَيَّنَت وتحَسَّنَت. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١١٠).

(٤) رواه البخاريُّ (٣٩٩١)، ومسلمٌ (١٤٨٤) واللَّفظُ له.

(٥) تُنفَسُ: أي: تَلِدُ وتضَعُ حَمْلَها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٩٥)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ١١١).

(٦) رواه البخاريُّ (٤٩٠٩)، ومسلمٌ (١٤٨٥) واللَّفظُ له.

أي: ومَن يتَّقِ اللهَ بامتِثالِ أمْرِه واجتِنابِ نَهْيِه، يُسَهِّلْ عليه جميعَ أُمورِ دِينِه ودُنياه وآخِرَتِه(١).

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥﴾.

﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ﴾.

أي: ذلك الَّذي بَيَّنَّاه لكم وأمَرْناكم به مِنَ الأحكامِ السَّابِقةِ: أمْرُ اللهِ أنزَلَه اللهُ إليكم؛ لتَعمَلوا به، وتُعَظِّموه ولا تُخالِفوه(٢).

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾.

أي: ومَن يتَّقِ اللهَ بامتِثالِ أمْرِه واجتِنابِ نَهْيِه، يَمْحُ اللهُ عنه سيِّئاتِه، ويُكَثِّرْ له ثوابَ أعمالِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٥)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٩، ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

وقال الشوكاني: (﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرًا﴾ أي: مَن يتَّقِه في امتثالِ أوامرِه، واجتنابِ نواهيه يُسهِّلْ عليه أمرَه في الدُّنيا والآخرةِ. وقال الضحَّاكُ: مَن يتَّقِ الله فليُطلِّقْ للسُّنةِ يجعَلْ له مِن أمرِه يسرًا في الرَّجعةِ. وقال مقاتلٌ: مَن يتَّقِ الله في اجتنابِ معاصيه يجعلْ له مِن أمرِه يسرًا في توفيقِه للطَّاعةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٥، ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٢)، =

كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ: ((الصَّلَواتُ الخَمْسُ، والجُمُعةُ إلى الجُمُعةِ، ورَمَضانُ إلى رَمَضانَ: مُكَفِّراتٌ ما بيْنَهنَّ إذا اجْتَنَبَ الكبائِرَ))[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- لَمَّا كانت أمورُ النِّساءِ في المعاشَرةِ والمُفارَقةِ مِنَ المعاسَرةِ والمُياسَرةِ في غايةِ المشَقَّةِ، فلا يَحمِلُ على العَدلِ فيها والعِفَّةِ إلَّا خَوفُ اللهِ؛ كرَّر بالحثِّ على التَّقْوى إشارةً إلى ذلك، وترغيبًا في لُزومِ ما حدَّه سُبحانَه، فقال عاطفًا على ما تقديرُه: فمَن لم يحفَظْ هذه الحدودَ عسَّرَ الله عليه أمورَه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ دليلٌ على أنَّ كلَّ عسيرٍ مِن الأمورِ يَتيَسَّرُ بالتَّقوى، حتَّى عُسْرُ تقتيرِ الرِّزقِ، وشِفاءُ الدَّاءِ العَسِرِ العِلاجِ،

= ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٤١)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٣٤).

قال ابن القيِّم: (الذُّنوبُ: المرادُ بها الكبائرُ، والمرادُ بالسَّيِّئاتِ: الصَّغائرُ، وهي ما تَعمَلُ فيه الكفَّارةُ مِن الخطأِ وما جرى مَجراه، ولهذا جُعِل لها التَّكفيرُ... والدَّليلُ على أنَّ السَّيِّئاتِ هي الصَّغائرُ والتَّكفيرَ لها قولُه تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]). ((مدارج السالكين)) (١/ ٣١٨).

(١) رواه مسلم (٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣١٧).

والخَلاصُ مِن المَحْبِسِ؛ مِن الفِكاكِ مِن الأَسْرِ، وأشباهِ ذلك[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ﴾ أنَّ اليأسَ مَنُوطٌ بالحالِ لا بالزَّمَنِ، وأنَّ ذلك يَختَلِفُ باختِلافِ النِّساءِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى ما قَيَّدَها بالسِّنِّ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الأقراءَ الحِيَضُ؛ لِذِكْرِه المَحِيضَ بلَفْظِه، وجَعْلِه الأشهُرَ الثَّلاثَ عِوَضًا منه[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾، استُدِلَّ به على أنَّ الحامِلَ لا تحيضُ؛ إذ لو حاضت لَكانت عِدَّتُها ثلاثَ حِيَضٍ -على قولٍ-، وهذه عِدَّةُ المطَلَّقةِ[٤].

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٣/ ٣٦٢).

ولاختلافِ الفُقهاءِ في تقديرِ سنِّ الإياسِ يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٣٣).

وقيل أيضًا في وجهِ الدَّلالة: إنَّ الأصلَ أنَّ الشَّيءَ متى ذُكِر باسمٍ مُشترِك، ثمَّ جرى البيانُ له عندَ ذِكرِ البدَلِ باسمٍ خاصٍّ؛ دل على أنَّ المرادَ مِن الاسمِ المشترَكِ هذا الاسمُ الخاصُّ المذكورُ عندَ البدَلِ؛ ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [المائدة: ٦]، فاسمُ الغسلِ مشتركٌ يَتناوَلُ الماءَ وكلَّ مائعٍ، فلمَّا قال عندَ ذِكرِ البَدَلِ: ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ﴾ [المائدة: ٦]؛ تبيَّن أنَّ المرادَ من ذلك الاسمِ المشترَكِ هو هذا الاسمُ الخاصُّ المذكورُ عندَ البدَلِ، فكذلك الأوَّلُ. ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٥٩).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٢).

(٤) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١/ ٤٦٩).

القولُ بأنَّ الحاملَ لا تَحيضُ هو مذهبُ الحنفيَّةِ والحنابلة، وهو قولُ ابنِ حزم. يُنظر: ((البحر الرائق)) لابن نُجَيم (١/ ٢٠١)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (١/ ١١٠)، ((المحلى)) =

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ دليلٌ واضِحٌ على أنَّ طَلاقَ الحامِلِ واقِعٌ، وهو أوسَعُ ما يكونُ مِن الطَّلاقِ؛ ولهذا يَحِلُّ للإنسانِ أنْ يُطَلِّقَ الحامِلَ وإنْ كان قد جامَعَها قريبًا، بخلافِ غيرِ الحامِلِ؛ فإنَّه إذا جامعَها يجبُ عليه أنْ يَنتَظِرَ حتَّى تَحيضَ ثُمَّ تَطْهُرَ، أو يَتبَيَّنَ حَمْلُها[(١)].

٥- العِدَّةُ واجبةٌ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقولِه: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. قال أهلُ العِلمِ: إنَّ هذا خبَرٌ بمعنى الأمرِ، وإنَّما جاء بصِيغةِ الخَبَرِ؛ لإقرارِه وتثبيتِه، كأنَّه أمرٌ مَفروغٌ منه[(٢)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ أنَّ عِدَّةَ الحامِلِ لا تنقضي إلَّا بوَضعِ الحَملِ، سَواءٌ أكانت تحيضُ أمْ لا[(٣)]، بائنةً كانت أو رَجْعيَّةً، مُفارِقةً في الحياةِ أو مُتَوَفًّى عنها، ففي الآيةِ الكريمةِ عمومٌ من ثلاثِ جهاتٍ:

أحدُها: عمومُ المُخْبَرِ عنه، وهو أولاتُ الأحمالِ؛ فإنَّه يَتناوَلُ جميعَهنَّ.

الثَّاني: عُمومُ الأجَلِ؛ فإنَّه أضافَه إليهنَّ، وإضافةُ اسمِ الجَمعِ إلى المعرفةِ يَعُمُّ،

= لابن حزم (١/ ٤٠٤).

وذهَبَ المالكيَّةُ والشَّافعيَّةُ إلى أنَّ الحامِلَ يُمكِنُ أن تَحيضَ، وهو اختيارُ ابنِ تيميَّةَ، وابنِ عُثيمينَ. يُنظر: ((الشرح الكبير للدردير وحاشية الدسوقي)) (٢/ ٤٥٩)، ((المجموع)) للنووي (٢/ ٣٤٧)، ((الاختيارات الفقهية)) (ص: ٣٠)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١١/ ٢٧٠، ٢٧١).

وذكَرَ ابنُ عثيمينَ أنَّ إلغاءَ الاعتدادِ بالحَيضِ بالنِّسبةِ للحامِلِ ليس مِن أجْلِ أنَّ ما يُصيبُ المرأةَ مِن الدَّمِ ليس حيضًا، ولكن لأنَّ الحَيضَ لا يصِحُّ أن يكونَ عِدَّةً مع الحملِ؛ لأنَّ الحملَ يَقضي على ما عَداه. يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) (١/ ٤٦٩).

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٠/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٣/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١١/ ٣٠٤).

فجَعَلَ وَضْعَ الحَمْلِ جميعَ أجَلِهنَّ، فلو كان لبَعضِهنَّ أجلٌ غَيرُه لم يكُنْ جميعَ أجَلِهنَّ.

الثَّالثُ: أنَّ المبتدأَ والخبرَ مَعرِفتانِ؛ أمَّا المبتدأُ فظاهِرٌ، وأمَّا الخَبرُ وهو قولُه تعالى: ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ففي تأويلِ مَصدَرٍ مُضافٍ، أي: أجَلُهنَّ وَضْعُ حملِهنَّ، والمبتدأُ والخبرُ إذا كانا مَعرِفَتينِ اقتضى ذلك حَصْرَ الثَّاني في الأوَّلِ، كقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]. وبهذا احتجَّ جمهورُ الصَّحابةِ على أنَّ الحامِلَ المتوفَّى عنها زَوجُها عِدَّتُها وَضْعُ حمْلِها، ولو وضعَتْه والزَّوجُ على المُغتَسَلِ، كما أفتى به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم لِسُبَيعَةَ الأسْلَمِيَّةِ، وكان هذا الحُكْمُ والفَتوى منه مُشتَقًّا مِن كتابِ اللهِ، مُطابِقًا له[(١)].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ﴾ دليلٌ على أنَّ للمَرءِ أن يُنكِحَ وَلَدَه الصِّغارَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ عِدَّةَ مَن لم يَحِضْ مِنَ النِّساءِ ثلاثةَ أشهُرٍ، ولا تكونُ عليها عِدَّةٌ إلَّا أن يكونَ لها نِكاحٌ؛ فدَلَّ ذلك على هذا الغَرَضِ، وهو بديعٌ في فَنِّه[(٢)].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ شامِلٌ للوَلَدِ، والعَلَقةِ، والمُضْغَةِ[(٣)]، ومفيدٌ أنَّ العِدَّةَ لا تَنقَضي بأوَّلِ التَّوْءَمَينِ؛ لأنَّه بَعضُ حَمْلِهنَّ

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٨٥).

(٣) تنقَضي العِدَّةُ بوَضعِ الحَملِ الَّذي تبَيَّنَ فيه خَلقُ إنسانٍ، وإن كان سِقْطًا. نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ المنذِرِ، وابنُ قُدامةَ. يُنظر: ((الإشراف)) لابن المنذر (٥/ ٣٥٢)، ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ١١٩).

أمَّا إذا ألقَتِ المرأةُ نُطفةً أو عَلَقةً أو دمًا، أو وضعتْ مُضْغةً لا صورةَ فيها؛ فلا تَنقضي العدَّةُ بالوضعِ عندَ جمهورِ الفُقهاءِ مِن الحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ.

وصرَّح المالكيَّةُ بأنَّه إن كان الحملُ دمًا اجتمَع تَنقضي به العدَّةُ، وعلامةُ كَونِه حملًا أنَّه إذا صُبَّ عليه الماءُ الحارُّ لم يَذُبْ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٩/ ٣١٨). =

لا حَمْلُهُنَّ[1]. وقولُه: ﴿حَمْلَهُنَّ﴾ مُفرَدٌ مضافٌ؛ فيَشملُ كلَّ حَمْلِها، وعلى هذا فلا بُدَّ أنْ تَضعَ جميعَ الحَمْلِ، ولو فُرِضَ أنَّ المرأةَ مات زوجُها وهي تُطْلَقُ وقد ظَهَرَ رأسُ الحَملِ، ثُمَّ خَرَجَ بقيَّتُه، فتَنقَضي العِدَّةُ؛ لأنَّه قبلَ أنْ يَخْرُجَ كامِلًا لم تكُنْ وَضَعَتْ حَمْلَها[2].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ استَدَلَّ بعُمومِه مَن قال: إنَّ الحامِلَ مِنَ الزِّنا تَعتَدُّ به[3].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ حُجَّةٌ في أنَّ القرآنَ غيرُ مخلوقٍ؛ لأنَّ اللهَ سمَّاه بالأمرِ، والأمرُ لا يكونُ إلَّا كلامًا مُتكَلَّمًا به، وكلامُ الآمِرِ نَعْتٌ مِن نَعْتِه، ونُعُوتُ الخالقِ غيرُ مخلوقةٍ، وهو مِثْلُ قَولِه تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[4] [الأعراف: ٥٤].

= قال الشنقيطي: (إذا كانت المرأةُ مُعتدَّةً من طلاقٍ أو وفاةٍ، وكانت حاملًا، فألقَتْ حَمْلَها عَلَقةً، هل تَنقضي بذلك عِدَّتُها أو لا؟
فمذهبُ مالكٍ رحمه الله: أنَّها تَنقضي عِدَّتُها بإسقاطِ العَلَقةِ المذكورةِ. واحتجَّ المالكيَّةُ: بأنَّ العَلَقةَ المذكورةَ يَصدُقُ عليها أنَّها حملٌ، فتَدخُلُ في عُمومِ قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]. وقال ابنُ العربيِّ المالكيُّ: لا يَرتبطُ بالجنينِ شَيءٌ مِن هذه الأحكامِ إلَّا أن يكونَ مُخَلَّقًا -يعني: مُصَوَّرًا-. وذهب جمهورُ أهلِ العِلمِ -منهم الأئمَّةُ الثَّلاثةُ وغيرُهم- إلى أنَّ وضْعَ العَلَقةِ لا تَنقضي به العدَّةُ، قالوا: لأنَّها دمٌ جامدٌ، ولا يُتحقَّقُ كَوْنُه جَنينًا). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٧٥). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٢٧٤) و(٤/ ٢٨٦).

(١) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٣/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٧).
واعتدادُ المَزنيِّ بها عدَّةَ المطلَّقةِ هو المعتمدُ لدى المالكيَّةِ، ومذهبُ الحنابلةِ، خِلافًا للحنَفيَّةِ والشَّافعيَّةِ؛ فمذهبُهم أنَّ الزَّانيةَ لا عدَّةَ عليها، حاملًا كانت أو غيرَ حاملٍ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٩/ ٣٣٧).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٤٠).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ﴾ رَدٌّ على مَن لا يُقِرُّ أنَّ اللهَ سبحانَه بنَفْسِه في السَّماءِ[١]؛ فإنَّ النُّزولَ والتَّنزيلَ الَّذي تَعقِلُه العُقولُ وتَعرِفُه الفِطَرُ هو وُصولُ الشَّيءِ مِن أعلَى إلى أسفَلَ، والرَّبُّ تعالى إنَّما يُخاطِبُ عِبادَه بما تَعرِفُه فِطَرُهم، وتَشهَدُ به عُقولُهم[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ دَليلٌ على أنَّ التَّوبةَ مع ما تَحُطُّ مِن السَّيِّئاتِ تُنْمِي له أجرًا برَأسِه، وهو مِثلُ قولِه تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾ [الفرقان: ٧٠]، وهذه الغَنيمةُ البارِدةُ لِمَن عَقَلَها، وتَيَقَّظَ لها[٣].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ﴾ عطفٌ على قولِه: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]؛ فإنَّ العِدَّةَ هنالِكَ أُريدَ بها الأقراءُ، فأشعَرَ ذلك أنَّ تلك المُعتدَّةَ ممَّنْ لها أقراءٌ، فبَقِيَ بَيانُ اعتدادِ المرأةِ الَّتي تَجاوَزَتْ سِنَّ المَحِيضِ، أو الَّتي لم تَبلُغْ سِنَّ مَن تَحيضُ، وهيَ الصَّغيرةُ. والآيةُ مُخصِّصةٌ لعُمومِ قولِه: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقد نزلَتْ سورةُ (الطَّلاقِ)

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٤١).

بعدَ سورةِ (البقرةِ)[١].

- وجُملةُ ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ﴾؛ فهي إتمامٌ لأحوالِ العِدَّةِ المُجمَلِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ﴾ [الطلاق: ١]، وتقديرُ الكلامِ: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ﴾ مِنهنَّ، أي: مِنَ المُطلَّقاتِ، ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾، فحصَلَ بهذِه الآيةِ مع الَّتي قَبْلَها تَفصيلٌ لأحوالِ المُطلَّقاتِ، وحصَلَ أيضًا منها بيانٌ لإجمالِ الآيةِ الَّتي في سُورةِ (البقرةِ)[٢].

- قولُه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۞ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ تَكريرٌ للمَوعظةِ، وهو اعتِراضٌ، والمقصودُ مَوعظةُ الرِّجالِ والنِّساءِ على الأخْذِ بما في هذِه الأحكامِ ممَّا عسى أنْ يكونَ فيه مشقَّةٌ على أحَدٍ بأنَّ على كلٍّ أنْ يَصبرَ لذلكَ امتثالًا لأمرِ اللهِ؛ فإنَّ المُمتثِلَ -وهو مُسمَّى المُتَّقيَ- يَجعَلُ اللهُ له يُسْرًا فيما لَحِقَه مِن عُسْرٍ، والمقصودُ: يَجعَلْ له مِن أمْرِه العَسيرِ في نظرِه يُسْرًا؛ بقرينةِ جَعْلِ اليُسْرِ لأمرِه، والمقصودُ مِن هذا تَحقيقُ الوعدِ باليُسرِ فيما شأنُه العُسرُ؛ لِحَثِّ الأزواجِ على امتثالِ ما أمَرَ اللهُ به الزَّوجَ مِنَ الإنفاقِ في مُدَّةِ العِدَّةِ، ومِنَ المراجَعةِ، وترْكِ مَنزلِه من أجْلِ سُكْناها إذا كانَ لا يَسَعُهما، وما أمَرَ به المرأةَ مِن ترَبُّصِ أمَدِ العِدَّةِ، وعدَمِ الخروجِ، ونحوِ ذلك[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١٥، ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٢٤).

لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾

- قولُه: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ مِنَ الأحكامِ، وما فيه مِن معْنى البُعْدِ مع قُرْبِ العهدِ بالمُشارِ إليه؛ للإيذانِ ببُعْدِ مَنزلتِه في الفَضلِ. وإفرادُ الكافِ مع أنَّ الخِطابَ للجمْعِ كما يُفصِحُ عنه قولُه: ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ﴾؛ لِما أنَّها لمُجرَّدِ الفَرْقِ بيْنَ الحاضرِ والمُنْقَضِي، لا لتَعيُّنِ خُصوصيَّةِ المُخاطَبينَ[1].

- قولُه: ﴿ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ ﴾ كِنايةٌ عن الحثِّ على التَّهَمُّمِ برِعايةِ حُكْمِ اللهِ وما شرَعَه، والعَملِ به، وبَعْثِ النَّاسِ على التَّنافُسِ في العِلمِ به؛ إذْ قَدِ اعْتَنى اللهُ بالنَّاسِ؛ حيثُ أنزَلَ إليهم ما فيه صلاحُهم[2].

- وفي قولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾ أُعِيدَ التَّحريضُ على العَملِ بما أمَرَ اللهُ بالوعدِ بما هو أعظَمُ مِنَ الأرزاقِ، وتَفريجِ الكُرَبِ، وتَيسيرِ الصُّعوباتِ في الدُّنيا، وذلك هو تَكفيرٌ للسَّيِّئاتِ، وتَوفيرٌ للأُجورِ، والجُملةُ مَعطوفةٌ على الجُملةِ المُعترِضةِ؛ فلها حكْمُ الاعتراضِ[3].

- لَمَّا كانَ الكلامُ في أمْرِ المُطلَّقاتِ وأحكامِهنَّ مِنَ العدَدِ وغيرِها، وكُنَّ لا يُطلِّقْهنَّ أزواجُهنَّ إلَّا عن بُغضٍ لهُنَّ وكَراهةٍ؛ جاءَ عَقيبَ بَعضِ الجُمَلِ الأمرُ بالتَّقوى مِن حيثُ المعنى، مُبرَزًا في صُورةِ شَرْطٍ وجَزاءٍ في قولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾؛ إذِ الزَّوجُ المُطلِّقُ قد يَنسُبُ إلى مُطلَّقتِه بعضَ ما يَشينُها به، ويُنفِّرُ الخُطَّابَ عنها، ويُوهِمُ أنَّه إنَّما فارَقَها لأمرٍ ظهَرَ له منها؛ فلذلكَ تَكرَّرَ قولُه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ في العمَلِ بما أنْزَلَه من هذِه الأحكامِ، وحافَظَ على الحُقوقِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٤).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٢٤، ٣٢٥).

الواجبةِ عليه مِن ترْكِ الضِّرارِ والنَّفقةِ على المُعتدَّاتِ، وغيرِ ذلكَ ممَّا يلزمُه؛ يُرتِّبْ له تَكفيرَ السَّيِّئاتِ، وإعظامَ الأجرِ[1].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠١).

الآيتان (٦-٧)

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وُجْدِكُمْ﴾: أي: سَعَتِكم ومَقدِرَتِكم، والوُجْدُ: المَقدِرةُ والسَّعَةُ[1].

﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾: أي: ولا تُؤذُوهنَّ، وأصلُ (ضرر) هنا: يدُلُّ على خِلافِ النَّفعِ[2].

﴿وَأْتَمِرُوا﴾: أي: لِيَأمُرْ كُلُّ واحِدٍ صاحِبَه بخَيرٍ، أو: تَشاوَرُوا، والائتِمارُ: التَّشاوُرُ والتَّداوُلُ في النَّظَرِ، وأصلُه مُطاوِعُ: أَمَرَه؛ لأنَّ المُتشاوِرِين يأمُرُ أحَدُهما الآخَرَ، فيأْتَمِرُ الآخَرُ بما أمَرَه[3].

﴿تَعَاسَرْتُمْ﴾: أي: اشتَدَّ الخِلافُ بَيْنَكم، ولم تَرجِعوا إلى وِفاقٍ، والتَّعاسُرُ: صُدورُ العُسرِ مِن الجانِبَينِ، وهو تَفاعُلٌ، مِن قَولِهم: عَسَرْتُ فُلانًا: إذا أخَذْتَه على عُسْرِه، ويُقالُ: تعاسَرَ البَيِّعانِ: إذا لم يتَّفِقا، وأصلُ (عسر): يدُلُّ على صُعوبةٍ وشِدَّةٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٠).

﴿سَعَةٍ﴾: أي: طاقةٍ وقُدرةٍ وغِنًى، والسَّعَةُ: هي الجِدَةُ مِنَ المالِ أو الرِّزقِ، وأصلُ (وسع): يدُلُّ على خِلافِ الضِّيقِ والعُسرِ[1].

﴿قُدِرَ﴾: أي: ضُيِّق وقُتِّر، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايتِه[2].

المعنى الإجماليُّ:

يأمرُ اللهُ تعالى الرِّجالَ بإسكانِ المطلَّقاتِ، وأن يُحسِنوا معامَلتَهنَّ، ويَنهاهم عن الإساءةِ إليهنَّ، فيقول: أسْكِنوا -أيُّها الأزواجُ- نِساءَكم المُطَلَّقاتِ مِمَّا توفَّرَ لَدَيكم وتيسَّرَ وُجودُه من مَساكِنِكم، إلى أن تَنتَهيَ عِدَّتُهنَّ، ولا تَضُرُّوهنَّ لتُضَيِّقوا عَليهِنَّ فتَضطرُّوهنَّ للخُروجِ من السَّكَنِ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى أحكامَ المطلَّقاتِ الحواملِ، وما يجبُ لهنَّ بعْدَ الوضعِ، فيقولُ: وإنْ كانت المُطلَّقاتُ حوامِلَ فأنفِقوا عليهِنَّ إلى أن تَنتهيَ عِدَّتُهنَّ بوِلادتِهنَّ، فإنْ أرضَعْنَ لكم أولادَكم فأعطوهنَّ أُجرةَ الرَّضاعةِ، وتَشاوَروا فيما بيْنَكم بالمعروفِ وبما هو خيرٌ للطِّفلِ الرَّضيعِ، وإن اختَلَفتُم في شأنِ الرَّضاعِ فلْيَستأجِرِ الأبُ لوَلَدِه مُرضِعةً أُخرى.

ثمَّ يُقدِّرُ اللهُ تعالى النَّفقةَ، بحسَبِ حالِ الزَّوجِ، فيقولُ: لِيُنفِقْ مَن وَسَّعَ اللهُ عليه على مُطَلَّقتِه ووَلَدِه الرَّضيعِ، ويُوَسِّعْ عليهم في النَّفَقة، ومَن كان فقيرًا قد ضُيِّقَ عليه رِزقُه فلْيُنفِقْ مِمَّا أعطاه اللهُ على قَدْرِ سَعَتِه، لا يُكَلِّفُ اللهُ أحَدًا إلَّا بقَدْرِ ما أعطاه، بحَسَبِ حالِه من الغِنى والفَقرِ.

ثمَّ يختمُ اللهُ تعالى الآيةَ ببشارةٍ لِمَن يتَّبِعُ أمْرَه، فيقولُ: سيَجعَلُ اللهُ بعْدَ الفَقرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٠، ٨٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢، ٦٣).

والشِّدَّةِ والضِّيقِ غِنًى ورَخاءً وسَعَةً.

تَفسيرُ الآيتَين:

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

تقدَّم أنَّ اللهَ نهى عن إخراجِ المطَلَّقاتِ مِن البُيوتِ، وهنا أمَرَ بإسكانِهنَّ[1].

وأيضًا فإنَّ قَولَه تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ وما بَعْدَه بيانٌ لِما شُرِطَ مِن التَّقوى في قَولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الطلاق: ٤]، كأنَّه قيل: كيف تكونُ التَّقوَى في شأنِ المعتَدَّاتِ؟ فقيل[2]:

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾.

أي: أسْكِنوا -أيُّها الأزواجُ- نِساءَكم المُطَلَّقاتِ في المكانِ الَّذي تَسكُنونَ فيه مِمَّا توفَّرَ لَدَيكم، وتيسَّرَ وُجودُه لكم إلى أن تَنتَهيَ عِدَّتُهنَّ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٠١)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٧٥٦)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٨١، ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

ذكَر ابنُ القيِّم أنَّ الضَّميرَ في قولِه تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ يحتمِلُ أنْ يكونَ للبائنِ، وأنْ يكونَ للرجعيَّةِ، وأنْ يكونَ لهما، ورجَّح حملَه على الرجعيَّةِ، فقال: (حملُه على الرجعيَّةِ هو المتعيِّنُ لتتَّحِدَ الضَّمائِرُ ومفسِّرُها، فلو حُمِل على غيرِها لزم اختلافُ الضَّمائِرِ ومفسِّرُها وهو خلافُ الأصلِ، والحملُ على الأصلِ أولَى). ((زاد المعاد)) (٥/ ٤٨٢). =

﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ﴾.

أي: ولا تَضُرُّوهنَّ -أيُّها الأزواجُ- بأيِّ ضَرَرٍ؛ مِن أجْلِ أن تُضَيِّقوا عَليهِنَّ في مَسكَنِكم، فتَضطرُّوهنَّ للخُروجِ منه قبْلَ انتِهاءِ عِدَّتِهنَّ(١).

﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾.

أي: وإنْ كانت المُطلَّقاتُ حوامِلَ فأنفِقوا عليهِنَّ إلى أن تَنتهيَ عِدَّتُهنَّ بولادتِهنَّ(٢).

= وقيل: الضَّميرُ في قوله: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ﴾ يَعودُ إلى النِّساءِ المُطَلَّقاتِ كُلِّهنَّ، فيَشملُ المُطَلَّقةَ الرَّجعيَّةَ والبائِنَ والحامِلَ، وانعقَد الإجماعُ على وُجوبِ السُّكْنى للمطلَّقةِ الرَّجعيَّةِ والحامِلِ، وذهَبَ جمهورُ أهلِ العِلمِ إلى وُجوبِ السُّكنى حتَّى للبائِنِ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٥، ٣٢٦).

وسيأتي تفصيلُ الكلامِ عن هذه المسألةِ (ص: ٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٩، ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

قال القرطبي: (لا خِلافَ بيْن العُلَماءِ في وُجوبِ النَّفَقةِ والسُّكنى للحامِلِ المُطَلَّقةِ ثلاثًا أو أقلَّ مِنهنَّ حتَّى تَضعَ حَمْلَها). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٨).

قال الشوكاني: (فأمَّا الحامِلُ المُتوفَّى عنها زَوجُها؛ فقال عليٌّ، وابنُ عُمَرَ، وابنُ مَسعودٍ، وشُرَيحٌ، والنَّخَعيُّ، والشَّعْبيُّ، وحمَّادٌ، وابنُ أبي لَيلى، وسُفيانُ وأصحابُه: يُنفَقُ عليها مِن جميعِ المالِ حتَّى تَضَعَ. وقال ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ الزُّبَيرِ، وجابرُ بنُ عبدِ اللهِ، ومالِكٌ، والشَّافعيُّ، وأبو حَنيفةَ وأصحابُه: لا يُنفَقُ عليها إلَّا مِن نَصيبِها. وهذا هو الحَقُّ؛ للأدِلَّةِ الواردةِ في ذلك مِنَ السُّنَّةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٣). ويُنظر ما سيأتي (ص: ٨٢).

وقال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ قال كثيرٌ من العلماءِ -منهم ابنُ عبَّاسٍ، وطائفةٌ مِن السَّلفِ، وجماعاتٌ مِن الخلَفِ-: هذه في البائنِ، إن كانت حاملًا أنفق عليها حتَّى تضعَ حمْلَها، قالوا: بدليلِ أنَّ الرَّجعيَّةَ تجبُ نفقتُها، سواءٌ كانت حاملًا أو حائلًا. وقال آخَرون: بل السِّياقُ كلُّه في الرَّجعيَّاتِ، وإنَّما نصَّ على الإنفاقِ على الحاملِ وإن كانت =

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانَ الحَمْلُ يَنْتهي بالوَضْعِ، انتُقِلَ إلى بَيانِ ما يجِبُ لهُنَّ بعْدَ الوضْعِ؛ فإنَّهُنَّ بالوضْعِ يَصِرْنَ بائناتٍ، فتَنقطِعُ أحكامُ الزَّوجيَّةِ، فكان السَّامعُ بحيثُ لا يَدْري هلْ يكونُ إرضاعُها ولَدَها حقًّا عليها كما كان في زمَنِ العِصمةِ، أو حقًّا على أبيهِ فيُعْطِيها أجْرَ إرْضاعِها كما كان يُعْطيها النَّفقةَ مِن أجْلِ ذلك الولَدِ حينَ كان حَمْلًا[1]؟

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

أي: فإنْ أرضَعَ نِساؤُكم المطلَّقاتُ أولادَكم فأعطوهنَّ أُجرةَ الرَّضاعةِ[2].

﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾.

أي: ولْيَتَشاوَرْ كلٌّ مِنَ الزَّوجِ ومُطلَّقتِه، ويأمُرْ بَعضُهم بعضًا بما هو خيرٌ للطِّفلِ الرَّضيعِ، بلا ضررٍ ولا ضِرارٍ، ويَقبَلوا ذلك، ويَعمَلوا به، فلا يُقَصِّرُ الوالِدُ في النَّفَقةِ، ولا تُقَصِّرُ المُرضِعةُ في القيامِ بشَأنِ الرَّضيعِ[3].

= رجعيَّةً؛ لأنَّ الحملَ تطولُ مدَّتُه غالبًا، فاحتيج إلى النَّصِّ على وُجوبِ الإنفاقِ إلى الوضعِ؛ لئلَّا يتوهَّمَ أنَّه إنَّما تجبُ النَّفقةُ بمِقدارِ مدَّةِ العدَّة.

واختلَفَ العُلماءُ: هل النَّفقةُ لها بواسِطةِ الحملِ، أم للحملِ وحْدَه؟ على قولَينِ مَنصوصَينِ عن الشَّافعيِّ وغيرِه، ويتفرَّعُ عليها مسائلُ مذكورةٌ في علمِ الفروعِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٨)، ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٦)، =

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾.

أي: وإن اختلَف الزَّوجُ ومُطَلَّقتُه في شأنِ رَضاعِ وَلَدِها منه، فلم يتَّفِقَا على الأُجرةِ أو امتنَعَت الأمُّ عنَ الرَّضاعِ، فلا تُكرَهُ على إرضاعِه، ولْيَستأجِرِ الأبُ لوَلَدِه مُرضِعةً أُخرى[1].

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت المُعاسَرةُ في الغالِبِ في تَركِ السَّماحِ، وكان تَركُ السَّماحِ مِن خَوفِ الإعدامِ؛ نَبَّه اللهُ سبحانه على أنَّ ذلك ليس بعُذرٍ، بتَقسيمِ النَّاسِ إلى مُوَسَّعٍ عليه وغَيرِه، ولأنَّ الألْيَقَ بالمُوَسَّعِ عليه أن يُوَسِّعَ ولا يُسيءَ الظَّنَّ برَبِّه وقد جَرَّبَ رِفْدَه، وأنَّ المُقَتَّرَ عليه لا ينبغي أن يَفعَلَ فِعلَ مَن يخافُ أن يُخلِفَ وَعْدَه[2].

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾.

أي: على مَن وَسَّعَ اللهُ عليه أن يُوَسِّعَ في النَّفَقةِ على مُطَلَّقتِه ووَلَدِه الرَّضيعِ[3].

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾.

= ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٠، ١٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

أي: ومَن كان فقيرًا قد ضُيِّقَ عليه رِزقُه فلْيُنفِقْ مِمَّا أعطاه اللهُ مِنَ الرِّزقِ، على قَدْرِ مالِه(١).

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾.

أي: لا يُكَلِّفُ اللهُ أحَدًا من النَّفَقةِ الواجِبةِ عليه إلَّا بقَدْرِ ما أعطاه مِنَ الرِّزق؛ كُلٌّ بحَسَبِ حالِه مِن الغِنى والفَقرِ، فلا يُكَلِّفُ اللهُ الفَقيرَ أن يُنفِقَ مِثلَ نَفَقةِ الغَنيِّ(٢).

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾

أي: سيَجعَلُ اللهُ للفَقيرِ بعدَ الفَقرِ والشِّدَّةِ والضِّيقِ غِنًى ورَخاءً وسَعَةً(٣).

قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: ولْيَأمُرْ كُلُّ واحِدٍ مِنَ الزَّوجَينِ

(١) يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٥/ ٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣١).

قال القرطبي: (تُقَدَّرُ النَّفَقةُ بحَسَبِ الحالةِ مِن المُنفِقِ، والحاجةِ مِن المنفَقِ عليه، بالاجتِهادِ على مَجرى العادةِ، فيَنظُرُ المُفتي إلى قَدرِ حاجةِ المنفَقِ عليه، ثمَّ يَنظُرُ إلى حالةِ المُنفِقِ؛ فإن احتَمَلَت الحالةُ [الحاجةَ] أمْضاها عليه، فإن قصَّرتْ حالتُه عن حاجةِ المنفَقِ عليه رَدَّها إلى قَدْرِ احتِمالِه). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

ومِن غَيرِهما الآخَرَ بالمَعروفِ، وهو كُلُّ ما فيه مَنفعةٌ ومَصلحةٌ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ فإنَّ الغَفلةَ عن الائتِمارِ بالمَعروفِ يَحصُلُ بها مِن الشَّرِّ والضَّرَرِ ما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، وفي الائتِمارِ تعاوُنٌ على البِرِّ والتَّقْوى(١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ فيه تنبيهٌ صَريحٌ بألَّا يُضارَّ أحَدُ الوالِدَينِ بوَلَدِه، وأن تكونَ المفاهمةُ بيْن الزَّوجَينِ بعْدَ الفُرقةِ في جميعِ الأُمورِ -سواءٌ في خُصوصِ الرَّضاعِ أو غَيرِه- مَبناها على المعروفِ والتَّسامُحِ والإحسانِ؛ وفاءً لحَقِّ العِشْرةِ السَّابِقةِ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ استِحبابُ مُراعاةِ الإنسانِ حالَ نفْسِه في النَّفَقةِ والصَّدَقةِ(٣).

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾. قولُه ﴿قُدِرَ﴾ بناه للمَفعولِ؛ تعليمًا للأدَبِ معه سُبحانَه وتعالى(٤).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ استُدِلَّ به على وُجوبِ السُّكْنى للمُطَلَّقاتِ كُلِّهنَّ، وللبَوائِنِ؛ لتَقَدُّمِ سُكْنى الرَّجْعيَّاتِ، ولِقَولِه بَعْدُ: ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾؛ فإنَّه خاصٌّ بالبوائِنِ(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٣).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٧). =

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ تعميمُ المُطَلَّقات بالسُّكْنى، وتخصيصُ أُولاتِ الأحمالِ بالنَّفَقةِ: استُدِلَّ به على أنَّ غيرَها مِنَ المُطَلَّقاتِ لا يُشارِكُها في النَّفَقةِ، وتُشارِكُهنَّ في السُّكْنى[1]. فقولُه: ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟

= ويُنظر تفصيلُ مسألةِ النَّفَقةِ والسُّكْنى في حاشيةِ الفائدةِ التَّاليةِ.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٢).

قال ابن عاشور: (ظاهِرُ نَظْمِ الآيةِ يَقْتضي أنَّ الحواملَ مستحِقَّاتُ الإنفاقِ دونَ بعضِ المطلَّقات؛ أخْذًا بمفهومِ الشَّرطِ، وقد أخَذ بذلك الشَّافعيُّ والأوزاعيُّ وابنُ أبي ليلَى. ولكنَّ المفهومَ مُعَطَّلٌ في المطَلَّقاتِ الرَّجعيَّات؛ لأنَّ إنفاقَهنَّ ثابتٌ بأنَّهنَّ زوجاتٌ. ولذلك قال مالكٌ: إنَّ ضميرَ ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ للمطلَّقاتِ البوائِنِ... ومَن لم يأخُذْ بالمفهومِ قالوا: الآيةَ تعرَّضَتْ للحواملِ تأكيدًا للنَّفقةِ عليهنَّ؛ لأنَّ مُدَّةَ الحملِ طويلةٌ، فرُبَّما سَئِم المطَلِّقُ الإنفاقَ، فالمقصودُ من هذه الجملةِ هو الغايةُ الَّتي بقولِه: ﴿حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، وجعلوا للمطلَّقةِ غيرِ ذاتِ الحملِ الإنفاقَ. وبه أخذ أبو حنيفةَ والثَّوريُّ. ونُسِب إلى عُمَرَ بنِ الخطَّابِ وعبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهما). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٨).

أمَّا نَفَقةُ المُطَلَّقةِ الرَّجعيَّةِ وسُكْناها في العِدَّةِ فهو واجبٌ بالإجماعِ، وممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الشَّافعيُّ، وابنُ حَزمٍ، وابنُ قُدامةَ. يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٥/ ٢٥٣)، ((مراتب الإجماع)) لابن حزم (ص: ٧٨)، ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ٢٣٣).

أمَّا المُعتَدَّةُ البائِنُ الحائِلُ (غيرُ الحامِلِ) ففيها خِلافٌ: فمَذهَبُ الحَنابِلةِ والظَّاهريَّةِ أنَّه لا يَجِبُ لها السُّكْنى ولا النَّفَقةُ، واختاره ابنُ القيِّمِ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٤٦٥)، ((المحلى)) لابن حزم (١٠/ ٧٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٤٦٦)، ((نيل الأوطار)) للشوكاني (٦/ ٣٥٧-٣٥٩).

قال القاسمي: (أمَّا البائِنُ فلا سُكنى لها ولا نَفَقةَ؛ لِسُنَّةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الصَّحيحةِ الَّتي لا يُطعَنُ في صِحَّتِها الصَّريحةِ الَّتي لا شُبهةَ في دَلالتِها). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٥٣).

وقال السعدي: (أمَّا البائِنُ فليس لها سُكنى واجِبةٌ؛ لأنَّ السَّكَنَ تَبَعٌ للنَّفَقةِ، والنَّفَقةُ تَجِبُ للرَّجعيَّةِ دونَ البائِنِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

ومذهبُ الحنَفيَّةِ أنَّ لها النَّفَقةَ والسُّكْنى. يُنظر: ((الهداية شرح البداية)) للمَرْغيناني (٢/ ٤٤).=

عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ استُدِلَّ بمَفهومِه على أنَّ غيرَ الحامِلِ لا نَفَقةَ لها[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ فيه أنَّ الإسكانَ يُعتَبَرُ بحالِ الزَّوجِ[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ﴾ فيه تحريمُ المُضارَّةِ بها، وإلجائِها إلى الخُروجِ[٣].

٥- (مِنْ) الواقعةُ في قولِه: ﴿مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم﴾ للتَّبعيضِ، أي: في بعضِ ما سكَنْتُم. ويُؤخَذُ منه أنَّ المسكنَ صالحٌ للتَّبعيضِ بحسَبِ عُرْفِ السُّكنى، مع تَجنُّبِ التَّقارُبِ في المَبيتِ إنْ كانتْ غيرَ رَجعيَّةٍ، فيُؤخَذُ منه أنَّه إنْ لم يَسَعْهُما خرَجَ الزَّوجُ المُطلِّقُ، كأنَّه قيلَ: أسكِنوهُنَّ مكانًا مِنْ مَسكنِكم ممَّا تُطيقونَه[٤].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ فيه وُجوبُ الإنفاقِ على البائنِ الحامِلِ حتَّى تَنقَضيَ عِدَّتُها[٥].

٧- إنْ قيل: فما الفائدةُ في تخصيصِ نفَقةِ الرَّجعيَّةِ بكونِها حاملًا؟

= ومَذهَبُ المالِكيَّةِ والشَّافِعيَّةِ أنَّه يجبُ لها السُّكنى، لا النَّفقةُ. يُنظر: ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (٥/ ٥٥٣)، ((العزيز شرح الوجيز)) للرافعي (١٠/ ٤٠).

وأمَّا البائنُ الحاملُ فلها النَّفَقةُ والسُّكْنى بالإجماعِ، وممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الكاساني، وابنُ قدامة، والقرطبي. يُنظر: ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٣/ ٢٠٩)، ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٨).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٧). وذلك بالإجماعِ كما تقدَّم.

قيل: ليس في الآيةِ ما يقتضي أنَّه لا نفقةَ للرَّجعيَّةِ الحائلِ، بل الرَّجعيَّةُ نَوعانِ قد بيَّن الله حُكمَهما في كتابِه: حائلٌ: فلها النَّفقةُ بعَقدِ الزَّوجيَّة؛ إذ حُكمُها حُكمُ الأزواجِ، أو حاملٌ: فلها النَّفقةُ بهذه الآيةِ إلى أنْ تضَع حملَها، فتصيرَ النَّفقةُ بعدَ الوضعِ نفقةَ قريبٍ لا نفقةَ زوجٍ، فيُخالِفَ حالُها قبْلَ الوضع حالَها بعْدَه؛ فإنَّ الزَّوجَ يُنفِقُ عليها وحْدَه إذا كانت حاملًا، فإذا وضَعت صارتْ نفقتُها على مَن تجبُ عليه نفقةُ الطِّفلِ، ولا يكونُ حالُها في حالِ حملِها كذلك، بحيث تجِبُ نفقتُها على مَن تجِبُ عليه نفقةُ الطِّفلِ؛ فإنَّه في حالِ حملِها جزءٌ مِن أجزائِها، فإذا انفَصل كان له حُكمٌ آخَرُ، وانتقلت النَّفقةُ مِن حُكمٍ إلى حكمٍ، فظهَرت فائدةُ التَّقييدِ، وسرُّ الاشتراطِ، واللهُ أعلمُ بما أراد مِن كلامِه[(١)].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ استدَلَّ بعُمومِه مَن أوجَبَ النَّفَقةَ للحاملِ المُتوفَّى عنها[(٢)].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فائدةُ ذِكرِ الغايةِ فيه: رَفْعُ توَهُّمِ أنَّ النَّفَقةَ تَتقَيَّدُ بمُضِيِّ مِقدارِ عِدَّةِ الأقراءِ، أو أنَّه إذا طالت

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٧).

وهو قولُ شُرَيحٍ، وابنِ سِيرينَ، والشَّعْبي، وأبي العاليةِ، والنَّخَعيِّ، وجُلاس بنِ عَمرٍو، وحمَّادِ ابنِ أبي سُلَيمانَ، وأيُّوبَ السَّختيانيِّ، وسُفْيانَ الثَّوريِّ، وأبي عُبَيدٍ، ورُوِيَ عن عليٍّ، وعبدِ الله بن مسعود، وابنِ عُمَرَ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٨٥).

واتَّفقَت المَذاهِبُ الفِقهيَّةُ الأربعةُ على أنَّ المُعتدَّةَ مِن وَفاةِ زَوجِها لا نَفَقةَ لها حتَّى لو كانت حامِلًا. يُنظر: ((البحر الرائق)) لابن نُجَيم (٤/ ٢١٧)، ((منح الجليل)) لِعُلَيْش (٤/ ٣١٩)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٩/ ٦٨)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ٢٣٢).

وهو قولُ سعيدِ بنِ المُسَيِّبِ، وعَطاءٍ، والحسَنِ، وعِكْرِمةَ، وعبدِ الملِكِ بنِ يَعْلَى، ويحيى الأنصاريِّ، ورَبيعةَ، وإسحاقَ، ورُوِيَ عن جابرِ بنِ عبدِ الله، وابنِ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٨٥).

مُدَّةُ الحَملِ لا تَجِبُ النَّفَقةُ؛ مِن الإطالةِ[1].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يَعني حَقَّ الرَّضاعِ وأُجرتَه، واستُدِلَّ به على أنَّ اللَّبَنَ وإنْ خُلِقَ لمَكانِ الوَلَدِ فهو مِلْكٌ لها، وإلَّا لم يكُنْ لها أن تأخُذَ الأجْرَ[2].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ حَقَّ الرَّضاعِ والنَّفَقةِ: على الأزواجِ في حَقِّ الأولادِ[3]. فقد أوْجَب اللهُ تعالى نَفَقةَ الولدِ حَملًا ورَضيعًا بواسِطةِ الإنفاقِ على الحاملِ والمُرْضِعِ؛ فإنَّه لا يُمكِنُ رَزْقُه بدونِ رَزْقِ حامِلِه ومُرْضِعِه، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّ نفقةَ الوَلَدِ على أبيه أيضًا بعدَ فِطامِه؛ فإنَّه إذا كان في حالِ اختِفائِه وارتضاعِه أوجَبَ نفقةَ مَن تَحمِلُه وتُرضِعُه -إذْ لا يُمكِنُ الإنفاقُ عليه إلَّا بذلك- فالإنفاقُ عليه بعدَ فِصالِه إذا كان يُباشِرُ الارتِزاقَ بنَفْسِه: أَولى وأَحرى. وهذا مِن حُسْنِ الاستِدلالِ؛ فقد تَضَمَّنَ الخِطابُ التَّنبيهَ بأنَّ الحُكْمَ في المسكوتِ أَولى منه في المنطوقِ، وتَضَمَّنَ تعليلَ الحُكْمِ بكَونِ النَّفَقةِ إنَّما وَجَبَتْ على الأبِ لأنَّه هو الَّذي له الوَلَدُ دونَ الأمِّ، ومَن كان الشَّيءُ له كانت نَفَقتُه عليه؛ ولذا سُمِّيَ الوَلَدُ كَسْبًا في قَولِه: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ٢]، وفي قَولِه: ((إنَّ أطْيَبَ ما أَكَلَ الرَّجُلُ مِن كَسْبِه، وإنَّ ولدَه مِن كَسْبِه))[4].

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٤).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٤/ ١٠٦).

والحديث أخرجه مِن طُرقٍ: أبو داودَ (٣٥٢٨) باختلافٍ يسيرٍ، والنَّسائيُّ (٤٤٥٢)، وابنُ ماجه (٢١٣٧)، وأحمدُ (٢٤٠٣٢) واللَّفظُ لهم مِن حديثِ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها.

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٤٢٦٠)، وابنُ حزم في ((المحلى)) (٨/ ١٠٢)، وابن =

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فيه أنَّ الأُمَّ إذا طَلَبَت إرضاعَه بأُجرةِ مِثْلٍ، وَجَب على الأبِ دَفْعُها إليها، وليس له أن يَستَرضِعَ غَيْرَها[١].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ الأُمَّ أَولى بالحَضانةِ[٢].

١٤- قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ بيَّن أنَّ النَّسَبَ للرِّجالِ، بقَولِه تعالى: ﴿لَكُمْ﴾[٣].

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يدُلُّ على أنَّ الأُجرةَ إنَّما تُستَحَقُّ بالفَراغِ مِن العَمَلِ[٤].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أنَّ ما لا يُمكِنُ تَعرِيتُه مِن المجهولِ، ولا يُضْبَطُ بالتَّسميةِ في الإجاراتِ: جائزٌ[٥].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ ثُبوتُ عِوَضِ الإجارةِ بالمَعروفِ؛ فقد أمَرَ بإيتائِهنَّ أجورَهنَّ بمُجَرَّدِ الإرضاعِ[٦].

١٨- مَذهَبُ مالِكٍ وأحمَدَ بنِ حَنبَلٍ المشهورُ عنه، وغَيرِهما: أنَّ كُلَّ مَن

= الملقِّن في ((البدر المنير)) (٨/ ٣٠٨)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢١٣٧)، وحسَّنه لغيره شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٠/ ٣٤).

وقال ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (٢/ ٤١٩): (له طُرقٌ مُتعدِّدةٌ، بعضُها على شرطِ الصَّحيحَينِ).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٤٢٣).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٤/ ٣٤٦).

(٦) يُنظر: ((نظرية العقد)) لابن تيمية (١/ ١٦٤).

أدَّى عن غَيرِه واجِبًا فله أن يَرجِعَ به عليه إذا لم يكُنْ مُتبَرِّعًا بذلك، وإن أدَّاه بغيرِ إذْنِه؛ مِثلُ مَن قَضى دَيْنَ غيره بغَيرِ إذْنِه، سواءٌ كان قد ضَمِنَه بغَيرِ إذنِه وأدَّاه بغَيرِ إذنِه، أو أدَّاه عنه بلا ضَمانٍ، وكذلك مَنِ افْتَكَّ أسيرًا مِن الأَسْرِ بغيرِ إذْنِه يَرْجِعُ عليه بما افْتَكَّه به، وكذلك مَن أدَّى عن غيرِه نَفَقةً واجِبةً عليه، مِثلُ أنْ يُنفِقَ على ابنِه أو زَوجتِه أو بهائِمِه، لا سيَّما إذا كان للمُنفِقِ فيها حقٌّ، مِثلُ أنْ يكونَ مُرتَهِنًا أو مُستأجِرًا، أو كان مُؤتَمَنًا عليها، مِثلُ المُودِعِ، ومِثلُ رادِّ العَبدِ الآبِقِ، ومِثلُ إنفاقِ أحدِ الشَّريكَينِ على البهائِمِ المُشتَرَكةِ، وقد دلَّ على هذا الأصلِ قَولُه تعالى: ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، فأمَرَ سُبحانَه بإيتاءِ الأجرِ بمُجَرَّدِ إرضاعِهنَّ، ولم يَشترِطْ عَقْدَ استِئجارٍ، ولا إذْنَ الأبِ لها في أنْ تُرْضِعَ بالأجرِ، بل لَمَّا كان إرضاعُ الطِّفلِ واجِبًا على أبيه فإنْ أرضَعَتْه المرأةُ استحَقَّتِ الأجرَ بمُجَرَّدِ إرضاعِها[1].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أنَّ الإجارةَ تكونُ على كلِّ ما يُستوفَى مع بقاءِ أصْلِه، سواءٌ كانت عَينًا أو مَنفَعةً، فلمَّا كان لَبَنُ المُرضِع يُستوفَى مع بَقاءِ الأصلِ، ونَقْعُ البِئرِ[2] يُستوفَى مع بقاءِ الأصلِ؛ جازتِ الإجارةُ عليه كما جازتْ على المنفعةِ؛ فإنَّ هذه الأعيانَ يُحْدِثُها اللهُ شيئًا بعدَ شيءٍ وأصلُها باقٍ، كما يُحْدِثُ اللهُ المنافعَ شيئًا بعدَ شيءٍ وأَصْلُها باقٍ؛ ولهذا جاز وَقْفُ هذه الأصولِ لاستِمرارِ هذه الفوائدِ؛ أعيانِها ومَنافِعِها[3].

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٠/ ٣٤٩). ويُنظر أيضًا: ((الذخيرة)) للقرافي (٩/ ٢٠٣)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ٢٢٨).

(٢) نَقْعُ البِئْرِ: ما اجتَمَع في البِئرِ مِن الماءِ، أو فَضلُ مائِها. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٠/ ٢٣٠).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖ﴾ صِحَّةُ المعاوَضةِ بثَمَنِ المِثْلِ[(١)].

٢١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖ﴾ الائتِمارُ بمَعروفٍ يُشعِرُ بأنَّ للعُرفِ دَخلًا في ذلك[(٢)].

٢٢- قولُه تعالى: ﴿وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖ﴾ قيَّدَ الائتمارَ بالمعروفِ، أي: ائتمارًا مُلابِسًا لِمَا هو المعروفُ في مِثْلِ حالِهِمْ وقَومِهم، أي: مُعتادٌ مَقبولٌ، فلا يَشتَطُّ الأبُ في الشُّحِّ، ولا تَشتَطُّ الأمُّ في الحِرصِ[(٣)].

٢٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾ يدُلُّ على أنَّ الأُمَّ لا تُجبَرُ على الرَّضاعِ حيثُ يُوجَدُ غَيرُها، وقَبِلَ الصَّبيُّ ثَدْيَها، وإلَّا أُجبِرَت عليه[(٤)].

٢٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾ أصلٌ في وُجوبِ النَّفَقةِ للوَلَدِ على الوالِدِ دونَ الأُمِّ[(٥)].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾ أنَّ الأمَّ إذا أرادتِ الإجحافَ بالأبِ في إغلاءِ أُجرةِ الرَّضاعِ كان للأَبِ دَفْعُه إلى أجنبيَّةٍ، ولم يُجبَرِ الأبُ على أكثَرَ من أُجرةِ مِثْلِها في إرضاعِها[(٦)].

٢٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ فيه أنَّ النَّفَقةَ يُراعَى فيها حالُ المُنفِقِ يَسارًا وإعسارًا، وأنَّ نَفَقةَ المُعسِرِ

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٧).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٩١).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٤٦).

أقَلُّ مِن نَفَقةِ المُوسِرِ[١].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أنَّ الزَّوجَ يَجِبُ عليه أنْ يُنْفِقَ على زَوجتِه ولو كانت غَنيَّةً، ولِقَولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: ((لَهُنَّ عليكم رِزْقُهنَّ وكِسْوَتُهنَّ بالمعروفِ))[٢]، لكنْ ينبغي للزَّوجةِ إذا كان زوجُها فقيرًا وليس ذا سَعَةٍ من المالِ؛ ينبغي لها أنْ تُساعِدَه على مَؤونةِ البيتِ، ومَؤونةِ العيالِ، ومَؤونةِ نَفْسِها أيضًا[٣].

٢٨- قولُه تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ هو حَثٌّ على التَّوسُّعِ في النَّفَقةِ لِمَن وَسَّع اللهُ عليه[٤]، فالمؤمِنُ في حالِ غِناه يَزيدُ على نَفَقتِه في حالِ فَقْرِه، كما قال بَعضُ السَّلَفِ: (إنَّ المؤمِنَ يأخُذُ عن اللهِ أدَبًا حَسَنًا؛ إذا وسَّعَ اللهُ عليه وسَّع على نَفْسِه، وإذا ضَيَّقَ عليه ضَيَّق على نَفْسِه)، ثمَّ تلا قولَه تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾، لكِنْ يكونُ في حالِ غِناه مُقتَصِدًا غَيرَ مُسرِفٍ[٥].

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أنَّ نَفْسَ المالِ يُسَمَّى رِزْقًا، لا أنَّ اسمَ الرِّزقِ لا يقعُ إلَّا على ما استُهْلِك بالأكلِ واللِّباسِ وما أشبهَهما[٦].

٣٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ استَدَلَّ به مَن قال: لا فَسْخَ

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٨).

(٢) أخرجه مسلمٌ (١٢١٨) مطوَّلًا من حديثِ جابرٍ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٦).

(٥) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٦٨).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٤٧).

بالعَجزِ عن الإنفاقِ للزَّوجةِ[١].

٣١- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أنَّ مَن وَجَبَ عليه نَفَقةُ قَوم فلَمْ يَقْدِرْ على تمامِها، لم يَلْزَمْه الإقحامُ على ما لا يَحِلُّ له، ووَجَبَ عليه الاقتِصارُ على ما أُوتيَ مِن الرِّزقِ، وعلى مَن يَعولُهم الصَّبرُ معه على انتِقالِ حالِه مِن العُسْرِ إلى اليُسْرِ الَّذي وَعَدَه اللهُ في هذه الآيةِ[٢].

٣٢- قال اللهُ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ هذا مُناسِبٌ للحِكمةِ والرَّحمةِ الإلهيَّةِ؛ حيثُ جَعَل كُلًّا بحَسَبِه، وخَفَّف عن المُعسِرِ، وأنَّه لا يُكَلِّفُه إلَّا ما آتاه، فلا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَها في بابِ النَّفَقةِ وغَيرِها[٣].

٣٣- قولُه تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ فيه تطييبٌ لقلْبِ المُعسِرِ، وتَرغيبٌ له في بذْلِ مجهودِه[٤].

٣٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ هذه بِشارةٌ للمُعسِرينَ أنَّ اللهَ تعالى سيُزيلُ عنهم الشِّدَّةَ، ويَرفَعُ عنهم المَشَقَّةَ[٥].

٣٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ لا يُنافي قَولَه تعالى: ﴿إِنَّ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٨).

مذهبُ الحنفيَّةِ أنَّ مَن أعسَر بنفقةِ امرأةٍ لم يُفرَّقْ بيْنَهما. يُنظر: ((العناية شرح الهداية)) للبابَرْتي (٤/ ٣٨٩).

ومذهبُ الجمهورِ مِن المالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ -في الأظهرِ-، والحنابلةِ أنَّه إذا أعسَرَ الزَّوجُ بالنَّفَقةِ ولم تَصبِرِ الزَّوجةُ، فلها الفَسخُ. يُنظر: ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ٥١٨)، ((منهاج الطالبين)) للنووي (ص: ٢٦٥)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ [الشرح: ٦]؛ لأنَّ (مع) بمعنى (بَعْدَ)، وإلَّا فيَلزَمُ اجتِماعُ الضِّدَّين، وهو مُحالٌ[١].

بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾

- قولُه: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ﴾ استِئنافٌ وقَعَ جوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ ممَّا قَبْلَه مِنَ الحثِّ على التَّقوى؛ كأنَّه قيلَ: كيفَ نَعمَلُ بالتَّقْوى في شأنِ المُعتدَّاتِ؟ فقيلَ: أسكِنوهُنَّ مَسْكنًا مِن حيثُ سكَنْتُم، أي: بعضَ مكانِ سُكْناكُم[٢].

- وهذِه الجملةُ وما أُلْحِقَ بها مِنَ الجُمَلِ إلى قولِه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ ...﴾ [الطلاق: ٨] إلخ؛ تَشريعٌ مُستأنَفٌ، فيه بيانٌ لِما أُجْمِلَ في الآياتِ السَّابقةِ من قولِه: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، وقولِه: ﴿أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ [الطلاق: ٢]، وقولِه: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]؛ فتَتنزَّلُ هذِه الجُمَلُ مِنَ اللَّاتي قَبلَها مَنزِلةَ البَيانِ لبَعضٍ، وبدَلِ الاشتِمالِ لبَعضٍ، وكلُّ ذلكَ مُقتضًى للفَصْلِ -أي: عدم العَطفِ بالواوِ-، وابْتُدِئَ ببَيانِ ما في ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] مِن إجمالٍ[٣].

- وقولُه: ﴿مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم﴾، أي: في البُيوتِ الَّتي تَسكُنونَها، أي: لا يُكلَّفُ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٥).

المُطلِّقُ بمَكانٍ للمُطلَّقةِ غيرَ بَيتِه، ولا يَمنَعُها السُّكنى ببَيتِه، وهذا تأكيدٌ لقولِه: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾[1] [الطلاق: ١].

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ بدَلُ مُطابِقٌ، وهو بَيانٌ لقولِه: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾؛ فإنَّ مَسكَنَ المرْءِ هو وُجْدُه الَّذي وجَدَهُ غالبًا لِمَن لم يكُنْ مُقتِّرًا على نفْسِه[2].

- قولُه: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ المُضارَّةُ: الإضرارُ القويُّ، فكأنَّ المُبالَغةَ راجعةٌ إلى النَّهيِ، لا إلى المَنهيِّ عنه، أي: هو نهْيٌ شديدٌ[3].

- واللَّامُ في ﴿لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ لتَعليلِ الإضرارِ، وهو قَيْدٌ جَرى على غالِبِ ما يَعرِضُ للمُطلِّقينَ مِن مَقاصِدِ أهلِ الجاهليَّةِ، والإضرارُ بالمُطلَّقاتِ مَنْهيٌّ عنه، وإنْ لم يكُنْ لقصْدِ التَّضييقِ عليهِنَّ[4].

- وقولُه: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ خصَّ الأُمَّ بالمُعاتَبةِ؛ لأنَّ المَبذولَ مِن جِهَتِها هو لَبَنُها لوَلَدِها، وهو غيرُ مُتموَّلٍ ولا مَضْنونٍ به في العُرفِ، وخُصوصًا في الأُمِّ على الولَدِ، ولا كذلك المَبذولُ مِن جِهَةِ الأبِ؛ فإنَّه المالُ المَضنونُ به عادةً، فالأُمُّ إذَنْ أجْدرُ باللَّومِ، وأحقُّ بالعَتْبِ[5].

- وقولُه: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ عِتابٌ ومَوعظةٌ للأبِ والأُمِّ بأنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المُنيِّر)) (٤/ ٥٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٣).

يُنزِلَ كلٌّ مِنْهُما نفْسَه مَنزلةَ ما لَو اجْتُلِبَتْ للطِّفلِ ظِئْرٌ[(١)]، فلا تَسألُ الأمُّ أكثرَ مِن أجْرِ أمثالِها، ولا يَشِحُّ الأبُ عمَّا يَبلُغُ أجرَ أمثالِ أمِّ الطِّفلِ. وسِينُ الاستِقبالِ مُستعمَلٌ في معْنى التَّأكيدِ، وهذا المعنى ناشئٌ عن جَعْلِ علامةِ الاستِقبالِ كِنايةً عن تجدُّدِ ذلك الفِعلِ في أزمنةِ المُستقبَلِ تَحقيقًا لتحصيلِه، وهذا الخبرُ مُستعمَلٌ كِنايةً أيضًا عن أمرِ الأبِ باستئجارِ ظِئْرٍ للطِّفلِ، بقَرينةِ تعليقِ ﴿لَهُۥٓ﴾ بقولِه: ﴿فَسَتُرۡضِعُ﴾، فاجتمَعَ فيه ثلاثُ كِناياتٍ: كِنايةٌ عن مَوعظةِ الأبِ، وكِنايةٌ عن مَوعظةِ الأمِّ، وكِنايةٌ عن أمْرِ الأبِ بالاسترضاعِ لولَدِه[(٢)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ تَذييلٌ لِمَا سبَقَ مِن أحكامِ الإنفاقِ على المُعتدَّاتِ والمُرضِعاتِ بما يَعُمُّ ذلك، ويعُمُّ كلَّ إنفاقٍ يُطالَبُ به المسلِمُ مِن مَفروضٍ ومَندوبٍ، أي: الإنفاقُ على قدْرِ السَّعةِ[(٣)].

- ومعنى ﴿قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ جُعِلَ رِزقُه مقدورًا، أي: محدودًا بقدْرٍ مُعيَّنٍ، وذلك كنايةٌ عن التَّضييقِ، أي: مَن كانَ في ضيقٍ مِنَ المالِ فَلْيُنْفِقْ بما يَسمَحُ به رزقُه بالنَّظرِ إلى الوفاءِ بالإنفاقِ، ومَراتبِه في التَّقديمِ[(٤)].

- قولُه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ تَعليلٌ لقولِه: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾، والمقصودُ مِنه إقناعُ المُنفَقِ عليه بألَّا يَطلُبَ مِنَ المُنفِقِ أكثرَ من مَقدرتِه[(٥)].

---

(١) هي المُرْضِعةُ غيرَ ولَدِها. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٩، ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٣١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَأكيدِ الوَعدِ للفُقراءِ بفتحِ أبوابِ الرِّزقِ، عاجِلًا أو آجِلًا، وهو وعْدٌ مِن اللهِ تعالَى للمُنفِقِ بعْدَ أنْ أمَرَه بالإنفاقِ في قولِه: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾، فإذا قُيِّدَ مُطلَقُ الأمْرِ بما سبَقَ، وأنَّه حديثٌ مِن شأْنِ المُطلَّقاتِ والمُرضِعاتِ، يُقال: إنَّه لفُقراءِ الأزواجِ، وإذا تُرِكَ على إطلاقِه -ليكونَ استطرادًا في الكلامِ، على مِنوالِ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]-؛ يُقال: إنَّه موعدٌ لفُقراءِ ذلك الوقتِ، فيَدخُلُ فيه فُقراءُ الأزواجِ دُخولًا أوَّليًّا، وهذا أوفَقُ لتأليفِ النَّظمِ؛ ليَكونَ تخلُّصًا إلى قولِه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الطلاق: ٨]؛ لأنَّها كالخاتمةِ للتَّحريضِ على تَقوى اللهِ، وحِفظِ حُدودِه، والتَّفادي عن التَّجاوُزِ عنها. وقيل: لا يختصُّ هذا الوعدُ بفقراءِ ذلكَ الوقتِ، ولا بفقراءِ الأزواجِ مُطلَقًا، بل مَنْ أنفَقَ ما قَدَرَ عليه ولم يُقصِّرْ[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ تكملةٌ للتَّذييلِ؛ فإنَّ قولَهُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ يُناسِبُ مضمونَ جُملةِ ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾، وقولَه: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ يُناسِبُ مضمونَ: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ ...﴾ إلخ، وهذا الكلامُ خبرٌ مُستعمَلٌ في بعثِ التَّرجِّي، وطرْحِ اليأسِ عن المُعسِرِ مِن ذَوي العِيَالِ، ومعناهُ: عسى أنْ يجعَلَ اللهُ بعدَ عُسْرِكم يُسْرًا لكم؛ فإنَّ اللهَ يجعَلُ بعدَ عُسرٍ يُسرًا، وهذا الخبرُ لا يَقْتَضي إلَّا أنَّ من تصرُّفاتِ اللهِ أنْ يجعَلَ بَعْدَ عُسرِ قومٍ يُسرًا لهم، فمَن كان في عُسرٍ رجَا أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٨٢، ٤٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢٥).

يكونَ ممَّن يَشملُه فضلُ اللهِ، فيُبدِّلُ عُسرَه باليُسرِ[١].

- والإتيانُ بكلمتَيْ ﴿عُسْرٍ﴾ و﴿يُسْرًا﴾ نكرتَيْنِ غيرَ مُعرَّفتَيْنِ باللَّامِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ مِنَ التَّعريفِ معنى الاستِغراقِ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٣٣).

الآيات (٨-١٢)

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَكَأَيِّن ﴾: بمعنى كَمْ، ويُرادُ بها التَّكثيرُ، وهي لَفْظةٌ مركَّبةٌ مِن كافِ التَّشبيهِ، و(أيٍّ)، والنُّونُ هي التَّنوينُ، أُثْبِتَتْ في الخطِّ على غيرِ القياسِ[(١)].

﴿ عَتَتْ ﴾: أي: تكَبَّرت، وأصلُ (عتو): يدُلُّ على الاستِكبارِ[(٢)].

﴿ نُّكْرًا ﴾: أي: مُنكَرًا فَظيعًا، وأصْلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المَعرِفةِ الَّتي يَسكُنُ إليها القَلبُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٩)، ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٦، ١١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

﴿وَبَالَ أَمۡرِهَا﴾: أي: جزاءَ ذَنْبِها، وعاقِبةَ ما عمِلتْ، أو ثقلَ عاقبةِ أمرِها، والوَبالُ: الوخامةُ، وسوءُ العاقبةِ، وأصلُ (وبل): يدُلُّ على شِدَّةٍ في شيءٍ، وتجمُّعٍ[(١)].

﴿عَٰقِبَةُ﴾: عاقبةُ كلِّ شيءٍ: آخِرُه، أو: ما يُؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّمُ، والعاقبةُ تختصُّ بالثَّوابِ إذا أُطْلِقتْ، وقد تُستعمَلُ في العقوبةِ إذا أُضيفَتْ -كما هنا-، وأصلُ (عقب): تأخيرُ شيءٍ، وإتيانُه بعدَ غيرِه[(٢)].

﴿خُسۡرًا﴾: أي: هَلاكًا وخُسْرانًا، وأصلُ (خسر): يدُلُّ على النَّقصِ[(٣)].

﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: أي: العُقولِ، وأصْلُ (لبب) هنا: يدُلُّ على الخُلُوصِ والجَودةِ[(٤)].

مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا * رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾

قَولُه: ﴿رَّسُولٗا﴾ في نَصبِه أوجُهٌ مِنَ الإعرابِ:

أحَدُها: أنَّه بَدَلٌ مِن ﴿ذِكۡرٗا﴾ بدَلَ اشتِمالٍ؛ لأنَّ بيْن القُرآنِ والرَّسولِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُلازَمةً ومُلابَسةً؛ فإنَّ الرِّسالةَ تحَقَّقَت له عندَ نُزولِ القُرآنِ عليه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٥١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

الثَّاني: أنَّه بدَلُ كُلٍّ مِن كُلٍّ؛ جُعِلَ الرَّسولُ نَفْسَ الذِّكرِ مُبالَغةً فأُبدِلَ منه، أو يكونُ التَّقديرُ: ذِكرًا شَرَفَ رَسولٍ، أو ذِكرًا ذِكْرَ رَسولٍ، ويكونُ المرادُ بالذِّكرِ الشَّرفَ، وقد أقام المُضافَ إليه مُقامَ المُضافِ.

الثالِثُ: أنَّه مَفعولٌ به لفِعلٍ محذوفٍ، أي: أرسَلَ أو بَعَث رَسولًا، ودلَّ عليه ما تقدَّمَ مِن الكَلامِ.

الرَّابِعُ: أنَّه مَنصوبٌ على الإغراءِ، أي: اتَّبِعوا أو الْزَموا رَسولًا.

الخامِسُ: أنَّه مَفعولٌ به مَنصوبٌ بالمَصدَرِ ﴿ذِكْرًا﴾ في الآيةِ السَّابِقةِ. وقيلَ غَيرُ ذلك[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى متوعِّدًا مَنْ خالَف أمْرَه، وكذَّب رُسلَه، ومخبِرًا عمَّا حلَّ بالأُممِ السَّالفةِ بسببِ ذلك: وكَثيرٌ مِن القُرى الَّتي طغى أهلُها وتَكَبَّروا عن أمْرِ اللهِ ورُسُلِه، فحاسَبَهم اللهُ حِسابًا شَديدًا، وعذَّبَهم عَذابًا عَظيمًا مُنكَرًا، فذاقوا بذلك العَذابِ العاقِبةَ الوَخيمةَ، وكان آخِرُ أمْرِهم خُسْرانًا.

ثمَّ يبيِّنُ الله تعالى ما أعدَّه لهم في الآخرةِ مِن عذابٍ، فيقولُ: هَيَّأَ اللهُ تعالى لهم عَذابًا شَديدًا في الآخِرةِ، فخافُوا اللهَ واحذَروا سَخَطَه وعَذابَه، يا أصحابَ العُقولِ، الَّذين آمَنوا.

ثمَّ يُذكِّرُ المؤمنينَ بكتابِه الَّذي أنزَله عليهم، ورسولِه الَّذي أرسَله إليهم، فيقولُ: قد أنزَلَ اللهُ إليكم -أيُّها المؤمِنونَ- القُرآنَ العَظيمَ، وأرسَلَ رَسولَه

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٧).

مُحمَّدًا يتلو عليكم آياتِ القُرآنِ المُوضِّحاتِ للهُدى والحَقِّ؛ ليُخرِجَ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ.

ثُمَّ يُبيِّنُ الله تعالى حُسنَ عاقبةِ المؤمنينَ الصَّادقينَ، فيقولُ: ومَن يُؤمِنْ باللهِ ويَعمَلْ عَمَلًا صالِحًا يُدخِلْه اللهُ جنَّاتٍ تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ، ماكِثينَ فيها أبَدًا، قد وسَّع الله لِمَنْ آمَنَ به وعمِل صالحًا في الجنَّةِ رِزقَه مِن المَطاعِمِ والمَشارِبِ، وسائرِ ما أعدَّه لأوليائِه فيها.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى ما يدُلُّ على كمالِ قدرتِه، وسَعةِ عِلمِه، فيقولُ: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي خَلَق سَبْعَ سَمواتٍ، وخَلَق مِنَ الأرضِ مِثلَ عدَدِ السَّمَواتِ؛ سَبْعَ أَرَضينَ، يَتنزَّلُ أمْرُ اللهِ لخَلْقِه بيْن السَّمَواتِ والأَرَضينَ؛ لِيَعلَمَ العِبادُ كَمالَ قُدرةِ اللهِ تعالى، وكَمالَ عِلْمِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الأحكامَ والمواعِظَ، والتَّرغيبَ لِمن أطاع؛ حذَّر مَن خالَفَ، فقال تعالى[(١)]:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾.

أي: وما أكثَرَ القُرى الَّتي طغى أهلُها، فتَجاوَزوا أمْرَ اللهِ ورُسُلِه، وخالَفوا شَرْعَه، وتعَدَّوا حُدودَه، وبالَغوا في مَعصيتِه؛ فحاسَبَهم اللهُ حِسابًا أحصى عليهم فيه جميعَ ذُنوبِهم، فلم يَعْفُ لهم عن شَيءٍ منها[(٢)]!

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣١٩). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٤، ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧١، ٧٢)، =

كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

= ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٤-١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٣، ٣٣٤).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالحِسابِ الشَّديدِ: الَّذي ليس فيه عَفوٌ ولا تجاوُزٌ عن الذُّنوبِ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، وابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٧).

وممَّن رُوِيَ عنه هذا القَولُ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٢).

وقيل: المرادُ بالحِسابِ: العذابُ في الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٤).

قال أبو حيَّان: (والظَّاهرُ في ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا﴾ الجُمَلُ الأربعةُ، أنَّ ذلك في الدُّنيا؛ لقولِه بعدَها: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، وظاهِرُه أنَّ المُعَدَّ عذابُ الآخرةِ، والحسابُ الشَّديدُ هو الاستِقصاءُ والمُناقَشةُ، فلم تُغتفَرْ لهم زَلَّةٌ، بل أُخِذوا بالدَّقائقِ مِن الذُّنوبِ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٣).

وقيل: المرادُ بالحِسابِ: الاستِقصاءُ والمناقَشةُ في الآخِرةِ. وممَّن قال بهذا: الزمخشريُّ، والبيضاويُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٢). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٥، ١٦٦).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (﴿فَحَاسَبْنَٰهَا﴾ قال بعضُ المتأوِّلينَ: الآيةُ في الآخِرةِ، أي: ثَمَّ هو الحِسابُ والتَّعذيبُ والذَّوقُ وخَسارُ العاقِبةِ. وقال آخَرونَ: ذلك في الدُّنيا، ومعنى: ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾، أي: لم نَغتفِرْ لها زَلَّةً، بل أُخِذَت بالدَّقائِقِ مِنَ الذُّنوبِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٧).

وقال البِقاعي: (﴿فَحَاسَبْنَٰهَا﴾ أي: فتسَبَّبَ عن عَدَمِ شُكرِهم للإحسانِ أنْ أحصَيْنا أعمالَها. ولَمَّا كان ذلك على وَجهِ المُناقَشةِ على النَّقيرِ والقِطْميرِ بالمُجازاةِ على كُلِّ فِعلٍ بما يَليقُ به، قال: ﴿حِسَابًا شَدِيدًا﴾ بمعناه المُطابقيِّ مِن ذِكرِ الأعمالِ كُلِّها، والمجازاةِ عليها، وهذا هو المناقَشةُ، وهي أنَّ العامِلَ إذا أثَّرَ أثرًا بعَمَلِه هو كالنَّقشِ في الجامِدِ أثَّرَ المجازي له فيه أثرًا بحَسَبِ عَمَلِه على سَبيلِ الاستِقصاءِ، وأمَّا الحِسابُ اليسيرُ فهو عَرْضُ الأعمالِ فقط من غيرِ جَزاءٍ على قَبيحِها، فهو دَلالةُ تَضَمُّنٍ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٦٥، ١٦٦).

وقال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ۞ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٨، ٥٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

﴿وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾.

أي: وعذَّبْناهم عَذابًا عَظيمًا فَظيعًا مُنكَرًا[١].

قال تعالى حكايةً عن ذي القَرنَينِ: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٨٧].

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ⑨﴾.

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾.

أي: فذاقوا بذلك العَذابِ العاقِبةَ الوَخيمةَ؛ لِعُتُوِّهم عن أمرِ اللهِ ورُسُله[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٤، ٣٣٥).

قيل: المرادُ: عذابُ الآخرةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجُملةِ: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣).

وقيل: المرادُ: الإهلاكُ في الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٥).

﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا﴾.

أي: وكان آخِرُ أمْرِهم الخَسارةَ في الدُّنيا والآخِرةِ(١).

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠﴾.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾.

أي: هَيَّأَ اللهُ تعالى لهم عَذابًا شَديدًا في الآخِرةِ(٢).

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ ما حَلَّ بهذِه القريةِ العاتيةِ؛ أمَرَ المُؤمنينَ بتَقْوى اللهِ تَحذيرًا مِن عِقابِه، ونبَّهَ على ما يحُضُّ على التَّقوى، وهو إنزالُ الذِّكْرِ؛ فقال(٣):

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي: فخافُوا اللهَ واحذَروا سَخَطَه وعَذابَه، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نَواهيه -يا أصحابَ العُقولِ الصَّافيةِ والأفهامِ المُستَقيمةِ، الَّذين آمَنوا باللهِ ورُسُلِه-، ولا تكونُوا مِثلَ كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ؛ فيُهلِكَكم اللهُ كما أهلَكَهم(٤).

﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

أي: قد أنزَلَ اللهُ إليكم -أيُّها المؤمِنونَ- القُرآنَ الَّذي يُذَكِّرُكم اللهُ به، ويُنَبِّهُكم على الإيمانِ باللهِ، والقيامِ بطاعتِه[(١)].

﴿رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ١١﴾.

﴿رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ﴾.

أي: أرسَلَ اللهُ رَسولَه مُحمَّدًا يَتلو عليكم -أيُّها المؤمِنونَ- آياتِ القُرآنِ المُوضِّحاتِ للهُدى والحَقِّ على نحوٍ لا لَبْسَ فيه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٥، ٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٧).

وممَّن قال بأنَّ الذِّكرَ هنا بمعنى التَّذكيرِ: ابنُ جرير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٧).

وقال البِقاعي: (﴿ذِكۡرٗا﴾ أي: كاملًا، مذكورًا فيه غايةُ الشَّرفِ لكلِّ مَن يَقْبَلُه، بل تشرَّفت الأرضُ كلُّها بنُزولِه، ورُفِع عنها العذابُ، وعمَّها النُّورُ والصَّوابُ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣، ١٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

قال ابن جُزَي: (الذِّكرُ هنا هو القرآنُ، والرَّسولُ هو محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، وإعرابُ ﴿رَّسُولٗا﴾ مفعولٌ بفِعلٍ مُضمَرٍ تقديرُه: أرسَل رسولًا. وهذا الَّذي اختاره ابنُ عطيَّةَ، وهو أظهَرُ الأقوالِ. وقيل: إنَّ الذِّكْرَ والرَّسولَ معًا يُرادُ بهما القرآنُ، والرَّسولُ على هذا بمعنى الرِّسالةِ. وقيل: إنَّهما يُرادُ بهما القرآنُ على حذفِ مُضافٍ، تقديرُه: ذِكْرًا ذا رسولٍ. وقيل: ﴿رَّسُولٗا﴾ مفعولٌ بالمصدرِ الَّذي هو الذِّكْرُ. وقال الزمخشريُّ: الرَّسولُ هو جبريلُ، بدَلٌ مِن الذِّكْرِ؛ لأنَّه نزَل به، أو سُمِّيَ ذِكْرًا لكثرةِ ذِكْرِه لله. وهذا كلُّه بعيدٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٧). ويُنظر أيضًا ما تقدَّم في مُشكِلِ الإعرابِ (ص: ٩٥).

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

أي: لِيُخرِجَ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا بطاعةِ اللهِ مِن ظُلُماتِ الكُفرِ والجَهلِ والمعصيةِ إلى نورِ الإيمانِ والعِلمِ والطَّاعةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: ومَن يُؤمِنْ باللهِ ويَعمَلْ عَمَلًا صالِحًا بإخلاصٍ لله تعالى ووَفْقًا لشَرعِه، فإنَّ اللهَ يُدخِلُه في الآخِرةِ جَنَّاتٍ تَجري الأنهارُ مِن تَحتِ أشجارِها، وقُصورِها(٢).

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).
قال البِقاعي: (ذلك بأنْ يُصيِّرَهم مُتخَلِّقينَ بالقُرآنِ؛ لِيَكونوا مَظهَرًا له في حَرَكاتِهم وسَكَناتِهم، وأقوالِهم وأفعالِهم). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٦٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٩، ١٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩١).

أي: ماكِثينَ في تلك الجنَّاتِ أبدًا، فلا يموتونَ فيها، ولا يُخرَجونَ منها[١].

﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾.

أي: قد وسَّع الله لِمَنْ آمَنَ به وعمِل صالحًا في الجنَّةِ رِزقَه مِن المَطاعِمِ والمَشارِبِ، وسائرِ ما أعدَّه لأوليائِه فيها، وطيَّبه لهم[٢].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي أوجَدَ مِنَ العَدَمِ بقُدْرتِه التَّامَّةِ سَبْعَ سَمواتٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [الملك: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.

أي: وخَلَق اللهُ مِنَ الأرضِ مِثلَ عَدَدِ السَّمواتِ، فجعَلَهنَّ سَبعَ أَرَضينَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٧)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٦). =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يأخُذُ أحَدٌ شِبرًا مِن الأرضِ بغَيرِ حَقِّه إلَّا طَوَّقَه اللهُ إلى سَبْعِ أرَضِينَ يومَ القيامةِ))(١).

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾.

أي: يتنزَّلُ أمرُ اللهِ بيْن السَّمَواتِ والأَرَضِينَ(٢).

= قال ابنُ عطية: (لا خلافَ بينَ العلماءِ أنَّ السَّموات سبعٌ...، وأمَّا الأرضُ فالجمهورُ على أنَّها سبعُ أرَضينَ، وهو ظاهرُ هذه الآيةِ، وأنَّ المماثلةَ إنَّما هي في العددِ، ويُستدلُّ بقولِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم: «مَن غصَب شبرًا مِن أرضٍ طُوِّقه مِن سبعِ أرَضينَ»، إلى غير هذا ممَّا ورَدت به روايات، ورُوي عن قوم مِن العلماءِ أنَّهم قالوا: الأرضُ واحدةٌ، وهي مماثِلةٌ لكلِّ سماءٍ بانفرادِها في ارتفاعِ جرمِها، وفي أنَّ فيها عالَمًا يَعبُدُ كما في كلِّ سماءٍ عالَمٌ يَعبُدُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٧).

قيل: هي سَبعُ أَرَضِينَ طِباقٌ بَعضُها فَوقَ بَعضٍ، وممن اختاره: القرطبيُّ -ونسَبَه للجُمهورِ-، وابنُ كثير، والبِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٤، ١٧٥)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٥).

قال ابنُ كثير: (واختَلَفوا هل هنَّ مُتراكِماتٌ بلا تفاصُلٍ، أو بيْن كُلِّ واحدةٍ والَّتي تليها خَلاءٌ؟ على قولَين. وهذا الخِلافُ جارٍ في الأفلاكِ أيضًا، والظَّاهرُ أنَّ بيْن كُلِّ واحدةٍ مِنهنَّ وبيْن الأخرى مسافةً). ((البداية والنهاية)) (١/ ٣٩). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٧٢).

وقيل: هي سَبعُ أرَضِينَ مُطبَقةٌ بَعضُها على بَعضٍ مِن غَيرِ فُتوقٍ، بخِلافِ السَّمواتِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٥). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٦).

(١) رواه مسلم (١٦١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤١).

ممَّن قال في الجملةِ: إنَّ المعنى: يَتنزَّلُ أمرُ الله بيْنَ السَّماءِ السَّابعةِ والأرضِ السَّابعةِ. أو: من السَّماءِ العُلْيا إلى الأرضِ السُّفْلى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والبَغَويُّ، والخازنُ. يُنظر: =

﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾.

أي: إنَّ الغايةَ المقصودةَ مِن الخَلقِ والأمرِ هي أن يَعلَمَ العِبادُ كَمالَ قُدرةِ اللهِ تعالى، وكَمالَ عِلْمِه؛ فهو بالِغُ القُدرةِ على فِعْلِ كُلِّ شَيءٍ، مُحيطٌ عِلمًا بكُلِّ شَيءٍ؛ فيَعبُدوه العِبادةَ الجامِعةَ لخَشيتِه ورَجائِه، والذُّلِّ والإخلاصِ له، وتَعظيمِه ومحَبَّتِه[1].

= ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣١٠).

قال ابن جزي: (﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ يحتملُ أن يريدَ بالأمرِ الوحيُ، أو أحكامُ اللهِ وتقديرُه لخلقِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٨).

ممَّن اختار أنَّه الوحيُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والثَّعْلَبي، والبَغَوي، والعُلَيمي، والشَّوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٥).

قال القصَّاب: (والأمرُ في هذا الموضِعِ -واللهُ أعلَمُ- إخبارٌ عن كلامِه جلَّ وعلا في كلِّ ما يُنزِلُه ممَّا يَتَعبَّدُهم به مِن أمرٍ ونهْيٍ). ((النكت الدالة على البيان)) (٤/ ٣٥١).

ونسَبَ الماوَرْديُّ وابنُ الجَوزيِّ والقُرطبيُّ إلى الأكثَرينَ القولَ بأنَّ الأمرَ قضاءُ اللهِ وقَدَرُه. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٦).

قال أبو السُّعود والألوسيُّ: يَجْري أمْرُه وقضاؤُه بيْنَهنَّ، ويَنفُذُ ملكُه فيهنَّ. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٤٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٨٣).

وقال السعدي: (أُنزِلَ الأمرُ، وهو الشَّرائِعُ والأحكامُ الدِّينيَّةُ الَّتي أوحاها إلى رُسُلِه؛ لتذكيرِ العِبادِ ووَعظِهم، وكذلك الأوامِرُ الكَونيَّةُ والقَدَريَّةُ الَّتي يُدَبِّرُ بها الخَلقُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٦)، ((الجواب =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ بيانٌ لأصحابِ الرِّئاسةِ ورِجالِ السِّياسةِ: أنَّ هَلاكَ الدُّنيا بفَسادِ الدِّينِ، وأنَّ أمْنَ القُرى وطُمأنينةَ العالَمِ بالحِفاظِ على الدِّينِ[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في نِداءِ المُؤمِنينَ بوصْفِ (أُولِي الْأَلْبَابِ) إيماءٌ إلى أنَّ العقولَ الرَّاجحةَ تَدْعو إلى تَقْوى اللهِ؛ لأنَّها كَمالٌ نَفْسانيٌّ، ولأنَّ فَوائِدَها حَقيقيَّةٌ دائمةٌ، ولأنَّ بها اجتِنابَ المَضارِّ في الدُّنيا والآخِرةِ، وهذا الاتِّباعُ يُومِئُ إلى أنَّ قَبولَهمُ الإيمانَ عُنوانٌ على رَجاحةِ عُقولِهم[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ فممَّا أرادَه اللهُ مِن خَلْقِه السَّمواتِ والأرضَ أنْ يَعْلَمَ النَّاسُ قُدرةَ اللهِ على كلِّ شيءٍ، وإحاطةَ عِلْمِه بكلِّ شيءٍ؛ لأنَّ خَلْقَ تلكَ المخلوقاتِ العظيمةِ، وتَسخيرَها، وتَدبيرَ نِظامِها في طُولِ الدَّهرِ؛ يدُلُّ أفكارَ المتأمِّلينَ على أنَّ مُبدِعَها يَقدِرُ على أمثالِها، فيَستَدِلُّوا بذلك على أنَّه قديرٌ على كلِّ شيءٍ؛ لأنَّ دَلالتَها على إبداعِ ما

= الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٤٢٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧٨)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٢٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٧٦-١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤١، ٣٤٢).

قال الطوفي: (هذا تعليلٌ لخلقِ السَّمواتِ والأرضِ بعِلمِ المكلَّفينَ كمالَ قُدرةِ الله عزَّ وجلَّ وعِلمِه، أي: خلق ذلك لِتَعلَموا، فإن يكُنِ الأمرُ كذلك فتَحْتَه سرٌّ عجيبٌ، وإلَّا فاللَّامُ للعاقِبةِ، أو للأمرِ، أي: اعلَموا ذلك، أو خلقهُنَّ لِتَكونَ عاقبتُكم العِلمَ بكمالِ القُدرةِ بواسطةِ النَّظرِ، والأشْبَهُ الأوَّلُ). ((الإشارات الإلهية إلي المباحث الأصولية)) (ص: ٦٤٥).

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٦).

هو دونَها ظاهِرةٌ، ودَلالتَها على ما هو أعظمُ منها وإنْ كانت غيرَ مُشاهَدةٍ؛ فقياسُ الغائِبِ على الشَّاهِدِ يدُلُّ على أنَّ خالِقَ أمثالِها قادِرٌ على ما هو أعظَمُ، وأيضًا فإنَّ تدبيرَ تلكَ المخلوقاتِ بمِثْلِ ذلكَ الإتقانِ المُشاهَدِ في نظامِها، دليلٌ على سَعةِ عِلْمِ مُبدِعِها، وإحاطتِه بدقائقِ ما هو دونَها، وأنَّ مَن كان عِلْمُه بتلكَ المثابةِ لا يُظَنُّ بعِلْمِه إلَّا الإحاطةُ بجميعِ الأشياءِ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ فيه تَذكيرٌ للمُسلِمينَ بوعْدِ اللهِ بنَصرِهم، ومَحْقِ عدُوِّهم[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيه سؤالٌ: الإيمانُ هو التَّقوى في الحقيقةِ، وأُولو الألبابِ الَّذين آمَنوا كانوا مِن المتَّقينَ بالضَّرورةِ، فكيف يُقالُ لهم: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؟

الجوابُ: للتَّقوى دَرَجاتٌ ومَراتِبُ؛ فالدَّرَجةُ الأُولى هي التَّقوى مِنَ الشِّركِ، والبَواقي هي التَّقوى مِنَ المعاصي الَّتي هي غيرُ الشِّركِ، فأهلُ الإيمانِ إذا أُمِروا بالتَّقوى كان ذلك الأمرُ بالنِّسبةِ إلى الكبائِرِ والصَّغائِرِ، لا بالنِّسبةِ إلى الشِّركِ[٣].

وكذلك التَّقوى بفِعلِ الطَّاعاتِ، مِن الواجباتِ والمُستحبَّاتِ، وقد يكونُ المرادُ طلبَ المداومة.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ حُجَّةٌ في أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى بنَفْسِه في السَّماءِ[٤]، ففيه دَلالةٌ على عُلُوِّ اللهِ تعالى؛ مِن جهةِ ذِكْرِ نزولِ الأشياءِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤١، ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٦).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٥٠).

مِن عِندِه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا * رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ معلومٌ أنَّ الرَّسولَ نفْسَه لم يُنْزَلْ، بل أُبدِلَ الرَّسولُ مِن الذِّكْرِ؛ لأنَّ الرَّسولَ جاء بالذِّكْرِ، ولَمَّا كان الرَّسولُ المَلَكيُّ والرَّسولُ البَشَريُّ والذِّكْرُ المُنْزَلُ أُمورًا متلازِمةً يَلْزَمُ مِن ثُبوتِ واحدٍ ثُبوتُ الآخَرَينِ، ومِن الإيمانِ بواحدٍ الإيمانُ بالآخَرَينِ؛ فيَلْزَمُ مِن كَونِ القرآنِ حقًّا كونُ جبريلَ ومحمَّدٍ حقًّا، وكذلك يَلْزَمُ مِن كونِ محمَّدٍ حقًّا كونُ جِبريلَ والقُرآنِ حقًّا، ويَلْزَمُ مِن كونِ جبريلَ حقًّا كونُ القرآنِ ومحمَّدٍ حقًّا؛ ولهذا جَمَعَ اللهُ بيْنَ الإيمانِ بالملائكةِ والكُتُبِ والرُّسُلِ في مِثْلِ قولِه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[٢] [البقرة: ٢٨٥].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فيه سؤالٌ: كُلُّ مَنْ آمَنَ باللهِ فقد خَرَج مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، وإذا كان كذلك فحَقُّ هذا الكلامِ -وهو قَولُه تعالى: ﴿لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾- أن يُقالَ: (لِيُخرِجَ الَّذينَ كَفَروا)؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: يمكِنُ أن يكونَ المرادُ: لِيُخرِجَ الَّذين يُؤمِنونَ، على ما جاز أن يُرادَ مِن الماضي المُستَقبَلُ، كما في قَولِه تبارك وتعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ﴾ [آل عمران: ٥٥]، أي: وإذ يقولُ اللهُ.

الوَجهُ الثَّاني: يُمكِنُ أن يكونَ المرادُ: لِيُخرِجَ الَّذين آمَنوا مِن ظُلُماتٍ تَحدُثُ

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٣١٣).

لهم بعْدَ إيمانِهم(١).

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ فيه سُؤالٌ: أفرِدَ الضَّميرَ في هذه الآيةِ في قَولِه: ﴿يُؤْمِنۢ﴾، وقَولِه: (يَعْمَلْ)، وقَولِه: ﴿يُدْخِلْهُ﴾، وقولِه: ﴿لَهُۥ﴾، وجمعَ في قولِه: ﴿خَٰلِدِينَ﴾.

والجوابُ: أنَّ الإفرادَ باعتبارِ لَفظِ: (مَن)، والجَمْعَ باعتبارِ مَعناها، وهو كثيرٌ في القُرآنِ العَظيمِ. وفي هذه الآيةِ الكريمةِ رَدٌّ على مَن زَعَم أنَّ مُراعاةَ المعنى لا تجوزُ بَعْدَها مُراعاةُ اللَّفظِ؛ لأنَّه في هذه الآيةِ راعى المعنى في قولِه: ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ثمَّ راعى اللَّفظَ في قَولِه: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾(٢). فاللُّغةُ العَربيَّةُ يجوزُ فيها أنْ يَتعدَّدَ مَرجِعُ الضَّميرِ؛ فمَرَّةً يعودُ بالإفرادِ، ومَرَّةً يعودُ بالجمعِ، بشَرطِ أنْ يكونَ مَرْجِعُ الضَّميرِ صالِحًا للإفرادِ والجَمعِ؛ ففي الآيةِ هنا عاد الضَّميرُ أوَّلًا باعتِبارِ اللَّفظِ، ثُمَّ باعتبارِ المعنى، ثُمَّ باعتبارِ اللَّفظِ(٣).

٧- الجَنَّةُ والنَّارُ موجودتانِ الآنَ؛ ولن تَفْنَيا أبَدَ الآبِدِينَ؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾(٤) [الأحزاب: ٦٤ - ٦٦].

٨- إنْ قلتَ: لِمَ جمَعوا السَّماءَ، فقالوا: (سمواتٍ)، وهلَّا راعَوْا فيها ما راعَوْا في الأرضِ، فإنَّها مقابلةٌ، فما الفرقُ بيْنَهما؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢١).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٢٥٣).

والجوابُ: بيْنَهما فرقانِ: فرقٌ لفظيٌّ، وفرقٌ معنويٌّ؛ أمَّا اللَّفظيُّ فإنَّهم لو جمَعوا أرضًا على قياسِ جموعِ التَّكسيرِ لقالوا: آرُضٌ كأفلُسٍ، أو: آراضٌ كأجمالٍ، أو: أُرُوضٌ كفُلوسٍ، فاستَثقَلوا هذا اللَّفظَ؛ إذ ليس فيه مِن الفصاحةِ والحُسنِ والعُذُوبةِ ما في لفظِ السَّمواتِ، وأنت تجدُ السَّمعَ يَنبو عنه بقَدرِ ما يُستحسَنُ لفظُ السَّمواتِ، ولفظُ السَّمواتِ يَلِجُ في السَّمعِ بغيرِ استئذانٍ؛ لنصاعتِه وعذوبتِه، ولفظُ الأراضي لا يأذنُ له السَّمعُ إلَّا على كُرهٍ، ولهذا تفادَوْا مِن جمعِه إذا أرادوه بثلاثةِ ألفاظٍ تدُلُّ على التَّعدُّدِ، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، كلُّ هذا تفاديًا مِن أن يُقالَ: أراض وآرُض.

وأمَّا الفرقُ المعنويُّ فإنَّ الكلامَ متى اعتمد به على السَّماءِ المحسوسةِ الَّتي هي السَّقفُ، وقُصِد به إلى ذاتِها دونَ معنى الوصفِ صحَّ جمعُها جمعَ السَّلامةِ؛ لأنَّ العددَ قليلٌ، وجمْعَ السَّلامةِ بالقليلِ أَولى؛ لقُربِه من التَّثنيةِ القريبةِ مِن الواحدِ، ومتى اعتَمد الكلامُ على الوصفِ ومعنى العُلا والرِّفعةِ جرَى اللَّفظُ مجرَى المصدرِ الموصوفِ به في قولِك: قَومٌ عَدْلٌ وزَورٌ، وأمَّا الأرضُ فأكثرُ ما تجيءُ مقصودًا بها معنَى التَّحتِ والسُّفلِ دونَ أن يُقصَدَ ذواتُها وأعدادُها، وحيثُ جاءت مقصودًا بها الذَّاتُ والعددُ أُتيَ بلفظٍ يدُلُّ على العددِ، كقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾. وفرقٌ ثانٍ وهو أنَّ الأرضَ لها نسبةٌ لا إلى السَّمواتِ وسَعتِها، بل هي بالنِّسبةِ إليها كحَصاةٍ في صَحْراءَ، فهي وإنْ تعدَّدتْ فهي بالنِّسبةِ إلى السَّماءِ كالواحدِ القليلِ؛ فاختِير لها اسمُ الجنسِ[(١)]. وقيل: في إفرادِ لَفظِ (الأرض) دونَ أنْ يُؤْتَى به جمعًا كما أُتِيَ بلَفظِ السَّمواتِ؛ إيذانٌ بالاختلافِ بيْنَ حالَيْهما[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٤، ١١٥). ويُنظر أيضًا: ((نتائج الفكر في النحو)) للسهيلي (ص: ١٢١، ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٠). =

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ليس في القُرآنِ آيةٌ تدُلُّ على عَدَدِ الأرَضِينَ بسَبعٍ مِثلِ عَدَدِ السَّمَواتِ سِوى هذه الآيةِ(١).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الأرضَ سَبْعٌ؛ فإنَّ المِثْليَّةَ هنا بالكيفيَّةِ مُتعذِّرةٌ، وإذا تَعذَّرَت المِثْليَّةُ في الكيفيَّةِ لَزِمَ أنْ تكونَ المِثْليَّةُ في العَدَدِ، كما نقولُ: «سبحانَ اللهِ عَدَدَ خَلْقِه، والحَمدُ للهِ مِثْلَ ذلك» يعني: عَدَدَ خلْقِه(٢).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ أنَّ صفةَ الخَلْقِ تدُلُّ على صِفاتٍ أُخرى لازِماتٍ لذلك، وهي: العِلمُ والقُدرةُ(٣)، فلا يمكنُ أن يكونَ خالقًا إلَّا أن يكونَ عالمًا قادرًا؛ لأنَّه لا يَخلُقُ مَن لا يَقدِرُ، ولا يَخلُقُ مَن لا يَعلَمُ، فلا بُدَّ أن يكونَ عالمًا قادرًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾؛ فذكَرَ العِلمَ والقُدرةَ بعْدَ أنْ ذكَرَ أنَّه خلَقَ، ولا يُمكِنُ أن يكونَ هناك خلْقٌ إلَّا أن يَعلَمَ كيف يَخلُقُ، ويَقدِرُ على ذلك(٤).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ دَليلٌ على أنَّه سُبحانَه في السَّماءِ بنَفْسِه، وأنَّ الأمرَ يَنزِلُ منه إلى الأرَضينَ؛ فلولا ذلك ما كان لِلَفْظِ «التَّنزيلِ» مَعنًى(٥)!

= ويُنظر ما تقدَّم (٣٨/ ٢٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨١). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٥٢).

١٣- قولُه تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ فيه تنويهٌ بالقُرآنِ؛ لأنَّه مِن جُملةِ الأمرِ الَّذي يَتنزَّلُ بيْن السَّماءِ والأرضِ[1].

١٤- العِلمُ باللهِ وأسمائِه وصِفاتِه هو أشرَفُ العُلومِ على الإطلاقِ، وهو مَطلوبٌ لِنَفسِه، مُرادٌ لذاتِه؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾؛ فقد أخبَرَ سُبحانَه أنَّه خَلَق السَّمواتِ والأرضَ، ونزَّل الأمرَ بيْنَهنَّ؛ لِيَعلَمَ عِبادُه أنَّه بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ، وعلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، فهذا العِلمُ هو غايةُ الخَلقِ المَطلوبةُ[2].

١٥- اللهُ تعالى خَلَق الخَلْقَ وأوجَدَهم لِعبادتِه الجامعةِ لخَشيتِه ورَجائِه ومحَبَّتِه، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وإنَّما يُعبَدُ اللهُ سُبحانَه بعْدَ العِلْم به ومَعرفتِه، فبذلك خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ وما فيهما؛ للاستِدلالِ بهما على توحيدِه وعَظَمتِه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾[3].

١٦- قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ فأخبَرَ عن قُدرتِه التَّامَّةِ؛ وسُلطانِه العظيمِ؛ لِيَكونَ ذلك باعثًا على تعظيمِ ما شرَع مِن الدِّينِ القَويمِ، كقولِه تعالى إخبارًا عن نوحٍ عليه السَّلامُ أنَّه قال لقَومِه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾[4] [نوح: ١٥].

١٧- كثيرًا ما يَقرِنُ اللهُ تعالى بيْن الخَلقِ والأمرِ، كما في قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٦).

سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾، وكما في قولِه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ وذلك أنَّه الخالقُ الآمِرُ النَّاهي، فكما أنَّه لا خالقَ سِواه، فليس على الخَلقِ إلزامٌ ولا أمرٌ ولا نهْيٌ إلَّا مِن خالِقِهم، وأيضًا فإنَّ خَلْقَه للخَلقِ فيه التَّدبيرُ القَدَريُّ الكونيُّ، وأمْرَه فيه التَّدبيرُ الشَّرعيُّ الدِّينيُّ، فكما أنَّ الخلقَ لا يَخرُجُ عن الحِكمةِ، فلم يَخلُقْ شيئًا عبَثًا؛ فكذلك لا يأمُرُ ولا يَنهى إلَّا بما هو عدلٌ وحِكمةٌ وإحسانٌ[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾

- لَمَّا شُرِعَتْ للمُسلِمينَ أحكامٌ كثيرةٌ مِنَ الطلاقِ ولَواحِقِه، وكانتْ كلُّها تَكاليفَ قدْ تُحجِمُ بعضُ الأنفُسِ عن إيفاءِ حقِّ الامتثالِ لها تَكاسُلًا أو تَقصيرًا؛ رغَّبَ في الامتثالِ لها بقولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: ٢]، وقولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤]، وقولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٥]، وقولِه: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧]، وحذَّرَ اللهُ النَّاسَ في خِلالِ ذلك مِن مُخالَفتِها بقولِه: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ [الطلاق: ١]، وقولِه: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ [الطلاق: ٢]؛ أعْقَبها بتَحذيرٍ عَظيمٍ مِنَ الوُقوعِ في مُخالَفةِ أحكامِ اللهِ ورُسلِه؛ لأنَّ الصَّغيرَ يُثيرُ الجليلَ، فذكَّرَ المُسلِمينَ -وليسوا ممَّنْ يَعْتُوا على أمرِ ربِّهم- بما حلَّ بأقوامٍ مِن عِقابٍ عَظيمٍ على قِلَّةِ اكتراثِهم بأمْرِ اللهِ ورُسلِه؛ لئلَّا يَسلُكوا سَبيلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢).

التَّهاوُنِ بإقامةِ الشَّريعةِ، فيُلْقي بهم ذلك في مَهْواةِ الضَّلالِ، وهذا الكلامُ مُقدِّمةٌ لِمَا يأتي مِن قولِه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الآياتِ؛ فالجُملةُ مَعطوفةٌ على مَجموعِ الجُمَلِ السَّابقةِ عطْفَ غرَضٍ على غرَضٍ[١].

- (كَأَيِّنْ) اسمٌ لعددٍ كثيرٍ مُبهَمٍ يُفسِّرُه ما يُميِّزُه بَعْدَه مِن اسمٍ مَجرورٍ بـ(مِنْ)، و(كَأَيِّنْ) بمعْنى (كم) الخبريَّةِ، والمقصودُ مِن إفادةِ التَّكثيرِ هنا تَحقيقُ أنَّ العذابَ الَّذي نالَ أهلَ تلكَ القُرى شَيءٌ مُلازِمٌ لجَزائِهم على عُتُوِّهم عن أمْرِ ربِّهم ورُسلِه، فلا يَتوهَّمُ مُتوهِّمٌ أنَّ ذلكَ مُصادَفةٌ في بَعضِ القُرى، وأنَّها غيرُ مُطَّرِدةٍ في جَميعِهم، والمعنى: الإخبارُ بكَثرةِ ذلكَ باعتبارِ ما فُرِّعَ عليه مِن قولِه: ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا﴾؛ فالمُفرَّعُ هو المقصودُ مِنَ الخبرِ[٢].

- وإنَّما أُوثِرَ لفظُ (القريةِ) هنا دونَ الأُمَّةِ ونَحْوِها؛ لأنَّ في اجتِلابِ هذا اللَّفظِ تَعريضًا بالمُشرِكينَ مِن أهلِ مكَّةَ، ومُشايَعةً لهم بالنِّذارةِ؛ ولذلكَ كثُرَ في القرآنِ ذِكْرُ أهلِ القُرَى في التَّذكيرِ بعَذابِ اللهِ[٣].

- قولُه: ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ ضُمِّنَ معنى أعرَضَ، كأنَّه قيل: أعْرَضَتْ بسببِ عُتُوِّها[٤].

- والمُحاسَبةُ مُستعمَلةٌ في الجَزاءِ على الفِعلِ بما يُناسِبُ شِدَّتَه مِن شَديدِ العِقابِ؛ تَشبيهًا لتَقديرِ الجَزاءِ بإجراءِ الحِسابِ بيْن المُتعامِلينَ، قيل: هو الحِسابُ في الدُّنيا؛ ولذلكَ جاءِ ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا﴾ ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا﴾ بصِيغةِ الماضي،

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٣، ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٤). ويُنظر أيضًا: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٥٨).

والمعنى: فجازَيْناها على عُتُوِّها جزاءً يُكافِئُ طُغيانَها[١]. وقيل: الحِسابُ والعذابُ في قولِه: ﴿فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ في الآخِرةِ، وأتَى بذلك على لَفظِ الماضي تَحقيقًا له وتَقريرًا؛ لأنَّ المُنتظَرَ مِن وَعْدِ اللهِ ووَعيدِه آتٍ لا مَحالةَ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾

- قولُه: ﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ إضافةُ الوبالِ إلى الأمرِ مِن إضافةِ المُسبَّبِ إلى السَّببِ، أي: ذاقوا الوبالَ الَّذي تسبَّبَ لهم فيه أمرُهم وشأنُهمُ الَّذي كانوا عليه[٣].

- وجِيءَ بفِعلِ (كانِ) بصِيغةِ المُضِيِّ؛ لأنَّ الحديثَ عن عاقبتِها في الدُّنيا تَغليبًا[٤].

- وفيه تَفظيعٌ لِمَا لَحِقَهم؛ مُبالَغةً في التَّحذيرِ ممَّا وقَعوا فيه[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾

- جُملةُ ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بدَلُ اشتمالٍ مِن جُملةِ ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿خُسْرًا﴾، أو بدَلُ بعضٍ مِن كُلٍّ، والمرادُ عذابُ الآخِرةِ؛ لأنَّ الإعدادَ التَّهيئةُ، وإنَّما يُهَيَّأُ الشَّيءُ الَّذي لم يَحصُلْ، وإنْ جعَلْتَ الحسابَ والعذابَ المذكورَيْنِ آنِفًا حِسابَ الآخِرةِ وعذابَها، فجُملةُ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ استِئنافٌ لبَيانِ أنَّ ذلك مُتزايدٌ غيرُ مُخفَّفٍ مِنه؛ كقولِه: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾[1] [النبأ: ٣٠].

- وأيضًا قولُه: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ تكريرٌ للوعيدِ، وبيانٌ لكَونِه مُترقَّبًا، كأنَّه قال: أعَدَّ اللهُ لهم هذا العذابَ؛ فلْيَكُنْ لكم ذلكَ يا أُولِي الألْبابِ مِنَ المُؤمِنينَ لُطْفًا في تَقْوى اللهِ وحَذَرِ عقابِه[2].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ هي الفصيحةُ، أي: إنْ عرَفْتُم ذلكَ فاتَّقوا اللهَ، وهذا التَّفريعُ المقصودُ على التَّكاليفِ السَّابقةِ، وخاصَّةً على قولِه: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١]، وهو نَتيجةُ ما مُهِّدَ له به مِن قولِه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾[3].

- والإتيانُ بصِلةِ المَوصولِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ إشعارٌ بأنَّ الإيمانَ سَببٌ للتَّقوى، وجامِعٌ لمُعظمِها، ولكنَّ للتَّقوى دَرجاتٍ هي التي أُمِروا بأنْ يُحيطوا بها[4].

- وفي هذِه الجُملةِ ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرًا * رَّسُولًا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ معْنى العِلَّةِ للأمرِ بالتَّقوى؛ لأنَّ إنزالَ الكِتابِ نَفْعٌ عظيمٌ لهم، مُستحِقٌّ شُكرَهُم عليه[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٥، ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢٦، ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وتأْكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (قَدْ)؛ للاهتِمامِ به، وبَعْثِ النُّفوسِ على تَصفُّحِ هذا الكتابِ، ومُتابَعةِ إرشادِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

- قولُه: : ﴿ذِكۡرًا﴾ الذِّكْرُ هنا: هو القُرآنُ، وقد سُمِّيَ بالذِّكْرِ في آياتٍ كثيرةٍ؛ لأنَّه يَتضمَّنُ تَذكيرَ الناسِ بما هُمْ في غفْلةٍ عنه مِن دَلائلِ التوحيدِ وما يتفرَّعُ عنها مِن حُسْنِ السُّلوكِ، ثُمَّ تَذكيرَهم بما تَضمَّنَه مِنَ التَّكاليفِ. وقيل: قولُه: ﴿ذِكۡرًا﴾ المرادُ به النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فعُبِّرَ عنه بالذِّكرِ؛ لمُواظَبتِه على تِلاوةِ القُرآنِ، أو تَبليغِه والتَّذكيرِ به، وعُبِّرَ عن إرسالِه بالإنزالِ؛ لأنَّه مُسبَّبٌ عن إنزالِ الوَحيِ إليه، وأُبدلَ منهُ ﴿رَّسُولٗا﴾ للبيانِ. وقيل: ﴿ذِكۡرًا﴾ المرادُ به جبريلُ سمِّي به لكثرةِ ذكرِه، أو لنزولِه بالذِّكرِ الذي هو القرآنُ، كما يُنبئُ عنه إبدالُ قولِه تعالَى ﴿رَّسُولٗا﴾ منْهُ، أو لأنَّه مذكورٌ في السَّمواتِ وفي الأممِ. وقد يُفسَّرُ الذِّكرُ حينئذٍ بالشَّرفِ كأنَّ جبريلَ في نفسِه شرفٌ، إمَّا لأنَّه شرفٌ للمنزَلِ عليه، وإما لأنَّه ذو مجدٍ وشرفٍ عند الله، كقولِه تعالى: ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾[٢] [التكوير: ٢٠].

- وجُعِلَ إنزالُ الذِّكْرِ إلى المُؤمِنينَ؛ لأنَّهُمُ الَّذينَ انتفَعوا بهَ، وعمِلوا بما فيه، فخُصِّصوا هنا مِن بيْنِ جَميعِ الأُمَمِ؛ لأنَّ القُرآنَ أُنزِلَ إلى النَّاسِ كلِّهِم[٣].

- قولُه: ﴿رَّسُولٗا﴾ مَفعولٌ لفِعلٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، وتَقديرُه: وأرسَلَ إليكم رَسولًا، ويكونَ حذْفُه إيجازًا. وقيل: هو بدَلٌ مِن ﴿ذِكۡرًا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٠، ٥٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٧).

بدَلَ اشتمالٍ؛ لأنَّ بَيْنَ القُرآنِ والرسولِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُلازَمةً ومُلابَسةً؛ فإنَّ الرِّسالةَ تحقَّقَتْ له عِندَ نُزولِ القرآنِ عليه، فقَدْ أُعْمِلَ فِعلُ ﴿أَنزَلَ﴾ في ﴿رَّسُولًا﴾ تبَعًا لإعمالِه في المُبدَلِ منه باعتبارِ هذِه المقارَنةِ، واشتمالِ مَفهومِ أحَدِ الاسمَيْنِ على مَفهومِ الآخَرِ[١].

- وفي قولِه: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ جُعِلَتْ عِلَّةُ إنزالِ الذِّكْرِ إخراجَ المُؤمِنينَ الصَّالِحينَ مِنَ الظلماتِ إلى النُّورِ، وإنْ كانتْ عِلَّةُ إنزالِه إخراجَ جَميعِ النَّاسِ مِن ظُلماتِ الكفْرِ وفَسادِ الأعمالِ إلى نُورِ الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحاتِ؛ نظَرًا لخُصوصِ الفريقِ الَّذي انتفَعَ بهذا الذِّكْرِ اهتمامًا بشَأنِهم، وليس ذلك بِدالٍّ على أنَّ العِلَّةَ مَقصورةٌ على هذا الفريقِ، ولكنَّه مُجرَّدُ تَخصيصٍ بالذِّكْرِ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ عُطِفَ على الأمرِ بالتَّقوى والتَّنويهِ بالمتَّقينَ والعِنايةِ بهم هذا الوعدُ على امتثالِهم بالنَّعيمِ الخالدِ بصِيغةِ الشَّرطِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلكَ نَعيمٌ مُقيَّدٌ حُصولُه لراغبِيه بأنْ يُؤمِنوا ويَعمَلوا الصَّالحاتِ[٣].

- قولُه: ﴿يُدْخِلْهُ﴾ عائدٌ إلى اسمِ الجَلالةِ مِن قولِه: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾، وعلى قِراءةِ ﴿نُدْخِلْهُ﴾[٤] ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٧).
ويُنظر ما تقدَّم في مشكلِ الإعرابِ (ص: ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٧، ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٣٨).

(٤) قرأ المَدَنيَّانِ نافعٌ وأبو جعفرٍ، وابنُ عامرٍ: بالنُّونِ، وقرأ الباقونَ بالياءِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٨).

- بنُونِ العظَمةِ- فيَكونُ فيه الْتفاتٌ[١].

- وجُملةُ ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ حالٌ مِنَ الضَّميرِ المنصوبِ في ﴿يُدْخِلْهُ﴾؛ ولذلك فذِكرُ اسمِ الجَلالةِ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لتَكونَ الجُملةُ مُستقِلَّةً بنفْسِها[٢].

- وتَنكيرُ ﴿رِزْقًا﴾ فيه معْنى التَّعجُّبِ والتَّعظيمِ لِمَا رُزِقَ المؤمِنُ مِنَ الثَّوابِ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ اسمُ الجَلالةِ خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: هُوَ اللهُ، وهذا من حذْفِ المُسنَدِ إليه لمُتابَعةِ الاستِعمالِ[٤]؛ فإنَّه بعْدَ أنْ جرَى ذِكْرُ شؤونٍ من عَظيمِ شُؤونِ اللهِ تعالَى ابتداءً مِن قولِه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ [الطلاق: ١] إلى هُنا، فقَدْ تكرَّرَ اسمُ الجلالةِ وضميرُه والإسنادُ إليه زُهاءَ ثلاثينَ مرَّةً؛ فاقْتَضى المَقامُ عقِبَ ذلك أنْ يُزادَ تَعريفُ النَّاسِ بهذا العَظيمِ، ولَمَّا صارَ البِساطُ مَليئًا بذِكْرِ اسمِه، صَحَّ حذْفُه عِندَ الإخبارِ عنه إيجازًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٨).

(٤) وذلك أنَّ العرَبَ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه، الْتَزَموا حَذفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٩).

- والموصولُ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾ صِفةٌ لاسمِ الجلالةِ، وقدْ ذُكِرَتْ هذه الصِّلةُ لِمَا فيها مِنَ الدَّلالةِ على عَظيمِ قُدرتِه تعالَى، وعلى أنَّ النَّاسَ -وهُمْ مِن جُملةِ ما في الأرضِ- عَبيدُه؛ فعَليهم أنْ يتَّقُوه، ولا يَتعدَّوْا حُدودَه، ويُحاسِبوا أنفُسَهم على مَدى طاعتِهِمْ إيَّاه؛ فإنَّه لا تَخْفَى عليه خافيةٌ، وأنَّه قديرٌ على إيصالِ الخَيرِ إليهم إنْ أطاعوهُ، وعِقابِهم إنْ عَصَوْه[1].

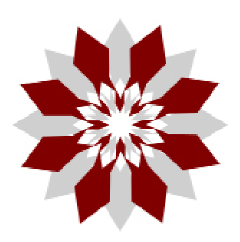
- قولُه: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿خَلَقَ﴾ أو بـ﴿يَتَنَزَّلُ﴾، أو بمُضْمَرٍ يَعُمُّهما؛ فإنَّ كُلًّا مِنهما يدُلُّ على كَمالِ قُدرتِه وعِلْمِه، أي: فعَلَ ذلكَ لتعلَمُوا أنَّ مَن قَدَرَ على ما ذُكِرَ قادرٌ على كلِّ شيءٍ. ويجوزُ أن يكونَ العاملُ في اللَّامِ بيانَ ما ذُكِرَ مِنَ الخَلْقِ وتنزُّلِ الأمرِ، أي: أوْحَى ذلكَ وبيَّنَه لتعلَمُوا بما ذكرَ مِنَ الأمورِ الَّتي تُشاهِدونَها والَّتي تتَلَقَّوْنَها مِنَ الوحيِ مِن عَجائبِ المصنوعاتِ أنَّه لا يَخرُجُ عن قُدرتِه وعِلْمِه شيءٌ ما أصلًا[2].

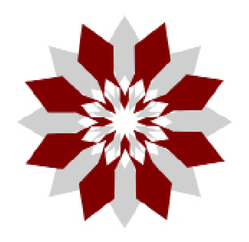


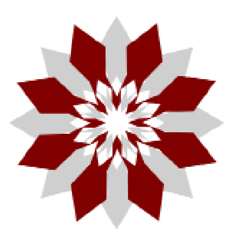
(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٥).


تَفْسِيرُ
سُورَةِ التَّحرِيمِ







سورةُ التَّحريمِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (التَّحريمِ)[١].

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ التَّحريمِ مَدَنيَّةٌ[٢]، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٣].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورة:

بَيانُ مَعالِمَ وهداياتٍ تتعلَّقُ بالأُسرةِ[٤].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- حِكايةُ جانبٍ مِمَّا دار بيْنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبَعضِ زَوجاتِه، وعتابُ اللهِ تعالى له، وعِتابُ الأزواجِ الطَّاهِراتِ، ودفاعُ اللهِ عن نبيِّه.

٢- توجيهُ النِّداءِ إلى المؤمِنينَ، وأمْرُهم بوقايةِ أنفُسِهم وأهليهم مِن جَهنَّمَ.

---

(١) سُمِّيَتِ السُّورةُ بذلك؛ لافتِتاحِها بقَولِه تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٢).

(٣) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والقُرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٧)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم)) (٨/ ٢٤٥).

٣- الأمرُ بالتَّوبةِ النَّصوحِ، وبَيانُ آثارِها الحَسَنةِ مِن تكفيرِ السَّيِّئاتِ، ودُخولِ الجنَّاتِ.

٤- الأمرُ بجِهادِ الكُفَّارِ والمُنافِقينَ.

٥- خُتِمت السُّورةُ بضَربِ مَثَلينِ؛ أحَدُهما للَّذين آمنوا، ويَتمَثَّلُ في امرأةِ فِرعَونَ وفي مَريمَ ابنةِ عِمْرانَ، والآخَرُ للَّذين كَفَروا، ويتمثَّلُ في امرأةِ نُوحٍ وامرأةِ لُوطٍ عليهما السَّلامُ.



الآيات (١-٥)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَرَضَ﴾: أي: بيَّن وشَرَع، وقيل: أوجَبَ، والفَرضُ: قَطعُ الشَّيءِ الصُّلبِ، والتَّأثيرُ فيه، والفَرضُ كالإيجابِ، لكِنَّ الإيجابَ يُقالُ اعتبارًا بوُقوعِه وثباتِه، والفَرضَ بقَطعِ الحُكمِ فيه[1].

﴿تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾: أي: كفَّارتَها؛ لأنَّ عُقدةَ اليمينِ تنحَلُّ بها، أو لأنَّه يتَحَلَّلُ بها عن اليمينِ أي: يخرجُ، وأصلُ (حلل): يدُلُّ على فَتحِ الشَّيءِ، والأيْمانُ جمْعُ يمينٍ، وهو: القَسَمُ، وسُمِّيَ الحَلِفُ يَمينًا -وهو اسمُ اليَدِ-؛ لأنَّهم كانوا يَبْسُطون أيْمانَهم إذا حَلَفوا أو تحالَفوا، ثمَّ كثُر ذلك حتَّى سُمِّيَ الحلفُ والعهدُ نفْسُه يمينًا، وقِيل: يَمينٌ فَعيلٌ مِن اليُمنِ، وهو البَرَكةُ، سَمَّاها اللهُ تعالَى بذلك؛ لأنَّها

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٤٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٠).

تحفَظُ الحُقوقَ[١].

﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾: أي: ناصِرُكم، وأصلُ هذه المادَّةِ يدُلُّ على القُرْبِ؛ سواءٌ مِن حيثُ المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتِقادُ[٢].

﴿صَغَتْ﴾: أي: مالت عن الحَقِّ، وأصلُ (صغو): يدُلُّ على المَيلِ[٣].

﴿تَظَٰهَرَا﴾: أي: تَعاوَنَا، والظَّهيرُ: العَونُ، وأصلُ التَّظاهُرِ مِنَ الظَّهرِ، فكأنَّ التَّظاهُرَ: أن يَجعَلَ كُلُّ واحدٍ مِن الرَّجُلَينِ أو مِن القَومِ الآخَرَ له ظَهرًا يتقَوَّى به، ويَستَنِدُ إليه، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[٤].

﴿ظَهِيرٌ﴾: أي: مُساعِدون ومُعينونَ، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠) و (٦/ ١٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨٣) و (١٠/ ٣١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٠٢) و(١٨/ ١٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٠).

قال الواحدي: (﴿تَحِلَّةَ﴾ على وزنِ تَفعِلةٍ، وأصلُه تَحلِلةٌ، فأُدغِمَتْ، وتَفعِلةٌ مِن مَصادِرِ فعَّلَ، كالتَّوصيةِ، والتَّسميةِ). ((البسيط)) (٢٢/ ٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٦).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٠).

﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾: أي: مُطيعاتٍ خاضِعاتٍ، والقُنوتُ: لُزومُ الطَّاعةِ مع الخُضوعِ، أو الطَّاعةُ الدَّائِمةُ، وأصلُ (قنت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دِينٍ[(١)].

﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾: أي: صائِماتٍ أو مُهاجِراتٍ، قيل: سُمِّيَ الصِّيامُ سياحةً؛ تشبيهًا بالسَّائحِ الَّذي لا زاد معه، وأصلُ (سيح): يدُلُّ على استِمرارِ شَيءٍ وذَهابِه[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُخاطِبًا نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا أيُّها النَّبيُّ لِمَ تُحرِّمُ على نَفْسِك ما أحلَّه اللهُ لك مُبتَغيًا بتَحريمِه رِضا بَعضِ أزواجِك، واللهُ غَفورٌ رَحيمٌ؟!

ثم بيَّن سبحانَه جانبًا مِن مَظاهِرِ رحمتِه، فقال: قد شرَع اللهُ لكم تحليلَ أيْمانِكم بكَفَّارةِ اليَمينِ، واللهُ وَلِيُّكم وناصِرُكم -أيُّها المؤمِنونَ- وهو العَليمُ الحَكيمُ.

واذكُرْ حينَ أسَرَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى زَوجتِه حَفْصةَ حَديثًا، فلمَّا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٠، ٤٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٨).

قال ابن القيِّم: (القُنوتُ يُفسَّرُ بأشياءَ كلُّها تَرجِعُ الى دَوامِ الطَّاعةِ). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٩، ١٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣١).

قال الفرَّاءُ: (نرى أنَّ الصَّائمَ إنَّما سُمِّيَ سائحًا لأنَّ السَّائحَ لا زادَ معه، وإنَّما يأكُلُ حيثُ يَجِدُ [الطَّعامَ]، فكأنَّه أُخِذَ مِن ذلك. واللهُ أعلَمُ). ((معاني القرآن)) (٣/ ١٦٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٢).

أخبَرَت به حَفْصةُ عائِشةَ، وأطْلَعَ اللهُ نبيَّه على إفشائِها سِرَّه؛ أخبَرَها الرَّسولُ ببَعضِ ما أفشَتْه مُؤَنِّبًا لها، وترَك إخبارَها ببَقيَّةِ كَلامِها؛ كَرَمًا منه وحِلْمًا، فلمَّا أخبَرَها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإفشائِها سِرَّه إلى عائِشةَ، قالت له حَفصةُ: مَنْ أخبَرَك بذلك؟! قال لها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أخبَرَني بذلك العَليمُ الخَبيرُ.

ثمَّ وجَّهَ اللهُ تعالى خِطابَه إلى حفصةَ وعائشةَ، فأمَرهما بالتَّوبةِ، فقال: إنْ تَتُوبَا -يا حَفْصةُ وعائِشةُ- إلى اللهِ، فقد صدَر منكما ما يُوجِبُ التَّوبةَ؛ فقد مالَت قُلوبُكما عمَّا يَنبغي عليكُما مِن الأدَبِ مع النَّبيِّ.

ثمَّ قال محذِّرًا لهما: وإنْ تَتعاوَنا على إيذاءِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فإنَّ اللهَ ناصِرُه عليكما، وجِبريلُ وخِيارُ المؤمِنينَ -كأبي بَكرٍ وعُمَرَ-، والمَلائِكةُ مع ذلك أعوانٌ له أيضًا.

ثمَّ خوَّفهما أيضًا بحالةٍ تشُقُّ على النِّساءِ غايةَ المشَقَّةِ، وهي الطَّلاقُ، فقال: عسى ربُّه إنْ طَلَّقَكنَّ -يا نِساءَ النَّبيِّ- أن يُبدِلَه أزواجًا خيرًا مِنكُنَّ مُسلِماتٍ مُؤمِناتٍ، مُطيعاتٍ للهِ على الدَّوامِ، تائِباتٍ، عابداتٍ للهِ، صائِماتٍ، ثَيِّباتٍ وأبكارًا.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَمكُثُ عندَ زَينبَ بنتِ جَحشٍ فيَشرَبُ عِندَها عَسَلًا، فتواطَأتُ أنا وحَفصةُ أنَّ أيَّتَنا ما دَخَل

عليها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلْتَقُلْ: إنِّي أَجِدُ منك رِيحَ مَغافيرَ[1]، أكَلْتَ مَغافيرَ؟! فدَخَل على إحداهما فقالت ذلك له، فقال: بل شَرِبتُ عَسَلًا عندَ زَينبَ بنتِ جَحشٍ، ولن أعودَ له، فنزَل: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى قَولِه: ﴿إِن تَتُوبَآ﴾ لعائِشةَ وحَفْصةَ ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ [التحريم: ٣]؛ لِقَولِه: بل شَرِبتُ عَسَلًا))[2].

وعن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كانت له أَمَةٌ يَطَؤُها، فلم تَزَلْ به عائِشةُ وحَفصةُ حتَّى حَرَّمَها على نَفْسِه، فأنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ))[3].

---

(١) مَغافير: جمعُ مُغْفور، وهو صَمْغٌ حُلْوٌ له رائِحةٌ كَريهةٌ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٣٧٧).
قال الألوسي: (وكان صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم يحبُّ الطِّيبَ جدًّا، ويكرهُ الرَّائحةَ الكريهةَ؛ للطافةِ نفسِه الشَّريفةَ، ولأنَّ الملَكَ يأتيه وهو يكرهُها، فشقَّ عليه صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم ما قيل، فجرَى ما جرَى). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٤٢).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٩١٢)، ومسلمٌ (١٤٧٤) واللَّفظُ له.

(٣) أخرجه النسائيُّ (٣٩٥٩) واللَّفظُ له، والحاكمُ (٣٨٢٤)، والبيهقيُّ (١٥٤٧٢).
صحَّحه الحاكِمُ، وقال: (على شرطِ مُسلمٍ)، والوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (٢٥٣)، وصحَّح إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٩/ ٢٨٨)، والصنعانيُّ في ((سبل السلام)) (٣/ ٢٧٨)، والشوكاني في ((الدراري المضية)) (٢٢٥)، والألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٣٩٥٩).

ممَّن رجَّح أنَّ سَبَبَ النُّزولِ هو قِصَّةُ الجاريةِ: ابنُ عطيَّة، وابنُ حجر، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٠)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٢٩٠)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٦٨).
ويُنظر أيضًا: ((المحرر في أسباب نزول القرآن)) للمزيني (٢/ ١٠٣٨).

قال ابن عطية: (القولُ الأوَّلُ أنَّ الآيةَ نَزَلت بسَبَبِ ماريةَ: أَصَحُّ وأوضَحُ، وعليه تفقَّهَ النَّاسُ في الآيةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٠).

وقال ابن حجر: (الرَّاجحُ مِن الأقوالِ كُلِّها قِصَّةُ ماريةَ؛ لاختِصاصِ عائِشةَ وحَفصةَ بها، بخِلافِ العَسَلِ؛ فإنَّه اجتَمَع فيه جماعةٌ مِنهنَّ، ويحتَمِلُ أن تكونَ الأسبابُ جميعُها اجتمعت، فأُشيرَ =

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ لِمَ تُحرِّمُ على نَفْسِك ما أحلَّه اللهُ لك مُلتَمِسًا بتَحريمِه رِضا بَعضِ أزواجِك[1]؟

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: واللهُ غَفورٌ لذُنوبِ عِبادِه، رَحيمٌ بهم، وقد غَفَر لك -يا محمَّدُ- تحريمَك على نَفْسِك ما أحلَّه اللهُ لك، ورَحِمَك[2].

= إلى أهمِّها، ويؤيِّدُه شُمولُ الحَلِفِ للجَميع). ((فتح الباري)) (٩/ ٢٩٠).

وقال القاسمي: (الَّذي يَظهَرُ لي هو ترجيحُ رواياتِ تحريمِ الجاريةِ في سَبَبِ نُزولِها). ثمَّ ذكر وُجوهَ ترجيحِ هذا القولِ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٦٨).

ورجَّح ابنُ العَرَبي، والقرطبيُّ، والنوويُّ، وابنُ كثير، وابنُ عاشور أنَّ الآيةَ نَزَلت بسَبَبِ قِصَّةِ العَسَلِ. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٩)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٤).

قال ابنُ كثير: (قد يُقالُ: إنَّهما واقِعتانِ، ولا بُعْدَ في ذلك، إلَّا أنَّ كَونَهما سببًا لنُزولِ هذه الآيةِ فيه نظَرٌ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٢).

وقال الشوكاني: (هذان سَبَبانِ صَحيحانِ لِنُزولِ الآيةِ، والجَمعُ مُمكِنٌ بوُقوعِ القِصَّتَينِ: قِصَّةِ العَسَلِ، وقِصَّةِ مارية، وأنَّ القُرآنَ نَزَل فيهما جميعًا، وفي كُلِّ واحدٍ منهما أنَّه أسَرَّ الحَديثَ إلى بَعضِ أزواجِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٠٠). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨٣، ٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٧، ٣١٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٠٤-٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٧).

قال البِقاعي: (قد جَعَل مِن رَحمتِه لعبادِه لأَيْمانِهم كفَّارةً). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٨٢). =

﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢﴾.

﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾.

أي: قد بيَّن اللهُ لكم تحليلَ جَميعِ أيْمانِكم -إذا أحبَبْتُم استِباحةَ المحلوفِ عليه- بالكَفَّارةِ الَّتي شَرَعها وبَيَّنَها لكم مِن قَبْلُ في سورةِ المائِدةِ[1].

= وقال السعدي: (صار ذلك التَّحريمُ الصَّادِرُ منه سَبَبًا لشَرعِ حُكمٍ عامٍّ لجَميعِ الأمَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٣/ ٥٠، ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

قال السمعاني: (والفرْضُ هاهنا بمعنى البيانِ والتَّسميةِ، ويُقالُ: بمعنى التَّقديرِ؛ لأنَّ الكفَّاراتِ مقدَّرةٌ مَعْدودَةٌ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧١).

وقال ابن عاشور: (تَحِلَّةُ اليَمينِ هي الكَفَّارةُ عندَ الجَميعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٨).

وقال السمعاني: (وعن بعضِهم: أن تَحِلَّةَ اليمينِ هو الاستِثناءُ؛ لأنَّه يخرجُ به عن اليمينِ. والأوَّلُ هو المعروفُ [أي: أنَّه الكفَّارةُ]). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧١).

وقال ابن جُزَي: (التَّحِلَّةُ هي الكفَّارةُ، وأحال تعالى هنا على ما ذكر في سورةِ المائدة [٨٩] مِن صِفَتِها. واختُلِف في المرادِ بها هنا؛ فأمَّا على قولِ مَن قال: إنَّ الآيةَ نزلتْ في تحريمِ الجاريةِ فاختُلِف في ذلك؛ فمَن قال: إنَّ التَّحريمَ يَلزَمُ فيه كفَّارةُ يمينٍ استدَلَّ بها، ومَن قال: إنَّ التَّحريمَ يَلزَمُ فيه طلاقٌ قال: إنَّ الكفَّارةَ هنا إنَّما هي لأنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّمَ حلَفَ، وقال: واللهِ لا أطَؤُها أبدًا.

وأمَّا على القولِ بأنَّ الآيةَ نزلتْ في تحريمِ العسلِ فاختُلِف أيضًا؛ فمَن أوجَبَ في تحريمِ الطَّعامِ كفَّارةً قال: هذه الكفَّارةُ للتَّحريمِ، ومَن قال: لا كفَّارةَ فيه قال: إنَّما هذه الكفَّارةُ لأنَّه حلَفَ ألَّا يَشرَبَه، وقيل: هي في يمينِه عليه السَّلامُ ألَّا يَدخُلَ على نسائِه شهرًا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٠).

وقال الشوكاني: (واختلَف العُلَماءُ: هل مجرَّدُ التَّحريمِ يمينٌ يوجِبُ الكفَّارةَ أم لا؟ وفي ذلك خِلافٌ، وليس في الآيةِ ما يدُلُّ على أنَّه يمينٌ؛ لأنَّ اللهَ سبحانه عاتبَه على تحريمِ ما أحلَّه له، ثمَّ قال: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾، وقد ورد في القصَّةِ الَّتي ذهب أكثَرُ المفسِّرينَ إلى أنَّها سببُ نُزولِ الآيةِ أنَّه حرَّم أوَّلًا، ثمَّ حلَف ثانيًا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٨). =



كما قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

وعن أبي موسى الأشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنِّي واللهِ -إن شاء اللهُ- لا أحلِفُ على يمينٍ، فأرى غيرَها خيرًا منها، إلَّا أتيتُ الَّذي هو خيرٌ وتحَلَّلْتُها))(١).

﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾.

أي: واللهُ وَلِيُّكم وناصِرُكم -أيُّها المؤمِنونَ- ويتوَلَّى أُمورَكم بما فيه صَلاحُكم(٢).

﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو البالِغُ العِلمِ بمَصالِحِ عِبادِه وغَيرِها، الحَكيمُ في خَلْقِه وشَرْعِه، وقَدَرِه وتَدبيرِ عِبادِه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به؛ فلذلك شَرَعَ لكم مِنَ الأحكامِ ما هو مُوافِقٌ لمصالِحِكم، ومُناسِبٌ لأحوالِكم(٣).

= وقال البقاعي: (قد قيل: إنَّ تحريمَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هنا كان بيَمينٍ حَلَفَها، وحينَئذٍ لا يكونُ فيه حُجَّةٌ لِمَن رأى أنَّ «أنتِ علَيَّ حرامٌ» يمينٌ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٨٤).

وقد ورد في روايةٍ عندَ البخاري (٤٩١٢) عن عائشةَ، قالت: كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يشربُ عسلًا عندَ زينبَ... قال: ((لا، ولكنِّي كنتُ أشربُ عسلًا عندَ زينبَ بنتِ جحشٍ، فلنْ أعودَ له، وقد حلفْتُ، لا تُخبري بذلك أحدًا)).

(١) رواه البخاريُّ (٧٥٥٥)، ومسلمٌ (١٦٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣)، =

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ ساقَ ما هو كالدَّليلِ على عِلمِه، فقال[١]:

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾.

أي: واذكُرْ[٢] حينَ أخفى النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى زَوجتِه حَفْصة كلامًا -وهو تحريمُ ما حرَّمه على نفْسِه- وأمَرها ألَّا تُخبِرَ به أحدًا[٣].

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٨/ ١٥٧).

(٢) قيل: المعنى: واذكُرْ إذ أسرَّ النَّبيُّ... وممَّن نصَّ عليه: الزَّجَّاجُ، والقرطبي، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٤٥).

وقيل: المعنى: اذكُرْ -يا محمَّدُ- ذلك على وَجهِ التَّأنيبِ والعَتبِ لزَوجاتِك. وممَّن قال بهذا: ابنُ عطيَّة، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٩٦).

وقيل: المعنى: واذكروا أيُّها المؤمنونَ إذ أسرَّ النَّبيُّ. وممَّن اختاره: مكِّي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٥٦٥).

وقيل: المعنى: اذكُروا كريمَ أخلاقِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وطاهِرَ شمائِلِه في عِشرتِهنَّ حينَ أسَرَّ إلى بَعضِ أزواجِه حديثًا. قالَه البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

ذكر ابنُ الجوزي وابنُ عاشور: أنه لم يختَلِفْ أهلُ العِلمِ في أنَّ الَّتي أسَرَّ إليها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الحَديثَ هي حَفصةُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥١).

قال ابنُ عطية: (قال الجُمهورُ: الحَديثُ: هو قَولُه في أمرِ مارِيةَ، وقال آخَرونَ: بل هو قَولُه: «إنَّما شَرِبتُ عَسَلًا»). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٠). =

﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾.

أي: فلمَّا أخبَرَت حَفْصةُ عائِشةَ بما أسَرَّ إليها النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن تَحريمِه ما حرَّم على نَفْسِه، وأطْلَعَ اللهُ نبيَّه على إفشائِها سِرَّه؛ أخبَرَها الرَّسولُ ببَعضِ ما أفشَتْه مُؤَنِّبًا لها، وتَرَك إخبارَها ببَقيَّةِ كَلامِها؛ كَرَمًا منه وحِلْمًا[1].

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾.

أي: فلمَّا أخبَرَ نَبيُّ اللهِ حَفْصةَ بإفشائِها سِرَّه إلى عائِشةَ، قالت له حَفصةُ مُتعَجِّبةً مِن مَعرِفتِه: مَنْ أخبَرَك بذلك[2]؟!

﴿قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

= وممَّن ذهب إلى القولِ الأوَّلِ -المنسوبِ إلى الجُمهورِ-: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥١).

قال ابن الجوزي: (وفي هذا السِّرِّ ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه قال لها: إنِّي مُسِرٌّ إليك سِرًّا فاحفظيه، سُرِّيَّتي هذه علَيَّ حرامٌ. رواه العَوْفيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال عَطاءٌ، والشَّعبيُّ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ، وابنُه، والسُّدِّيُّ.

والثَّاني: أنَّه قال لها: أبوكِ، وأبو عائشةَ، والِيا النَّاسِ مِن بَعدي، فإيَّاكِ أن تُخبِري أحدًا. ورواه سعيدُ بنُ جُبَيرٍ عن ابنِ عبَّاسٍ.

والثَّالثُ: أنَّه أسَرَّ إليها أنَّ أبا بكرٍ خليفتي مِن بَعدي. قاله ميمونُ بنُ مِهْرانَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٠٧).

وقال الواحديُّ: (قال جماعةٌ مِن المفسِّرينَ: إنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ لَمَّا رأى الغَيرةَ والكراهيةَ في وجْهِ حفصةَ أراد أن يَترضَّاها، فأسَرَّ إليها بشيئينِ: تحريمِ الأمَةِ على نفْسِه، وبشَّرها بأنَّ الخِلافةَ بعْدَه في أبي بكرٍ وأبيها عُمَرَ. وهذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ في روايةِ عَطاءٍ، والكلبيِّ، وسعيدِ ابنِ جُبَيرٍ، ومقاتلٍ). ((البسيط)) (٢٢/ ١٢، ١٣). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٨/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩١، ٩٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١١٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٤).

أي: قال لها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أخبَرَني بذلك العَليمُ بكُلِّ شَيءٍ، الخَبيرُ الَّذي لا تَخفى عليه خافِيةٌ[١].

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾.

أي: إنْ تَتُوبَا إلى اللهِ -يا حَفْصةُ وعائِشةُ- فقد صدَر منكما ما يُوجِبُ التَّوبةَ؛ فقد مالَت قُلوبُكما عن الحقِّ والصَّوابِ، وعمَّا يَنبغي عليكُما مِن الأدَبِ مع النَّبيِّ، وحُبِّ ما يُحِبُّه، وكراهةِ ما يَكرَهُه[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

قيل: جوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ، على تقدير: فقد وُجِد مِنكما ما يُوجِبُ التَّوبةَ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: الزمخشريُّ، وابنُ عطية، والبَيضاوي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٨).

وقيل: تقديرُه: كان خيرًا لكما. أي: إنْ تَتوبَا إلى اللهِ كان خيرًا لكما. وممَّن ذهب إلى هذا القول: الواحديُّ، والرَّازيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٠).

قال الألوسي: (التَّقديرُ: إنْ تَتوبا فلِتَوبَتِكما موجِبٌ وسببٌ ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، أو فحقَّ لكما ذلك فقد صدَر ما يَقْتَضيها، وهو على معنى: فقد ظهَر أنَّ ذلك حقٌّ... وقيل: الجوابُ محذوفٌ، تقديرُه: يَمْحُ إثمَكما، وقَولُه تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ﴾ إلخ: بيانٌ لسَبَبِ التَّوبةِ. وقيل: التَّقديرُ: فقد أدَّيتُما ما يجبُ عليكما، أو أتَيْتُما بما يَحِقُّ لكما، وما ذُكِرَ دَليلٌ على ذلك. قيل: وإنَّما لم يُفَسِّروا: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ بـ «مالَتْ إلى الواجِبِ أو الحَقِّ أو الخَيرِ»؛ حتَّى يَصِحَّ جَعْلُه جوابًا مِن =

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: وإنْ تَتعاوَنا -يا حَفصةُ وعائِشةُ- على إيذاءِ رَسولِ اللهِ، فإنَّ اللهَ ناصِرُه عليكما، وجبريلُ وخِيارُ المؤمِنينَ -كأبي بَكرٍ وعُمَرَ- أولياءُ له أيضًا يَتوَلَّونَه ويَنصُرونَه؛ فلا يَضُرُّ الرَّسولَ تعاوُنُكما عليه[1]!

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (مَكثْتُ سَنةً أُريدُ أن أسأَلَ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ عن آيةٍ، فما أستطيعُ أن أسألَه؛ هَيْبةً له، حتَّى خَرَج حاجًّا فخَرَجتُ معه، فلمَّا رَجَعْنا وكُنَّا ببَعضِ الطَّريقِ عَدَل إلى الأراكِ[2] لحاجةٍ له، فوقَفْتُ له حتَّى فَرَغ، ثمَّ سِرتُ معه، فقُلتُ: يا أميرَ المؤمِنينَ، مَنِ اللَّتانِ تَظاهَرَتا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أزواجِه؟ فقال: تلك حَفصةُ وعائِشةُ)[3].

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

أي: والمَلائِكةُ مع نَصرِ اللهِ وجِبريلَ وصالِحِ المُؤمِنينَ أعوانٌ أيضًا لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على مَن يُريدُ أذاه ومَساءتَه[4].

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٍ مُّؤۡمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ

= غَيرِ احتياجٍ إلى نحوِ ما تقَدَّمَ؛ لأنَّ صيغةَ الماضي و«قَدْ»، وقراءةَ ابنِ مَسعودٍ: «فَقَدْ زَاغَتْ قُلُوبُكُمَا»، وتكثيرَ المعنى مع تقليلِ اللَّفظِ: تقتضي ما سَلَف). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٤، ٩٧، ٩٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٧، ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

(٢) أي: مالَ عن الطَّريقِ إلى شَجَرِ الأَراكِ الَّتي يُتَّخَذُ منها المَساويكُ، وهي كثيرةُ الوَرَقِ والأغصانِ؛ مال لقضاءِ الحاجةِ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٩/ ٢٥١).

(٣) رواه البخاريُّ (٤٩١٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٤٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٩).

﴿عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حذَّر اللهُ تعالى بما تقدَّمَ، زاد في التَّحذيرِ ما يُقَطِّعُ القُلوبَ؛ لأنَّ أشَدَّ ما على المرأةِ أن تُطَلَّقَ، ثمَّ إذا طُلِّقَت أن يُستبدَلَ بها، ثمَّ أن يكونَ البَدَلُ خيرًا منها[١].

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾.

أي: عسى ربُّ محمَّدٍ إنْ طَلَّقَكنَّ -يا نِساءَ النَّبيِّ- أن يُبدِلَه أزواجًا أفضَلَ مِنكُنَّ[٢].

عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (اجتَمَع نِساءُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الغَيرةِ عليه، فقُلتُ لهُنَّ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾، فنزَلَت هذه الآيةُ)[٣].

وعن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال عُمَرُ: (وافَقتُ اللهَ في ثلاثٍ، أو وافَقَني رَبِّي في ثلاثٍ؛ قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، لو اتَّخَذتَ مَقامَ إبراهيمَ مُصَلًّى. وقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، يَدخُلُ عليك البَرُّ والفاجِرُ؛ فلو أمَرْتَ أمَّهاتِ المؤمِنينَ بالحِجابِ، فأنزل اللهُ آيةَ الحِجابِ. قال: وبلَغَني مُعاتَبةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَعضَ نِسائِه، فدَخَلْتُ عليهنَّ، قُلتُ: إنِ انتَهَيتُنَّ أو لَيُبَدِّلَنَّ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خيرًا مِنكنَّ! حتَّى أتيتُ إحدى نِسائِه، قالت: يا عُمَرُ، أمَا في رَسولِ اللهِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٠).

(٣) رواه البخاري (٤٠٢).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما يَعِظُ نِساءَه حتَّى تَعِظَهنَّ أنت؟! فأنزل اللهُ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ﴾ الآيةَ)[1].

﴿مُسْلِمَٰتٍ﴾.

أي: مُخلِصاتٍ للهِ، خاضِعاتٍ لطاعتِه، قائماتٍ بالشَّرائعِ الظَّاهرةِ[2].

﴿مُّؤْمِنَٰتٍ﴾.

أي: قائِماتٍ بالشَّرائعِ الباطنةِ مِنَ العَقائِدِ الصَّحيحةِ وأعمالِ القُلوبِ[3].

﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾.

أي: مُطيعاتٍ للهِ ورَسولِه على الدَّوامِ، قائِماتٍ بها أحسَنَ قِيامٍ[4].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾.

أي: مُقلِعاتٍ عن الذُّنوبِ إذا وقَعْنَ فيها[5].

﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾.

(١) رواه البخاري (٤٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦١).

أي: مُتذَلِّلاتٍ للهِ بعِبادتِه[١].

﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾.

أي: صائِماتٍ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٥، ١٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٩).

قال ابنُ الجوزي: (﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ فيه قَولانِ؛ أحَدُهما: صائِماتٍ. قاله ابنُ عبَّاسٍ والجمهورُ... والثَّاني: مُهاجِراتٍ. قاله زَيدُ بنُ أسْلَمَ وابنُه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣١٠).

ممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالسَّائِحاتِ: الصَّائِماتُ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزمخشريُّ، وابن عطية، والرَّسْعَني، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٥، ١٦٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو هُرَيرةَ، وعائشةُ، وابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، ومُجاهِدٌ، وسعيدُ ابنُ جُبَيرٍ، وعَطاءٌ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ القُرَظيُّ، وأبو عبدِ الرَّحمنِ السُّلَميُّ، وأبو مالكٍ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، والرَّبيعُ بنُ أنَسٍ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٥).

ويُنظر ما تقدَّم في سببِ تسميةِ الصَّائمِ سائحًا (ص: ١٢٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ السَّائِحاتِ هُنَّ: المهاجِراتُ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦١).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: زَيدُ بنُ أسلَمَ، وابنُه، ويَمَان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٥).

وقال القاسمي: (معنى قَولِه تعالى: ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ مُسافِراتٌ؛ سواءٌ كان السَّفَرُ لِهجرةٍ، أو اطِّلاعٍ على آثارِ الأُمَمِ البائدةِ، وقد خَصَّصَت السُّنَّةُ عُمومَ سَفَرِهنَّ بكَونِه مع زَوجٍ أو مَحرَمٍ لهنَّ؛ حِفظًا لهنَّ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٧٦).

وقال الثعلبي: (﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ يَسِحْنَ معه حيثُ ما ساحَ). ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٤٩). =

﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾.

أي: بَعضُهنَّ ثَيِّباتٌ قد تزَوَّجْنَ مِن قَبلُ، وبَعضُهنَّ أبكارٌ عَذارَى لم يتزوَّجْنَ مِن قَبلُ(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فيه أنَّ أحَدًا لا يُحَرِّمُ على نَفْسِه ما أحَلَّ اللهُ له؛ لإرضاءِ أحَدٍ؛ إذ ليس

= وقال ابنُ القيِّم في قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾[التوبة: ١١٢]: (فُسِّرَت السِّياحةُ بالصِّيام، وفُسِّرَت بالسَّفَرِ في طَلَبِ العِلم، وفُسِّرَت بالجِهاد، وفُسِّرَت بدوام الطَّاعةِ. والتَّحقيقُ فيها: أنَّها سياحةُ القَلبِ في ذِكرِ اللهِ ومَحبَّتِه، والإنابةِ إليه والشَّوقِ إلى لقائِه، ويترتَّبُ عليها كُلُّ ما ذُكِرَ مِن الأفعال؛ ولذلك وَصَف اللهُ سُبحانَه نِساءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم اللَّاتي لو طَلَّق أزواجَه بَدَّلَه بهنَّ: بأنَّهنَّ سائِحاتٌ، وليست سياحتُهنَّ جِهادًا، ولا سَفَرًا في طَلَبِ عِلمٍ، ولا إدامةَ صِيامٍ، وإنَّما هي سياحةُ قُلوبِهنَّ في محبَّةِ اللهِ تعالى وخشيتِه، والإنابةِ إليه وذِكرِه. وتأمَّلْ كيف جَعَل اللهُ سُبحانَه التَّوبةَ والعبادةَ قرينتَين: هذه تَرْكُ ما يَكرَهُ، وهذه فِعلُ ما يُحِبُّ؛ والحَمدَ والسِّياحةَ قرينَين: هذا الثَّناءُ عليه بأوصافِ كَمالِه، وسياحةُ اللِّسانِ في أفضَلِ ذِكرِه، وهذه سِياحةُ القَلبِ في حُبِّه وذِكرِه وإجلالِه، كما جَعَل سُبحانَه العبادةَ والسِّياحةَ قَرينتَينِ في صِفةِ الأزواجِ؛ فهذه عبادةُ البَدَنِ، وهذه عبادةُ القَلبِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٨٥).

وذهب البِقاعي إلى أنَّ معنى ﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾: متَّصِفاتٌ بِصفاتِ الملائكة؛ مِنَ التخَلِّي عن الدُّنيا، والاستغراقِ في الآخِرةِ بما أدناه الصِّيامُ، ماضياتٌ في ذلك غايةَ المَضاءِ؛ لِيَتِمَّ الانقيادُ لله ولرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ مَن كان هكذا لم يكُنْ له مرادٌ، فكان تابِعًا لرَبِّه في أمرِه دائمًا، ويَصيرُ لَطيفَ الذَّاتِ حُلوَ الشَّمائِلِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

قال الماوَرْدي: (أمَّا الثَّيِّبُ فإنَّما سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها راجِعةٌ إلى زَوْجِها إن أقام معها، أو إلى غيرِه إن فارَقَها. وقيل: لأنَّها ثابَتْ إلى بَيتِ أبَوَيها، وهذا أَصَحُّ؛ لأنَّه ليس كلُّ ثيِّبٍ تعودُ إلى زَوجٍ. وأمَّا البِكرُ فهي العَذراءُ، سُمِّيَت بِكْرًا؛ لأنَّها على أوَّلِ حالتِها الَّتي خُلِقَت بها). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٤٢).

ذلك بمَصلحةٍ له ولا للَّذي يَسترضيه، وإنَّما صَلاحُ كُلِّ جانِبٍ فيما يعودُ بنَفعٍ على نَفْسِه، أو بنَفعٍ على غَيرِه نفعًا مَرْضِيًّا عندَ اللهِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾، أي: ليسَتْ غَيرتُهنَّ ممَّا تجِبُ مُراعاتُه في المعاشَرةِ إنْ كانتْ فيما لا هَضْمَ فيه لحُقوقِهنَّ، ولا هي مِن إكرامِ إحداهنَّ لزَوجِها إن كانتِ الأخرى لم تتمكَّنْ مِن إكرامِه بمِثلِ ذلكَ الإكرامِ في بعضِ الأيامِ، وهذا يُومِئُ إلى ضبْطِ ما يُراعَى مِنَ الغَيرةِ وما لا يُراعَى[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ﴾ فيه أنَّه لا بأسَ بإسرارِ الحَديثِ إلى مَن يُركَنُ إليه مِن زَوجةٍ أو صَديقٍ، وأنَّه يَلزَمُه كَتمُه[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ﴾ فيه حُسنُ العِشرةِ مع الزَّوجاتِ، والتَّلَطُّفُ في العَتْبِ، والإعراضُ عن استِقصاءِ الذَّنْبِ. قال الحَسَنُ: (ما استَقصى كَريمٌ قَطُّ)[٤]، وإنَّ مِن عادةِ الفُضلاءِ التَّغافُلَ عن الزَّلَّاتِ[٥]. وقيل: (ما زال التَّغافُلُ مِن فِعلِ الكِرامِ)[٦].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٥).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٤٦).
(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٩).
(٤) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١١٨)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٠).
(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٥).

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ فيه تعليمُ الأزواجِ ألَّا يُكثِرْنَ مِن مُضايَقةِ أزواجِهنَّ؛ فإنَّه رُبَّما أدَّت إلى المَلالِ، فالكَراهيةِ، فالفِراقِ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ والمرادُ به الرَّسولُ، واللهُ تعالى يُخاطِبُ رسولَه بوَصفِ النُّبوَّةِ أحيانًا، وبوَصفِ الرِّسالةِ أحيانًا، فحينَما يأمرُه أنْ يُبَلِّغَ يُناديه بوَصفِ الرِّسالةِ، وأمَّا في الأحكامِ الخاصَّةِ فالغالبُ أنْ يناديَه بوَصفِ النُّبُوَّةِ، كالآيةِ هنا[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾ إلى قَولِه: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أنَّ المؤمِنَ ليس له أنْ يُحَرِّمَ الحَلالَ بيَمينٍ ولا غَيرِها[3].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾ إلى قَولِه: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الشَّيءَ إذا حُرِّمَ، وقَصَد به الإنسانُ الامتِناعَ عنه؛ صار بمنزلةِ اليَمينِ، فجَعَلَ اللهُ تعالى هذا التَّحريمَ يمينًا، وقال: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾[4]. فقد نَزَلت الآيةُ في تَحريمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سُرِّيَّتَه ماريةَ، أو شُربَ العَسَلِ، فاستُدِلَّ به على أنَّ مَن حرَّمَ على نَفْسِه أَمَةً أو طعامًا أو زَوجةً، لم تَحرُمْ عليه، وتَلزَمُه كَفَّارةُ يَمينٍ[5].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((نظرية العقد)) لابن تيمية (١/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢/ ٢٢٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٩).

قال ابن جُزَي: (ولْنتَكلَّمْ على فِقهِ التَّحريمِ: فأمَّا تحريمُ الطَّعامِ والمالِ وسائرِ الأشياءِ ما عدا =

= النِّساءَ، فلا يَلزَمُ، ولا شَيءَ عليه عندَ مالكٍ، وأوجَبَ عليه أبو حنيفةَ الكفَّارةَ. وأمَّا تحريمُ الأمَةِ فإنْ نوى به العِتقَ لَزِمَ، وإن لم يَنوِ به ذلك لم يَلزَمْ، وكان حُكمُه ما ذكَرْنا في الطَّعامِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٩).

اختلف العلماءُ فيمن حرَّم على نفْسِه شيئًا ممَّا أحلَّ اللهُ -ما عدا النِّساءَ- فذهب الحَنفيَّةُ والحنابلةُ إلى أنَّه تَلزَمُه كفَّارةُ يمينٍ. يُنظر: ((تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشِّلْبي)) (٣/ ١١٤)، ((شرح منتهي الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ٤٤٥).

وذهب المالكيَّةُ والشَّافعيَّةُ إلى أنَّه لا تَلزَمُه كفَّارةٌ. يُنظر: ((الكافي في فقه أهل المدينة)) لابن عبدِ البَرِّ (١/ ٤٥٠)، ((مغني المحتاج)) للخطيب الشربيني (٣/ ٢٨٣).

قال ابن جُزَي: (وأمَّا تحريمُ الزَّوجةِ فاختلَف النَّاسُ فيه على أقوالٍ كثيرةٍ؛ فقال أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ وعمرُ بنُ الخطَّابِ وابنُ عبَّاسٍ وعائشةُ وغيرُهم: إنَّما يَلزَمُ فيه كفَّارةُ يمينٍ. وقال مالكٌ في المشهورِ عنه: ثلاثُ تطليقاتٍ في المدخولِ بها، ويُنَوَّى في غيرِ المدخولِ بها، فيُحكَمُ بما نَوى مِن طَلْقةٍ أو اثنتَينِ أو ثلاثٍ. وقال ابنُ الماجِشونِ: هي ثلاثٌ في الوجهَينِ. ورُويَ عن مالكٍ أنَّها طلقةٌ بائنةٌ، وقيل: طلقةٌ رجعيَّةٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٩). ويُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٧/ ٢٦١) و(١٠/ ٢٠٧).

وقد بلغتِ الأقوالُ في تحريمِ الزَّوجةِ خمسةَ عشَرَ قولًا، وأوصَلها بعضُهم إلى ثمانيةَ عشَرَ قولًا. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٠)، ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (٤/ ٤٥١).

قال ابن حجر: (قال القرطبيُّ: قال بعضُ علمائِنا: سببُ الاختلافِ أنَّه لم يقَعْ في القرآنِ صريحًا ولا في السُّنَّةِ نصٌّ ظاهرٌ صحيحٌ يُعتمَدُ عليه في حُكمِ هذه المسألةِ، فتَجاذَبَها العلماءُ؛ فمَن تمسَّكَ بالبراءةِ الأصليَّةِ قال: لا يَلزَمُه شيءٌ. ومَن قال: إنَّها يمينٌ، أخَذَ بظاهِرِ قولِه تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ بعْدَ قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾. ومَن قال: تجبُ الكفَّارةُ وليستْ بيَمينٍ، بَناهُ على أنَّ معنى اليمينِ التَّحريمُ، فوقعَتِ الكفَّارةُ على المعنى. ومَن قال: تقَعُ به طَلْقةٌ رجعيَّةٌ، حمَلَ اللَّفظَ على أقلِّ وُجوهِه الظَّاهِرةِ، وأقلُّ ما تُحرَّمُ به المرأةُ طَلْقةٌ تُحرِّمُ الوَطْءَ ما لم يَرتَجِعْها. ومَن قال: بائنةٌ؛ فلاستِمرارِ التَّحريمِ بها ما لم يُجدِّدِ العقدَ. ومَن قال: ثلاثٌ، حمَلَ اللَّفظَ على مُنتهى وُجوهِه. ومَن قال: ظِهارٌ، نظَرَ إلى معنى التَّحريمِ، وقطَعَ النَّظَرَ عن الطَّلاقِ، فانحصَرَ الأمرُ عندَه في الظِّهارِ، واللهُ أعلَمُ). ((فتح الباري)) (٩/ ٣٧٢). ويُنظر: ((المفهم لِما أَشْكَلَ من تلخيص كتاب مسلم)) للقرطبي (٤/ ٢٥٠). =

٤- لو قال قائِلٌ: هل الأنبياءُ مَعصومونَ مُطلَقًا؟

فالجوابُ: لا شَكَّ أنَّ الأنبياءَ لا يُعصَمونَ مِمَّا لا يُخِلُّ بالرِّسالةِ مِنَ الذُّنوبِ؛ فالَّذي لا يُخِلُّ بالرِّسالةِ والشَّرَفِ والمُروءةِ لا يُعصَمونَ منه، لكِنَّهم يُعصَمونَ مِنَ الإقرارِ عليه، فلا بُدَّ أن يُوَفَّقوا للتَّوبةِ. وهذا هو الفَرقُ بيْنَهم وبيْن غَيرِهم؛ فإنَّه يُفَرَّقُ بيْنهم وبيْن غَيرِهم مِن وَجهَينِ، في مَسألةِ الذُّنوبِ والمعاصي:

أوَّلًا: أنَّه لا يُمكِنُ أن يَصدُرَ منهم ما يُخِلُّ بالرِّسالةِ، مِثلُ: الكَذِبِ، والخيانةِ، ولا بالشَّرَفِ والمروءةِ، كالزِّنا وما أشبَهَه.

ثانيًا: أنَّه إذا وَقَع منهم ما يُمكِنُ وُقوعُه مِن المعاصي أو الخطأ فإنَّهم لا يُقَرُّونَ عليه، لا بُدَّ أن يَحصُلَ لهم ما يُوجِبُ تَركَهم لهذا الشَّيءِ؛ لأنَّهم رُسُلٌ قُدوةٌ، ولو أُقِرُّوا على ما وقَع منهم مِن ذلك لَكان مِن شَرائِعِهم، فقَولُه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ

= أمَّا تحريمُ الزَّوجةِ فمذهبُ الحنفيَّةِ أنَّه إن أراد بالتَّحريمِ الطَّلاقَ فيقَعُ عليه واحدةٌ بائنةٌ، لا يَملِكُ رَجعتَها، وإن نوى طلاقَ الثَّلاثِ فثلاثٌ، وإن أراد الظِّهارَ فظِهارٌ، وإن أراد الكذبَ فباطلٌ، وإن أراد مجرَّدَ التَّحريمِ أو لم يُرِدْ شيئًا فإيلاءٌ. يُنظر: ((الدر المختار وحاشية ابن عابدين)) (٣/ ٤٣٣)، ((العناية شرح الهداية)) للبابَرْتي (٤/ ٢٠٧).

وذهب المالكيَّةُ إلى أنَّه طلاقٌ ثلاثٌ في المدخولِ بها، وغيرِ المدخولِ بها إلَّا إن نوى أقلَّ فحسَب نيَّتِه. ((حاشية الصاوي على الشرح الصغير)) (٢/ ٥٦٢).

وذهب الشَّافعيَّةُ إلى أنَّه إن نوى طلاقًا فعلى ما نوى مِن العدَدِ، وإن نوى ظِهارًا كان ظِهارًا، وإن نوى الطَّلاقَ والظِّهارَ معًا أو مُتعاقِبَينِ بأنْ نوى أحدَهما في أوَّلِ اللَّفظِ والآخَرَ في آخِرِه؛ تخيَّرَ أحدَهما، وإن نوى التَّحريمَ أو أطلَقَ ففيه كفَّارةُ يمينٍ على الأظهَرِ. يُنظر: ((أسنى المطالب)) لزكريا الأنصاري (٣/ ٢٧٢).

وذهب الحنابلةُ إلى أنَّه ظِهارٌ ولو نوى طلاقًا أو يمينًا. يُنظر: ((شرح منتهي الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ٨٨).

وذهب الظَّاهريَّةُ إلى أنَّه لَغوٌ باطلٌ، لا يترتَّبُ عليه شيءٌ. يُنظر: ((المحلى بالآثار)) لابن حزم (٩/ ٣٠٢)، ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (٣/ ٨١).

عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣]، وقَولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التحريم: ١] هذا ممَّا يدُلُّ على أنَّ الأمرَ قد وَقَع مِنَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، لكِنَّه غُفِرَ له، وما أُقِرَّ عليه[(١)].

٥- في قَولِه: ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾ عُذرٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما فعَلَه مِن أنَّه أراد به خَيرًا، وهو جَلبُ رِضا الأزواجِ؛ لأنَّه أعوَنُ على مُعاشَرتِه، مع الإشعارِ بأنَّ مِثلَ هذه المرضاةِ لا يُعبَأُ بها؛ لأنَّ الغَيرةَ نشَأَت عن مجَرَّدِ مُعاكَسةِ بَعضِهنَّ بَعضًا، وذلك ممَّا يَختَلُّ به حُسنُ المعاشَرةِ بيْنَهنَّ؛ فأنبأه اللهُ أنَّ هذا الاجتهادَ مُعارَضٌ بأنَّ تَحريمَ ما أحَلَّ اللهُ له يُفضي إلى قَطعِ كَثيرٍ مِن أسبابِ شُكرِ اللهِ عِندَ تَناوُلِ نِعَمِه، وأنَّ ذلك ينبغي إبطالُه في سِيرةِ الأُمَّةِ[(٢)].

٦- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾ إلى قَولِه: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ اليَمينَ بالعِتْقِ والطَّلاقِ في اللَّجاجِ والغضَبِ: مثل أن يقصِدَ بها حضًّا أو منعًا أو تصديقًا أو تكذيبًا، كقولِه: الطَّلاقُ يلزمُني لأفعلَنَّ كذا، أو: لا فعلتُ كذا، و: إنْ فعلْتُ كذا فعبيدي أحرارٌ، أو: إن لم أفعلْه فعبيدي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٦٩).

قال ابن عثيمين عن الأنبياءِ عليهم السَّلامُ: (إنَّهم ليسوا معصومينَ مِن صغائرِ الإثم، لكنَّهم معصومونَ مِن إرادةِ المخالفةِ، ومِن الإصرارِ على المعصيةِ...؛ لأنَّ الذي يقعُ منهم يكونُ عن قصد أخطؤوا فيه الصواب، فمثلًا:... قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، فالنبيُّ صلى الله عليه وسلم حرَّم ما أحلَّ الله له طلبًا لمرضاةِ زوجاتِه، وتأليفِ قلوبهنَّ، ولكنَّه لم يحرِّمْه حكمًا شرعيًّا، إنَّما حرَّمه امتناعًا، يعني حرَّمه على نفسِه... فالحاصلُ أنَّهم عليهم الصلاةُ والسَّلامُ لا يُمنعونَ مِن وقوعِ صغائرِ الذنوبِ، لكنَّهم لا يفعلونَها كما يفعلُها غيرُهم تعمدًا للمخالفةِ، ولا يُقرُّونَ عليها أيضًا، بل لابدَّ أنْ يُنبَّهوا عليها حتَّى يرجِعوا إلى الصوابِ). ((شرح العقيدة السفارينية)) (ص: ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٧).

أحرارٌ- يُشْرَعُ فيها التَّحَلُّلُ بالكفَّارةِ؛ وجْهُ ذلك: أنَّ قولَه تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ نصٌّ عامٌّ في كلِّ يمينٍ يَحلِفُ بها المُسلِمونَ؛ فإنَّ اللهَ قد فَرَضَ لها تَحِلَّةً، وذَكَره سُبحانَه بِصيغةِ الخِطابِ للأُمَّةِ بعدَ تَقَدُّمِ الخِطابِ بصيغةِ الإفرادِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع عِلْمِه سُبحانَه بأنَّ الأُمَّةَ يَحلِفونَ بأيمانٍ شَتَّى؛ فلو فُرِضَ يمينٌ واحدةٌ ليس لها تَحِلَّةٌ لَكان مخالِفًا للآيةِ، كيف وهذا عامٌّ لم تُخَصَّ فيه صورةٌ واحدةٌ لا بنَصٍّ ولا بإجماعٍ، بل هو عامٌّ عُمومًا مَعنويًّا مع عُمومِه اللَّفظيِّ؟! فإنَّ اليَمينَ معقودٌ يُوجِبُ مَنْعَ المكلَّفِ مِن الفِعلِ، فشَرْعُ التَّحِلَّةِ لهذه العُقدةِ مُناسِبٌ لِمَا فيه مِن التَّخفيفِ والتَّوسعةِ، وهذا موجودٌ في اليَمينِ بالعِتْقِ والطَّلاقِ أكثرَ منه في غَيرِهما مِن أيمانِ نَذْرِ اللَّجاجِ والغَضَبِ، وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وذلك يقتَضي أنَّه ما مِن تحريمٍ لِمَا أَحَلَّ اللهُ إلَّا واللهُ غَفورٌ لفاعِلِه رحيمٌ به، وأنَّه لا عِلَّةَ تقتضي ثُبوتَ ذلك التَّحريمِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿لِمَ﴾ لأيِّ شَيءٍ؟ استفهامٌ في معنى النَّفيِ والإنكارِ، والتَّقديرُ: «لا سببَ لتحريمِك ما أَحَلَّ اللهُ لك، واللهُ غفورٌ رحيمٌ»، فلو كان الحالِفُ بالنَّذرِ والعِتاقِ والطَّلاقِ على أنَّه لا يَفعلُ شَيئًا: لا رخصةَ له، لَكان هنا سَبَبٌ يقتضي تحريمَ الحَلالِ؛ ولا يبقى مُوجَبُ المَغفرةِ والرَّحمةِ على هذا الفاعِلِ[1]!

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ عبَّرَ بالفَرضِ؛ حَثًّا على قَبولِ الرُّخصةِ؛ إشارةً إلى أنَّ ذلك لا يَقدَحُ في الوَرَعِ، ولا يُخِلُّ بحُرمةِ اسمِ اللهِ؛ لأنَّ أهلَ الهِمَمِ العَوالي لا يُحِبُّونَ النُّقْلةَ مِن عَزيمةٍ إلى رُخصةٍ، بل مِن رُخصةٍ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٢٦٨، ٢٦٩).

إلى عزيمةٍ، أو عزيمةٍ إلى مِثلِها[١].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ فيه أنَّ مَن حَلَف على يمينٍ، فرأى حِنْثَها خيرًا مِن برِّها: أن يُكَفِّرَ عنها، ويَفعَلَ الَّذي هو خَيرٌ[٢].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ ذُكِرَت حَفْصةُ بعُنوانِ بَعضِ أزواجِه؛ للإشارةِ إلى أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَضَع سِرَّه في مَوضِعِه؛ لأنَّ أَولى النَّاسِ بمَعرفةِ سِرِّ الرَّجُلِ زَوْجُه، وفي ذلك تَعريضٌ بمَلامِها على إفشاءِ سِرِّه؛ لأنَّ واجِبَ المرأةِ أن تحفَظَ سِرَّ زَوجِها إذا أمَرَها بحِفْظِه، أو كان مِثْلُه ممَّا يَجِبُ حِفْظُه[٣].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ جعَلَه في سِياقِ حِكايةٍ؛ لأنَّه أسترُ لحَرَمِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيثُ لم يَقُلْ: (فنَبَّأَت به)، ولا قال: (أساءَت بالإنباءِ به)، ونحوَ ذلك ممَّا يُفهِمُ أنَّه مَقصودٌ بالذَّاتِ[٤].

١١- قال تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ إنَّما عرَّفها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذلكَ لِيُوقِفَها على مُخالَفتِها واجبَ الأدبِ مِن حِفظِ سِرِّ زَوجِها، وإعراضُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن تعريفِ زَوجه ببعضِ الحديثِ الَّذي أفشَتْه مِن كرَمِ خُلُقِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مُعاتَبةِ المُفْشِيَةِ وتأديبِها؛ إذْ يحصُلُ المقصودُ بأنْ يُعلِمَ بعضَ ما أفشَتْه، فتُوقِنَ أنَّ اللهَ يَغارُ عليه[٥].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أنَّ الأنبياءَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٣).

لا يَعلَمونَ الغَيبَ، إلَّا ما أطلَعَهم اللهُ عليه[(١)].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ هذا تنبيهٌ إلى عنايةِ اللهِ برَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وانتِصارِه له؛ لأنَّ إطْلاعَه على ما لا عِلْمَ له به ممَّا يُهِمُّه: عنايةٌ ونُصحٌ له[(٢)]، وقد حصَلَ مِن هذا الجوابِ تَعليمُها بأنَّ اللهَ يُطْلِعُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على ما غابَ إنْ شاءَ، وتَنبيهُها على ما أبطَنَتْه مِنَ الأمرِ[(٣)].

١٤- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ إنَّما نبَّأَها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه عَلِمَ إفشاءَها الحديثَ بأمْرٍ مِنَ اللهِ لِيَبْنِيَ عليه الموعظةَ والتَّأديبَ؛ فإنَّ اللهَ ما أطْلَعَه على إفشائِها إلَّا لغرَضٍ جليلٍ[(٤)].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ ذُكِرَتِ «القلوبُ» بالجمعِ مع أنَّ الواحدةَ لها قلبٌ واحدٌ؛ لأنَّ الأفصحَ في اللُّغةِ العربيَّةِ أنَّه إذا أُضِيفَ المُثنَّى إلى ما يُفيدُ التَّعدُّدَ فإنَّه يُجْمَعُ؛ لأنَّ التَّثنيةَ جَمعٌ في المعنى؛ كراهةَ أنْ تجتمِعَ تَثْنِيَتانِ فيما هو كالكلمةِ الواحدةِ؛ لأنَّ المضافَ والمضافَ إليه كأنَّهما كلمةٌ واحدةٌ، فيُجمَعُ؛ طلَبًا لخِفَّةِ اللَّفظِ عِندَ إضافتِه إلى ضَميرِ المُثنَّى؛ فإنَّ صِيغةَ التَّثنيةِ ثَقيلةٌ؛ لقِلَّةِ دَورانِها في الكلامِ، فلمَّا أُمِنَ اللَّبْسُ ساغَ التَّعبيرُ بصِيغةِ الجمعِ عن التَّثنيةِ، وهذا استعمالٌ للعربِ غيرُ جارٍ على القياسِ، وذلك في كلِّ اسمٍ مُثَنًّى أُضيفَ إلى اسمٍ مُثنى فإنَّ المضافَ يَصيرُ جمعًا كما في هذه الآيةِ[(٥)].

---

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٥٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٤٧). =

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ دَليلٌ على أنَّ إفشاءَ السِّرِّ ذَنبٌ مِن مُفْشِيه، لولا ذلك ما دُلَّتا -واللهُ أعلَمُ- على التَّوبةِ منه، وهما وإنْ كانتا أفْشَتا سِرَّ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعْدَ ما أُمِرَتا بالتَّحَفُّظِ به، وكِتمانِه، وطاعتُه فرضٌ في حالٍ، ونَدْبٌ في أخرى، لا يُشارِكُه فيهما أحدٌ مِن أُمَّتِه؛ فمَن دونَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أيضًا مِن المؤمِنينَ إذا ائْتَمَنَ إنسانًا بوَضعِ سِرِّه عندَه، فخانَه بإفْشَائِه عليه، فهو لا مَحالةَ آثِمٌ؛ إذ لو لم يَكُنْ آثِمًا إلَّا بإبدائِه لَكفاه عمَّا سِواه[١].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ بعدَ ذِكرِ التَّظاهُرِ دَليلٌ واضِحٌ على أنَّ المولَى هو النَّاصِرُ لا المالِكُ؛ إذْ لو كان مالِكًا لَمَا شارَكَه فيه جِبريلُ وصالِحُ المؤمِنينَ؛ فهو الآنَ رَدٌّ على الرَّافضةِ فيما يَحْمِلونَ عليه قَولَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه

= قال الشنقيطي: (المثنَّى إذا أُضِيف إليه شيئانِ هما جزآه جاز في ذلك المضافِ -الذي هو شيئانِ- الجمعُ، والتثنيةُ، والإفرادُ، وأفصحُها الجمعُ، فالإفرادُ، فالتثنيةُ على الأصحِّ). ((أضواء البيان)) (٤/ ١١٥).

وقال الفرَّاءُ: (إنَّما اختير الجمعُ على التَّثنيةِ؛ لأنَّ أكثرَ ما تكونُ عليه الجوارحُ اثنينِ في الانسانِ: اليدينِ والرِّجلينِ والعَينينِ، فلمَّا جرَى أكثرُه على هذا ذهب بالواحدِ منه إذا أُضيفَ إلى اثنين مذهبَ التثنيةِ). ((معاني القرآن)) (١/ ٣٠٦). ويُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (٣/ ٦٢١، ٦٢٢)، ((المفصل في صنعة الإعراب)) للزمخشري (ص: ٢٣٣).

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٦٤).

قال ابن حجر: (قال ابنُ بطَّالٍ: الَّذي عليه أهلُ العلمِ أنَّ السِّرَّ لا يُباحُ به إذا كان على صاحبِه منه مَضَرَّةٌ، وأكثرُهم يقولُ: إنَّه إذا مات لا يَلزَمُ مِن كِتمانِه ما كان يَلزَمُ في حياتِه، إلَّا أن يكونَ عليه فيه غَضاضةٌ. قلتُ: الَّذي يَظهَرُ انقِسامُ ذلك بعدَ الموتِ إلى ما يُباحُ وقد يُستحَبُّ ذِكرُه ولو كَرِهَه صاحبُ السِّرِّ، كأن يكونَ فيه تزكيةٌ له مِن كرامةٍ أو مَنقبةٍ أو نحوِ ذلك، وإلى ما يُكرَهُ مُطلقًا وقد يَحرُمُ، وهو الَّذي أشار إليه ابنُ بطَّالٍ، وقد يجبُ كأن يكونَ فيه ما يجبُ ذِكرُه، كحقٍّ عليه كان يُعذَرُ بتركِ القيامِ به، فيُرجى بعدَه إذا ذُكِر لِمَن يقومُ به عنه أن يفعلَ ذلك). ((فتح الباري)) (١١/ ٨٢). ويُنظر: ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (٩/ ٦٤).

وسلَّم: ((مَن كُنْتُ مَوْلاه فعَليٌّ مَولاه))[(١)] وأنَّها وِلايةُ التَّمليكِ، لا وَلايةُ النُّصرةِ، وهذا مِن حَماقاتِ الرَّافِضةِ الَّتي لا تُشْكِلُ على عالِمٍ ولا جاهِلٍ؛ فلِمَ ابتاعَ إذَنْ -ليتَ شِعْري- الجواريَ والمماليكَ بالأثمانِ الغاليةِ إنْ كان -على زعْمِهم- مالِكَهم ومالِكَ ساداتِهم؟! بل لِمَ أصدَقَ حرائرَه إنْ كُنَّ بالمِلْكِ جواريَه؟! أمْ لِمَ فَعلَه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَبْلَه، الَّذي وَرِثَ الوَلايةَ عنه، واستحَقَّها به؟! إنَّ هذا لأقبَحُ مَقالٍ، وأجدَرُه بطُرُقِ المُحالِ. نعوذُ باللهِ مِن الضَّلالِ[(٢)].

١٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ فيه سؤالٌ: إن كان المرادُ بـ (صَالِحُ) الفَردَ، فأيُّ فَردٍ هو؟ مع أنَّه لا يُناسِبُ جَمْعَ الملائِكةِ بَعْدَه؟ أو الجَمْعَ، فهلا كُتِبَ في المُصحَفِ بالواوِ؟

الجوابُ مِن وَجهَينِ:

الوَجهُ الأوَّلُ: هو فَردٌ أُريدَ به الجَمعُ، كقَولِه تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ [الحاقة: ١٧]، وقوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧].

الوَجهُ الثَّاني: هو جَمعٌ، لكِنَّه كُتِبَ في المُصحَفِ بغَيرِ (واوٍ) على اللَّفظِ[(٣)]، أي: حُذِفَتْ منه الواوُ خطًّا؛ لحذْفِها لَفظًا.

---

(١) أخرجه النسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٨١٤٥)، وأحمدُ (٢٢٩٤٥) مِن حديثِ بُرَيدةَ الأسْلَميِّ رضيَ اللهُ عنه.
جوَّد إسنادَه ابنُ كثير في ((البداية والنهاية)) (٥/ ٦٧٦)، وصحَّح إسنادَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ٢١١)، والألبانيُّ على شرطِ الشَّيخَينِ أو مسلمٍ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٤/ ٣٣٦)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ على شرطِ الشَّيخَينِ في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٨/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٢).

١٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ في هذا أكبَرُ فَضيلةٍ وشَرَفٍ لسيِّدِ المُرسَلينَ؛ حيثُ جَعَل الباري نَفْسَه الكريمةَ وخواصَّ خَلْقِه أعوانًا لهذا الرَّسولِ الكَريمِ[(١)].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جوازُ إطلاقِ المَولَى على بني آدمَ، وأنْ تقولَ: «هذا فُلانٌ مولايَ» وما أشْبَهَ ذلك، لكنَّ إطلاقَها على المخلوقِ ليس كإطلاقِها على اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى له الوَلايةُ المُطلَقةُ، وأمَّا الإنسانُ فوَلايتُه مُقيَّدةٌ[(٢)].

٢١- مَن نَصَرَ رسولَ اللهِ، وذَبَّ عنه أعداءَه، ونافَحَ عنه؛ كان جبريلُ معه ومؤيِّدًا له كما قال الله تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(٣)].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّ أفضلَ الأولياءِ مِن هذه الأُمَّةِ هم صالِحو المؤمِنينَ الَّذين صَحِبوا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٤)].

٢٣- قال الله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ...﴾ لَمَّا سمِعْنَ -رضيَ اللهُ عنهنَّ- هذا التَّخويفَ والتَّأديبَ، بادَرْنَ إلى رضا رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكان هذا الوصفُ منطبقًا عليهنَّ، فصِرْنَ أفضلَ نساءِ المؤمنينَ، وفي هذا دليلٌ على أنَّ الله لا يختارُ لرسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلَّا أكملَ الأحوالِ، وأعلى الأمورِ، فلَمَّا اختار اللهُ تعالى لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).
(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٣/ ١٥٧).
(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٥٠٩).
(٤) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ٢٤٧).

وسلَّم بَقاءَ نِسائِه المذكوراتِ معه، دَلَّ على أنَّهنَّ خَيرُ النِّساءِ وأكمَلُهنَّ(١).

٢٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ فيه سؤالٌ: كيف يكونُ المُبدَلاتُ خَيرًا مِنهنَّ، ولم يكُنْ على وَجهِ الأرضِ نِساءٌ خَيرٌ مِن أمَّهاتِ المؤمِنينَ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: إذا طلَّقَهنَّ الرَّسولُ لعِصيانِهنَّ له، وإيذائِهنَّ إيَّاه، لم يَبقَينَ على تلك الصِّفةِ، وكان غيرُهنَّ مِن الموصوفاتِ بهذه الأوصافِ مع الطَّاعةِ لرَسولِ اللهِ خيرًا مِنهنَّ(٢).

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ اللهَ تعالى كان عالِمًا بأنَّه لا يُطَلِّقُهنَّ، ولكِنْ أخبَرَ عن قُدرتِه على أنَّه إن طلَّقَهنَّ أبدَلَه خيرًا مِنهنَّ؛ تخويفًا لهنَّ، كقَولِه تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، وهو إخبارٌ عن القُدرةِ وتخويفٌ لهم، لا أنَّ في الوُجودِ مَن هو خيرٌ مِن أصحابِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٣).

الوَجهُ الثَّالثُ: هذا على سَبيلِ الفَرْضِ، وعامٌّ في الدُّنيا والآخِرةِ، فلا يَقتضي وُجودَ مَن هو خيرٌ منهنَّ مُطلَقًا، وإنْ قيل بوُجودِه في خديجةَ رَضيَ اللهُ عنها؛ لِمَا جَرَّب مِن تحامُلِها على نَفْسِها في حَقِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبُلوغِها في حُبِّه والأدَبِ معه ظاهِرًا وباطِنًا النِّهايةَ القُصوى، ومَريمَ عليها السَّلامُ الَّتي أحصَنَت فَرْجَها حتَّى كانت مِن القانِتينَ، وذلك في الآخِرةِ، والكَلامُ خارِجٌ مَخرَجَ الشَّرطِ بالطَّلاقِ، وقد عَلِمَ سُبحانَه أنَّه لا يَقَعُ، لكِنَّه سُبحانَه عَلِمَ أنَّه لو وَقَع أبدَلَه صلَّى اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٢٠٢).

عليه وسلَّم مَن هو بالصِّفاتِ المذكورةِ المقتَضِيةِ للإخلاصِ(١).

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ دليلٌ على المُرجِئةِ -فيما يَزعُمونَ أنَّ الإيمانَ لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ-؛ إذ لا يَشُكُّ أحَدٌ أنَّ نِساءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كُنَّ لا محالةَ مُسلِماتٍ مُؤمِناتٍ، ولم يَكُنَّ كوافِرَ، فهل تكونُ المفضَّلاتُ عليهنَّ بالإسلامِ والإيمانِ -إنْ طُلِّقْنَ- خَيرًا مِنهنَّ إلَّا بزيادةٍ في الإيمانِ والإسلامِ(٢)؟!

٢٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ سَوقُ هذه الأوصافِ هذا السِّياقَ في عِتابِ مَن هو متَّصِفٌ بها: مُعَرِّفٌ أنَّ المرادَ منها التَّمامُ، لا سِيَّما وهي لا يُوجَدُ وَصفٌ منها على سَبيلِ الرُّسوخِ إلَّا كان مُستلزِمًا لسائِرِها؛ فلذلك لم يُحتَجْ في تَعدادِها إلى العَطفِ بالواوِ، والتَّجريدُ عنه أقعَدُ في الدَّلالةِ على إرادةِ اجتماعِها كُلِّها(٣).

٢٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ تذكيرٌ لهنَّ بأنَّهنَّ ما اكْتَسَبْنَ التَّفضيلَ على النِّساءِ إلَّا مِن فضْلِ زَوجِهنَّ عِندَ اللهِ(٤).

٢٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٩٣).
قال السعدي: (وهذا مِن بابِ التَّعليقِ الَّذي لم يُوجَدْ، ولا يَلزَمُ وُجودُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٠).

﴿قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ فيه بيانُ أنَّ الخَيريَّةَ الَّتي يَختارُها اللهُ لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في النِّساءِ: هي تلك الصِّفاتُ مِن الإيمانِ والصَّلاحِ[1].

٢٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ فيه سُؤالٌ: كيف أثبتَ الخَيريَّةَ لهُنَّ بالصِّفاتِ المذكورةِ بقَولِه ﴿مُسۡلِمَٰتٖ﴾ إلى آخِرِه، مع اتِّصافِ أزواجِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بها أيضًا؟

الجوابُ: المرادُ ﴿خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾ في حِفظِ قَلْبِه، ومُتابَعةِ رِضاه، مع اتِّصافِهنَّ بهذه الصِّفاتِ المُشترَكةِ بيْنَكنَّ وبيْنَهنَّ[2]. أو لزيادتهنَّ عليهنَّ في بعضِها كما تقدَّم.

٣٠- في قَولِه تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ إدخالُ الثَّيِّبِ مع البِكْرِ في مَوضعِ المدحِ مِمَّا يدُلُّ على أنَّها ممدوحةٌ أيضًا، وإنْ كانتِ البِكرُ أفضَلَ منها[3].

٣١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ فيه سُؤالٌ: ذِكرُ الثَّيِّباتِ في مَقامِ المدحِ، وهنَّ مِن جُملةِ ما يقِلُّ رَغبةُ الرِّجالِ فيهنَّ؟

الجوابُ مِن وُجوهٍ:

الوَجهُ الأوَّلُ: يُمكِنُ أن يكونَ البَعضُ مِنَ الثَّيِّبِ خَيرًا بالنِّسبةِ إلى البَعضِ مِنَ الأبكارِ؛ لاختِصاصِهنَّ بالمالِ والجَمالِ أو النَّسَبِ، أو المجموعِ مَثَلًا، وإذا كان كذلك فلا يَقدَحُ ذِكرُ الثَّيِّبِ في المدحِ؛ لجوازِ أن يكونَ المرادُ مِثلَ ما ذكَرْناه من الثَّيِّبِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٢، ٥٧٣). ويُنظر الفائدةُ (٢٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧١، ٥٧٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٣٠).

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ الثَّيِّبَ تُمدَحُ مِن جِهةِ أنَّها أكثَرُ تَجرِبةً وعَقلًا، وأسرَعُ حَبَلًا غالِبًا، وأرْعى لواجباتِ الزَّوجِ، وأميَلُ مع أهوائِه، وأقوَمُ على بَيتِه، والبِكرُ تُمدَحُ مِن جِهةِ أنَّها أطهَرُ وأطيَبُ، وأكثَرُ مُداعَبةً ومُلاعَبةً غالِبًا، وأشدُّ حَياءً، وأكثرُ غَرارةً ودَلًّا؛ فوَجْهُ التَّفصيلِ في الزَّوجاتِ المقدَّراتِ أنَّ لِكِلْتا الصِّفتينِ مَحاسِنَها عِندَ الرِّجالِ[١].

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّه جمَع بيْنَهما في مَوضِعِ الامتِنانِ على الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لئلَّا تُصرَفَ كلُّ الرَّغبةِ إلى الأبكارِ، بل يَتزَوَّجونَ الثَّيِّباتِ كما يَتزَوَّجونَ الأبكارَ[٢].

٣٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ تَزَوُّجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليس على حسَبِ الشَّهوةِ والرَّغبةِ، بل على حسَبِ ابتِغاءِ مَرضاتِ اللهِ تعالى[٣].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ افتِتاحُ السُّورةِ بخِطابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالنِّداءِ تَنبيهٌ على أنَّ ما سيُذْكَرُ بَعْدَه ممَّا يَهتَمُّ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والأُمَّةُ، ولأنَّ سببَ النُّزولِ كان مِن عَلائقِه[٤].

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ نِداءُ إقبالٍ وتَشريفٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٧).

- قولُه: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ سُؤالُ تَلطُّفٍ؛ ولذلكَ قُدِّمَ قَبْلَه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾[1]. وهذا الاستِفهامُ مُستعمَلٌ في معْنى النَّفي، أي: لا يُوجدُ ما يَدْعو إلى أنْ تُحرِّمَ على نفْسِكَ ما أحلَّ اللهُ لكَ؛ ذلك أنَّه لَمَّا الْتزَمَ عدَمَ العَودِ إلى ما صدَرَ مِنه الْتزامًا بيَمينٍ أو بدونِ يمينٍ، أرادَ الامتناعَ مِنه في المستقبَلِ، قاصدًا بذلكَ تَطمينَ أزواجِه اللَّائي تَمالَأْنَ عليه لفَرْطِ غَيرَتهنَّ[2].

- وجاءَ قولُه: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ بصِيغةِ المُضارعِ؛ لأنَّه أوقَعَ تَحريمًا مُتجدِّدًا[3].

- وفي الإتيانِ بالموصولِ في قولِه: ﴿مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ لِمَا في الصِّلةِ مِنَ الإيماءِ إلى تَعليلِ الحُكْمِ هو أنَّ ما أحلَّه اللهُ لعبْدِه يَنْبَغي له أنْ يتمتَّعَ به ما لم يَعرِضْ له ما يُوجِبُ قطْعَه مِن ضُرٍّ أو مرَضٍ؛ لأنَّ تَناولَه شُكرٌ للهِ، واعتِرافٌ بنِعمتِه، والحاجةِ إليه[4].

- وجُملةُ ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾ إمَّا تَفسيرٌ لـ ﴿تُحَرِّمُ﴾، أو حالٌ مِن فاعلِه، أو استِئنافٌ ببَيانِ ما دَعاه إليه، مُؤْذِنٌ بعدَمِ صَلاحيتِكَ لذلكَ[5].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تَذييلٌ، وفيه استِئناسٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن وَحشةِ هذا المَلامِ، أي: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ لكَ[6].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ، بيَّنَ اللهُ به لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما شرَعَه مِن كفَّارةِ اليمينِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٤٦، ٣٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٧).

وأفْتاهُ بأنْ يأخُذَ برُخصتِه في كفَّارةِ اليمينِ المشروعةِ للأمَّةِ كلِّها[١].

- وافتتاحُ الخبرِ بحرْفِ التَّحقيقِ (قدْ)؛ لتَنزيلِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَنزِلةَ مَن لا يعلَمُ أنَّ اللهَ فرَضَ تَحِلَّةَ الأيْمانِ بآيةِ الكفَّارةِ، بناءً على أنَّه لم يأخُذْ بالرُّخصةِ تَعظيمًا للقسَمِ، فأعلَمَه اللهُ أنَّ الأخْذَ بالكفَّارةِ لا تَقصيرَ عليه فيه؛ فإنَّ في الكَفَّارةِ ما يَكفي للوَفاءِ بتَعظيمِ اليمينِ باللهِ تعالَى[٢].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ تَذييلٌ لجُملةِ ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾، والمولى: الوليُّ، وهو النَّاصرُ ومُتولِّي تَدبيرِ ما أُضيفَ إليه، وهو هُنا كِنايةٌ عن الرَّؤوفِ والمُيسِّرِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ هذا تَذكيرٌ ومَوعظةٌ بما جَرَى في خِلال تَينِكَ الحادثتَيْنِ -أنَّه الْتزَم ألَّا يعودَ لشُربِ ما شَرِبه، أو كان وعَدَ أنْ يُحرِّمَ ماريةَ على نفْسِه-، ثُنِيَ إليه عِنانُ الكلامِ بعْدَ أنْ قُضِيَ ما يُهِمُّ مِنَ التَّشريعِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما حرَّمَ على نفْسِه مِن جرَّائِهما[٤]. وذُكِرَ ذلكَ على سَبيلِ التَّأنيبِ لِمَن أسَرَّ له فأفشاهُ[٥].

- وقد أُعيدَ ما دلَّتْ عليه الآيةُ السَّابقةُ ضِمْنًا بما تَضمَّنَتْه هذه الآيةُ بأُسلوبٍ آخَرَ؛ لِيُبْنَى عليه ما فيه مِن عِبَرٍ ومَواعِظَ، وأدَبٍ ومكارِمَ، وتَنبيهٍ وتحذيرٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٠).

- قولُه: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ المقصودُ ببعضِ أزواجِه هي حَفصةُ بنتُ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضيَ اللهُ عنهما، وعُدِلَ عن ذِكْرِ اسمِها؛ تَرفُّعًا عن أنْ يكونَ القصدُ مَعرفةَ الأعيانِ، وإنَّما المرادُ العِلمُ بمَغزى القِصَّةِ، وما فيها ممَّا يُجتنَبُ مِثْلُه أو يُقْتَدَى به، وكذلكَ طَيُّ تَعيينِ المُنبَّأةِ بالحديثِ، وهي عائشةُ رَضيَ اللهُ عنها[1]. وقيل: أبهَمَ الزَّوجةَ ولم يُعَيِّنْها سُبحانَه؛ تشريفًا له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولها رَضِيَ اللهُ عنهنَّ[2].

- وكان القياسُ أنْ يُقالَ: (نبَّأَتْ به بعضَهُنَّ) بدَلَ ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾؛ لأنَّ حَفصةَ نبَّأَتْ بالحديثِ الَّذي أسرَّها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعضَ أزواجِه، يعني: عائشةَ، وأنْ يُقالَ: (عرَّفَها بَعضَه)؛ لأنَّه عرَّفَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعضَ الحديثِ لحَفصةَ، وعُدِلَ عن ذلك؛ لأنَّ سِياقَ الكلامِ ليس في شأنِ المُذاعِ إليه -أيْ: عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها- وفي شأنِ المُعرِّفِ -أي: حفصةَ رَضِيَ اللهُ عنها- ليَذْكُرَهما، بلْ في مُعاتَبةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وابتغائِه مَرْضاةَ أزواجِه، وفي شأنِ جِنايةِ حَفصةَ، ثُمَّ في حُكْمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وإعراضِه عن بَعضِ جِنايتِها، فلمَّا دلَّ قولُه: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ على الجِنايةِ، وقولُه: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ على الإعراضِ عن البعضِ؛ أتَى بهما، وترَكَ ذِكْرَهما، ويَعْضُدُه إتيانُ ضَميرِ المُنبَّأِ به في قولِه: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾، مع الاستِغناءِ عنه بقَرينةِ الأحوالِ؛ لأنَّه هو المقصودُ في الذِّكْرِ[3].

- وضَميرُ ﴿عَلَيْهِ﴾ عائدٌ إلى الإنباءِ المأخوذِ مِن ﴿نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾، أو على الحديثِ، بتَقديرِ مُضافٍ يدُلُّ عليه قولُه: ﴿نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾، تَقديرُه: أظْهَرَه اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٩٩).

على إفشائِه[١].

- ومَفعولُ ﴿عَرَّفَ﴾ الأوَّلُ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه، أي: عرَّفَها بَعضَه، أي: بعضَ ما أطْلَعَه اللهُ عليه، وأعرَضَ عن تَعريفِها ببَعضِه[٢].

- قولُه: ﴿عَرَّفَ﴾ قُرِئ ﴿عَرَفَ﴾ -بتَخفيفِ الرَّاءِ[٣]، أي: عَلِمَ بعضَه-؛ فذلك كِنايةٌ عن المُجازاةِ، أي: جازَى عن بعضِه الَّتي أفشَتْه باللَّومِ والعَتْبِ، وقدْ يُكنَّى عن التَّوعُّدِ بفِعلِ العِلمِ[٤].

- قولُه: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ الاستِفهامُ هنا حَقيقيٌّ. ويجوزُ جعْلُه للتَّعجُّبِ مِن عِلمِه بذلكَ، وفي هذا كِنايةٌ عن تَيقُّظِ حَفصةَ بأنَّ إفشاءَها سِرَّ زَوجِها زلَّةٌ خُلقيَّةٌ عظيمةٌ حجَبَها عن مُراعاتِها شِدَّةُ الصَّفاءِ لعائشةِ، وفرْطُ إعجابِها بتَحريم مارِيةَ مِن أجْلِها -على أحدِ القولَين-، فلَمْ تَتمالَكْ عن أنْ تُبشِّرَ به خليلتَها ونصيرتَها، ولو تَذكَّرَتْ لتَبيَّنَ لها أنْ مُقتضَى كتْمِ سِرِّ زَوجِها أقوى مِن مُقتضى إعلامِها خليلتَها؛ فإنَّ أواصرَ الزَّوجيَّةِ أقْوى مِن أواصِرِ الخُلَّةِ، وواجبَ الإخلاصِ لرَسولِ اللهِ أعْلى مِن فَضيلةِ الإخلاصِ للخلائلِ[٥].

- وإيثارُ وصْفَي ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ في قولِه: ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ دونَ الاسمِ العَلَمِ (الله)؛ لِمَا فيهما مِنَ التَّذكيرِ بما يجِبُ أنْ يَعْلَمَه النَّاسُ مِن إحاطةِ اللهِ تعالَى عِلْمًا وخُبْرًا بكلِّ شَيءٍ. وفي إتْباعِ وصْفِ العليمِ بوَصْفِ الخَبيرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٣٢).

(٣) قرأ الكِسائيُّ: ﴿عَرَفَ﴾ بتخفيفِ الرَّاءِ، وقرأ الباقونَ بتشديدِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٤).

إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ عَلِمَ دَخيلةَ المُخاطَبةِ وما قصَدَتْه مِن إفشاءِ السِّرِّ للأُخرَى[(١)]، ولِما في اسمِ الله (الخبيرِ) مِن المُبالَغةِ ما ليس في (العليم)[(٢)].

- فإنْ قِيل: لِمَ تُركَ الضَّميرُ في قولِه: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾؟

فالجوابُ: لكونِه جوابًا عن قولِها: ﴿مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾، وقد اعتُمِدَ في السُّؤالِ عن المُنْبِئِ، وأُوقِعَ المنبَّأُ به فضْلةً في الكلامِ، ولأنَّ في تَرْكِه إفادةَ الشُّمولِ والتَّفخيمِ؛ لذلك أُردِفَ بالعليمِ الخَبيرِ، أي: العليمُ بكُلِّيَّاتِ الأحوالِ، والخبيرُ بجُزئيَّاتِها[(٣)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ الْتِفاتٌ مِن ذِكرِ القِصَّتَيْنِ إلى مَوعظةِ مَن تعلَّقَتْ بهما؛ فهو استِئنافُ خِطابٍ وجَّهَه اللهُ إلى حَفصةَ وعائشةَ رَضيَ اللهُ عنهما؛ لأنَّ إنباءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعِلْمِه بما أفشَتْه، القصدُ منه المُبالَغةُ في المُعاتَبةِ، مع المَوعظةِ والتَّحذيرِ والإرشادِ إلى رَأْبِ ما انْثَلَمَ مِن واجبِها نحوَ زَوجِها، وإذْ قدْ كانَ ذلكَ إثمًا -لأنَّه إضاعةٌ لحُقوقِ الزَّوجِ، وخاصَّةً بإفشاءِ سرِّه- ذكَّرَها بواجبِ التَّوبةِ منه[(٤)].

- وجُملةُ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ قائمةٌ مِن مَقامِ جوابِ الشَّرطِ معنًى؛ لأنَّها تُفيدُ معْنى: يَتولَّى جَزاءَكُما على المُظاهَرةِ عليه؛ لأنَّ اللهَ مَولاهُ، وفي هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٠).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٦).

الحَذفِ مَجالٌ تَذهَبُ فيه نفْسُ السامعِ كلَّ مَذهبٍ مِنَ التَّهويلِ[١].

- وضَميرُ الفصلِ (هُوَ) في جُملةِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ يُفيدُ القَصرَ على تَقديرِ حُصولِ الشَّرطِ، أي: إنْ تظاهَرْتُما مُتناصِرَتَيْنِ عليه فإنَّ اللهَ هو ناصِرُه لا أنتُما، أي: وبطَلَ نصْرُكما الَّذي هو واجبُكما؛ إذ أخلَلْتُما به على هذا التَّقديرِ، وفي هذا تَعريفٌ بأنَّ اللهَ ناصرٌ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لئلَّا يقعَ أحَدٌ مِن بعْدُ في مُحاولةِ التَّقصيرِ مِن نَصرِه[٢].

- وبُدِئَ بجِبريلَ عليه السَّلامُ، وأُفرِدَ بالذِّكْرِ؛ تَعظيمًا له، وإظهارًا لمَكانتِه عِندَ اللهِ، ويكونُ قدْ ذُكِرَ مرَّتَينِ: مرَّةً بالنَّصِّ، ومرَّةً في العمومِ في قولِه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[٣].

- واكتَنَفَ صالِحَ المُؤمِنينَ جِبريلُ والملائكةُ؛ تَشريفًا لهُم، واعتِناءً بهِم؛ إذْ جعلَهم بيْنَ الَّذينَ يُسبِّحونَ اللَّيلَ والنَّهارَ لا يَفْتُرونَ[٤].

- وقولُه: ﴿وَصَٰلِحُ﴾ مُفرَدٌ أُريدَ به معْنى الفَريقِ الصَّالِحِ، أو الجِنسِ الصَّالحِ مِنَ المُؤمِنينَ؛ ولذلكَ عُمِّمَ بالإضافةِ[٥]. وقيل: أرادَ بصالحِ المُؤمِنينَ أبا بَكْرٍ وعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، وهو اللَّائقُ بتَوسُّطِه بيْنَ جِبريلَ والملائكةِ عليهِمُ السَّلامُ؛ فإنَّه جمْعٌ بيْنَ الظَّهيرِ المعنويِّ والظَّهيرِ الصُّوريِّ، كيفَ لا وإنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٨).

جبريلَ ظَهيرٌ له، يُؤيِّدُه بالتَّأييداتِ الإلهيَّةِ، وهُما وَزيراه وظَهيراه في تَدبيرِ أُمورِ الرِّسالةِ، وتمشيةِ أحكامِها الظَّاهرةِ، ولأنَّ بَيانَ مُظاهَرتِهما له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أشدُّ تأثيرًا في قُلوبِ بنتَيْهِما، وتَوهينًا لأمرِهِما؛ فكان حقيقًا بالتَّقديمِ، بخِلافِ ما إذا أُريدَ به جِنسُ الصَّالِحينَ كما هو المشهورُ[1].

- قولُه: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ عطفُ جملةٍ على الَّتي قبْلَها، والمقصودُ منه تَعظيمُ هذا النَّصرِ بوَفرةِ النَّاصرينَ؛ تَنويهًا بمَحبَّةِ أهلِ السَّماءِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحُسْنِ ذِكْرِه بيْنَهُم؛ فإنَّ ذلكَ ممَّا يَزيدُ نصْرَ اللهِ إيَّاهُ شأنًا[2].

وفائدةُ ذِكْرِ الملائكةِ بعْدَ ذِكْرِ تأْييدِ اللهِ وجبريلَ وصالحِ المُؤمنينَ: أنَّ المذكورينَ قَبْلَهم ظاهرةٌ آثارُ تأْييدِهم بوحْيِ اللهِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بواسطةِ جبريلَ، ونصْرِه إيَّاه بواسطةِ المُؤمنينَ؛ فنبَّهَ اللهُ المرأتَيْنِ على تأْييدٍ آخَرَ غيرِ ظاهرةٍ آثارُه، وهو تأْييدُ الملائكةِ بالنَّصرِ في يوم بدْرٍ، وغيرِ النَّصرِ مِنَ الاستِغفارِ في السَّمواتِ، فلا يَتوهَّمْ أحَدٌ أنَّ هذا يَقتضي تَفضيلَ نُصرةِ الملائكةِ على نُصرةِ جِبريلَ، بَلْهَ نُصرةَ اللهِ تعالى[3].

- قولُه: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾: أي: بعدَ نُصرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وجبريلَ وصالحِ المؤمنينَ، ومظاهرةُ الملائكةِ مِن جملةِ نصرةِ اللهِ، قيل: فكأنَّه فضَّل نصرتَه تعالى بهم وبمظاهرتِهم على غيرِها مِن وجوهِ نصرتِه تعالى؛ لفضلِهم على جميعِ خلقِه، وقيل: الأنسَبُ أنْ يُجعَلَ ﴿ذَلِكَ﴾ إشارةً إلى مُظاهَرةِ صالحِ المُؤمنينَ خاصَّةً، ويكونَ بيانُ بَعْديَّةِ مُظاهَرةِ الملائكةِ تَدارُكًا لِمَا يُوهِمُه التَّرتيبُ الذِّكْريُّ من

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٥٨، ٣٥٩).

أفضليَّةِ المُقدَّم، فكأنَّه قيلَ بعْدَ ذِكْرِ مُظاهَرةِ صالحِ المُؤمنينَ: وسائرُ الملائكةِ بَعْدَ ذلك ظَهيرٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ إيذانًا بعُلُوِّ رُتبةِ مُظاهَرتِهم، وبُعْدِ مَنزلتِها، وجبْرًا لفصْلِها عن مُظاهَرةِ جبريلَ عليه السَّلامُ[١].

- وأُفْرِدَ الظَّهيرُ؛ لأنَّ المُرادَ فَوجٌ ظهيرٌ، وكثيرًا ما يأتي فَعِيلٌ نَحْوُ هذا للمُفرَدِ والمُثنَّى والمجموعِ بلَفظِ المفرَدِ، كأنَّهم في المُظاهَرةِ يَدٌ واحدةٌ على مَن يُعاديه، فما قَدْرُ تظاهُرِ امرأتَيْنِ على مَن هؤلاءِ ظُهراؤُه[٢]؟!

٥- قولُه تعالَى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾

- قولُه: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ عُدِلَ به إلى تَذكيرِ جَميعِ أزواجِه عليه السَّلامُ بالحذَرِ مِن أنْ يَضيقَ صَدْرُه عن تحمُّلِ أمثالِ هذا الصَّنيعِ، فيُفارِقَهنَّ؛ لتُقلِعَ المُتلبِّسةُ، وتَحذَرَ غيرُها من مِثلِ فِعلِها، فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا عُقِّبَتْ بها جُملةُ ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، الَّتي أفادَتِ التَّحذيرَ من عِقابٍ في الآخِرةِ إنْ لم يَتُوبَا ممَّا جَرَى مِنهما في شأْنِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أفادَ هذا الإيماءُ إلى التَّحذيرِ مِن عُقوبةٍ دُنيويَّةٍ لهُنَّ يأمُرُ اللهُ فيها نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهي عُقوبةُ الطَّلاقِ، على ما يَحصُلُ مِنَ المؤاخَذةِ في الآخِرةِ إنْ لم يَتُوبا؛ ولذلكَ فُصِلتْ عن الَّتي قَبْلَها -أي: لم تُعطَفْ عليها- لاختِلافِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٦، ٥٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٧).

الغرَضَيْنِ[١].

– قولُه: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ ...﴾ ﴿عَسَىٰ﴾ هُنا مُستعمَلةٌ في التَّحقيقِ، وإيثارُها هنا؛ لأنَّ هذا التَّبديلَ مُجرَّدُ فرْضٍ، وليس بالواقِعِ؛ لأنَّهنَّ لا يُظَنُّ بِهنَّ عدَمُ الارْعِواءِ عمَّا حُذِّرْنَ مِنه[٢].

– وأيضًا قولُه: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ فيه إيجازٌ بحذْفِ ما يَترتَّبُ عليه إبدالُهنَّ مِن تَقديرِ: إنْ فارَقَكنَّ، فالتَّقديرُ: عسى أنْ يُطلِّقَكنَّ هو –وإنَّما يُطلِّقُ بإذنِ ربِّه– أنْ يُبدِلَه ربُّه بأزواجٍ خيرٍ مِنكُنَّ[٣].

– قولُه: ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ إجراءُ الأوصافِ المُفصَّلةِ بعْدَ الوصفِ المُجمَلِ –وهو ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾–؛ للتَّنبيهِ على أنَّ أصولَ التَّفضيلِ مَوجودةٌ فيهِنَّ، فيَكمُلُ للَّائي يَتزوَّجُهنَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فضْلٌ على بَقيَّةِ النِّساءِ بأنَّهنَّ صِرْنَ أزواجًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٤].

– وفي هذا الوصفِ ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ إشعارٌ بأنَّهنَّ مُديماتٌ لطاعةِ اللهِ ورسولِه؛ ففيه تعريضٌ لِمَا وقَعَ مِن تقصيرِ إحداهُنَّ في ذلكَ، فعاتَبَها اللهُ وأيقَظَها للتَّوبةِ[٥].

– قولُه: ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ التَّائباتُ: المُقلِعاتُ عن الذَّنْبِ إذا وقَعْنَ فيه، وفيه تَعريضٌ بإعادةِ التَّحريضِ على التَّوبةِ مِن ذنْبِهما الَّتي أُمِرتَا بها بقولِه: ﴿إِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٦١).

تُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1] [التحريم: ٤].

- وانتَصَبَتْ هذه الصِّفاتُ على أنَّها نُعوتٌ لـ﴿أَزْوَٰجًا﴾، ولم يُعطَفْ بعضُها على بعضٍ بالواوِ؛ مِن أجْلِ التَّنصيصِ على ثُبوتِ جَميعِ تلكَ الصِّفاتِ لكلِّ واحدةٍ مِنهُنَّ، ولو عُطِفَت بالواوِ لاحتَمَلَ أنْ تكونَ الواوُ للتَّقسيمِ، أي: تَقسيم الأزواجِ إلى مَن يَثبُتُ لهُنَّ بعضُ تلك الصِّفاتِ دونَ بعضٍ، ألَا تَرى أنَّه لَمَّا أُرِيدَتْ إفادةُ ثُبوتِ إحْدى صِفتَينِ دونَ أُخرى مِن النَّعتَينِ الواقعَينِ بعْدَ ذلك، كيف عُطِفَ بالواوِ قولُه: ﴿وَأَبْكَارًا﴾؛ لأنَّ الثَّيِّباتِ لا يُوصَفْنَ بأبكارٍ، والأبكارَ لا يُوصَفْنَ بالثَّيِّباتِ[2]، فالثُّيوبةُ والبَكارةُ لا يَجتمعانِ، فلذلكَ عطَفَ أحَدَهما على الآخَرِ، ولو لم يأتِ بالواوِ لاختلَّ المعنى، وذكَرَ الجِنسَيْنِ؛ لأنَّ في أزواجِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَن تزوَّجَها بِكرًا، ومَن تزوَّجَها ثيِّبًا، فدخولُ الواوِ هاهنا مُتعيِّنٌ. وقيل: وُسِّط العاطفُ بين الصِّفتينِ ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ لأنَّهما في حُكمِ صِفةٍ واحدةٍ؛ إذِ المعنى: مُشتمِلاتٌ على الثَّيِّباتِ والأبكارِ، فالمقصودُ أنَّه يُزوِّجُه بالنَّوعَينِ: الثَّيِّباتِ والأبكارِ[3].

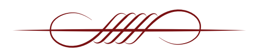
- وتَقديمُ وصْفِ ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾؛ لأنَّ أكثَرَ أزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا تزوَّجَهُنَّ كُنَّ ثيِّباتٍ، ولعلَّه إشارةٌ إلى أنَّ المَلامَ الأشدَّ مُوَجَّهٌ إلى حَفصةَ قبْلَ عائشةَ، وكانتْ حَفصةُ ممَّن تزوَّجَهُنَّ ثيِّباتٍ، وعائشةُ هي الَّتي تزوَّجَها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٧، ٥٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦١، ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥٤).

بِكرًا، وهذا التَّعريضُ أُسلوبٌ مِن أساليبِ التَّأديبِ، كما قيل: الحُرُّ تكفيه الإشارةُ[(١)]. وقيل: إنَّ هذا للتَّنويعِ فقط. وقيل: إنَّه قَدَّم الثَّيِّباتِ؛ ليُبَيِّنَ أنَّ الخَيريَّةَ فيهنَّ بحسَبِ العِشرةِ ومحاسِنِ الأخلاقِ[(٢)]. وقيل: بَدَأَ بالثَّيِّباتِ؛ لِيُشيرَ إلى أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يَتزوَّجُ المرأةَ لِبَكارَتِها، ولكنْ للمعاني الجليلةِ ولو كانت ثَيِّبًا[(٣)].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((جلسات رمضانية)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٣).

الآيات (٦-٩)

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَّصُوحًا﴾: أي صادِقةً بالِغةً في النُّصحِ، خالِصةً، عامَّةً مِن جميعِ الذُّنوبِ، يَنوي التَّائبُ فيها عَدَمَ مُعاوَدةِ المعصيةِ، وأصلُ (نصح): يدُلُّ على مُلاءَمةٍ بيْن شَيئَينِ وإصلاحٍ لهما[1].

المعنى الإجماليُّ:

يُوجِّهُ اللهُ تعالى النِّداءَ للمؤمنينَ، آمِرًا لهم أن يُؤَدُّوا واجبَهم نحوَ أنفُسِهم ونحوَ أهليهم، حتَّى يَنجوا مِن عذابِ النَّارِ، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا قُوا أنفُسَكم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٨).

قال ابن القيم: (أصلُ مادَّةِ «ن ص ح» لِخَلاصِ الشَّيءِ مِن الغِشِّ والشَّوائبِ الغريبةِ، وهو مُلاقٍ في الاشتِقاقِ الأكبَرِ لِنَصَحَ إذا خلَصَ، فالنُّصحُ في التَّوبةِ والعبادةِ والمَشورةِ: تخليصُها مِن كلِّ غِشٍّ ونَقصٍ وفَسادٍ، وإيقاعُها على أكملِ الوُجوهِ، والنُّصحُ ضِدُّ الغِشِّ). ((مدارج السالكين)) (١/ ٣١٦).

-بالعِلمِ النَّافِعِ، والعَمَلِ الصَّالحِ-، وأهلِيكم -بتعليمِهم وتأديبِهم- نارًا حَطَبُها الَّذي تُوقَدُ به الكُفَّارُ والحِجارةُ، عليها مَلائِكةٌ وكَّلَهم اللهُ بها، غِلاظٌ شِدادٌ، لا يُخالِفونَ أمْرَ اللهِ، ويَفعَلونَ ما يُؤمَرونَ بفِعْلِه.

ثمَّ يَذكرُ اللهُ تعالى ما يُقالُ للكافرينَ في الآخرةِ توبيخًا لهم، وبيانًا لسوءِ عاقبتِهم، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين كَفَروا لا تَعتَذِروا اليَومَ عن كُفرِكم؛ إنَّما تَنالونَ جَزاءَ ما كُنتُم تَعمَلونَ في الدُّنيا.

ثمَّ يُوجِّهُ النِّداءَ إلى المؤمنينَ آمِرًا لهم بالتَّوبةِ، ومبيِّنًا حُسنَ عاقبتِها، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا تُوبوا مِن ذُنوبِكم تَوبةً صادِقةً خالِصةً؛ عسى اللهُ أن يَمحوَ عنكم ذُنوبَكم، ويُدخِلَكم جنَّاتٍ تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ يومَ لا يُهينُ اللهُ النَّبيَّ والمُؤمِنينَ معه ولا يَفضَحُهم، نُورُهم يَمضي معهم يومَ القيامةِ؛ مِن أمامِهم وبأيْمانِهم، يقولونَ: ربَّنا زِدْ لنا نُورَنا وأتِمَّه، وامْحُ عنَّا ذُنوبَنا، وقِنا شرَّها؛ إنَّك على كُلِّ شَيءٍ قديرٌ.

ثمَّ يوجِّهُ اللهُ سُبحانَه النِّداءَ إلى نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: يا أيُّها النَّبيُّ جاهِدِ الكُفَّارَ والمُنافِقينَ، واغلُظْ عليهم بالقَولِ والفِعلِ، ومَأْواهم في الآخِرةِ نارُ جَهنَّمَ، وبِئسَ المَرجِعُ هي!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وعَظَ اللهُ عزَّ وجلَّ أزواجَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَوعظةً خاصَّةً،

أَتْبَعَ ذلكَ بمَوعظةٍ عامَّةٍ للمُؤمنينَ وأهليهم؛ إذْ كانَتْ موعظةُ نِساءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُناسِبةً لتَنبيهِ المُؤمنينَ لعَدَمِ الغفلةِ عن مَوعظةِ أنفُسِهم، ومَوعظةِ أهليهم، وألَّا يَصُدَّهم اسْتِبقاءُ الوُدِّ بيْنَهم عن إسداءِ النُّصحِ لهم، وإنْ كانَ في ذلك بَعضُ الأذى(١).

وأيضًا لَمَّا أبلَغَ اللهُ سُبحانَه في عِتابِ أزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعَلِمَ اتِّصافَهنَّ بهذه الصِّفاتِ العظيمةِ على سَبيلِ الرُّسوخِ؛ مِن دَوامِ صُحبتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهنَّ، وكان اتِّصافُهنَّ بذلك الَّذي أدَّاهنَّ إلى السَّعادةِ العُظمى إنَّما هو بحُسْنِ تأديبِ أوليائِهنَّ لهُنَّ، وإكمالِ ذلك الأدَبِ بحُسنِ عِشرتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتأدُّبِهنَّ بكريمِ أخلاقِه- أثمَرَ ذلك أمْرَ الأُمَّةِ بالتَّأسِّي به في هذه الأخلاقِ الكامِلةِ، والتَّأسِّي بأوليائِهنَّ في ذلك؛ لِيَعرِفْنَ حَقَّ اللهِ وحَقَّ الأزواجِ، فيَحصُلَ بذلك صلاحُ ذاتِ البَينِ، المثْمِرُ للخَيرِ كُلِّه(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا اجعَلوا بيْن أنفُسِكم وأهليكم وبيْن النَّارِ حاجِزًا يَقيكم منها؛ بتَعليمِ أنفُسِكم العِلمَ النَّافِعَ، وقيامِكم بالعَمَلِ الصَّالحِ، وتعليمِ أهليكم وتأديبِهم، وأمْرِهم بالمعروفِ، ونَهْيِهم عن المُنكَرِ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٣)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٤، ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

قال السعدي: (وقايةُ الأنفُسِ بإلزامِها أمْرَ الله، والقيامِ بأمْرِه امتثالًا، ونَهْيِه اجتنابًا، والتَّوبةِ عمَّا يُسخِطُ اللهَ ويوجِبُ العذابَ، ووقايةُ الأهلِ [والأولاد] بتأديبِهم وتعليمِهم، وإجبارِهم على أمرِ الله، فلا يَسْلَمُ العبدُ إلَّا إذا قام بما أمَرَ اللهُ به في نفْسِه، وفيمَنْ يَدخُلُ تحتَ ولايتِه من =

كما قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه: ١٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وعنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((ألَا كُلُّكم راعٍ، وكُلُّكم مَسؤولٌ عن رعيَّتِه؛ فالأميرُ الَّذي على النَّاسِ راعٍ، وهو مَسؤولٌ عن رعيَّتِه، والرَّجُلُ راعٍ على أهلِ بَيتِه، وهو مَسؤولٌ عنهم، والمرأةُ راعيةٌ على بَيتِ بَعْلِها ووَلَدِه، وهي مَسؤولةٌ عنهم، والعَبدُ راعٍ على مالِ سَيِّدِه، وهو مَسؤولٌ عنه، ألَا فكُلُّكم راعٍ، وكُلُّكم مَسؤولٌ عن رَعيَّتِه))[1].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((دخَلَ علَيَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وفي البَيتِ قِرامٌ[2] فيه صُوَرٌ، فتلَوَّنَ وَجْهُه، ثمَّ تناوَلَ السِّتْرَ فهتَكَه[3]! وقالت: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ مِن أشَدِّ النَّاسِ عذابًا يومَ القيامةِ الَّذين يُصوِّرونَ هذه الصُّوَرَ))[4].

= الزَّوجاتِ والأولادِ وغيرهم ممَّن هو تحتَ ولايتِه وتصَرُّفِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).
قال الألوسي: (المرادُ بالأهلِ على ما قيل: ما يَشملُ الزَّوجةَ والولدَ، والعبدَ والأمَةَ). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٥١).
وقيل: أهلُ الرَّجُلِ في الأصلِ: مَن يَجمَعُه وإيَّاهم مسكنٌ واحدٌ، فأهلُ الرَّجُلِ امرأتُه وولدُه والَّذين في عيالِه ونفَقَتِه، وكذا كلُّ أخٍ وأُختٍ أو عمٍّ أو ابنِ عمٍّ أو صبيٍّ أجنبيٍّ يَقوتُه في مَنزِلِه. يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٩٦)، ((المغرب في ترتيب المعرب)) للمُطَرِّزي (ص: ٣١).

(١) رواه البخاريُّ (٧١٣٨)، ومسلمٌ (١٨٢٩) واللَّفظُ له.

(٢) قِرامٌ: أي: سِتْرٌ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٩/ ٦٧).

(٣) فهتَكه: أي: جَذَبه فقطَعَه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٩/ ٦٧).

(٤) رواه البخاريُّ (٦١٠٩) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢١٠٧).

﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾.

أي: حَطَبُ النَّارِ الَّذي يُلقَى فيها فتُوقَدُ به: هو الكُفَّارُ والحِجارةُ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (١/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٧).

قيل: المرادُ بقوله: ﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾: حِجارةُ الكِبْريتِ. وممَّن قال بهذا القَولِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والخازنُ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٥٧٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٠٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ مسعودٍ، ومجاهِدٌ، وأبو جعفرٍ الباقِرُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٧).

قال ابن رجب: (وأكثرُ المفسِّرينَ على أنَّ المرادَ بالحِجارةِ... حِجارةُ الكِبْريتِ توقدُ بها النَّارُ، ويقالُ: إنَّ فيها خمسةَ أنواعٍ مِن العذابِ ليس في غيرِها مِن الحِجارةِ: سرعةُ الإيقادِ، ونتنُ الرَّائحةِ، وكثرةُ الدُّخانِ، وشدَّةُ الالتِصاقِ بالأبدانِ، وقوَّةُ حرِّهَا إذا أُحمِيَتْ). ((التخويف من النار)) (ص: ١٣٦).

وقال الشربيني والقِنَّوْجي: ﴿وَٱلْحِجَارَةُ﴾ كأصنامِهم منها. يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير القنوجي)) (١٤/ ٢١٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٤٤).

قال ابن كثير: (قيل: المرادُ بها الأصنامُ الَّتي تُعبَدُ؛ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٧).

﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾.

أي: على النَّارِ مَلائِكةٌ وكَّلَهم اللهُ بالعَذابِ، غِلاظٌ لا يرحَمونَ، شِدادٌ أقوياءُ[١]!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المدثر: ٣٠، ٣١].

﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾.

أي: لا يُخالِفونَ أمْرَ اللهِ الَّذي يأمُرُهم به، ولا يَمتَنِعونَ عن طاعتِه[٢].

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

أي: ويَفعَلونَ كُلَّ ما يُؤمَرونَ بفِعْلِه؛ فهم قادِرونَ على تَنفيذِه[٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

ذِكرُ هذه المقالةِ هنا استِطرادٌ يُفيدُ التَّنفيرَ مِن جَهنَّمَ بأنَّها دارُ أهلِ الكُفرِ، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، وإلَّا فإنَّ سِياقَ الآيةِ تَحذيرٌ للمُؤمِنينَ مِن المُوبِقاتِ في النَّارِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٦١) و(٧/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٧٤) و(١٣/ ٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٦، ٣٦٧).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾.

أي: يُقالُ لأهلِ النَّارِ في الآخِرةِ[1]: يا أيُّها الَّذين كَفَروا لا تَعتَذِروا في هذا اليَومِ -يومِ القيامةِ- عن كُفرِكم؛ فقد فات وقتُ قَبولِ الاعتِذارِ، وزالَ نَفعُه[2]!

قال تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢].

﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: إنَّما تَنالونَ اليَومَ جَزاءَ ما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي، وقد نُهيتُم عنها؛ فلا تَعتَذِروا عن أعمالِكم[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ

(١) قال ابنُ جزي: (يحتمِلُ أن يكونَ هذا خِطابًا مِنَ اللهِ للكُفَّارِ، أو خِطابًا مِنَ الملائِكةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٦).
قال البيضاوي: (النَّهيُ عن الاعتذارِ؛ لأنَّه لا عُذْرَ لهم، أو العُذرُ لا يَنفَعُهم). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).
قال السعدي: (أي: يُوَبَّخُ أهلُ النَّارِ يومَ القيامةِ بهذا التَّوبيخِ، فيُقالُ لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي: فإنَّه ذَهَب وقتُ الاعتذارِ، وزال نَفعُه، فلم يَبْقَ الآنَ إلَّا الجزاءُ على الأعمالِ، وأنتم لم تُقَدِّموا إلَّا الكُفرَ باللهِ، والتَّكذيبَ بآياتِه، ومحاربةَ رُسُلِه وأوليائِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

﴿وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى نبَّهَهم على دَفعِ العَذابِ يومَ القيامةِ بالتَّوبةِ في الدنيا؛ إذ في ذلك اليَومِ لا تُفيدُ[1].

وأيضًا لَمَّا أفهَمَ الأمرُ بالوِقايةِ والمَدْحُ للمَلائكةِ أنَّ المأمورينَ بالوِقايةِ مُقَصِّرونَ، قال مُرشِدًا إلى دواءِ التَّقصيرِ[2]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا تُوبوا مِن جميعِ ذُنوبِكم تَوبةً صادِقةً بنِيَّةٍ خالِصةٍ، مع إقلاعٍ عنها، ونَدَمٍ عليها، وعَزمٍ على عَدَمِ العَودةِ إليها[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

قال ابنُ كثيرٍ: (قال العُلَماءُ: التَّوبةُ النَّصوحُ هو أن يُقلِعَ عن الذَّنْبِ في الحاضِرِ، ويَندَمَ على ما سَلَف منه في الماضي، ويَعزِمَ على ألَّا يَفعَلَ في المُستقبَلِ، ثمَّ إنْ كان الحَقُّ لآدَميٍّ رَدَّه إليه بطريقِه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٩).

وقال ابن القيِّم: (نُصْحُ التَّوبةِ الصِّدقُ فيها، والإخلاصُ، وتعميمُ الذُّنوبِ بها). ((مدارج السالكين)) (١/ ٣١٧).

وقال السعدي: (المرادُ بها: التَّوبةُ العامَّةُ الشَّاملةُ للذُّنوبِ كلِّها، الَّتي عقَدها العبدُ لله، لا يُريدُ بها إلَّا وجْهَه والقُربَ منه، ويَستمِرُّ عليها في جميعِ أحوالِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

أي: عسى اللهُ إنْ تُبتُم توبةً نَصوحًا أن يَمحوَ عنكم ذُنوبَكم، ويَقيَكم سُوءَها[(١)].

كما قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾.

أي: ويُدخِلَكم اللهُ في الآخِرةِ جنَّاتٍ تَجري الأنهارُ مِن تَحتِ قُصورِها وأشجارِها[(٢)].

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾.

أي: يومَ[(٣)] ....

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠١).

عن ابنِ عبَّاسٍ قال: (عسى مِن الله واجبٌ). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥١).

قال الرازي: (اتَّفق المفسِّرونَ على أنَّ كلمةَ عَسَى مِن الله واجبٌ، قال أهلُ المعاني: لأنَّ لفظةَ «عسى» تُفيدُ الإطماعَ، ومَن أطمَع إنسانًا في شيءٍ ثمَّ حرَمه كان عارًا، والله تعالى أكرَمُ مِن أن يُطمعَ أحدًا في شيءٍ ثمَّ لا يُعطيه ذلك). ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٨٧).

وقال الشنقيطي: (جماهيرُ العُلماءِ يقولون: «عسى» مِن اللهِ واجبةٌ؛ لأنَّ اللهَ كريمٌ، لا يُطمِعُ في شيءٍ إلَّا هو فاعِلُه؛ لشِدَّةِ كرَمِه جلَّ وعلا وفَضْلِه). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).

(٣) قال ابن جُزَي: (﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ العامِلُ في ﴿يَوْمَ﴾ يَحتمِلُ أن يكونَ ما قَبْلَه، أو ما بَعْدَه، أو محذوفٌ تَقديرُه: اذكُرْ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٢).

وممَّن قال بأنَّ العامِلَ هو قولُه تعالى: (يُدْخِلَكم) أي: يُدخِلَكم جنَّاتٍ تَجري مِن تحتِها الأنهارُ في اليَومِ الَّذي لا يُخزي فيه اللهُ النَّبيَّ والَّذين آمَنوا معه: الزمخشريُّ، وابنُ عطيَّة، وابنُ عاشور. =

لا يُعَذِّبُ اللهُ مُحمَّدًا والمُؤمِنينَ معه، ولا يُهينُهم ولا يَفضَحُهم(1).

قال تعالى حكايةً عن قَولِ المؤمنينَ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ * رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ * رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٢ - ١٩٤].

وقال سُبحانَه وتعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧].

= يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٠).

قال الزَّجَّاجُ: (﴿يَوۡمَ﴾ مَنصوبٌ بقَولِه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ﴾، أي: في هذا اليَومِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٩٥). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠١).

وممَّن قال بأنَّ العامِلَ مَحذوفٌ تَقديرُه: اذكُرْ: ابنُ عرفة. يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٠).

قال ابنُ عطية: (قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ مَعطوفًا على ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾، فيَخرجُ المؤمنونَ مِن الخِزْيِ. ويحتمِلُ أن يكونَ ابتداءً و﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ﴾ جملةٌ هي خبرُه، ويَبقى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مخصوصًا مُفَضَّلًا بأنَّه لا يُخزَى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٤).

وقال البقاعي: (ولا يُخْزي الَّذين ﴿ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ وهم الصَّحابةُ رَضيَ اللهُ تعالى عنهم إن كان المرادُ المَعيَّةَ في مُطلَقِ الزَّمانِ، وسابِقوهم إن كان المرادُ في الوصفِ أو زمانٍ مخصوصٍ كبَدْرٍ وبَيعةِ الرِّضوانِ... ونساؤُه رضيَ اللهُ عنهُنَّ أحَقُّ بأن يَكُنَّ أوَّلَ راغبٍ في الكَونِ معه في الإيمانِ لِيبعدْنَ عن النِّيرانِ... ويجوزُ أن يكونَ «الَّذين» مُبتدَأً خبرُه ﴿نُورُهُمۡ﴾، أو يكونَ الخبرُ ﴿مَعَهُۥ﴾ إشارةً إلى أنَّ جميعَ الأنبياءِ وصالِحي أُمَمِهم مِن أمَّتِه، وتحتَ لِوائِه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢٠٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٠).

﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾.

أي: نُورُهم يَمضي معهم يومَ القيامةِ؛ مِن أمامِهم وبأيْمانِهم[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ * يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا﴾ [الحديد: ١٢، ١٣].

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧١).

قيل: ذلك يكونُ على الصِّراطِ. وممَّن نصَّ على هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٤٨، ٢٥٦، ٣٢٢).

قال الواحديُّ: (يعني: على الصِّراطِ يومَ القيامةِ، وهو دليلُهم إلى الجنَّة). ((الوسيط)) (٤/ ٢٤٨).

وممَّن رُويَ عنه هذا القولُ مِن السَّلفِ: ابنُ مسعود، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥).

وقال ابن عاشور: (النُّورُ المذكورُ هنا نورٌ حقيقيٌّ، يَجعَلُه اللهُ للمؤمنينَ في مَسيرِهم مِن مكانِ الحَشرِ؛ إكرامًا لهم، وتنويهًا بهم في ذلك المَحشَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٠) و(٢٨/ ٣٧١).

والمرادُ بقولِه تعالى: ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ قيل: أي: مِن الجِهةِ اليُمنى. وممَّن قال به: البِقاعي، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٢) و(٢٠/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٠) و(٢٨/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الحديد)) (ص: ٣٨٦).

وقيل: المرادُ: ﴿وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ كُتُبُ أعمالِهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٨، ٣٩٩) و(٢٣/ ١٠٩).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٩).

ونسَبَ ابنُ عطيَّةَ إلى جمهورِ المفسِّرينَ أنَّ المرادَ: وبأيْمانِهم أصلُ النُّورِ، أي: يكونُ النُّورُ بأيْمانِهم، ومنه يَنبسِطُ نورٌ مِن أمامِهم. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦١، ٣٣٤).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سورةِ الحديدِ، الآية (١٢).

أي: يقولونَ: ربَّنا زِدْ لنا نُورَنا حتَّى يكونَ في غايةِ التَّمامِ(١).

﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ﴾.

أي: وامْحُ ذُنوبَنا، وقِنا شرَّها، وأزِلْ أثرَها(٢).

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

أي: إنَّك وَحْدَك بالِغُ القُدرةِ على فِعْلِ كُلِّ شَيءٍ، فلا يُعجِزُك شَيءٌ(٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٩﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما تقدَّمَ مِن لِينِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأضعَفِ النَّاسِ؛ النِّساءِ، وحُسْنِ أدَبِه وكَريمِ عِشْرتِه؛ لأنَّه مَجبولٌ على الشَّفَقةِ على عِبادِ اللهِ، والرَّحمةِ لهم، وخَتَم بما للمؤمِنينَ مِنَ الشَّرَفِ، ولله مِن تمامِ القُدرةِ؛ أنتَجَ ذلك القَطْعَ بإذلالِ أعدائِهم، وإخزائِهم(٤).

وأيضًا لَمَّا أبلَغَ الكفَّارَ ما سيَحُلُّ بهِم في الآخرةِ تَصريحًا بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧١).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قال المفسِّرون: إذا رأى المؤمِنونَ نورَ المنافِقينَ يُطفَأُ سألوا اللهَ أن يُتِمَّ لهم نُورَهم، ويُبَلِّغَهم به الجنَّةَ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٥).

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [التحريم: ٧]، وتَعريضًا بقولِه: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ٨]؛ أَمَرَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمَسْمَعٍ مِنْهم بأنْ يُجاهِدَهم، ويُجاهِدَ المُسْتَتِرينَ لكفرِهم بظاهرِ الإيمانِ نِفاقًا، حتَّى إذا لم تُؤثِّرْ فيهِمُ الموعظةُ بعِقابِ الآخِرةِ يَخْشَوْنَ أنْ يُسلِّطَ عليهم عذابَ السَّيفِ في العاجِلةِ، فيُقلِعونَ عن الكُفرِ، فيُصلِحُ نُفوسَهم، وإنَّما أمَرَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذلكَ؛ لأنَّ الكفَّارَ تألَّبُوا مع المُنافِقينَ بعْدَ هِجرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فاتَّخَذوهُم عُيونًا لهُم وأيديَ يَدُسُّونَ بها الأذى للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمُؤمِنينَ، فهذا نِداءٌ ثانٍ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأمُرُه بإقامةِ صلاحِ عُمومِ الأمَّة بتَطهيرِها مِنَ الخُبَثاءِ، بَعْدَ أنْ أمَره بإفاقةِ مَنْ عليهما الغفلةُ عن شَيءٍ مِن واجبِ حُسْنِ المُعاشَرةِ مع الزَّوجِ[1].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ جاهِدِ الكُفَّارَ المحارِبينَ بالسَّيفِ، وغيرَ المحارِبينَ منهم بالحُجَّةِ والمَوعِظةِ، وجاهِدِ المُنافِقينَ بالسَّيفِ إن أظهَروا كُفْرَهم، وبالحُجَّةِ لرَدِّ شُبُهاتِهم، أو بإقامةِ الحُدودِ على مَن يقَعُ فيها منهم، وكُنْ غليظًا على الكافِرينَ والمنافِقينَ بالقَولِ والفِعلِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧١، ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٠، ١١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠١)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٤٧، ٣٤٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٠، ١٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٢).

وقال سُبحانَه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۞ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠، ٦١].

وقال جلَّ شأنُه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما مِن نَبيٍّ بعَثَه اللهُ في أُمَّةٍ قَبْلي إلَّا كان له مِن أمَّتِه حَواريُّونَ(١) وأصحابٌ، يأخُذونَ بسُنَّتِه، ويَقتَدونَ بأمْرِه، ثمَّ إنَّها تَخلُفُ مِن بَعْدِهم خُلوفٌ(٢)، يَقولونَ ما لا يَفعَلونَ، ويفعَلونَ ما لا يُؤْمَرونَ؛ فمَنْ جاهَدَهم بيَدِه فهو مُؤمِنٌ، ومَن جاهَدَهم بلِسانِه فهو مُؤمِنٌ، ومَن جاهَدَهم بقَلْبِه فهو مُؤمِنٌ، وليس وراءَ ذلك

(١) الحواريُّونَ: الخواصُّ الأصفياءُ. وقيل: هم النَّاصِرونَ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (١/ ٣٢٠).

(٢) الخُلُوفُ: الخالِفونَ بعدَ السَّالِفينَ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (١/ ٣٢٠). قال النوويُّ: (أمَّا الخُلوفُ فبضَمِّ الخاءِ، وهو جمعُ «خَلْف» باسكانِ اللَّامِ، وهو الخالفُ بشَرٍّ، وأمَّا بفتحِ اللَّامِ فهو الخالفُ بخيرٍ، هذا هو الأشهرُ). ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٢٨).

مِن الإيمانِ حَبَّةُ خَردلٍ))[١].

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أي: ومَساكِنُ الكُفَّارِ والمنافِقينَ في الآخِرةِ نارُ جَهنَّمَ، وهي مَثْواهم، وبِئسَ المرجِعُ الَّذي يَصيرونَ إليه جَهنَّمُ[٢]!

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ على الرَّجُلِ أن يُصلِحَ نَفْسَه بالطَّاعةِ، ويُصلِحَ أهْلَه إصلاحَ الرَّاعي للرَّعيَّةِ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ فيه أنَّ الرَّجُلَ يَجِبُ عليه تَعلُّمُ ما يجِبُ عليه مِنَ الفرائِضِ، وتعليمُه زَوجَه ووَلَده، وعَبْدَه وأمَتَه[٤]، فالآيةُ دلَّت على أنَّ علينا تعليمَهم الدِّينَ والخيرَ، وما لا يُستغنَى عنه مِنَ الأدَبِ[٥]؛ إذْ لا يَقْدِرُ أحدٌ يَقي غيرَه النَّارَ -وهو لا يَمْلِكُها-

---

(١) رواه مسلم (٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٩).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٤٢٦).

إلَّا بما يدُلُّه على ما يُباعِدُه منها مِن العَمَلِ الصَّالِحِ، واجتِنابِ الطَّالحِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ وَجَّهَ اللهُ تعالى الخِطابَ إلى المؤمِنينَ باسمِ الإيمانِ؛ ممَّا يدُلُّ على أنَّ مُقتَضى إيمانِهم أنْ يَقوموا بهذه المَسؤوليَّةِ العظيمةِ، وأنَّ عدَمَ قيامِهم بها نَقْصٌ في إيمانِهم؛ فتوجيهُ الخِطابِ بوَصفِ الإيمانِ يقتَضي مع ذلك الحَثَّ والإغراءَ على القيامِ بما وُجِّهَ إليه المرءُ[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ فيه أنَّه لا يَسْلَمُ العَبدُ إلَّا إذا قام بما أَمَرَ اللهُ به في نَفْسِه وفيما يَدخُلُ تحتَ وِلايتِه مِن الزَّوجاتِ والأولادِ، وغَيرِهم ممَّن هو تحت وِلايتِه وتصَرُّفِه[٣].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ مَنْ أَهمَلَ تَعليمَ وَلَدِه ما يَنفَعُه وتَرَكَه سُدًى، فقد أساء إليه غايةَ الإساءةِ، وأكثَرُ الأولادِ إنَّما جاء فَسادُهم مِن قِبَلِ الآباءِ، وإهمالِهم لهم، وتَرْكِ تَعليمِهم فرائِضَ الدِّينِ وسُنَنَه؛ فأضاعوهم صِغارًا، فلم يَنتَفِعوا بأنفُسِهم، ولم يَنفَعوا آباءَهم كِبارًا[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ دليلٌ على وُجوبِ التَّوبةِ[٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ النُّصحُ في التَّوبةِ يتضمَّنُ ثلاثةَ أشياءَ:

الأوَّلُ: تعميمُ جميعِ الذُّنوبِ واستِغراقُها بها، بحيثُ لا تَدَعُ ذَنْبًا إلَّا تناولَتْه.

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

(٤) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (ص: ٣٧٩).

والثَّاني: إجماعُ العَزمِ والصِّدقِ بكُلِّيَّتِه عليها، بحيثُ لا يَبقى عندَه تردُّدٌ ولا تَلَوُّمٌ ولا انتِظارٌ، بل يَجمَعُ عليها كُلَّ إرادتِه وعزيمتِه مُبادِرًا بها.

الثَّالثُ: تخليصُها مِن الشَّوائبِ والعِلَلِ القادِحةِ في إخلاصِها، ووُقوعُها لِمَحْضِ الخَوفِ مِن اللهِ وخَشيتِه والرَّغبةِ فيما لديه، والرَّهبةِ ممَّا عِندَه، لا كَمَن يَتوبُ لِحفْظِ جاهِهِ وحُرمَتِه، ومَنصِبِه ورياستِه، ولِحِفْظِ حالِه، أو لِحِفْظِ قوَّتِه ومالِه، أو لاستِدعاءِ حَمْدِ النَّاسِ، أو الهَربِ مِن ذَمِّهم، أو لِئَلَّا يَتسَلَّطَ عليه السُّفَهاءُ، أو لقَضاءِ نَهمتِه مِن الدُّنيا، أو لإفلاسِه وعَجْزِه، ونحوِ ذلك مِن العِلَلِ الَّتي تَقدَحُ في صِحَّتِها وخُلوصِها للهِ عزَّ وجلَّ؛ فالأوَّلُ يَتعلَّقُ بما يَتوبُ منه، والثَّالثُ يَتعلَّقُ بمَن يتوبُ إليه، والأوسَطُ يَتعلَّقُ بذاتِ التَّائبِ ونَفْسِه. ولا رَيبَ أنَّ هذه التَّوبةَ تَستَلزِمُ الاستِغفارَ وتتضَمَّنُه، وتَمْحو جميعَ الذُّنوبِ، وهي أكمَلُ ما يكونُ مِن التَّوبةِ[1].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الملائِكةَ مُكَلَّفونَ في الآخِرةِ بما أمَرَهم اللهُ تعالى به وبما يَنهاهم عنه، والعِصيانُ منهم مخالَفَةٌ للأمرِ والنَّهيِ[2].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فيه مَدحٌ للمَلائِكةِ الكِرامِ، وانقيادِهم لأمرِ اللهِ، وطاعتِهم له في كُلِّ ما أمَرَهم به[3].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ليس توكيدًا لقولِه: ﴿لَا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

أَمَرَهُمۡ ﴾، وإنَّما فيه بيانُ أنَّهم قادِرونَ على فِعْلِ ما أُمِروا به، فهُم لا يَترُكُونَه لا عَجزًا ولا مَعصيةً. والمأمورُ إنَّما يَترُكُ ما أُمِرَ به لأحدِ هذَينِ؛ إمَّا ألَّا يكونَ قادِرًا، وإمَّا أنْ يكونَ عاصيًا لا يريدُ الطَّاعةَ، فإذا كان مطيعًا يريدُ طاعةَ الآمِرِ -وهو قادِرٌ- وَجَبَ وُجودُ فِعْلِ ما أُمِرَ به؛ فكذلك الملائكةُ المذكورونَ لا يَعصُونَ اللهَ ما أَمَرَهم، ويَفعَلونَ ما يُؤْمَرونَ[1]. وقيل: معنى الأُولى: أنَّهم يَتقبَّلونَ أوامِرَه ويَلتَزِمونَها، ولا يأبَونَها، ولا يُنكِرونَها. ومعنى الثَّانيةِ: أنَّهم يُؤَدُّونَ ما يُؤمَرونَ به، لا يَتثاقَلونَ عنه، ولا يَتوانَونَ فيه[2]. وقيل: يجوزُ جعْلُ مَرجِعِ ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ ﴾ أنَّهم لا يَعْصُونَ فيما يُكلَّفونَ به مِن أعمالِهمُ الخاصَّةِ بهِم، ومَرجِعِ ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ إلى ما كُلِّفوا بعمَلِه في العُصاةِ في جَهنَّمَ. وقيل: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ ﴾ فيما مَضَى، ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ فيما يُستقبَلُ[3]. وقيل: فائِدةُ ذِكْرِ قولِه: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ بعْدَ ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ ﴾ التَّأكيدُ؛ لاتِّحادِهما صِدْقًا[4].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا ﴾، لم يَقُلْ: (نَصُوحةً)؛ لأنَّ (فَعولًا) يَستوي فيه المذكَّرُ والمؤنَّثُ، كقَولِهم: (امرأةٌ صَبورٌ وشَكورٌ)[5].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ فيه سؤالٌ: اللهُ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٨، ٥٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٨، ٥٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٣، ٥٧٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٧٤).

تعالى لا يُخزي النَّبيَّ في ذلك اليَومِ، ولا الَّذين آمَنوا، فما الحاجةُ إلى قَولِه: ﴿مَعَهُۥ﴾؟

الجوابُ: هي إفادةُ الاجتِماعِ، يعني: لا يُخزي اللهُ المجموعَ الَّذي يَسعى نُورُهم، وهذه فائِدةٌ عظيمةٌ؛ إذ الاجتِماعُ بيْن الَّذين آمَنوا وبيْن نَبيِّهم تشريفٌ في حَقِّهم وتعظيمٌ[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ يَدخُلُ في ظاهِرِ الكلامِ الصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عنهم، ويَستَوجِبونَ ما وَعَدَهم اللهُ جلَّ جلالُه في الآيةِ؛ فمَن تَنَقَّصَ واحِدًا منهم، أو أَخْرَجَه ممَّا وَعَدَه اللهُ، فقد رَدَّ على اللهِ! ويُرجَى أنْ يكونَ سائِرُ المؤمِنينَ داخِلينَ معهم في ذلك؛ لأنَّ مَنْ آمَنَ بعدَه فقد دَخَل في الاسمِ معه، وإنْ لم يكُنْ في الرُّؤيةِ والفَضيلةِ أُسوةَ الصَّحابةِ[2].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ في هذه الآيةِ دليلٌ على المَغفِرةِ لجَميعِ أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[3].

٨- النُّورُ الَّذي يكونُ للمُؤمِنِ في الدُّنيا على حُسْنِ عَمَلِه واعتِقادِه يَظهَرُ في الآخِرةِ، كما قال تعالى: ﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾؛ فذَكَرَ سُبحانَه النُّورَ هنا عَقِيبَ أَمْرِه بالتَّوبةِ[4].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أنَّ تقييدَ القُدرةِ بالمَشيئةِ هو خِلافُ ما كان عليه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأتْباعُه؛ فهُم لم يقولوا: «إنَّك

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٤).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٧٢، ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٨٥).

على ما تَشاءُ قديرٌ». وخيرُ الطَّريقِ طريقُ الأنبياءِ وأتْباعِهم؛ فإنَّهم أهدى عِلْمًا، وأقوَمُ عَمَلًا. فالآيةُ عامَّةٌ؛ فهو قديرٌ على كلِّ شيءٍ، على ما شاءَه وما لم يَشَأْهُ. فتقييدُ بعضِ النَّاسِ القُدرةَ بالمشيئةِ خطأٌ؛ لأنَّ اللهَ قادرٌ على ما يَشاءُ وعلى ما لا يَشاءُ. وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩] فالمشيئةُ هنا ليست عائدةً على القُدرةِ، ولكنَّها عائدةٌ على الجَمعِ؛ يعني: إذا أراد جَمْعَهم، وشاء جَمْعَهم، فهو قديرٌ عليه، لا يَعجِزُ عنه[(١)].

١٠- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فخاطَبه هنا بوَصْفِه، وهو (النَّبيُّ)، كما في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التحريم: ١]، لا باسْمِه، كقَولِه لآدَمَ: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ [البقرة: ٣٣]، ولِموسى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ [البقرة: ٥٥]، ولعيسى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾ [آل عمران: ٥٥]؛ وذلك ليَدُلَّ على فَضْلِه عليهم[(٢)].

١١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ لا يُعارِضُ قولَه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؛ لأنَّ النَّفيَ محمولٌ على طَبْعِه الَّذي جُبِلَ عليه، والأمرَ مَحمولٌ على المعالَجةِ، أو أنَّ النَّفيَ هو بالنِّسبةِ للمُؤمِنينَ، والأمرَ هو بالنِّسبةِ للكُفَّارِ والمنافِقينَ، كما هو مُصَرَّحٌ به في الآيِ نفْسِها[(٣)].

١٢- اللهُ سُبحانَه يُحِبُّ صِفاتِ الكَمالِ، مِثلُ: العِلمِ والقُدرةِ والرَّحمةِ، ونَحوِ ذلك؛ فعن أبي هُرَيرةَ رضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال:

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٤).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٨٦).

((المؤمِنُ القَويُّ خَيرٌ وأحَبُّ إلى اللهِ مِن المؤمِنِ الضَّعيفِ، وفي كُلٍّ خَيرٌ))[١]، وفي الصَّحيحِ قال صلَّى الله عليه وسلَّم: ((لا يَرحَمُ اللهُ مَن لا يَرحَمُ النَّاسَ))[٢]، وفي الصَّحيحِ أيضًا قال صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّما يَرحَمُ اللهُ مِن عِبادِه الرُّحَماءَ))[٣]، وفي السُّنَنِ حَديثٌ ثابتٌ عنه: ((الرَّاحِمونَ يَرحَمُهم الرَّحمنُ، ارحَموا مَن في الأرضِ يَرحَمْكم مَن في السَّماءِ))[٤]، ومع هذا فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، وقال تعالى في حَدِّ الزَّاني والزَّانيةِ: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النور: ٢]، وهذا في الحَقيقةِ مِن رَحمةِ اللهِ بعِبادِه؛ فإنَّ اللهَ إنَّما أرسَلَ مُحمَّدًا رَحمةً للعالَمينَ، وهو سُبحانَه أرحَمُ بعِبادِه مِن الوالِدةِ بوَلَدِها، لكِنْ قد تكونُ الرَّحمةُ المطلوبةُ لا تَحصُلُ إلَّا بنَوعٍ مِن ألَمٍ وشِدَّةٍ تَلحَقُ بَعضَ النُّفوسِ[٥].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيه سُؤالٌ: فيه الأمرُ بقِتالِ الكُفَّارِ والمُنافِقينَ، والغِلظةِ عليهم، ومعلومٌ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قاتَلَ الكُفَّارَ، ولم يُعلَمْ أنَّه قاتَلَ المُنافِقينَ قِتالَه للكُفَّارِ، فما نوعُ قِتالِه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٧٣٧٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٣١٩) مِن حديثِ جَريرِ بنِ عبدِ الله رضيَ الله عنه.

(٣) أخرجه البخاريُّ (٧٤٤٨)، ومسلمٌ (٩٢٣) مِن حديثِ أُسامةَ بنِ زَيدٍ رضيَ الله عنهما.

(٤) أخرجه أبو داودَ (٤٩٤١) واللَّفظُ له، والترمذيُّ (١٩٢٤)، وأحمدُ (٦٤٩٤) مطوَّلًا مِن حديثِ عبدِ الله بنِ عَمرٍو رضيَ الله عنهما.
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (١٢٧)، والعراقيُّ في ((الأربعون العشارية)) (١٢٥)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٩٤١)، وحسَّنه ابنُ حجر في ((الإمتاع)) (١/ ٦٢)، وقال السخاويُّ في ((البلدانيات)) (٤٧): (حسَنٌ، بل صحَّحه غيرُ واحدٍ).

(٥) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٤٤٠).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للمُنافِقينَ؟

الجوابُ: قَولُه تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٢]، أي: بالقُرآنِ؛ لِقولِه تعالى قَبْلَه: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا * وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا * فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٠ - ٥٢]. ومعلومٌ أنَّ المنافِقينَ كافِرونَ، فكان جِهادُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للكُفَّارِ بالسَّيفِ، ومع المنافِقينَ بالقُرآنِ، كما جاء عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في عَدَمِ قَتْلِهم؛ لئلَّا يتحَدَّثَ النَّاسُ أنَّ مُحمَّدًا يَقتُلُ أصحابَه[1]، ولكِنْ كان جِهادُهم بالقُرآنِ لا يَقِلُّ شِدَّةً عليهم مِنَ السَّيفِ؛ لأنَّهم أصبَحوا في خَوفٍ وذُعرٍ، يَحسَبونَ كُلَّ صَيحةٍ عليهم، وأصبَحَت قلوبُهم خاويةً كأنَّهم خُشُبٌ مُسَنَّدةٌ، وهذا أشَدُّ عليهم مِنَ المُلاقاةِ بالسَّيفِ[2].

وقيل: جِهادُ الكفَّارِ ظاهِرٌ، وأمَّا عطفُ (المُنافِقينَ) على (الكُفَّارِ) المفعولِ لـ﴿جَٰهِدِ﴾، فيَقْتضي أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مأْمورٌ بجهادِ المُنافِقينَ، وكان حالُ المُنافِقينَ مُلتبِسًا؛ إذْ لم يكُنْ أحَدٌ مِنَ المُنافقينَ مُعلِنًا بالكفرِ، ولا شُهِدَ على أحَدٍ منهم بذلكَ، ولم يُعيِّنِ اللهُ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُنافِقًا يُوقِنُ بنِفاقِه وكفْرِه، أو أطْلَعَه إطْلاعًا خاصًّا، ولم يَأمُرْه بإعلانِه بيْنَ المُسلِمينَ، كما يُؤخَذُ ذلكَ مِن أخبارٍ كثيرةٍ في الآثارِ، فتَعيَّنَ تأْويلُ عطفِ المُنافِقينَ على الكُفَّارِ إمَّا بأنْ يكونَ فِعلُ ﴿جَٰهِدِ﴾ مُستعمَلًا في الجِهادِ بالسَّيفِ، والجِهادِ بإقامةِ الحُجَّةِ، والتَّعريضِ للمُنافِقِ بنِفاقِه. وقيل: الأقرَبُ في تأْويلِ هذا العَطفِ أنْ يكونَ المرادُ منه إلْقاءَ الرُّعبِ في قُلوبِ المُنافِقينَ؛ ليَشعُروا بأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

(١) الحديث أخرجه البخاريُّ (٣٥١٨)، ومسلمٌ (٢٥٨٤) مِن حديثِ جابرِ بنِ عبدِ الله رضيَ الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٢٣، ٢٢٤).

والمُؤمِنينَ بالمِرْصادِ بهم، فلوْ بَدَتْ مِن أحَدِهم بادِرةٌ يُعلَمُ منها نِفاقُه، عُومِلَ مُعامَلةَ الكافرِ في الجِهادِ بالقَتلِ والأسْرِ، فيَحْذَروا ويَكُفُّوا عن الكَيدِ للمُسلِمينَ؛ خشيةَ الافتِضاحِ، فتكُونُ هذه الآيةُ مِن قَبيلِ قَولِه تبارك وتعالَى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا * مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾[1] [الأحزاب: ٦٠، ٦١].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيه سُؤالٌ: قَولُه: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يدُلُّ على أنَّ مَصيرَهم بِئسَ المصيرُ، فما فائِدةُ التَّصريحِ بذلك؟

الجوابُ: أنَّ مَصيرَهم بِئسَ المصيرُ مُطلَقًا، والمُطلَقُ يَدُلُّ على الدَّوامِ، وغَيرُ المُطلَقِ لا يدُلُّ على الدَّوامِ[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

- هذا نِداءٌ ثانٍ مُوجَّهٌ إلى المُؤمِنينَ بعْدَ اسْتيفاءِ المقصودِ مِن النِّداءِ الأوَّلِ؛ نِداءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١]، ووُجِّهَ الخِطابُ إلى المُؤمِنينَ ليأتَسوا بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مَوعظةِ أهليهم[3].

- وعُبِّرَ عن الموعظةِ والتَّحذيرِ بالوِقايةِ مِنَ النارِ؛ لأنَّ الموعظةَ سببٌ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٥).

تَجنُّبِ ما يُفْضِي إلى عَذابِ النَّارِ، أو على تَشبيهِ المَوعظةِ بالوِقايةِ مِنَ النارِ على وجْهِ المُبالَغةِ في الموعظةِ[١].

- وعُطِفَ ﴿وَأَهۡلِيكُمۡ﴾ على ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾؛ لأنَّ رَبَّ المنزلِ راعٍ، وهو مَسؤولٌ عن أهلِه، ودخلَ الأولادُ في ﴿وَأَهۡلِيكُمۡ﴾، وقيلَ: دخَلوا في ﴿أَنفُسَكُمۡ﴾؛ لأنَّ الولَدَ بعضٌ مِن أبيهِ، فيُعلِّمُه الحَلالَ والحرامَ، ويُجنِّبُه المعاصي[٢].

- وتَنكيرُ ﴿نَارٗا﴾ للتَّعظيمِ. وأُجْرِيَ عليها وصْفٌ بجُملةِ ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ زِيادةً في التَّحذيرِ؛ لئلَّا يَكونوا مِن وَقودِ النَّارِ، وتَذكيرًا بحالِ المُشرِكينَ، وتَفظيعًا للنَّارِ؛ إذْ يكونُ الحجَرُ عِوَضًا لها عن الحطَبِ[٣].

- ومعنى ﴿عَلَيۡهَا﴾ أنَّهم مُوَكَّلونَ بها؛ فالاستِعلاءُ المُفادُ مِن حرْفِ (على) مُعبَّرٌ به عن التَّمكُّنِ[٤].

- قولُه: ﴿غِلَاظٞ﴾ صِفةٌ مُشبَّهةٌ مُعبَّرٌ بها عن قَساوةِ المُعامَلةِ[٥].

- وجُملةُ ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ ثَناءٌ عليهِم أُعْقِبَ به وصْفُهم بأنَّهم ﴿غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾؛ تَعديلًا لِمَا تَقتَضِيانِه مِن كَراهيةِ نُفوسِ النَّاسِ إيَّاهُم، وهذا مُؤْذِنٌ بأنَّهم مأمورونَ بالغِلظةِ والشِّدَّةِ في تَعذيبِ أهلِ النَّارِ، هذا زِيادةٌ في تَهويلِ النَّارِ بأنَّ عليها ملائكةً غِلاظًا شِدادًا[٦].

- على القولِ بأنَّ فائِدةَ ذِكْرِ قولِه: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ بَعْدَ ﴿لَّا يَعۡصُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٥).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٦٦).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ التَّأكيدُ[1]، فقولُه: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ تَصريحٌ بمَفهومِ ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ دعا إليه مَقامُ الإطنابِ في الثَّناءِ عليهم، معَ ما في هذا التَّصريحِ مِن استحضارِ الصُّورةِ البديعةِ في امتثالِهم لِما يُؤمَرون به. وقد عُطِفَ هذا التَّأكيدُ عطفًا يَقْتضي المُغايَرةَ تَنويهًا بهذه الفضيلةِ؛ لأنَّ فِعلَ المأمورِ أوضَحُ في الطَّاعةِ مِن عدَمِ العِصيانِ، واعتبارٌ لِمُغايَرةِ المعنيَيْنِ وإنْ كانَ قالَهُما واحدٌ[2].

- وفي قولِه: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ ما يُعرَفُ في البلاغةِ بالسَّلْبِ والإيجابِ، وهو فنٌّ عجيبٌ[3]، وهو في الآيةِ ظاهرٌ؛ فقَدْ سلَبَ عزَّ وجلَّ عن هؤلاءِ الموصوفينَ العِصيانَ، وأوجَبَ لهمُ الطَّاعةَ[4].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ مَقولٌ لقولٍ قد حُذِفَ؛ ثِقةً بدَلالةِ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٣، ٥٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٨، ٥٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٣، ٥٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٦).

(٣) السَّلْب والإيجاب: هو بناءُ الكلام على نفْيِ الشَّيءِ مِن جهةٍ، وإثباتِه مِن جهةٍ أخرى، أو الأمْرِ به في جِهةٍ، والنَّهيِ عنه في جِهةٍ، وما يَجري مَجرَى ذلك، كأنْ يَقصِدَ المادحُ أنْ يُفرِدَ ممدوحَه بصِفةِ مدحٍ لا يَشرَكُه فيها غيرُه، فيَنفيها في أوَّلِ كلامِه عن جميعِ النَّاسِ، ويُثبتُها لِمَمْدوحِه بعدَ ذلك، ومثالُ ذلك قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡ﴾ [المجادلة: ٢]؛ فهو نفْيٌ لصيرورةِ المرأةِ أُمًّا بالظِّهارِ، وإثباتُ الأمومةِ للَّتي ولدَتِ الولَدَ. يُنظر: ((الصناعتين: الكتابة والشعر)) للعسكري (ص: ٤٠٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٥٩٣)، ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٧/ ١٥٤)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣١٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٣٩).

الحالِ عليه، أي: يُقالُ لهم ذلكَ عِندَ إدْخالِ الملائكةِ إيَّاهمُ النَّارَ حَسبَما أُمِروا به(١).

– قولُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ الاعتِذارُ: افتِعالٌ مُشتَقٌّ مِنَ العُذْرِ، ومادَّةُ الافتِعالِ فيه دالَّةٌ على تكلُّفِ الفِعلِ؛ مِثلَ الاكتِسابِ والاختِلاقِ(٢).

– وأفادَتْ (إنَّما) في قولِه: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ قصْرَ الجَزاءِ على مُماثَلةِ العملِ المُجْزَى عليه قصْرَ قلْبٍ(٣)؛ لتنزيلِهم مَنزِلةَ مَنِ اعتَذَرَ وطَلَبَ أنْ يكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٧).

(٣) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزِلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعِرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكة الميداني (١/ ٥٢٥).

جَزاؤُه أهْوَنَ ممَّا شاهَدَه[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أُعيدَ خِطابُ المُؤمِنينَ، وأُعيدَ نِداؤُهُم، وهو نِداءٌ ثالثٌ في هذِه السُّورةِ، والَّذي قَبْلَه نِداءٌ للواعِظينَ، وهذا نِداءٌ للمَوعوظينَ، أُمِرَ المُؤمِنونَ بالتَّوبةِ مِن الذُّنوبِ إذا تَلَبَّسوا بها؛ لأنَّ ذلك مِن إصلاحِ أنفُسِهم، بعْدَ أنْ أُمِروا بأنْ يُجَنِّبوا أنفُسَهم وأهليهم ما يَزُجُّ بهم في عذابِ النَّارِ؛ لأنَّ اتِّقاءَ النَّارِ يَتحقَّقُ باجتِنابِ ما يَرْمي بهم فيها، وقدْ يَذْهَلُونَ عمَّا فَرَطَ مِن سيِّئاتِهم، فهُدُوا إلى سَبيلِ التَّوبةِ الَّتي يَمْحُونَ بها ما فَرَطَ مِن سيِّئاتِهم، وهذا ناظِرٌ إلى ما ذُكِرَ مِن مَوعظةِ امْرأتَيِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقولِه عز وجل: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٢] [التحريم: ٤].

- قولُه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ...﴾ وُرودُ صِيغةِ الإطماعِ ﴿عَسَىٰ﴾؛ للجَريِ على سَنَنِ الكِبرياءِ، والإشعارِ بأنَّه تَفضُّلٌ، والتَّوبةُ غيرُ مُوجِبةٍ له، وأنَّ العبْدَ يَنْبغي أنْ يكونَ بيْنَ خوفٍ ورجاءٍ، وإنْ بالَغَ في إقامةِ وظائفِ العِبادةِ؛ فالرَّجاءُ المُستفادُ مِن فِعلِ (عَسَى) مُستعمَلٌ في الوعدِ الصَّادرِ عن المُتفضِّلِ، وذلكَ التَّائبُ لا حقَّ له في أنْ يُعفَى عنه ما اقترفَه؛ لأنَّ العصيانَ قد حصَلَ، وإنَّما التَّوبةُ عزْمٌ على عدَمِ العَودةِ إلى الذَّنْبِ، ولكنْ ما لصاحبِها مِنَ النَّدمِ والخَوفِ الَّذي بعَثَ على العزْمِ دلَّ على زَكاءِ النَّفْسِ؛ فجعَلَ اللهُ جزاءَهُ أنْ يَمحوَ عنه ما سلَفَ مِنَ الذُّنوبِ تَفضُّلًا مِنَ اللهِ، فذلكَ معنى الرَّجاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المُستفادِ مِن (عَسَى)[١].

- قولُه: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾: ﴿يَوۡمَ﴾ ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٍ﴾ -على قولٍ-، وهو تَعليقُ تخلُّصٍ إلى الثَّناءِ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُؤمِنينَ معه، وهو يومُ القِيامةِ، وهذا الثَّناءُ عليهم بانتفاءِ خِزْيِ اللهِ عنهم تَعريضٌ بأنَّ الَّذينَ لم يُؤمِنوا معه يُخْزيهمُ اللهُ يومَ القِيامةِ. وفيه استحمادٌ إلى المُؤمِنينَ على أنَّه عصَمَهم مِن مِثلِ حالِهم، وذِكْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع الَّذينَ آمَنوا لتَشريفِ المُؤمِنينَ، ولا عَلاقةَ له بالتَّعريضِ[٢].

- وفي صِلةِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ إيذانٌ بأنَّ سبَبَ انتفاءِ الخزيِ عنهم هو إيمانُهم[٣].

- و(مَعَ) في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ يَجوزُ تعلُّقُها بمَحذوفٍ حالٍ مِنَ (الَّذينَ آمَنوا)، أي: حالَ كَونِهم مع النَّبيِّ في انتفاءِ خزيِ اللهِ عنهم؛ فيَكونُ عُمومُ (الَّذينَ آمَنوا) مَخصوصًا بغيرِ الَّذينَ يَتحقَّقُ فيهم خزْيُ الكفرِ، وهمُ الَّذينَ ارتدُّوا وماتوا على الكفْرِ. ويَجوزُ تعلُّقُ (مَعَ) بفِعلِ (آمَنوا)، أي: الَّذينَ آمَنوا به وصَحِبوه؛ فيكونُ مُرادًا به أصحابُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذينَ آمَنوا به ولم يَرتَدُّوا بَعْدَه، فتكونُ الآيةُ مُؤْذِنةً بفضيلةٍ للصَّحابةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)). =

- قولُه: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ إضافةُ (نُور) إلى ضَميرِ (هم) مع أنَّه لم يَسبِقْ إخبارٌ عنهم بنُورٍ لهم ليسَتْ إضافةَ تَعريفٍ؛ إذْ ليس المقصودُ تعريفَ النُّورِ وتَعيينَه، ولكنَّ الإضافةَ مُستعمَلةٌ هنا في لازمِ مَعناها، وهو اختِصاصُ النُّورِ بهم في ذلكَ اليومِ؛ بحيثُ يُميِّزُه النَّاسُ مِن بيْنِ الأنوارِ يومَئِذٍ[1].

- وقدَّمَ النُّورَ هنا في قولِه تعالَى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ لأنَّ السِّياقَ لتَعظيمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بخِلافِ ما في سُورةِ (الحديد): ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾[2] [الحديد: ١٢]. وقيل: أُخِّرَ الفعلُ في قولِه: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾، وقُدِّمَ في قوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾؛ لأنَّ قولَه في سُورةِ (التَّحريم): ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ يُفهِمُ -مِن حيث المعيَّةُ- قُرْبَ المَنزِلةِ، وعُلوَّ الحالِ، فتَقدَّمَ ثُبوتُه، فناسَبَ ذلك وُرودُ الجُملةِ الاسميَّةِ هنا؛ لِما تَقْتضيهِ من الثَّباتِ وتَقدُّمِه واستحكامِه، أمَّا قولُه في سُورةِ (الحديدِ): ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ فبِشارةٌ للمؤمنينَ، ولم يأْتِ هنا كونُهم مع نَبيِّهم، فلمْ يَتحصَّلْ ما يُفهِمُ تَمكُّنَ المنزلةِ وثُبوتَها ما تَحصَّلَ في آيةِ (التَّحريم)، إنَّما هذه بِشارةٌ؛ فناسَبَها التَّجدُّدُ والحدوثُ، فناسَبَ ذلك الفعلُ بما يُعطِيه مِن المعْنى، فقيلَ: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ لِيُفهَمَ التَّكرُّرُ وحُدوثُ الشَّيءِ بعْدَ الشَّيءِ، فورَدَ كلٌّ على ما يُناسِبُ[3].

- وسَعْيُ النُّورِ: امتِدادُه وانتِشارُه، شُبِّهَ ذلكَ باشتِدادِ مَشْيِ الماشي، وذلك أنَّه يَحُفُّ بهم حيثُما انتقَلوا؛ تَنويهًا بشَأنِهم، كما تُنشَرُ الأعلامُ بيْنَ يَدَي

= ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٧٦ و١٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٦٨).

الأميرِ والقائدِ، وكما تُساقُ الجِيادُ بيْنَ يَدَي الخَليفةِ[(١)].

- وإنَّما خُصَّ بالذِّكْرِ مِنَ الجِهاتِ: الأمامُ واليمينُ؛ لأنَّ النُّورَ إذا كان بيْنَ أيديهم تَمتَّعوا بمُشاهَدتِه، وشعَروا بأنَّه كَرامةٌ لهم، ولأنَّ الأيديَ هي الَّتي تُمسَكُ بها الأمورُ النَّفيسةُ، وبها بايَعوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الإيمانِ والنَّصرِ[(٢)]، والتَّقييدُ بالأيْمانِ؛ لأنَّهم إمَّا مِنَ السَّابِقينَ، وإمَّا مِن أهلِ اليَمينِ؛ فهم يَمشُونَ في هاتَينِ الجِهتَينِ، ويُؤتَونَ صَحائِفَ أعمالِهم منهما[(٣)].

- قولُه: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ إتمامُ النُّورِ إدامتُه أو الزِّيادةُ منه، وكذلك الدُّعاءُ بطلَبِ المغفرةِ لهُم هو لطلَبِ دَوامِ المغفرةِ، وذلك كلُّهُ أدبٌ مع اللهِ وتَواضُعٌ له، مِثلَ ما قيلَ في استِغفارِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في اليوم سَبعينَ مرَّةً[(٤)]، ويَظهَرُ بذلك وجْهُ التَّذييلِ بقولِهم: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ المُشعِرِ بتَعليلِ الدُّعاءِ كِنايةً عن رَجاءِ إجابتِه لهُم[(٥)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ الغِلْظةُ: صَلابةُ الشَّيءِ، وهي مُعبَّرٌ بها هنا عن المُعامَلةِ بالشِّدَّةِ بدونِ عَفوٍ ولا تَسامُحٍ، أي: كُنْ غليظًا، أي: شَديدًا في إقامةِ ما أمَرَ اللهُ به مع أمثالِهم[(٦)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٣٣).

(٤) يُنظر ما أخرجه البخاري (٦٣٠٧) من حديثِ أبي هريرةَ رضِي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٧٣).

الآيات (١٠-١٢)

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَحْصَنَتْ﴾: أي: حَفِظَت، وأصلُ (حصن): يدُلُّ على حِفظٍ وحِياطةٍ[1].

﴿ٱلْقَٰنِتِينَ﴾: أي: المُطيعينَ الخاضِعينَ، والقُنوتُ: لُزومُ الطَّاعةِ مع الخُضوعِ، أو الطَّاعةُ الدَّائمةُ، وأصلُ (قنت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دِينٍ[2].

المعنى الإجماليُّ:

يَضرِبُ الله تعالى المثَلَ مبيِّنًا أنَّ اتِّصالَ الكافرِ بالمؤمنِ وقُرْبَه منه لا يُفيدُه شيئًا، فيقولُ: ضَرَب اللهُ مَثَلًا للَّذين كفَروا امرأةَ نُوحٍ وامرأةَ لُوطٍ كانَتا زَوجتَينِ لعَبدَينِ صالِحَينِ مِن عِبادِ اللهِ تعالى، فخانَتاهما ولم يُؤْمِنا برسالَتِهما؛ فلم يَدفَعْا عن امرأتَيهما شَيئًا مِن عَذابِ اللهِ، وقيل لامرأتَيْ نُوحٍ ولُوطٍ: ادخُلا النَّارَ مع غَيرِكما مِنَ الدَّاخِلينَ فيها.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٤)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥، ٧).

ثمَّ يضربُ الله تعالى مثَلًا آخَرَ مبيِّنًا أنَّ اتِّصالَ المؤمنِ بالكافرِ لا يَضُرُّه شيئًا معَ قيامِه بالواجبِ عليه، فيقولُ: وضَرَب اللهُ مثَلًا للَّذين آمَنوا امرأةَ فِرعَونَ حينَ قالت: يا ربِّ ابنِ لي في جِوارِك بَيتًا في الجنَّةِ، وخَلِّصْني مِن فِرعَونَ وتَسَلُّطِه وكُفْرِه، وخَلِّصْني مِن قَومِ فِرعَونَ المُشرِكينَ، ومريمَ بِنتَ عِمْرانَ الَّتي حَفِظَت فَرْجَها، فنفَخَ جِبريلُ بأَمْرِنا في فَرْجِها، فحَمَلَت بابنِها عيسى عليه السَّلامُ، وآمَنَت بكَلِماتِ اللهِ وكُتُبِه، وكانت مِنَ المُطيعينَ للهِ، المواظِبينَ على طاعتِه.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أمْرُ الاستِئصالِ في الإنجاءِ والإهلاكِ أشْبَهَ شَيءٍ بحالِ أهلِ الآخِرةِ في الدَّينونةِ بالعَدْلِ والفَضْلِ، وكان المفتَتَحُ به السُّورةُ عِتابَ النِّساءِ، ثمَّ أُتْبِعَ بالأمْرِ بالتَّأديبِ لجَميعِ الأمَّةِ، إلى أنْ خُتِم بهلاكِ المخالِفِ في الدَّارَينِ، وكان للكُفَّارِ قَراباتٌ بالمُسلِمينَ، وكانوا يَظُنُّونَ أنَّها رُبَّما تَنفَعُهم، وللمُسلِمينَ قَراباتٌ بالكُفَّارِ، وكانوا رُبَّما توَهَّموا أنَّها تضُرُّهم- قال مُجيبًا لِما يُتخَيَّلُ مِن ذلك؛ تأديبًا لِمَن يُنكِرُ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ النِّساءِ وغَيرِهنَّ[1]:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖ﴾.

أي: جَعَل اللهُ مَثَلًا للَّذين كَفَروا امرأةَ نُوحٍ وامرأةَ لُوطٍ، مبيِّنًا أنَّ اتِّصالَ الكافرِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٧، ٢٠٨).

بالمؤمنِ، ومعاشرتَه له، وقُربَه منه؛ لا يُفيدُه شيئًا، ولا يَنفَعُه عندَ اللهِ[(١)]!

﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾.

أي: كانت امرأةُ نُوحٍ وامرأةُ لُوطٍ زَوجتَينِ لعَبدَينِ صالِحَينِ مِن عِبادِ اللهِ تعالى، وهما نوحٌ ولُوطٌ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، فخانتاهما ولم يُؤْمِنا بِرِسالَتِهما، ويَتْبَعاهما على دينِهما[(٢)]!

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

أي: فلم يَدفَعْ نُوحٌ ولوطٌ عن امرأتَيْهما شَيئًا مِن عَذابِ اللهِ، ولم يَنفَعاهما؛ لكُفْرِهما[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٣، ٣٧٤).

قال الواحدي: (خوَّفَ عائشةَ وحَفْصةَ في تظاهُرِهما على الرَّسولِ، وذكَرَ أنَّهما إن عَصَتا ربَّهما لم يُغْنِ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عنهما شيئًا، وضرَبَ لهما امرأةَ نوحٍ وامرأةَ لُوطٍ مَثَلًا!). ((الوسيط)) (٤/ ٣٢٢).

وقال القرطبي: (ضرَبَ اللهُ تعالى هذا المثَلَ تنبيهًا على أنَّه لا يُغْني أحدٌ في الآخرةِ عن قريبٍ ولا نَسيبٍ إذا فرَّق بيْنَهما الدِّينُ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

قال ابن كثير: (خانَتاهما في الدِّين فلمْ تَتْبَعاهما فيه، وليس المرادُ أنَّهما كانتَا على فاحشةٍ -حاشا وكلَّا-؛ فإنَّ اللهَ لا يُقَدِّرُ على نبيِّه أن تَبغيَ امرأتُه، كما قال ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه من أئمَّةِ السَّلفِ والخلَفِ: «ما بَغَتِ امرأةُ نبيٍّ قَطُّ». ومَن قال خِلافَ هذا فقد أخطأ خطأً كبيرًا). ((البداية والنهاية)) (١/ ٤٢٢).

وقال ابنُ تيميةَ عن امرأةِ لوطٍ عليه السلامُ: (كانت في الظَّاهِرِ مسلمةً على دينِ زوجِها لوطٍ، وفي الباطنِ منافقةً على دينِ قومِها لا تقلي عملَهم كما قلاه لوطٌ؛ فإنَّه أنكَره ونهاهم عنه وأبغَضه). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ أُنزِلَ عليه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]: ((يا مَعشَرَ قُريشٍ اشتَرُوا أنفُسَكم مِنَ اللهِ لا أُغْني عنكم مِنَ اللهِ شَيئًا، يا بَني عبدِ المُطَّلِبِ لا أُغْني عنكم مِنَ اللهِ شَيئًا، يا عبَّاسُ بنَ عبدِ المطَّلِبِ لا أُغْني عنكَ مِنَ اللهِ شَيئًا، يا صَفيَّةُ عَمَّةَ رَسولِ اللهِ لا أُغني عنكِ مِنَ اللهِ شَيئًا، يا فاطِمةُ بِنتَ رَسولِ اللهِ سَلِيني بما شِئْتِ، لا أُغني عنكِ مِنَ اللهِ شَيئًا!))[1].

﴿وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾.

أي: وقيل لامرأتَيْ نُوحٍ ولُوطٍ: ادخُلا النَّارَ مع غَيرِكما مِنَ الدَّاخِلينَ فيها[2].

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أتَمَّ مَثَلَ النِّذارةِ بأنَّ طاعةَ المُطيعِ لا تَنفَعُ العاصيَ، وإنْ كان أقرَبَ النَّاسِ إلى المُطيعِ، إلَّا إن كان له أساسٌ يَصِحُّ البِناءُ عليه، ويجوزُ الاعتدادُ به والنَّظَرُ

= كثير)) (٨/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٦).

(١) رواه البخاريُّ (٢٧٥٣)، ومسلمٌ (٢٠٦) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧١).

قال البيضاوي: (﴿وَقِيلَ﴾ أي: لهما عندَ مَوتِهما، أو يومَ القيامةِ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٦). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٠٤).

إليه؛ أَتْبَعَه مَثَلَ البِشارةِ، بأنَّ عِصيانَ العاصي لا يَضُرُّ المُطيعَ[١].

وأيضًا لَمَّا ضُرِبَ المثَلُ للَّذينَ كفَروا، أُعْقِبَ بضَرْبِ مَثَلٍ للَّذينَ آمَنوا؛ لتَحصُلَ المُقابَلةُ، فيتَّضِحَ مَقصودُ المثَلَيْنِ معًا، وجَرْيًا على عادةِ القُرآنِ في إتْباعِ التَّرهيبِ بالتَّرغيبِ[٢].

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾.

أي: وجَعَل اللهُ مَثَلًا للَّذين آمَنوا امرأةَ فِرعَونَ، مبيِّنًا أنَّ اتِّصالَ المؤمنِ بالكافرِ لا يَضُرُّه شيئًا معَ قيامِه بالواجبِ عليه[٣].

﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾.

أي: حينَ قالت امرأةُ فِرعَونَ: يا ربِّ ابنِ لي في جِوارِك بَيتًا في الجنَّةِ[٤].

عن سَلْمانَ الفارِسيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (كانت امرأةُ فِرعَونَ تُعذَّبُ بالشَّمسِ، فإذا انصَرَفوا عنها أظلَّتْها الملائِكةُ بأجنِحَتِها، وكانت ترى بَيْتَها في الجنَّةِ)[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٣-٣٧٧).

قال السمعاني: (هي آسيةُ بِنتُ مُزاحِمٍ، وكانت آمَنَت باللهِ وبموسى عليه السَّلامُ سِرًّا ثمَّ أظهَرَت). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧٩).

وقال القرطبي: (قال يحيى بنُ سلامٍ: قَولُه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مثَلٌ ضرَبَه اللهُ يحَذِّرُ به عائشةَ وحَفصةَ في المخالفةِ حينَ تَظاهرَتا على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ ضَرَب لهما مَثَلًا بامرأةِ فِرعَونَ، ومريمَ بنتِ عِمرانَ؛ ترغيبًا في التَّمسُّكِ بالطَّاعةِ، والثَّباتِ على الدِّينِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٢). ويُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

(٥) أخرجه الحاكمُ (٣٨٣٤)، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (١٦٣٧). =

﴿وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ﴾.

أي: وخَلِّصْني مِن صُحْبةِ فِرعَونَ وتَسَلُّطِه، ومِن كُفْرِه وضَلالِه[1].

﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: وخَلِّصْني مِن قَومِ فِرعَونَ المُشرِكينَ[2].

﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أتَمَّ المثَلَ بمَن أساءَتا الأدَبَ، فلم تَنفَعْهما الوُصلةُ بالأولياءِ، بل زادَتْهما ضَرَرًا؛ للإعراضِ عن الخَيرِ مع قُرْبِه وتَيسُّرِه، وبمَنْ أحسَنَت الأدَبَ فلم تَضُرَّها الوُصلةُ بأعدى الأعداءِ، بل زادَتْها خَيرًا- ضَرَب مثَلًا بقَرينتِها، ومع مُقارَنتِها لها في الكَمالِ فبيْنَ حالَيهما في الثُّيوبةِ والبُكورةِ طِباقٌ، فلم يَبْتَلِها سُبحانَه بخُلْطةِ زَوجٍ؛ جمعًا بيْن ما تقدَّمَ مِن صِنفَيِ الثَّيِّباتِ والأبكارِ، اللَّاتي يُعْطيهما لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأحسَنَت الأدَبَ في نَفْسِها مع اللهِ، ومع سائِرِ مَن لَزِمَها الأدَبُ

= صحَّحه على شَرطِ الشَّيخَينِ: الحاكمُ، والألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٦/ ٣٦)، ووثَّق رُواتَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ٢٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٧).

قال ابن عطية: (قولُها: ﴿وَعَمَلِهِۦ﴾ معناه: وكُفْره، وما هو عليه مِن الضَّلالةِ، وهذا قولُ كافَّةِ المفسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٥).

وقال القرطبي: (وقيل: مِن عمَلِه: مِن عذابِه وظُلْمِه وشماتتِه). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٧).

معه مِن عِبادِه؛ فأحسَنَ إليها رعايةً لها[١].

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾.

أي: وضرَب اللهُ مَثَلًا للَّذين آمَنوا مريمَ بنتَ عِمْرانَ الَّتي حَفِظَت فَرْجَها وصانَته مِنَ الفاحِشةِ؛ لكَمالِ عِفَّتِها وصَلاحِها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

وعن أبي مُوسى الأشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لم يَكمُلْ مِنَ النِّساءِ إلَّا مَريمُ بنتُ عِمرانَ، وآسيةُ امرأةُ فِرعَونَ))[٣].

وعن أمِّ سَلَمةَ رَضِيَ اللهُ عنها ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دعا فاطِمةَ عامَ الفَتحِ فناجاها فبَكَت، ثمَّ حَدَّثَها فضَحِكَت! قالت: فلمَّا تُوُفِّيَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سألْتُها عن بُكائِها وضَحِكِها. قالت: أخبَرَني رَسولُ اللهِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٣، ٢٠٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٨).

قال السمعاني في قوله تعالى: ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾: (أشهَرُ القَولَينِ أنَّه الفَرْجُ بعَينِه. والعَرَبُ تَقولُ: أحصَنَت فُلانةُ فَرْجَها: إذا عَفَّت عن الزِّنا. والقَولُ الثَّاني: أنَّ الفَرْجَ هاهنا: هو الجَيبُ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧٩).

والقَولُ الأوَّلُ: استظهره أبو حيَّانَ، وذهب إليه ابنُ جُزَي، والألوسيُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٥٨، ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٨).

وممَّن ذهب إلى القولِ الثَّاني: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ إلى الجمهورِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٥).

(٣) رواه البخاريُّ (٣٤٣٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٤٣١).

صلَّى اللهُ عليه سلَّم أنَّه يموتُ، فبَكَيتُ، ثمَّ أخبَرَني أنِّي سَيِّدةُ أهلِ الجنَّةِ إلَّا مَريمَ بِنتَ عِمرانَ، فضَحِكتُ))(١).

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أفضَلُ نِساءِ أهلِ الجنَّةِ: خَديجةُ بِنتُ خُوَيلدٍ، وفاطِمةُ بِنتُ مُحمَّدٍ، وآسِيةُ بِنتُ مُزاحِمٍ؛ امرأةُ فِرعَونَ، ومَريمُ ابنةُ عِمرانَ))(٢).

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾.

أي: فنفَخَ جِبريلُ بأَمْرِنا في فَرْجِها، فحَمَلَت بابنِها عيسى عليه السَّلامُ(٣).

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٦، ١٧].

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٣٨٩٣) واللَّفظُ له، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٨٥١٣).
قال الترمذي: (حسَنٌ غَريبٌ مِن هذا الوَجهِ). وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٨٩٣).

(٢) أخرجه النسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٨٣٥٥)، وأحمدُ (٢٦٦٨) واللَّفظُ له.
صحَّحه ابنُ حبَّانَ في ((الصحيح)) (٧٠١٠)، والألباني فيُّ ((صحيح الجامع)) (١١٣٥)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥٣٩)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٣٢)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ٤٠٩)، وحسَّن إسنادَه النَّوويُّ في ((تهذيب الأسماء واللغات)) (٢/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٣)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٥٥، ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).
قال ابن كثير: (﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي: بواسِطةَ الملَك، وهو جِبريلُ؛ فإنَّ اللهَ بَعَثه إليها فتمثَّلَ لها في صُورةِ بَشَرٍ سَوِيٍّ، وأمَرَه اللهُ تعالى أن يَنفُخَ بفِيه في جَيبِ دِرعِها، فنزلت النَّفخةُ فوَلَجت في فَرْجِها؛ فكان منه الحَملُ بعيسى عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٣).

أي: وآمَنَت مَريمُ بكَلِماتِ اللهِ، وآمَنَت بكُتُبِه، كالتَّوراةِ(١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٣).

قيل: المرادُ بالكَلِماتِ هنا: عيسى عليه السَّلامُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٢).

وقيل: المرادُ بالكَلِماتِ: الشَّرائِعُ الَّتي شرَعَها اللهُ للعبادِ بكَلِماتِه المُنزَّلةِ في كُتُبِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، والبغوي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٢٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٠٥).

وقيل: الكَلِماتُ هي قَولُ جِبريلَ لمَريمَ عليهما السَّلامُ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٤).

وقيل: الكَلِماتُ تَشملُ كَلِماتِ اللهِ الشَّرعيَّةَ والقَدَريَّةَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

وقال ابن كثير: (... ﴿بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ أي: بقَدَرِه وشَرعِه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٣).

وأمَّا قَولُه تعالى: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ فقيل: المرادُ: الإنجيلُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٨٠).

وقيل: المرادُ: التَّوراةُ والإنجيلُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٦).

وقيل: المرادُ: التَّوراةُ والزَّبورُ والإنجيلُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: السَّمْعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٨٠).

وقال ابنُ عاشور: (آمَنَت بالكتُبِ الَّتي أُنزِلَت قبْلَ عيسى، وهي «التَّوراةُ» و«الزَّبُورُ»، وكُتبُ الأنبياءِ مِن بني إسرائيلَ، و«الإنجيلُ» إن كان قد كَتَبه الحَوارِيُّونَ في حَياتِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٩).

وقال ابن جُزَي: (﴿وكِتَابِهِ﴾ بالإفرادِ يحتملُ أن يُريدَ به التَّوراةَ أو الإنجيلَ أو جِنسَ الكُتبِ، وقرأ أبو عَمرٍو وحفصٌ [ويعقوبُ] بالجمعِ يعني: جميعَ كُتُبِ الله). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٣). =

كما قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥].

﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾.

أي: وكانت مَريمُ مِن جُملةِ القَومِ المُطيعينَ للهِ، المواظِبينَ على طاعتِه[١].

قال تعالى: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[آل عمران: ٤٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ فيه أنَّ الرَّجُلَ وإن كان في غايةِ الصَّلاحِ فلا يَأمَنُ المرأةَ، ولا يأمَنُ نَفْسَه، كالصَّادِرِ مِن امرأتَيْ نُوحٍ ولُوطٍ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ﴾ أنَّ الكافِرَ يُعاقَبُ على كُفْرِه وعداوتِه للهِ ورَسولِه وأوليائِه، ولا يَنفَعُه مع كُفْرِه ما كان بيْنه وبيْن المؤمنينَ مِن لُحْمَةِ نَسَبٍ، أو صِلَةِ صِهْرٍ، أو سَبَبٍ من أسبابِ الاتِّصالِ؛ فإنَّ الأسبابَ كلَّها تَنقَطِعُ يومَ القيامةِ إلَّا ما كان منها مُتَّصِلًا باللهِ وَحْدَه على أيدي رُسُلِه، فلو نَفَعَتْ وُصلةُ القَرابةِ والمُصاهَرةِ أو النِّكاحِ مع عَدَمِ الإيمانِ، لَنفَعَتِ

= وقراءةُ الإفرادِ قرأ بها الباقونَ. يُنظر: ((إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر)) للبناء (ص: ٥٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٨).

قال الواحدي: (يجوزُ أن يُريدَ بالقانِتينَ: رَهطَها وعَشيرتَها الَّذين كانت منهم مَريمُ، وكانوا مُطيعينَ لله، أهلَ بَيتِ صلاحٍ وطاعةٍ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٢٤).

وقال ابن عاشور: (المرادُ بالقانِتينَ: المُكثِرونَ من العبادةِ، والمعنى أنَّها كانت سليلةَ قَومٍ صالحينَ، أي: فجاءت على طريقةِ أُصولِها في الخَيرِ والعَفافِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٦).

الوُصلةُ الَّتي كانت بيْن لُوطٍ ونُوحٍ وامرأتَيْهما! فلمَّا لم يُغْنِيا عنهما مِن اللهِ شيئًا ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ﴾ قَطَعتِ الآيةُ حينَئذٍ طَمَعَ مَن رَكِبَ معصيةَ اللهِ، وخالَفَ أمْرَه، ورجا أنْ يَنفعَه صلاحُ غيرِه مِن قريبٍ أو أجنبيٍّ، ولو كان بيْنَهما في الدُّنيا أشدُّ الاتِّصالِ، وهذا أصلُ ضَلالِ بني آدمَ وشِرْكِهم، وهو الشِّركُ الَّذي لا يَغفِرُه اللهُ، وهو الَّذي بَعَثَ اللهُ جميعَ رُسُلِه وأنزَلَ جميعَ كُتُبِه بإبطالِه، ومُحارَبةِ أهْلِه ومُعاداتِهم[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ أنَّ اتِّصالَ المؤمِنِ بالكافِرِ لا يَضُرُّه شَيئًا إذا فارَقَه في كُفْرِه وعَمَلِه؛ فمَعصيةُ الغيرِ لا تَضُرُّ المؤمِنَ المطيعَ شيئًا في الآخِرةِ، وإنْ تَضَرَّرَ بها في الدُّنيا بسَبَبِ العُقوبةِ الَّتي تَحُلُّ بأهلِ الأرضِ إذا أضاعوا أَمْرَ اللهِ، فتأتي عامَّةً؛ فلَمْ يَضُرَّ امرأةَ فِرعونَ اتِّصالُها به وهو مِن أكْفَرِ الكافِرينَ، ولم يَنفَعِ امرأةَ نوحٍ ولوطٍ اتِّصالُهما بهما وهما رَسُولا ربِّ العالَمينَ[2]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾ طلَبَتْ كَوْنَ البَيتِ عندَه قبْلَ طَلَبِها أنْ يكونَ في الجنَّةِ؛ فإنَّ «الجارَ قبْلَ الدَّارِ»[3].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ﴾ فيه دَليلٌ على الالتِجاءِ إلى اللهِ تعالى عندَ المِحَنِ، وسؤالِ الخَلاصِ منها، وأنَّ ذلك مِن سُنَنِ الصَّالِحينَ والأنبياءِ[4].

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

(٣) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٩٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٦).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ذَكَر سُبحانَه ثلاثةَ أصنافٍ مِن النِّساءِ: المرأةِ الكافرةِ الَّتي لها وُصلةٌ بالرَّجُلِ الصَّالحِ، والمرأةِ الصَّالحةِ الَّتي لها وُصلةٌ بالرَّجُلِ الكافِرِ، والمرأةِ العَزَبِ الَّتي لا وُصلةَ بيْنَها وبيْنَ أحَدٍ؛ فالأُولى لا تَنفَعُها وُصْلتُها وسَبَبُها، والثَّانيةُ لا تَضُرُّها وُصْلتُها وسَبَبُها، والثَّالِثةُ لا يَضُرُّها عدَمُ الوُصلةِ شَيئًا(١).

٢- في قَولِه تعالى ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ في هذه الأمثالِ مِن الأسرارِ البَديعةِ ما يُناسِبُ سِياقَ السُّورةِ؛ فإنَّها سِيقَت في ذِكرِ أزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتَّحذيرِ من تَظاهُرِهنَّ عليه، وأنَّهن إنْ لم يُطِعْنَ اللهَ ورَسولَه ويُرِدْنَ الدَّارَ الآخِرةَ، لم يَنفَعْهنَّ اتِّصالُهنَّ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كما لم يَنفَعِ امرأةَ نُوحٍ ولوطٍ اتِّصالُهما بهما؛ ولهذا إنَّما ضُرِبَ في هذه السُّورةِ مَثَلُ اتِّصالِ النِّكاحِ دونَ القَرابةِ.

وفي ضَرْبِ المَثَلِ للمُؤمِنينَ بمريمَ -باعتِبارٍ آخَرَ- وهو أنَّها لم يَضُرَّها عندَ اللهِ شيئًا قَذْفُ أعداءِ اللهِ اليهودِ لها، ونِسبَتُهم إيَّاها وابنَها إلى ما بَرَّأَهما اللهُ عنه، مع كَونِها الصِّدِّيقةَ الكُبرى المُصطفاةَ على نساءِ العالَمينَ! فلا يَضُرُّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ قَدْحُ الفُجَّارِ والفُسَّاقِ فيه، وفي هذا تَسليةٌ لعائِشةَ أمِّ المؤمِنينَ، إنْ كانتِ السُّورةُ نَزَلَتْ بعدَ قِصَّةِ الإفكِ، وتوطينُ نَفْسِها على ما قال فيها الكاذِبونَ، إنْ كانت قَبْلَها، كما في ذِكْرِ التَّمثيلِ بامرأةِ نُوحٍ ولوطٍ تحذيرٌ لها ولحَفصةَ ممَّا تعَمَّدَتاه في حَقِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فتَضمَّنَتْ هذه الأمثالُ التَّحذيرَ لهنَّ

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٥).

والتَّخويفَ، والتَّحريضَ لهنَّ على الطَّاعةِ والتَّوحيدِ، والتَّسليةَ وتوطينَ النَّفْسِ لِمَن أُوذِيَ مِنهنَّ وكُذِبَ عليه، وأسرارُ التَّنزيلِ فوقَ هذا وأَجَلُّ منه، ولا سيَّما أسرارِ الأمثالِ الَّتي لا يَعْقِلُها إلَّا العالِمونَ(١)!

٣- قد وقَع في القرآنِ الإخبارُ عن أهلِ الإيمانِ بلَفظِ الزَّوْجِ مُفرَدًا وجَمعًا، كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وقولِه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٥٩]، وقال في حقِّ آدَمَ: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] [الأعراف: ١٩]، ووقَع الإخبارُ عن أهلِ الشِّركِ بلَفظِ المَرأةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾، فلَمَّا كانَتا مُشرِكتَينِ أوقَع عليهما اسمَ المرأةِ، وقال في فِرعونَ: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ لَمَّا كان هو المُشرِكَ وهي مؤمنةٌ لم يُسَمِّها زَوجًا له، وقال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ [المسد: ١ - ٤].

والسِّرُّ في ذِكْرِ المؤمنينَ ونِسائِهم بلَفظِ «الأزواجِ» أنَّ هذا اللَّفظَ مُشْعِرٌ بالمُشاكَلةِ والمجانَسةِ والاقترانِ -كما هو المفهومُ مِن لَفظِه-؛ فإنَّ الزَّوجَينِ هما الشَّيئانِ المُتشابِهانِ المُتشاكِلانِ أو المتَساويانِ، ولا ريبَ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قَطَع المُشابَهةَ والمُشاكَلةَ بيْنَ الكافِرِ والمؤمنِ؛ قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقَطَع المُقارَنةَ سُبحانَه بيْنَهما في أحكامِ الدُّنيا، فلا يَتوارَثانِ ولا يَتناكَحانِ، ولا يَتولَّى أحدُهما صاحبَه، فكما انقَطَعتِ الوُصلةُ بيْنَهما في المعنى انقطعتْ في الاسمِ، فأضاف فيها «المرأةَ» بلَفظِ الأنوثةِ المجرَّدِ دونَ لفظِ المشاكَلةِ والمشابَهةِ، وهذا المعنى أشدُّ مُطابَقةً

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٥).

لألفاظِ القُرآنِ ومعانيه؛ ولهذا وَقَع على المُسلِمةِ امرأةِ الكافرِ، وعلى الكافرةِ امرأةِ المؤمنِ لفظُ «المرأةِ» دونَ «الزَّوجةِ»؛ تحقيقًا لهذا المعنى، واللهُ أعلمُ.

وتأمَّلْ في هذا المعنى في آيةِ المواريثِ وتعليقِه سُبحانَه التَّوارُثَ بلَفظِ الزَّوجةِ دونَ المرأةِ -كما في قَولِه تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢]- إيذانًا بأنَّ هذا التَّوارثَ إنَّما وَقَعَ بالزَّوجيَّةِ المقتَضِيةِ للتَّشاكُلِ والتَّناسُبِ، والمؤمنُ والكافرُ لا تَشاكُلَ بيْنَهما ولا تَناسُبَ؛ فلا يَقعُ بيْنَهما التَّوارُثُ، وأسرارُ مُفرَداتِ القرآنِ ومُركَّباتِه فوقَ عُقولِ العالَمِينَ.

وأمَّا قولُ زكريَّا عليه السَّلامُ: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: ٥]، وقولُه تعالى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩]، فجَوابُه: أنَّ ذِكْرَ «المرأةِ» ألْيَقُ في هذه المواضعِ؛ لأنَّه في سياقِ ذِكْرِ الحَمْلِ والولادةِ، فذِكْرُ «المرأةِ» أَولى به؛ لأنَّ الصِّفةَ -الَّتي هي الأُنوثةُ- هي المقتَضِيةُ للحَمْلِ والوَضعِ لا مِن حيثُ كانت زَوْجًا[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ أنَّ أنكِحةَ الكُفَّارِ صَحيحةٌ؛ حيثُ سمَّاها سُبحانَه «امرأتَه»، والصَّحابةُ رَضيَ اللهُ عنهم غالبُهم إنَّما وُلِدوا مِن نكاحٍ كان قبْلَ الإسلامِ في حالِ الشِّركِ، وهم يُنسَبون إلى آبائِهم انتِسابًا لا رَيْبَ فيه عندَ أحدٍ مِن أهلِ الإسلامِ، وقد أسْلَمَ الجَمُّ الغفيرُ في عَهدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلَمْ يأمُرْ أحدًا منهم أنْ يُجَدِّدَ عقْدَه على امرأتِه، فلو كانت أنكِحةُ الكُفَّارِ باطِلةً لأمَرَهم بتَجديدِ أنكحتِهم[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ شَهادةُ اللهِ لها

---

(١) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٣٠، ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٦١٤).

بإحصانِ الفَرْجِ، وعليه فمَنْ رماها بما رماها به اليهودُ؛ حيث قالوا: إنَّها زانيةٌ! فإنَّه كافِرٌ مُكَذِّبٌ للهِ عزَّ وجلَّ[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ عطفٌ على ﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾، فجمَعَ في التَّمثيلِ بيْنَ الَّتي لها زَوجٌ، والَّتي لا زَوجَ لها؛ تَسليةً للأراملِ، وتطْييبًا لأنفُسِهنَّ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ دَليلٌ على أنَّ اسمَ الإحصانِ يقَعُ على العَفافِ، وأنَّ المرأةَ إذا صانتْ فَرْجَها عن الفاحِشةِ فهي مُحصَنةٌ؛ فالإحصانُ اسمٌ جامِعٌ يَقعُ على هذا، وعلى الإسلامِ والتَّزويجِ، وجِماعُه الحَبْسُ عن الشَّيءِ بالحائلِ دُونَه، فكأنَّها تَحبِسُ نَفْسَها عن الفاحِشةِ بحاجِزِ الإسلامِ، والتَّعَفُّفِ بالزَّواجِ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أنَّ الرُّوحَ في الجَسَدِ تُنفَخُ نفخًا، ولكِنْ لا نَعلَمُ الكيفيَّةَ[٤].

٩- قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ الروحُ المضافةُ إلى الربِّ هي روحٌ مخلوقةٌ أضافَها إلى نفسِه إضافةَ تخصيصٍ وتشريفٍ. والمضافُ إلى الله سبحانَه نوعانِ:

الأول: صفاتٌ لا تقومُ بأنفسِها، كالعِلمِ والقُدرةِ والكلامِ والسَّمعِ والبصرِ، فهذه إضافةُ صفةٍ إلى الموصوفِ بها، فعلمُه وكلامُه وإرادتُه وقدرتُه وحياتُه صفاتٌ له

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٧٠).

(٤) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٩٢).

غيرُ مخلوقةٍ، وكذلك وجهُه ويدُه سبحانَه.

والثاني: إضافةُ أعيانٍ منفصلةٍ عنه، كالبيتِ والنَّاقةِ والعبدِ والرَّسولِ والرُّوحِ، فهذه إضافةُ مخلوقٍ إلى خالقِه، ومصنوعٍ إلى صانعِه، لكنَّها إضافةٌ تقتضي تخصيصًا وتشريفًا يتميَّزُ به المضافُ عن غيرِه، كبيتِ الله، وإن كانت البيوتُ كلُّها مِلكًا له، وكذلك ناقةُ الله، والنُّوقُ كلُّها مِلكُه وخلقُه، لكنْ هذه إضافةٌ إلى إلهيتِه تقتضي محبتَه لها وتكريمَه وتشريفَه، بخلافِ الإضافةِ العامَّةِ إلى ربوبيتِه حيثُ تقتضي خلقَه وإيجادَه[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ اجتَمَع نَوعا كَلِماتِ اللهِ الدِّينيَّةِ والكَونيَّةِ؛ فـ «كُتُبُه» كلماتُه الَّتي يأمُرُ بها ويَنهى، ويُحِلُّ ويُحَرِّمُ، و«كَلِماتُه» هي الَّتي يَخْلُقُ بها ويُكَوِّنُ -وذلك على قولٍ-؛ فأَخبرَ أنَّ مَرْيَمَ ليست جَهميَّةً تُنْكِرُ كَلِماتِ دِينِه وكَلِماتِ تكوينِه، وتجعلُها خَلْقًا مِن جملةِ مَخلوقاتِه[2]!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ وكذلك قوله: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠] أنَّ الإيمانَ والكَمالَ في الرِّجالِ أكثرُ، لأنَّه لم يَقُلْ: مِن القانتاتِ. ولا: مِن المؤمِناتِ، ولهذا جاء في الحديثِ: ((كَمَلَ مِن الرِّجالِ كثيرٌ، ولم يَكمُلْ مِن النِّساءِ إلا آسيةُ امرأةُ فِرعونَ، ومريمُ بنتُ عِمْرانَ))[3]!

١٢- في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ إيماءٌ إلى تَبْرئةِ مريمَ ممَّا رَماها به

(١) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٥٤- ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٩).
والحديث رواه البخاريُّ (٣٤٣٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٤٣١).
ويُنظر الأوجهُ الأخرى في البلاغة (ص: ٢١٨).

القومُ البُهْتُ[١].

١٣- قال تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾، في ذِكْرِ القانتينَ إيماءٌ إلى ما أوصَى اللهُ به أُمَّهاتِ المُؤمنينَ بقولِه تعالَى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣١] الآيةَ[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ أُعْقِبَتْ جُملةُ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [التحريم: ٩] الآيةَ -المقصودُ منها تَهديدُهم بعَذابِ السَّيفِ في الدُّنيا، وإنذارُهم بعَذابِ الآخِرةِ، وما قارَنَ ذلكَ مِن مُقابَلةِ حالِهم بحالِ المُؤمنينَ-؛ بأنْ ضرَب مَثَلَيْنِ للفريقَيْنِ بنظيرَيْنِ في حالَيْهما؛ لتَزدادَ الموعظةُ وُضوحًا، ويَزدادَ التَّنويهُ بالمُؤمنينَ استِنارةً؛ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا[٣].

- قولُه: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيه تَقديمُ المجرورِ باللَّامِ على المفعولِ؛ للاهتمامِ بإيقاظِ الَّذينَ كفَروا[٤].

- ومِن لَطائفِ التَّقييدِ بقولِه تعالَى: ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: أنَّ المقصدَ الأصليَّ هو ضَرْبُ المثَلِ ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وذلكَ مِنَ الاحتراسِ مِن أنْ يُحمَلَ التَّمثيلُ على المُشابَهةِ مِن جَميعِ الوُجوهِ، والاحتراسُ بكَثْرةِ التَّشبيهاتِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٧٣).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٧٤).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ﴾
مُناسَبةُ ضَرْبِ المثَلِ بامرأةِ نوحٍ وامرأةِ لوطٍ دونَ غيرِهما مِن قَرابةِ الأنبياءِ، نَحْو أبي إبراهيمَ وابنِ نوحٍ عليهِما السَّلامُ؛ لأنَّ ذِكْرَ هاتَينِ المرأتَينِ لم يَتقدَّمْ، وقد تَقدَّمَ ذِكْرُ أبي إبراهيمَ وابنِ نوحٍ؛ لتَكونَ في ذِكْرِهما فائدةٌ مُستجَدَّةٌ، ولِيَكونَ في ذِكْرِهما عَقِبَ ما سبَقَ مِن تَمَالُؤِ أُمَّي المُؤمِنينَ على زَوجِهما صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَعريضٌ لَطيفٌ بالتَّحذيرِ مِن خاطرِ الاعتزازِ بغَناءِ الصِّلةِ الشَّريفةِ عنهما في الوَفاءِ بحقِّ ما يجِبُ مِنَ الإخلاصِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليَكونَ الشَّبهُ في التَّمثيلِ أقوى؛ ففي ضَرْبِ هذا المثَلِ: تَعريضٌ بحَفصةَ وعائشةَ رَضيَ اللهُ عنهما المذكورتَينِ في أوَّلِ السُّورةِ، وما فَرَطَ مِنهما مِنَ التَّظاهُرِ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما كَرِهَه، وتَحذيرٌ لهما على أغلَظِ وَجْهٍ وأشَدِّه؛ لِمَا في التَّمثيلِ مِن ذِكْرِ الكُفرِ ونَحْوِه، وإشارةٌ إلى أنَّ مِن حقِّهِما أنْ تَكونَا في الإخلاصِ والكِتمانِ فيه كمِثْلِ هاتَينِ المؤمنتَيْنِ، وألَّا تتَّكِلَا على أنَّهما زَوْجَتا رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ ذلكَ الفضلَ لا يَنفَعُهما إلَّا مع كَونِهما مُخلِصتَينِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٣، ٣٧٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٣).
قال ابنُ عطيَّة: (وقال بعضُ النَّاسِ: إنَّ في المثَلَينِ عِبرةً لزَوجاتِ النَّبيِّ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينَ تقَدَّم عِتابُهنَّ، وفي هذا بُعْدٌ؛ لأنَّ النَّصَّ أنَّه للكُفَّارِ يُبعِدُ هذا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٥).
وقال ابنُ عاشور مُعَقِّبًا: (ويَدفَعُ اسْتِبعادَه أنَّ دَلالةَ التَّعريضِ لا تُنافي اللَّفظَ الصَّريحَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٤).
وقال السعدي: (فكأنَّ في ذلك إشارةً وتحذيرًا لزَوجاتِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن =

- وفي قوله: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ فائدةُ قوله: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ بعْدَ ﴿عَبْدَيْنِ﴾ مَدْحُهما والثَّناءُ عليهما، بإضافتِهما إليه إضافةَ التَّشريفِ والتَّخصيصِ والتَّعظيمِ، وفي ذلكَ مُبالَغةٌ في المعْنى المقصودِ، وهو أنَّ الإنسانَ لا يَنْفَعُه عادةً إلَّا صلاحُ نفْسِه، لا صَلاحُ غَيرِه، وإنْ كانَ ذلكَ الغَيرُ في أعلى المراتِبِ[1].

- وجاءتِ الكِنايةُ عن اسْمِهما العَلَمينِ بقولِه: ﴿عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا﴾؛ لِما في ذلك مِن التَّشريفِ بالإضافةِ إليه تَعالى، ولم يأْتِ التَّركيبُ بالضَّميرِ عنهما، فيَكون (تحْتَهما)؛ لِما قُصِدَ مِن ذِكرِ وصْفِهما بقولِه: ﴿صَالِحَيْنِ﴾؛ لأنَّ الصَّلاحَ هو الوصفُ الَّذي يَمتازُ به مَن اصطفاهُ اللهُ تعالَى، كقولِه في حقِّ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وفي قولِ يوسفَ عليه السَّلامُ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقولِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩][2]، ولأنَّ ذلك أفخَمُ، فيكونُ أشَدَّ تأثيرًا للمَوعوظِ وأعظَمَ، ودَفعًا لأن يَتوهَّمَ أحَدٌ بشَيءٍ لا يَليقُ بمَقامِهما عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ[3].

- وأيضًا خَصَّ نوحًا ولُوطًا بوَصْفِ عبدَيْنِ صالحَينِ، مع أنَّ وصْفَ النُّبوَّةِ أخصُّ مِن وصْفِ الصَّلاحِ؛ تَنويهًا بوصْفِ الصَّلاحِ، وإيماءً إلى أنَّ النُّبوَّةَ صَلاحٌ؛ ليَعْظُمَ بذلك شأنُ الصَّالِحينَ، ولتَكونَ المَوعظةُ ساريةً إلى نِساءِ

= المعصيةِ، وأنَّ اتِّصالَهنَّ به صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَنفَعُهنَّ شيئًا مع الإساءةِ. ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥١٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٨).

المُسلِمينَ في مُعامَلتِهنَّ أزواجَهنَّ؛ فإنَّ وصْفَ النُّبوَّةِ قد انْتهَى بالنِّسبةِ للأمَّةِ الإسلاميَّةِ، مع ما في ذلكَ مِن تَهويلِ الأذى لعبادِ اللهِ الصَّالِحينَ، وعِنايةِ ربِّهم بهم، ومُدافَعتِه عنهم[(١)].

- قولُه: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بيانٌ لِما صدَرَ عنهُما مِن الجِنايةِ العَظيمةِ مع تَحقيقِ ما يَنْفيها مِن صُحبةِ النَّبيِّ، أي: خانَتاهُما بالكُفْرِ والنِّفاقِ، وهذا تَصويرٌ لحالِهما المُحاكيةِ لحالِ هؤلاءِ الكَفرةِ في خِيانتِهم لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالكفْرِ والعِصيانِ، مع تَمكُّنِهمُ التَّامِّ مِنَ الإيمانِ والطَّاعةِ[(٢)]. وليست هي الخيانةَ بمعنى الزِّنا؛ فإنَّ اللهَ تعالى قد صان أنبياءَه وعصَمَهم عن تلبُّسِ زَوجاتِهم بالزِّنا.

- قولُه: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فيه تَنكيرُ ﴿شَيْـًٔا﴾ للتَّحقيرِ، أي: أقلَّ غِنًى وأجحَفَه، بَلْهَ الغِنَى المُهِمَّ[(٣)].

- قولُه: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ زيادةُ ﴿مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ لإفادةِ مُساواتِهما في العذابِ لغيرِهما مِنَ الكَفرةِ الخوَنةِ، وذلكَ تأْييسٌ لهُما مِن أنْ تَنْتَفِعا بشَيءٍ مِن حُظوةِ زَوجَيْهِما[(٤)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جُعِلَ المثَلُ للَّذينَ آمَنوا بحالِ امرأتَيْنِ لتَحصُلَ المُقابَلةُ للمَثلَينِ السَّابقَينِ؛ فهذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن مُراعاةِ النَّظيرِ في المثلَيْنِ. وجاءَ أحَدُ المَثلَيْنِ للَّذينَ آمَنوا مَثَلًا لإخلاصِ الإيمانِ، والمَثَلُ الثَّاني لشِدَّةِ التَّقْوى؛ فكانَتِ امْرأةُ فِرعونَ مَثَلًا لِمَتانةِ إيمانِ المُؤمِنينَ، ومَريمُ مَثَلًا للقانتِينَ؛ لأنَّ المُؤمِنينَ تَبرَّؤُوا مِن ذَوِي قَرابتِهِمُ الَّذين بَقُوا على الكفرِ بمَكَّةَ[١].

- وأرادَتْ بعمَلِ فِرعونَ ظُلْمَه -على قولٍ في التَّفسيرِ-، أي: نجِّني مِن تَبِعَةِ أعمالِه؛ فيكونُ معنى (نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ) مِن صُحبتِه، طلَبَتْ لنفْسِها فرَجًا، وهو مِن عطفِ الخاصِّ على العامِّ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾

- وُصِفَتْ مريمُ بالمَوصولِ وصِلتِه ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾؛ لأنَّها عُرِفَتْ بتلكَ الصِّلةِ مِن قصَّتِها المعروفةِ مِن تَكرُّرِ ذِكْرِها فيما نزَلَ مِنَ القرآنِ قبْلَ هذه السُّورةِ[٣].

- وتَفريعُ ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ تَفريعُ العَطيَّةِ على العَملِ لأجْلِه، أي: جَزَيْناها على إحصانِ فرْجِها، أي: بأنْ كوَّنَ اللهُ فيه نبيًّا بصِفةٍ خارِقةٍ للعادةِ؛ فخلَّدَ بذلك ذِكْرَها في الصَّالِحاتِ[٤].

- قَولُه: ﴿فَنَفَخْنَا﴾ أضاف اللهُ النَّفخَ إليه؛ لأنَّه فِعْلُ رَسولِه الَّذي أرسَلَه لِيَنفُخَ في فَرْجِها، وإضافةُ النَّفخِ إلى اللهِ مع أنَّه كان مِن جبريلَ: كإضافةِ القِراءةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٧٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٧٩).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٧٨).

إلى اللهِ مع أنَّه كان مِن جبريلَ في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨]؛ فالَّذي يقرأُ جبريلُ، والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يتَّبِعُه[١].

- قولُه: ﴿رُّوحِنَا﴾ أضاف اللهُ تعالى الرُّوحَ إلى نَفْسِه إضافةَ مخلوقٍ إلى خالِقِه، وفي ذلك تَشريفٌ له[٢].

وقيل: إضافةُ الرُّوحِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ؛ لأنَّ تكوينَ المخلوقِ الحيِّ في رَحِمِها كان دونَ الأسبابِ المعتادةِ، أو أُرِيدَ بالرُّوحِ المَلَكُ الَّذي يُؤْمَرُ بنَفخِ الأرواحِ في الأجِنَّةِ؛ فعلى الأوَّلِ تكونُ ﴿مِن﴾ تَبعيضيَّةً، وعلى الثَّاني تكونُ ابتدائيَّةً[٣].

- قولُه: ﴿وَصَدَّقَتْ﴾ عطفٌ على مَحذوفٍ مُقدَّرٍ مُناسِبٍ للسِّياقِ، أي: فحمَلَتْ بعيسى وصدَّقَتْ[٤].

- قولُه: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ (مِن) للابتِداءِ، والمعْنى: أنَّها كانت سَليلةَ قومٍ صالحينَ، أي: فجاءتْ على طَريقةِ أُصولِها في الخيرِ والعَفافِ. ويجوزُ جعْلُ (مِن) للتَّبعيضِ، أي: هي بَعضُ مَن قَنَتَ للهِ. وغُلِّبَت صِيغةُ جمْعِ الذُّكورِ، ولم يُقَلْ: مِن القانتاتِ، جرْيًا على طَريقةِ التَّغليبِ، لإطباقِ أهلِ اللِّسانِ العَربيِّ على تغليبِ الذَّكَرِ على الأُنثى في الجَمعِ، وهو مِن تَخريجِ الكلامِ على خِلافِ مُقتضَى الظَّاهِرِ، ونُكْتَتُه هنا الإشارةُ إلى أنَّها في عِدادِ أهلِ الإكثارِ مِنَ العبادةِ، وأنَّ طاعتَها لم تَقْصُرْ عن طاعةِ الرِّجالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٣).

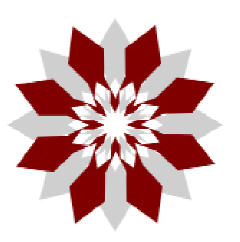
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٨).

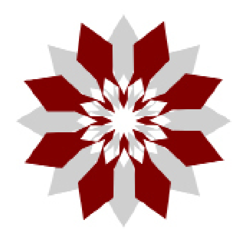
(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٣).

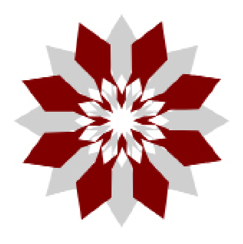
الكامِلينَ حتَّى عُدَّتْ مِن جملتِهِم، وأنَّ شأنَ ذلكَ أنْ يكونَ للرِّجالِ؛ لأنَّ نساءَ بَنِي إسرائيلَ كُنَّ مَعْفِيَّاتٍ مِن عِباداتٍ كثيرةٍ، وأيضًا لِرعايةِ الفواصلِ[(١)].



(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٤، ٥٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٦١)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٣).



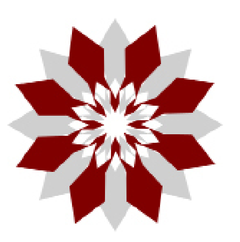


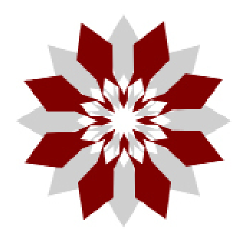


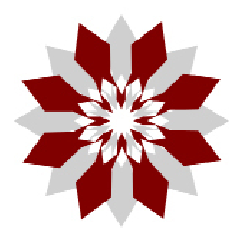


تَفْسِيرُ

سُورَةِ المُلْكِ







سورةُ المُلْكِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بعِدَّةِ أسماءٍ؛ منها:

١- سُورةُ المُلْكِ[1]: فعن ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: (يُؤتَى الرَّجُلُ في قبرِه فتُؤتَى رِجْلاه فتقولُ رِجْلاه: ليس لكم على ما قِبَلي سبيلٌ؛ كان يقومُ يقرأُ بي سورةَ المُلْكِ...)[2].

٢- سُورةُ ﴿تَبَٰرَكَ﴾: فعن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((سورةُ ﴿تَبَٰرَكَ﴾ هي المانِعةُ مِن عذابِ القَبْرِ))[3].

---

(١) سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بذلك؛ لِمُفتَتَحِها به في قَولِه تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٧٣).

قال ابن عاشور: (الشَّائِعُ في كُتُبِ السُّنَّةِ وكُتُبِ التَّفسيرِ وفي أكثرِ المصاحفِ تَسْميةُ هذه السُّورةِ «سورةَ المُلْكِ»). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦).

(٢) أخرجه الطَّبَرانيُّ (٩/ ١٤١) (٨٦٥١)، والحاكمُ (٣٨٣٩) واللَّفظُ له، وأبو نُعَيمٍ في ((حلية الأولياء)) (٧/ ٢٤٨).

صحَّح إسنادَه الحاكمُ، وحسَّن الأثرَ الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب والترهيب)) (١٤٧٥)، وحسَّن سندَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٣/ ٣٥٤)، وفي تحقيق ((صحيح ابن حبان)) (٣/ ٦٨).

قال شعيبٌ الأرناؤوط: (مِثلُ هذا لا يُقالُ مِن قِبَلِ الرَّأيِ، فيَكونُ له حُكمُ الرَّفعِ). تحقيق ((صحيح ابن حبان)) (٣/ ٦٨).

(٣) أخرجه أبو الشَّيخِ في ((طبقات المحَدِّثين)) (٤/ ١١)، والشَّجَريُّ، كما في ((ترتيب الأمالي)) (٥٦٩).

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٣٦٤٣)، وحسَّن سندَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٣/ ٦٨).

٣- سُورةُ ﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[١]: فعن أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ سورةً مِن القُرآنِ ثلاثونَ آيةً، شفعتْ لرجُلٍ حتَّى غُفِر له، وهي سورةُ ﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾))[٢].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

عن ابنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه، قال: (يُؤْتَى الرَّجُلُ في قبرِه، فتُؤتى رِجْلاه فتقولُ رِجْلاه: ليس لكم على ما قِبَلي سبيلٌ؛ كان يقومُ يقرأُ بي سورةَ المُلكِ، ثمَّ يُؤتَى مِن قِبَلِ صدرِه أو قال بَطنِه، فيقولُ: ليس لكم على ما قِبَلي سبيلٌ؛ كان يقرأُ بي سورةَ الملكِ، ثمَّ يؤتَى رأسُه فيقولُ: ليس لكم على ما قِبَلي سبيلٌ؛ كان يقرأُ بي سورةَ الملكِ، قال: فهي المانِعةُ؛ تمنعُ مِن عذابِ القبرِ، وهي في التَّوراةِ سورةُ الملكِ، ومَن قرأها في ليلةٍ فقد أكثَرَ وأطنَبَ)[٣].

وعن ابنِ مَسعودٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((سورةُ ﴿تَبَـٰرَكَ﴾ هي المانِعةُ مِن عذابِ القَبرِ))[٤].

وعن أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ

---

(١) قال ابن عاشور: (فهذا تسميةٌ للسُّورةِ بأوَّلِ جُمْلةٍ وَقَعتْ فيها، فتكونُ تَسْميةً بجُملةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥).

وسُمِّيَتِ السُّورةُ بغيرِ ذلك. يُنظر: ((جمال القراء وكمال الإقراء)) لأبي الحسن السخاوي (ص: ٩٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٧٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦).

(٢) أخرجه أبو داودَ (١٤٠٠)، والترمذيُّ (٢٨٩١)، وأحمدُ (٧٩٧٥).

قال الترمذي: (حسَنٌ)، وحسَّنه لغيرِه الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (١٤٧٤)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٣/ ٣٥٣).

(٣) تقدَّم تخريجُه (ص: ٢٢٣).

(٤) تقدَّم تخريجُه (ص: ٢٢٣).

سورةً مِن القُرآنِ ثلاثونَ آيةً شفعتْ لِرَجُلٍ حتَّى غُفِر له، وهي سورةُ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ ﴾))[1].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ المُلْكِ مَكِّيَّةٌ[2]، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[3].

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ مَقاصِدِ السُّورة:

بيانُ عَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وكَمالِ مُلْكِه الدَّالِّ على وَحدانيَّتِه[4].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- التَّعريفُ بعَظَمةِ اللهِ تعالى، وانفرادِه بالمُلْكِ، وقُدرتِه على كُلِّ شَيءٍ.

٢- بيانُ الحِكمةِ مِن خَلْقِ الموتِ والحياةِ.

٣- ذِكرُ بَعضِ مَظاهِرِ قُدرتِه سُبحانَه، وانفرادِه بخَلْقِ العوالِمِ العُلْيا خَلْقًا بالِغًا غايةَ الإتقانِ.

٤- بيانُ سُوءِ عاقِبةِ الكافِرينَ وما أعَدَّه اللهُ لهم مِن عذابٍ، وبيانُ حُسنِ عاقبةِ

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٨)، ((التحصيل)) للمهدوي (٦/ ٤٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٤).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطية، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبِقاعي (٣/ ١٠٣)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٦).

المؤمِنينَ.

٥- بيانُ سَعةِ عِلمِ اللهِ تعالى وأنَّه لا يخفى عليه شَيءٌ، سواءٌ كان سرًّا أو علانيةً.

٦- التَّذكيرُ بمِنَّةِ خَلْقِ هذه الأرضِ، وجَعْلِها مُلائِمةً لحياةِ النَّاسِ، وأمْرُهم بالسَّعيِ فيها، والانتِفاعِ بما فيها مِن وُجوهِ النِّعَمِ.

٧- التَّحذيرُ مِن بَطشِ اللهِ وعِقابِه، والتَّذكيرُ بما جرى للكافِرينَ السَّابِقينَ.

٨- الدَّعوةُ إلى التَّأمُّلِ والتَّفكُّرِ في مَشهدِ الطَّيرِ صافَّاتٍ في الجَوِّ، وفي أحوالِ أنفُسِهم، وأنَّه لا ناصِرَ مِن دونِ اللهِ، وأنَّه إنْ أمْسَكَ رِزقَه فلا رازِقَ لهم غَيرُه سُبحانَه وتعالى.

٩- ضَربُ المثَلِ لأهلِ الإيمانِ وأهلِ الكُفرِ، وأهلِ الحَقِّ وأهلِ الباطِلِ.

١٠- توبيخُ المُشرِكينَ على كُفْرِهم نِعمةَ اللهِ تعالى، واستِخفافِهم بوَعيدِه، وأمْرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُذَكِّرَهم بنِعَمِ اللهِ عليهم، وأن يَرُدَّ على شُبُهاتِهم وأكاذيبِهم بما يَدحَضُها، وأن يَكِلَ أمْرَه وأمْرَهم إليه وَحْدَه.



الآيات (١-٥)

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَبَٰرَكَ﴾: أي: تعاظَمَ وتقَدَّسَ، وكثُر خَيرُه، وعمَّ إحسانُه، مِن البَرَكةِ: وهي الزِّيادةُ والنَّماءُ، والكثرةُ والاتِّساعُ، وأصلُ (برك): ثَباتُ الشَّيءِ[(١)].

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: أي: لِيَختَبِرَكم ويَمتحِنَكم، وأصلُه: يدُلُّ على الامتِحانِ والاختبارِ[(٢)].

﴿طِبَاقًا﴾: أي: مُتطابِقةً بَعضُها فوقَ بَعضٍ، والمُطابَقةُ: أن تَجعَلَ الشَّيءَ فوقَ آخَرَ بقَدْرِه، وأصلُ (طبق): يدُلُّ على وَضعِ شَيءٍ مَبسوطٍ على مِثْلِه حتَّى يُغَطِّيَه[(٣)].

﴿تَفَٰوُتٍ﴾: أي: اضْطِرابٍ واختِلافٍ أو عَيبٍ، وتفاوَتَ الشَّيئانِ: تباعَدَ ما

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣١)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٨).

بيْنَهما، وأصلُه مِنَ «الفَوتِ» وهو: أن يَفوتَ شَيءٌ شيئًا، فيقَعَ الخَلَلُ[١].

﴿فُطُورٍ﴾: أي: صُدوعٍ وشُقوقٍ، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[٢].

﴿كَرَّتَيْنِ﴾: أي: رَجْعتَينِ؛ مرَّةً بعدَ أُخرى، وأصلُ (كرر): يدُلُّ على تَرديدٍ[٣].

﴿يَنقَلِبْ﴾: أي: يرجِعْ، وأصْلُ (قلب) هنا: صرْفُ الشَّيءِ عن وجْهٍ إلى وجْهٍ، أو ردُّه من جِهةٍ إلى جِهةٍ[٤].

﴿خَاسِئًا﴾: أي: صاغِرًا، ذَليلًا، مُبْعَدًا، لم يَرَ ما يَهْوَى، وأصلُ (خسأ): يدُلُّ على الطَّردِ والإبعادِ[٥].

﴿حَسِيرٌ﴾: أي: كَليلٌ، مُعْيٍ، مُنقَطِعٌ، لم يُدرِكْ ما طَلَب، وهو فَعيلٌ بمعنى فاعِلٍ، مِنَ الحُسورِ الَّذي هو الإعياءُ، يُقالُ: حَسَرَ بَصَرُه: إذا كَلَّ وانقَطَع، وذلك انْكِشافُ حالِه في قِلَّةِ بَصَرِه وضَعْفِه، وأصلُ (حسر): كَشْفُ الشيءِ[٦].

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٧)، ((مقاييس اللغة)) (٤/ ٤٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٢)، ((البسيط)) =

﴿رُجُومًا﴾: أي: يُرْجَمُ بها، والرُّجومُ جمعُ رَجْمٍ، وهو مصدرٌ سُمِّيَ به ما يُرجَمُ به، وأصلُ (رجم): يدُلُّ على رَميٍ بالحِجارةِ[1].

﴿ٱلسَّعِيرِ﴾: هو اسْمٌ مِن أسماءِ جَهنَّمَ، يُقالُ: سَعرْتُ النَّارَ، إذا ألْهَبْتَها، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ الشَّيءِ واتِّقادِه وارتِفاعِه[2].

المعنى الإجماليُّ:

افتتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالثَّناءِ على ذاتِه قائِلًا: تعاظَمَ الله وكثُرَ خَيرُه الَّذي بيَدِه المُلْكُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

ثمَّ ذكر الله تعالى ما يدُلُّ على حِكمتِه، وشُمولِ قُدرتِه، فقال: الَّذي خَلَق الموتَ والحياةَ؛ لِيَختَبِرَكم -أيُّها النَّاسُ- فيَنظُرَ أيُّكم خيرٌ وأفضَلُ عَمَلًا، وهو الغالِبُ القاهِرُ، الغَفورُ لذُنوبِ عبادِه.

ثمَّ بيَّن سبحانَه مَظهَرًا آخَرَ مِن مَظاهِرِ قُدرتِه، فقال: هو الَّذي خَلَق سَبْعَ سَمَواتٍ بَعضُها فوقَ بَعضٍ، لا تَرى في خَلْقِ السَّمَواتِ الَّتي أبدَعَها الرَّحمنُ مِن اختِلافٍ أو خَلَلٍ، فأعِدْ بَصَرَك إلى السَّماءِ مُتأمِّلًا فيها، فهل ترى فيها مِن شُقوقٍ أو صُدوعٍ؟! ثمَّ كرِّرِ النَّظَرَ إلى السَّماءِ مَرَّةً بَعْدَ أُخرى، يَرجِعْ إليك بَصَرُك صاغِرًا ذليلًا قد بلَغَ الغايةَ في التَّعَبِ والإعياءِ.

ثمَّ ذكَر تعالى أدِلَّةً أخرَى على وحدانيَّتِه وقُدرتِه، فقال: ولقد زَيَّنَّا السَّماءَ

= للواحدي (٢٢/ ٤٥)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٧٢).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

القَريبةَ للأرضِ بنُجوم مُضيئةٍ، وجعَلْنا تلك النُّجومَ رُجومًا للشَّياطينِ الَّتي تَسترِقُ السَّمْعَ، وأعدَدْنا لهم في الآخِرةِ أشَدَّ الحَريقِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾.

﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾.

أي: تعاظَمَ وكثُرَ خيرُ اللهِ الَّذي بيَدِه مُلْكُ العالَمِ أجمَعَ؛ فهو وَحْدَه مَن يتصَرَّفُ فيه كيفَ يَشاءُ بما يَشاءُ[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الزخرف: ٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَدُ اللهِ مَلْأى لا تَغيضُها[2] نفَقةٌ، سَحَّاءُ[3] اللَّيلَ والنَّهارَ، أرَأيْتُم ما أنفَقَ مُنذُ خَلَقَ السَّماءَ والأرضَ؟! فإنَّه لم يَغِضْ ما في يَدِه، وكان عَرشُه على الماءِ، وبيَدِه الميزانُ، يَخفِضُ ويَرفَعُ))[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

(٢) لا تَغيضُها: أي: لا تَنقُصُها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ١٦٦).

(٣) سَحَّاءُ: أي: دائِمةُ الصَّبِّ والهَطْلِ بالعَطاءِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (١٠/ ٣٨٦).

(٤) رواه البخاريُّ (٤٦٨٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٩٩٣).

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه ذو القُدرةِ التَّامَّةِ البالِغةِ على فِعلِ كُلِّ شَيءٍ، فلا يَمنَعُه أو يُعجِزُه شَيءٌ[(١)].

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ (٢)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها شُروعٌ في تَفصيلِ بَعضِ أحكامِ المُلكِ وآثارِ القُدرةِ، وبَيانِ ابتنائِهما على قَوانينِ الحِكَمِ والمَصالحِ، واستِتباعِهما لغاياتٍ جَليلةٍ[(٢)].

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾.

أي: هو الَّذي خلَقَ موتَ الخَلْقِ وحياتَهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٤).

قال مقاتلُ بنُ سُليمانَ: (فيُميتُ الأحياءَ، ويُحيي المَوتى مِن نُطْفةٍ، ثمَّ عَلَقةٍ، ثمَّ يَنفُخُ فيه الرُّوحَ فيَصيرُ حيًّا). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٨٩).

وقال ابن جرير: (فأماتَ مَن شاء وما شاء، وأحيا مَنْ أراد وما أراد إلى أجَلٍ معلومٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٨).

وقال ابن كثير: (معنى الآية: أنَّه أوجَد الخلائقَ من العدَم؛ ليَبلُوَهم ويَختبِرَهم أيُّهم أحسَنُ عمَلًا؟ كما قال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، فسَمَّى الحالَ الأوَّلَ -وهو العدَمُ- موتًا، وسمَّى هذه النَّشأةَ حياةً؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٦).

وقال الزمخشريُّ، والنَّسَفيُّ، وأبو حيَّانَ، والألوسيُّ: خَلَق مَوْتَكم وحَياتَكم أيُّها المكلَّفونَ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٦). =

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

أي: لِيَختَبِرَكم -أيُّها النَّاسُ- بالأوامِرِ والنَّواهي والشَّهَواتِ والمصائِبِ، فيَنظُرَ أيُّكم خيرٌ وأفضَلُ عَمَلًا -وذلك أخْلَصُه للهِ تعالى، وأصْوَبُه بأدائِه وَفْقَ شَرْعِه-، ثمَّ يُجازيَكم على أعمالِكم(١).

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧، ٨].

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.

أي: وهو الغالِبُ الَّذي لا يُغلَبُ، المَنيعُ الجَنابِ، القاهِرُ لجَميعِ المخلوقاتِ، الغَفورُ لذُنوبِ عبادِه، فيَستُرُها عليهم، ويَقيهم عُقوبتَها(٢).

= وقال السعدي: (و﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ أي: قدَّر لعِبادِه أن يُحيِيَهم ثمَّ يُميتَهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

وقال البيضاوي: (﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ قدَّرهما، أو أوجَد الحياةَ وأزالَها حسبَما قدَّره). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٨).

وقال البِقاعي: (﴿الَّذِي خَلَقَ﴾ أي: قدَّر وأوجَد). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢١٩).

وقال القرطبي: (قال العُلَماءُ: الموتُ ليس بعَدَمٍ مَحضٍ، ولا فَناءٍ صِرفٍ، وإنَّما هو انقطاعُ تعَلُّقِ الرُّوحِ بالبَدَنِ، ومُفارقتُه، وحَيلولةٌ بيْنَهما، وتبَدُّلُ حالٍ، وانتِقالٌ مِن دارٍ إلى دارٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٢٠، ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير))

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ كَوْنَ اللهِ عَزيزًا غَفورًا لا يَتِمُّ إلَّا بَعْدَ كَونِه قادِرًا على كُلِّ المقدوراتِ، عالِمًا بكُلِّ المعلوماتِ، أمَّا أنَّه لا بُدَّ مِن القُدرةِ التَّامَّةِ؛ فمِن أجْلِ أن يتمكَّنَ مِن إيصالِ جزاءِ كُلِّ أحدٍ بتَمامِه إليه، سواءٌ كان عِقابًا أو ثوابًا، وأمَّا أنَّه لا بُدَّ مِن العِلمِ التَّامِّ؛ فمِن أجْلِ أن يَعلَمَ أنَّ المطيعَ مَن هو، والعاصيَ مَن هو، فلا يقَعَ الخطَأُ في إيصالِ الحَقِّ إلى مُستحِقِّه، فثَبَت أنَّ كَونَه عزيزًا غَفورًا لا يمكِنُ ثُبوتُها إلَّا بعْدَ ثُبوتِ القُدرةِ التَّامَّةِ والعِلمِ التَّامِّ؛ فلهذا السَّبَبِ ذَكَر اللهُ الدَّليلَ على ثُبوتِ هاتَينِ الصِّفَتَينِ في هذا المقامِ، ولَمَّا كان العِلمُ بكَونِه تعالى قادِرًا: متقَدِّمًا على العِلمِ بكَونِه عالِمًا؛ لا جَرَمَ ذَكَر أوَّلًا دلائِلَ القُدرةِ، وثانيًا دلائِلَ العِلمِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا أثبَتَ اللهُ سُبحانَه لنَفْسِه صِفتَيِ العِزِّ والغَفْرِ على أبلَغِ ما يكونُ؛ دَلَّ على ذلك بقَولِه[(٢)]:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ﴾.

أي: هو الَّذي خَلَق سَبْعَ سَمَواتٍ بَعضُها فوقَ بَعضٍ[(٣)].

(٨/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥، ١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

قال الماوَرْدي: (﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ﴾ فيه وَجهانِ: =

كما قال تعالى حِكايةً عن قَولِ نُوحٍ عليه السَّلامُ لِقَومِه المُشرِكينَ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥].

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾.

= أحَدُهما: أي: مُتَّفِقٌ مُتشابِهٌ، مأخوذٌ مِن قَولِهم: هذا مُطابِقٌ لهذا، أي: شَبيهٌ له. قاله ابنُ بحرٍ.

الثَّاني: يعني: بَعضُهنَّ فَوقَ بَعضٍ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٥٠، ٥١).

قال ابن جُزَي: (الطِّباقُ مصدرٌ وُصِفَتْ به السَّمواتُ، أو على حذفِ مُضافٍ تقديرُه: ذواتِ طِباقٍ. وقيل: إنَّه جمعُ طبقةٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٤).

وقال ابنُ عاشور: (الطِّباقُ يجوزُ أن يكونَ مَصدَرَ «طابَقَ»، وُصِفَت به السَّمَواتُ للمُبالغة، أي: شديدةَ المطابقةِ، أي: مُناسَبة بَعضِها لبعضٍ في النِّظامِ. ويجوزُ أن تكونَ ﴿طِبَاقًا﴾ جمْعَ طَبَقٍ، والطَّبَقُ: المُساوي في حالةٍ ما، ومنه قَولُهم في المثَلِ: «وافَقَ شَنٌّ طَبَقَه». والمعنى: أنَّها مُرتفِعٌ بَعضُها فوقَ بعضٍ في الفَضاءِ السَّحيقِ، أو المعنى: أنَّها مُتماثِلةٌ في بعضِ الصِّفاتِ...، وليس في قَولِه: ﴿طِبَاقًا﴾ ما يقتضي أنَّ بَعضَها مظروفٌ لبعضٍ؛ لأنَّ ذلك ليس مِن مُفادِ مادَّةِ الطِّباقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦، ١٧).

وقال ابن جرير: (﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ طَبَقًا فوقَ طبَقٍ، بعضُها فوقَ بعضٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٩).

وقال ابن كثير: (قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي: طبَقةً بعْدَ طبَقةٍ، وهل هنَّ مُتَواصِلاتٌ -بمعنى: أنَّهُنَّ علويَّاتٌ بَعضُهُنَّ على بعضٍ- أو مُتفاصِلاتٌ بيْنَهنَّ خَلاءٌ؟ فيه قَولانِ، أصَحُّهما الثَّاني، كما دلَّ على ذلك حديثُ الإسراءِ وغيرُه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٦). ويُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ٣٩).

وقال أبو السعود: (مُتطابِقةً بَعضُها فوقَ بَعضٍ). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٩).

وقال البِقاعي: (كُلُّ واحِدةٍ مِنها كأنَّها لشِدَّةِ مُطابَقتِها للأُخرى طالِبةٌ مُطابَقتَها بحيثُ يكونُ كُلُّ جزءٍ منها مُطابِقًا لجُزءٍ مِن الأخرى، ولا يكونُ جُزءٌ منها خارجًا عن ذلك). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢٢٣).

وقال ابن عادل: (لا خِلافَ في أنَّ السَّمَواتِ سَبْعٌ بَعضُها فَوقَ بَعضٍ، بدليلِ حديثِ الإسراءِ وغَيرِه). ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ١٨٠).

أي: لا ترى[١] في خَلْقِ السَّمَواتِ الَّتي أبدَعَها الرَّحمنُ مِن اختِلافٍ أو خَلَلٍ[٢]!

قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾.

أي: فأعِدْ بَصَرَك إلى السَّماءِ مُتأمِّلًا فيها، فهل ترى فيها أيَّ شُقوقٍ أو صُدوعٍ[٣]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾.

أي: ثمَّ كرِّرِ النَّظَرَ إلى السَّماءِ مَرَّةً بَعْدَ أُخرى[٤].

---

(١) قال الرازي: (الخِطابُ في قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ﴾ إمَّا للرَّسولِ، أو لكلِّ مُخاطَبٍ، وكذا القولُ في قولِه: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٧).
قال ابنُ جُزَي: (المعنى: أنَّ خِلقةَ السَّمَواتِ في غايةِ الإتقانِ... ولا شَكَّ أنَّ جَميعَ المخلوقاتِ مُتقَنةٌ، ولكِنْ تخصيصُ الآيةِ بخِلْقةِ السَّمَواتِ أظهَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٤). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٢٧، ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) =

﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.

أي: يَرجِعْ إليك بَصَرُك صاغِرًا ذليلًا؛ لعَجْزِه عن العُثورِ على أيِّ شُقوقٍ في السَّماءِ، والحالُ أنَّ بَصَرَك قد بلَغَ الغايةَ في التَّعَبِ، وانقطَع مِن الإعياءِ مِن كثرةِ تَكرارِ النَّظَرِ للبَحثِ عن أيِّ تصَدُّعاتٍ فيها[1]!

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا هو الدَّليلُ الثَّاني على كَونِ اللهِ تعالى قادِرًا عالِمًا؛ وذلك لأنَّ هذه الكواكِبَ -نَظَرًا إلى أنَّها مُحْدَثةٌ ومختصَّةٌ بمِقدارٍ خاصٍّ، ومَوضِعٍ مُعَيَّنٍ، وسَيرٍ مُعَيَّنٍ- تدُلُّ على أنَّ صانِعَها قادِرٌ، ونظرًا إلى كَونِها مُحكَمةً مُتقَنةً مُوافِقةً لِمَصالِحِ العبادِ

= (٢٩/ ١٩، ٢٠).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: كَثرةُ التَّكريرِ، أي: مرَّةً بعدَ أُخرى: الرَّازيُّ، وابنُ تيميَّةَ، وابنُ جُزَي، وابن القيم، والبِقاعي، وأبو السعود، والألوسي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٢) و(٣٢/ ٥٤٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩).

وقيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾: أي: مرَّتَينِ. وممَّن قال بهذا: الواحديُّ، وابنُ عطية، والنسفي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

مِن كَونِها زينةً لأهلِ الدُّنيا، وسببًا لانتفاعِهم بها، تدُلُّ على أنَّ صانِعَها عالِمٌ[١].

وأيضًا لَمَّا أخبَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى عن بديعِ هذا الخَلْقِ، ونَبَّه على بعضِ دقائِقِه، وأمَرَ بالإبصارِ وتكريرِه، وكان السَّامِعُ أوَّلَ ما يُصَوِّبُ نَظَرَه إلى السَّماءِ؛ لشَرَفِها، وغَريبِ صُنْعِها، وبديعِ وَضْعِها، ومَنيعِ رَفْعِها، فكان بحيثُ يُتوقَّعُ الإخبارُ عن هذه الزِّينةِ الَّتي رُصِّعَت بها- قال في جوابِ مَن توقَّعَه، مؤكِّدًا بالقَسَمِ، إعلامًا بأنَّه ينبغي أن يَبعُدَ العاقِلُ عن إنكارِ شَيءٍ ممَّا يُنسَبُ إلى صاحِبِ هذا الخَلْقِ من الكَمالِ، عاطِفًا على ما تقديرُه: لقد كفى هذا القَدْرُ في الدَّلالةِ على عَظَمةِ مُبدِعِ هذا الصُّنعِ وتمامِ قُدْرتِه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ﴾ الآيةَ[٢].

وأيضًا فقد انتقَلَ مِن دَلائلِ انتفاءِ الخَلَلِ عن خِلقةِ السَّمواتِ، إلى بَيانِ ما في إحدى السَّمواتِ مِن إتقانِ الصُّنعِ[٣]، فلَمَّا نفى عنها في خَلْقِها النَّقصَ، بيَّن كمالَها وزينتَها، فقال[٤]:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾.

أي: ولقد جمَّلْنا السَّماءَ القَريبةَ للأرضِ بنُجومٍ مُضيئةٍ[٥].

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾.

أي: ورجَمْنا بتلك النُّجومِ الشَّياطينَ الَّتي تَسترِقُ السَّمْعَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٢٩، ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ۞ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ۞ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۞ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ ۞ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۞ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۞ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ - ١٠].

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾.

= (٤/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٠، ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

قال الشوكاني: (الرُّجومُ: جمعُ رَجْم بالفتح، وهو في الأصلِ مصدرٌ أُطلِقَ على المَرجوم به، كما في قولِهم: الدِّرهمُ ضَربُ الأميرِ، أي: مَضروبُه. ويجوزُ أن يكونَ باقيًا على مَصدريَّتِه، ويُقدَّرَ مُضافٌ محذوفٌ، أي: ذاتَ رَجم، وجُمِع المصدرُ باعتبارِ أنواعِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٠).

وقال ابنُ كثير: (عاد الضَّميرُ في قَولِه: ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا﴾ على جِنسِ المصابيحِ لا على عَينِها؛ لأنَّه لا يُرمى بالكواكِبِ الَّتي في السَّماءِ، بل بشُهُبٍ مِن دُونِها، وقد تكونُ مُستمَدَّةً منها. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٧)، ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٧).

وقال الشوكاني: (﴿وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ أي: وجَعَلْنا المصابيحَ رُجومًا يُرْجَمُ بها الشَّياطينُ، وهذه فائدةٌ أخرَى غيرُ الفائدةِ الأولَى وهي كَونُها زينةً لِلسَّماءِ الدُّنيا... وقيل: إنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا﴾ راجعٌ إلى المصابيحِ على حذفِ مُضافٍ، أي: شُهُبِها، وهي نارُها المُقتبَسةُ منها، لا هي أنفُسُها؛ لقولِه: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠]، ووجْهُ هذا أنَّ المصابيحَ الَّتي زَيَّن اللهُ بها السَّماءَ الدُّنيا لا تَزولُ ولا يُرْجَمُ بها، كذا قال أبو عليٍّ الفارِسيُّ جوابًا لِمَن سأله: كيفَ تكونُ المصابيحُ زينةً وهي رُجومٌ؟...). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٠).
ويُنظر: ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي عليٍّ الفارسي (٥/ ٣٤٧).

وقال ابن عطيَّة: (﴿وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ معناه: وجعَلْنا منها، وهذا كما تقولُ: أكرمْتُ بني فُلانٍ، وصنعتُ بهم، وأنتَ إنَّما فعلتَ ذلك ببعضِهم دونَ بعضٍ، ويُوجِبُ هذا التَّأويلَ في الآيةِ أنَّ الكواكبَ الثَّابتةَ والبُروجَ، وكلَّ ما يُهتدى به في البَرِّ والبحرِ فليست بِرَواجِمَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٥).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سورةِ الصَّافاتِ؛ الآيات (٧- ٩).

أي: وهيَّأْنا للشَّياطينِ في الآخِرةِ عذابَ النَّارِ، وأشَدَّ الحَريقِ[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ مَن تأمَّلَ الآيةَ عَرَف أنَّ الدُّنيا مزرعةٌ، وأنَّ الآخِرةَ مَحصَدةٌ، فيَصيرُ مِن نَفْسِه على بصيرةٍ، وثارت إرادتُه لِمَا خُلِقَ له؛ تارةً بالنَّظَرِ إلى جمالِ رَبِّه مِن حُسنٍ وإحسانٍ، وأُخرى إلى جلالِه مِن قُدرةٍ وإمكانٍ، وتارةً بالنَّظَرِ لنَفْسِه بالشَّفَقةِ عليها مِن خِزْيِ الحِرْمانِ، فيَجتَهِدُ في رِضا رَبِّه، وصَلاحِ نَفْسِه؛ خوفًا مِن عاقبةِ هذه البَلوى[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أنَّ تَرَقُّبَ الموتِ أكبرُ مَواعِظِ اللهِ جلَّ جلالُه، وأجدَرُ بالمعونةِ على العَمَلِ الصَّالحِ؛ إذ تَرَقُّبُه مُقَصِّرٌ للأمَلِ، ومُهَوِّنٌ مَضَضَ المصائبِ، ويُزَهِّدُ في شَهَواتِ النَّفْسِ إذا اتَّصَلَ[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أخلَصُه وأصوَبُه؛ فإنَّ اللهَ خَلَق عِبادَه، وأخرَجَهم لهذه الدَّارِ، وأخبَرَهم أنَّهم سيُنقَلونَ منها، وأمَرَهم ونَهاهم، وابتلاهم بالشَّهَواتِ المعارِضةِ لأمْرِه؛ فمَن انقاد لأمرِ اللهِ وأحسَنَ العَمَلَ، أحسَنَ اللهُ له الجزاءَ في الدَّارينِ، ومَن مال مع شَهَواتِ النَّفْسِ ونَبَذَ أمْرَ اللهِ، فله شَرُّ الجزاءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٢، ٢٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

٤- إنَّ جِماعَ الدِّينِ: ألَّا يَعبُدَ النَّاسُ إلَّا اللهَ، وأنْ يَعبُدوه بما شَرَع، لا يَعبُدوه بالبِدَعِ، كما قال الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ في قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: (أخلَصُه وأصوَبُه)، قالوا: يا أبا عَليٍّ، ما أخلَصُه، وما أصوَبُه؟ قال: (إنَّ العَمَلَ إذا كان خالِصًا ولم يكُنْ صَوابًا لم يُقبَلْ، وإذا كان صَوابًا ولم يكُنْ خالِصًا لم يُقبَلْ، حتَّى يكونَ خالِصًا صَوابًا، والخالِصُ: أنْ يكونَ للهِ، والصَّوابُ: أنْ يكونَ على السُّنَّةِ)[١]، فالعَمَلُ الأحسَنُ هو الأخلَصُ والأصوَبُ، وهو الموافِقُ لِمَرضاتِه تعالى ومحبَّتِه، دونَ الأكثَرِ الخالي مِن ذلك؛ فهو سُبحانَه وتعالى يحِبُّ أن يُتعَبَّدَ له بالأرضَى له وإن كان قليلًا، دونَ الأكثَرِ الَّذي لا يُرضِيه، والأكثَرِ الَّذي غيرُه أرضَى له منه؛ ولهذا يكونُ العَمَلانِ في الصُّورةِ واحِدًا، وبيْنَهما في الفَضلِ، بل بيْنَ قليلِ أحَدِهما وكثيرِ الآخَرِ في الفَضلِ: أعظَمُ مِمَّا بيْنَ السَّماءِ والأرضِ، ولهذا قال اللهُ تبارك وتعالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، فهو سُبحانَه وتعالى إنَّما خلَق السَّمواتِ والأرضَ والموتَ والحياةَ، وزيَّن الأرضَ بما عليها؛ لِيَبْلُوَ عبادَه أيُّهم أحسَنُ عملًا، لا أكثرُ عملًا[٢]، فالعِبرةُ بالأحسَنِ لا بالأكثَرِ[٣]. ولَمَّا كان الإحسانُ هو الَّذي خُلِقْنا مِن أجْلِه، أراد جِبريلُ أن يُنَبِّهَ الصَّحابةَ على الطَّريقِ إليه، فقال:

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٧/ ٤٣٠، ٤٣١).

وكلامُ الفُضَيلِ بنِ عياضٍ رواه ابن أبي الدُّنيا في ((الإخلاص والنية)) (٢٢)، وأبو نُعَيم في ((حلية الأولياء وطبقات الأصفياء)) (٨/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((المنار المُنيف)) لابن القيم (ص: ٣٠، ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٩).

((يا محمَّدُ، أخبِرْني عن الإحسانِ))، فبَيَّن له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ طريقَ الإحسانِ محصورةٌ في هذا الزَّاجِرِ الأكبَرِ، والواعِظِ الأعظَمِ، وهو أن يَعلَمَ العَبدُ الضَّعيفُ الذَّليلُ المِسكينُ أنَّ جَبَّارِ السَّمَواتِ والأرضِ مُطَّلِعٌ عليه، حاضِرٌ لا يَغيبُ عن شَيءٍ مِن فِعْلِه، يَعلَمُ كُلَّ ما يَفعَلُ؛ ولذا قال: ((الإحسانُ أنْ تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراه، فإنْ لم تكُنْ تَراه فإنَّه يَراكَ))[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فيه مِن التَّرغيبِ في التَّرقِّي إلى مَعارجِ العلومِ ومَدارِجِ الطَّاعاتِ، والزَّجرِ عن مُباشَرةِ نَقائِضِها؛ ما لا يَخْفى[٢].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ كلمةُ: ﴿تَبَارَكَ﴾ لاستِقلالِها بالدَّلالةِ على غايةِ الكمالِ، وإنبائِها عن نِهايةِ التَّعظيمِ، لم يَجُزِ استِعمالُها في حقِّ غَيرِه سُبحانَه[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ سُؤالٌ: أنَّ صِفةَ اليَدينِ للهِ سُبحانَه جاءتْ هنا على الإفرادِ، وجاءتْ أيضًا على التَّثنيةِ، كقَولِه تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وجاءتْ على الجَمعِ، كقَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ [يس: ٧١]، فما التَّوفيقُ بيْنَها؟

الجوابُ: أنَّ الوَجهَ الأوَّلَ مُفرَدٌ مُضافٌ، فيَشمَلُ كلَّ ما ثَبَتَ للهِ مِن يدٍ، ولا يُنافي الثِّنْتَينِ، وأمَّا الجَمْعُ فهو للتَّعظيمِ لا لحقيقةِ العَدَدِ الَّذي هو ثلاثةٌ فأكثَرُ،

(١) يُنظر: ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٣/ ٦٦).
والحديث أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٤٧٧٧) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٩) من حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢).

وحينَئذٍ لا يُنافي التَّثنيةَ.

على أنَّه قد قيل: إنَّ أقلَّ الجَمْعِ اثنانِ، فإذا حُمِلَ الجَمْعُ على أَقَلِّه فلا مُعارَضة بيْنَه وبيْنَ التَّثنيةِ أصلًا[1]. ثمَّ إنَّ المرادَ باليَدِ في قَولِه: ﴿عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ نفْسُ الذَّاتِ الَّتي لها يَدٌ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] أي: بما كَسَبوا، سواءٌ كان مِن كَسْبِ اليَدِ أو الرِّجْلِ أو اللِّسانِ أو غيرِها مِن أجزاءِ البَدَنِ، لكِنْ يُعَبَّرُ بمِثلِ هذا التَّعبيرِ عن الفاعِلِ نفْسِه؛ ولهذا نقولُ: إنَّ الأنعامَ الَّتي هي الإبِلُ لم يخلُقْها اللهُ تعالى بيَدِه، وفَرْقٌ بيْن قَولِه: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ وبيْن قَولِه: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]؛ فـ: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ كأنَّه قال: مِمَّا عَمِلْنا؛ لأنَّ المرادَ باليَدِ ذاتُ اللهِ الَّتي لها يدٌ، والمرادُ بـ ﴿بِيَدَيَّ﴾: اليدانِ دونَ الذَّاتِ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ إفرادُ اللهِ تعالى بالمُلْكِ، فالمالكُ المُلْكَ المُطلَقَ العامَّ الشَّامِلَ هو اللهُ سُبحانَه وتعالى وَحْدَه، وإنَّ نِسبةَ المُلْكِ إلى غَيرِه هي نِسبةٌ إضافيَّةٌ؛ فقد أثبَتَ اللهُ عزَّ وجلَّ لغيرِه المُلْكَ، كما في قَولِه تعالى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور: ٦١]، وقولِه: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ [المؤمنون: ٦] إلى غيرِ ذلك مِن النُّصوصِ الدَّالَّةِ على أنَّ لغيرِ اللهِ تعالى مُلْكًا، لكنَّ هذا المُلْكَ ليس كمُلْكِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فهو مُلْكٌ قاصِرٌ لا يَشْمَلُ؛ فالبَيتُ الَّذي لِزَيدٍ لا يَملِكُه عَمرٌو، والبَيتُ الَّذي لعمرٍو لا يَملِكُه زَيدٌ، ثُمَّ هذا المُلْكُ مُقَيَّدٌ بحيثُ لا يَتصَرَّفُ الإنسانُ فيما مَلَكَ إلَّا على الوجهِ الَّذي أَذِنَ اللهُ فيه؛ ولهذا نهى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن إضاعةِ المالِ[3]، وقال اللهُ

(١) يُنظر: ((تعليق مختصر على لمعة الاعتقاد)) لابن عثيمين (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٥٤).

(٣) أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٦٤٧٣)، ومسلمٌ (٥٩٣) مِن حديثِ المغيرةِ بنِ شُعبةَ رضيَ اللهُ عنه.

تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥]، أمَّا مُلْكُ اللهِ سُبحانَه وتعالى فهو مُلْكٌ عامٌّ شامِلٌ ومُلْكٌ مُطْلَقٌ، يَفعلُ اللهُ سُبحانَه وتعالى ما يَشاءُ، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[1] [الأنبياء: ٢٣].

٤- الموتُ صِفةٌ وُجوديَّةٌ، خِلافًا للفلاسِفةِ ومَن وافَقَهم؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، فأخبَر أنَّه خَلَق الموتَ كما خَلَق الحياةَ، والعدَمُ لا يُوصَفُ بكَونِه مَخلوقًا[2]، فمُفارَقةُ الرُّوحِ الجَسَدَ مَوتٌ، وليس عَدَمًا، بل مُفارَقةٌ تُفقَدُ بها الحياةُ[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أنَّ شرائِعَ اللهِ وأحكامَ اللهِ القَدَريَّةَ كلَّها: ابتِلاءٌ، أي: اختبارٌ، وليستِ ابتلاءً مِن البَلاءِ[4].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ «أحسَنُ»: اسمُ تفضيلٍ، وهذا دليلٌ على أنَّ الأعمالَ تتفاضَلُ بالحُسْنِ[5].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ فيه سؤالٌ: كيف يَنقَلِبُ البَصَرُ خاسِئًا حَسيرًا برَجْعِه كرَّتَينِ اثنتَينِ؟

الجوابُ: التَّثنيةُ للتَّكرارِ بكَثرةٍ، كقَولِهم: (لَبَّيك وسَعْدَيك)، يريدُ: إجاباتٍ مُتواليةً[6].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (١/ ٩٣). ويُنظر أيضًا: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٢/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٦٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٣).

٨- عن قَتادةَ، قال: (إنَّ اللهَ جَلَّ ثناؤه إنَّما خَلَق هذه النُّجومَ لثلاثِ خِصالٍ: خلَقَها زينةً للسَّماءِ الدُّنيا، ورُجومًا للشَّياطينِ، وعلاماتٍ يُهتدَى بها، فمَن يتأوَّلْ منها غيرَ ذلك فقد قال برأيِه، وأخطأَ حَظَّه، وأضاع نَصيبَه، وتكَلَّف ما لا عِلْمَ له به)[1].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ فيه سؤالٌ: إذا كان الجِنُّ مِن نارٍ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥]، فكيف تُحرِقُه النَّارُ؟

الجوابُ مِن وجهَينِ:

الأوَّلُ: أنَّ اللهَ تعالى أضاف الشَّياطينَ والجنَّ إلى النَّارِ حسَبَ ما أضاف الإنسانَ إلى التُّرابِ والطِّينِ والفَخَّارِ، والمرادُ به في حقِّ الانسانِ أنَّ أصْلَه الطِّينُ، وليس الآدميُّ طينًا حقيقةً، لكنَّه كان طينًا، كذلك الجانُّ كان نارًا في الأصلِ[2].

الثَّاني: أنَّ النَّارَ يكونُ بَعضُها أقوى مِن بَعضٍ، فالأقوى يُؤثِّرُ على الأضعَفِ، وممَّا يَشهَدُ له قَولُه تعالى بَعْدَه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]، والسَّعيرُ: أشَدُّ النَّارِ. ومعلومٌ أنَّ النَّارَ طَبَقاتٌ بَعضُها أشَدُّ مِن بَعضٍ، وهذا أمرٌ مَلموسٌ؛ فقد تكونُ الآلةُ مَصنوعةً مِن حَديدٍ، وتُسَلَّطُ عليها آلةٌ مِن حديدٍ أيضًا أقوى منها فتَكسِرُها. كما قيل: (لا يَفُلُّ الحديدَ إلَّا الحديدُ)، فلا يَمنَعُ كَونُ أصْلِه مِن نارٍ ألَّا يَتعذَّبَ بالنَّارِ، كما أنَّ أصلَ الإنسانِ مِن طِينٍ مِن حَمَإٍ مَسنونٍ، ومِن صَلصالٍ كالفَخَّارِ، وبَعْدَ خَلْقِه فإنَّه لا يَحتَمِلُ التعذيبَ بالصَّلصالِ ولا بالفخَّارِ؛

---

(١) علَّقه البخاريُّ في ((صحيحه)) (٤/ ١٠٧) بصيغةِ الجَزمِ، ورواه ابن جرير في ((تفسيره)) (٢٣/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((آكام المرجان في أحكام الجان)) للشبلي (ص: ٣١).

فقد يُقضَى عليه بضَربةٍ مِن قِطعةٍ مِن فَخَّارٍ[1]!

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ احتُجَّ به على أنَّ النَّارَ مَخلوقةٌ الآنَ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ إخبارٌ عن الماضي[2].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ابتُدِئَت السُّورةُ بتَعريفِ المؤمنينَ مَعانيَ مِن العِلمِ بعَظَمةِ اللهِ تعالَى، وتَفرُّدِه بالملْكِ الحقِّ، والنَّظَرِ في إتقانِ صُنعِه الدَّالِّ على تَفرُّدِه بالإلهيَّةِ، فبذلك يكونُ في تلك الآياتِ حَظٌّ لعِظَةِ المشرِكين[3].

- وفي افتتاحِ السُّورةِ بما افتُتِحتْ به بَراعةُ الاستهلالِ[4]، فقد افتُتِحَت بما يدُلُّ على مُنْتهى كَمالِ اللهِ تَعالى، افتتاحًا يُؤْذِنُ بأنَّ ما حَوَتْه يَحومُ حولَ تَنزيهِ اللهِ تعالَى عن النَّقصِ الَّذي افتراهُ المشرِكون لَمَّا نَسَبوا إليه شُركاءَ في الرُّبوبيَّةِ

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٣١، ٢٣٢). وينظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧).

(٤) براعةُ الاستهلالِ: هي كَونُ ابتداءِ الكلامِ مُناسِبًا للمقصودِ، وأنْ يكونَ أوَّلُ الكلامِ دالًّا على ما يُناسِبُ حالَ المتكلِّمِ، مُتضمِّنًا لِمَا سِيقَ الكلامُ مِن أجْلِه من غيرِ تصريحٍ، بلْ بألْطَفِ إشارةٍ يُدرِكُها الذَّوقُ السَّليمُ، ومِن أحسَنِ صُوَرِ براعةِ الاستهلالِ مَوقِعًا، وأبلَغِها معنًى: فواتحُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ، ومنها الحُروفُ المقطَّعةُ؛ فإنَّها تُوقِظُ السَّامِعينَ للإصغاءِ إلى ما يَرِدُ بعدَها؛ لأنَّهم إذا سمِعوها مِن النَّبيِّ الأُمِّيِّ علِموا أنَّها والمَتْلوَّ بعدَها من جِهةِ الوحيِ، وفيها تنبيهٌ على أنَّ المتلوَّ عليهم مِن جِنسِ ما يَنظِمونَ منه كلامَهم، مع عجْزِهم عن أنْ يأتوا بمِثلِه. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٤٥)، ((الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم)) لعصام الدين الحنفي (١/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٢)، ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لابن معصوم (١/ ٥٣)، ((علوم البلاغة)) لأحمد المراغي (ص: ٣٧٨).

والتَّصرُّفِ معه، والتَّعطيلِ لبَعضِ مُرادِه[١].

- وهذا الكلامُ يَجوزُ أنْ يكونَ مُرادًا به مُجرَّدُ الإخبارِ عن عَظَمةِ اللهِ تعالَى وكَمالِه، ويَجوزُ أنْ يكونَ مع ذلك إنشاءُ ثَناءٍ على اللهِ أثناهُ على نفْسِه، وتَعليمًا للنَّاسِ كيف يُثْنون على اللهِ ويَحمَدونه؛ إمَّا على وَجْهِ الكِنايةِ بالجُملةِ عن إنشاءِ الثَّناءِ، وإمَّا باستعمالِ الصِّيغةِ المشتركةِ بيْن الإخبارِ والإنشاءِ في مَعنيَيها، ولو صِيغَ بغَيرِ هذا الأُسلوبِ لَما احتَمَلَ هذَينِ المعْنيَينِ[٢].

- قولُه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ - وإسنادُ ﴿تَبَٰرَكَ﴾ إلى المَوصولِ؛ للاستِشهادِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ على تَحقُّقِ مَضمونِها[٣].

وجُعِلَ المسنَدُ إليه اسمَ مَوصولٍ؛ للإيذانِ بأنَّ معْنى الصِّلةِ ممَّا اشتُهِرَ به -كما هو غالبُ أحوالِ الموصولِ-، فصارتِ الصِّلةُ مُغْنيةً عن الاسمِ العَلَمِ؛ لاستِوائِهما في الاختِصاصِ به؛ إذ يَعلَمُ كلُّ أحدٍ أنَّ الاختِصاصَ بالمُلْكِ الكاملِ المطلَقِ ليس إلَّا للهِ[٤].

- وتَقديمُ المسنَدِ -وهو ﴿بِيَدِهِ﴾- على المسنَدِ إليه ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾؛ لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: المُلْكُ بيَدِه لا بيَدِ غيرِه. وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٥] مَبنيٌّ على عدَمِ الاعتدادِ بمُلْكِ غيرِه، ولا بما يَتراءى مِن إعطاءِ الخلفاءِ والملوكِ الأصقاعَ للأمراءِ والسَّلاطينِ ووُلاةِ العهدِ؛ لأنَّ كلَّ ذلك مُلكٌ غيرُ تامٍّ؛ لأنَّه لا يَعُمُّ المملوكاتِ كلَّها، ولأنَّه مُعرَّضٌ للزَّوالِ، ومُلكُ اللهِ هو الملكُ الحقيقيُّ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩٢).

قال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه: ١١٤]، فالنَّاسُ يَتوهَّمون أمثالَ ذلك مُلْكًا، وليس كما يَتوهَّمون[١].

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ الَّتي هي صِلةُ الموصولِ، وهي تَعميمٌ بعْدَ تَخصيصٍ؛ لتَكميلِ المقصودِ مِن الصِّلةِ؛ إذ أفادتِ الصِّلةُ عُمومَ تَصرُّفِه في الموجوداتِ، وأفادتْ هذه عُمومَ تَصرُّفِه في الموجوداتِ والمعدوماتِ؛ بالإعدامِ للموجوداتِ، والإيجادِ للمعدوماتِ، فيكونُ قولُه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مُفيدًا مَعنًى آخَرَ غيرَ ما أفادَهُ قولُه: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، تَفاديًا من أنْ يكونَ معْناه تأْكيدًا لمعْنى ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، وتكونُ هذه الجُملةُ تَتميمًا للصِّلةِ وفي معْنى صِلةٍ ثانيةٍ، ثمَّ عُطِفَت ولم يُكرَّرْ فيها اسمُ مَوصولٍ، بخِلافِ قولِه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾ [الملك: ٢]، وقولِه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾[٢] [الملك: ٣].

- وتَقديمُ المجرورِ في قولِه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ للاهتمامِ بما فيه من التَّعميمِ، ولإبطالِ دَعوى المشرِكين نِسبتَهم الإلهيَّةَ لأصنامِهم مع اعترافِهم بأنَّها لا تَقدِرُ على خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، ولا على الإحياءِ والإماتةِ[٣].

٢- قوله تعالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ صِفةٌ لقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠).
ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٢٦، ٥٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١).

[الملك: ١]، فلمَّا شَمِلَ قولُه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١] تَعلُّقَ القُدرةِ بالموجودِ والمعدومِ؛ أُتبِعَ بوَصْفِه تعالَى بالتَّصرُّفِ الَّذي منه خلْقُ المخلوقاتِ وأعراضِها؛ لأنَّ الخلْقَ أعظَمُ تَعلُّقِ القدرةِ بالمَقدورِ؛ لِدَلالتِه على صِفةِ القدْرةِ وعلى صِفةِ العِلمِ[1].

- وأُوثِرَ بالذِّكرِ مِن المخلوقاتِ الموتُ والحياةُ؛ لأنَّهما أعظَمُ العوارضِ لِجنسِ الحيوانِ الَّذي هو أعجَبُ الموجودِ على الأرضِ، والَّذي الإنسانُ نوعٌ منه، وهو المقصودُ بالمخاطَبةِ بالشَّرائعِ والمواعظِ، فالإماتةُ تَصرُّفٌ في الموجودِ بإعدادِه للفَناءِ، والإحياءُ تَصرُّفٌ في المعدومِ بإيجادِه، ثمَّ إعطائِه الحياةَ لِيَستكمِلَ وُجودَ نَوعِه، فليس ذِكرُ خلْقِ الموتِ والحياةِ تَفصيلًا لمعْنى الملْكِ، بلْ هو وصْفٌ مُستقِلٌّ. والاقتصارُ على خلْقِ الموتِ والحياةِ؛ لأنَّهما حالتانِ هما مَظهَرَا تَعلُّقِ القدرةِ بالمقدورِ في الذَّاتِ والعرَضِ؛ لأنَّ الموتَ والحياةَ عرَضانِ، والإنسانُ مَعروضٌ لهما، والعرَضُ لا يَقومُ بنفْسِه، فلمَّا ذُكِرَ خلْقُ العرَضِ عُلِمَ مِن ذِكرِه خلْقُ مَعروضِه بدَلالةِ الاقتضاءِ[2].

- وأُوثِرَ ذِكرُ الموتِ والحياةِ لِما يَدُلَّانِ عليه مِن العِبرةِ بتَداوُلِ العرَضينِ المُتضادَّينِ على مَعروضٍ واحدٍ، وللدَّلالةِ على كَمالِ صُنْعِ الصَّانعِ؛ فالموتُ والحياةُ عرَضانِ يَعرِضانِ للموجودِ مِن الحيوانِ، والموتُ يُعِدُّ الموجودَ للفناءِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ودَلالةُ الاقتِضاءِ: هي دَلالةُ اللَّفظِ على مقصودٍ محذوفٍ لا بدَّ مِن تقديرِه؛ لتوقُّفِ الصِّدقِ أو الصِّحَّةِ عليه. يُنظر: ((إجابة السائل شرح بغية الآمل)) لابن الأمير (ص: ٣٥٥)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

والحياةُ تُعِدُّ الموجودَ للعمَلِ للبقاءِ مُدَّةً[١].

- وفي ذِكرِ الموتِ والحياةِ تَخلُّصٌ إلى ما يَترتَّبُ عليهما مِن الآثارِ، الَّتي أعظَمُها العملُ في الحياةِ، والجزاءُ عليه بعْدَ الموتِ، وذلك ما تَضمَّنَه قولُه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ فإنَّ معْنى الابتلاءِ مُشعِرٌ بتَرتُّبِ أثَرٍ له، وهو الجزاءُ على العمَلِ؛ للتَّذكيرِ بحِكمةِ جَعْلِ هذَينِ النَّاموسَينِ البَديعَينِ في الحيوانِ؛ لتَظهَرَ حِكمةُ خلْقِ الإنسانِ، ويُفْضِيَا به إلى الوجودِ الخالدِ[٢].

- وقُدِّمَ الموتُ على الحياةِ؛ لأنَّ الموتَ أقْوى الدَّواعي إلى العمَلِ، فقُدِّمَ ليَتبيَّنَ أنَّ الَّذي سِيقَ له الآيةُ البعثُ على العمَلِ، والإخلاصُ فيه، وتَحرِّي الصَّوابِ له[٣]. أو قُدِّمَ الموتُ؛ لأنَّه هو المخلوقُ أوَّلًا؛ لقولِه تعالَى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨][٤]. أو قُدِّمَ الموتُ؛ لأنَّه أهيَبُ في النُّفوسِ[٥]. أو: قدَّم الموتَ على الحياةِ؛ لأنَّ الموتَ إلى القَهرِ أقرَبُ[٦].

- قولُه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ هذا التَّعليلُ مِن قَبيلِ الإدماجِ[٧]، وفيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢، ٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٦).

(٧) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ =

استدلالٌ على الوَحدانيَّةِ بدَلالةٍ في أنفُسِهم، قال تعالَى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، والمعْنى: أنَّه خلَقَ الموتَ والحياةَ؛ ليكونَ منكم أحياءٌ يَعمَلونَ الصَّالحاتِ والسَّيِّئاتِ، ثمَّ أمواتًا يَخلُصونَ إلى يومِ الجزاءِ، فيُجْزَونَ على أعمالِهم بما يُناسِبُها؛ فالتَّعريفُ في ﴿ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ تَعريفُ الجنسِ، وفي الكلامِ تَقديرٌ: هو الَّذي خلَقَ الموتَ والحياةَ لتَحْيَوا، فيَبْلُوَكم أيُّكم أحسَنُ عملًا، وتَموتوا فتُجْزَوا على حسَبِ تلك البَلْوى، ولِكَونِ هذا هو المقصودَ الأهمَّ مِن هذا الكلامِ قُدِّمَ الموتُ على الحياةِ[١].

- قولُه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ اللَّامُ مُتعلِّقةٌ بـ﴿خَلَقَ﴾، أي: خَلَق مَوتَكم وحياتَكم... على أنَّ الألِفَ واللَّامَ -في ﴿ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾- عِوَضٌ عن المضافِ إليه[٢].

- وجُملةُ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ إلى آخِرِها، مُعترِضةٌ بيْن الموصولَينِ، واللَّامُ في ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ لامُ التَّعليلِ، أي: في خلْقِ الموتِ والحياةِ حِكمةُ أنْ يَبْلوَكم، فقولُه تعالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ تَعليلٌ لِفعلِ ﴿خَلَقَ﴾ باعتبارِ المعطوفِ على

= بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه تعالى بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٤٩)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٤٨٤)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣).

مَفعولِه، وهو ﴿وَٱلْحَيَوٰةَ﴾؛ لأنَّ حياةَ الإنسانِ حياةٌ خاصَّةٌ تُصحِّحُ للمَوصوفِ بمَن قامتْ به الإدراكَ الخاصَّ الَّذي يَندفِعُ به إلى العمَلِ باختيارِه، وذلك العمَلُ هو الَّذي يُوصَفُ بالحُسنِ والقبْحِ، وهو ما دلَّ عليه بالمنطوقِ والمفهومِ قولُه تعالَى: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي: وأيُّكم أقبَحُ عملًا، ولذلك فذِكْرُ خلْقِ الموتِ إتمامٌ للاستدلالِ على دَقيقِ الصُّنعِ الإلهيِّ، وهو المسوقُ له الكلامُ، وذِكرُ خلْقِ الحياةِ إدماجٌ للتَّذكيرِ[١].

- وجُملةُ ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ مُستأنَفةً، فيُوقَفَ على قولِه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾، ويكونَ الاستفهامُ مُستعمَلًا في التَّحضيضِ على حُسْنِ العمَلِ[٢].

- قولُه: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ إيرادُ صِيغةِ التَّفضيلِ معَ أنَّ الابتلاءَ شاملٌ لهم باعتبارِ أعمالِهم المنقسمةِ إلى الحسَنِ والأحسنِ فقطْ؛ للإيذانِ بأنَّ المرادَ بالذَّاتِ والمَقصدَ الأصليَّ مِن الابتلاءِ هو ظُهورُ كَمالِ إحسانِ المحسنينَ[٣].

- وقولُه: ﴿أَحْسَنُ﴾ تَفضيلٌ، أي: أحسَنُ عمَلًا من غيرِه، فالأعمالُ الحَسَنةُ مُتفاوِتةٌ في الحُسنِ إلى أدْناها، فأمَّا الأعمالُ السَّيِّئةُ فإنَّها مَفهومةٌ بدَلالةِ الفحْوى[٤]؛ لأنَّ البَلوى في أحسَنِ الأعمالِ تَقْتضي البَلْوى في السَّيِّئاتِ بالأَولى؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٩٨).

(٤) فحْوَى الخطابِ: ويُسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ، وهو إثباتُ حكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَولى، كقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهيِ عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظمُ مِن التَّأْفيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كانَ دونَ القنطارِ، ففي هذه الآيةِ نَبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأولى نَبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم =

لأنَّ إحْصاءَها والإحاطةَ بها أَولى في الجزاءِ؛ لِما يَترتَّبُ عليها مِن الاجتراءِ على الشَّارعِ، ومِن الفسادِ في النَّفْسِ، وفي نِظامِ العالَمِ، وذلك أَولى بالعِقابِ عليه؛ ففي قولِه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ إيجازٌ(١).

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ تَذييلٌ لجُملةِ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ إشارةً إلى أنَّ صِفاتِه تعالَى تَقْتضي تَعلُّقًا بمُتعلَّقاتِها؛ لئلَّا تكونَ مُعطَّلةً في بعضِ الأحوالِ والأزمانِ فيُفْضيَ ذلك إلى نَقائضِها، فأمَّا العزيزُ فهو الغالبُ الَّذي لا يَعجزُ عن شَيءٍ، وذِكرُه مُناسِبٌ للجزاءِ المستفادِ مِن قولِه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي: ليَجزِيَكم جَزاءَ العزيزِ، فعُلِمَ أنَّ المرادَ الجزاءُ على المُخالفاتِ والنُّكولِ عن الطَّاعةِ، وهذا حظُّ المشركينَ الَّذين شَمِلَهم ضَميرُ الخِطابِ في قولِه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾، وأمَّا الغفورُ فهو الَّذي يُكرِمُ أولياءَهُ، ويَصْفَحُ عن فَلتاتِهم، فهو مُناسِبٌ للجزاءِ على الطَّاعاتِ وكِنايةٌ عنه؛ قال تعالَى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]، فهو إشارةٌ إلى حظِّ أهلِ الصَّلاحِ مِن المُخاطَبينَ(٢).

٣- قوله تعالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ صِفةٌ ثانيةٌ لـ ﴿الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾، أُعقِبَ التَّذكيرُ بتَصرُّفِ اللهِ بخلْقِ الإنسانِ وأهمِّ أعراضِه بذِكرِ خلْقِ أعظَمِ الموجوداتِ

= الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٥، ١٦).

غيرِ الإنسانِ، وهي السَّموات، ومُفيدةٌ وصْفًا من عَظيمِ صِفاتِ الأفعالِ الإلهيَّةِ، ولذلك أُعِيدَ فيها اسمُ الموصولِ؛ لتكونَ الجُمَلُ الثَّلاثُ جاريةً على طَريقةٍ واحدةٍ(١).

وقيلَ: هو نعتٌ لـ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، أو بيانٌ، أو بدَلٌ، أو أنَّه نُصِب أو رُفِع على المدحِ، مُتعلِّقٌ بالموصولَينِ السَّابقَينِ مَعْنًى وإنْ كانَ مُنقطِعًا عنهما إعرابًا، مُنتظِمٌ معهما في سلكِ الشَّهادةِ بتَعاليه سُبحانَه، ومع الموصولِ الثَّاني في كَونه مَدارًا للْبَلوى، كما نطَقَ به قولُه تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(٢) [هود: ٧].

- وانتصَبَ ﴿طِبَاقًا﴾ على الوصْفِ لـ﴿سَبْعَ﴾؛ فإمَّا أنْ يكونَ مَصدَرَ: طابَقَ مُطابَقةً وطِباقًا، كقولِهم: طابَقَ النَّعلَ: خَصَفَها طبَقًا على طَبَقٍ، وُصِفَ به على سَبيلِ المُبالَغةِ، أو على حذْفِ مُضافٍ، أي: ذاتَ طِباقٍ، أو مَصدرُه مُؤكِّدٌ لمَحذوفٍ هو صِفتُها، أي: طُوبِقتْ طباقًا(٣).

- قولُه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ قيل: كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَوكيدِ استقامةِ خَلْقِه تَعالى(٤).

وقيل: هو صِفةٌ أُخرى لـ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، وُضِعَ فيها ﴿خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مَوضوعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٧).

وقال السمينُ الحلبي عن القولِ بأنَّه استئنافٌ: (وليس بظاهرٍ؛ لانفلاتِ الكلامِ بعضِه مِن بعضٍ). ((الدر المصون)) (١٠/ ٣٧٩).

الضَّميرِ؛ للتَّعظيمِ، والإشعارِ بعِلةِ الحُكْمِ، وبأنَّه تعالَى خلَقَها بقُدرتِه القاهرةِ رَحمةً وتَفضُّلًا، وبأنَّ في إبداعِها نِعَمًا جَليلةً(١).

- وجاءتْ جُملةُ ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ تَقريرًا لقولِه: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾؛ فإنَّ نفْيَ التَّفاوُتِ يُحقِّقُ معْنى التَّطابُقِ، أي: التَّماثُلِ، والمعْنى: ما تَرَى في خلْقِ اللهِ السَّمواتِ تَفاوُتًا، وأصلُ الكلامِ: ما ترى فِيهنَّ ولا في خلْقِ الرَّحمنِ مِن تَفاوُتٍ؛ فعُبِّرَ بخلْقِ الرَّحمنِ لتَكونَ الجُملةُ تَذْييلًا لمَضمونِ جُملةِ ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾؛ لأنَّ انتفاءَ التَّفاوُتِ عمَّا خَلَقه اللهُ مُتحقِّقٌ في خلْقِ السَّمواتِ وغَيرِها، أي: كانت السَّمواتُ طِباقًا؛ لأنَّها مِن خلْقِ الرَّحمنِ، وليس فيما خلَق الرَّحمنُ مِن تَفاوُتٍ، ومِن ذلك نِظامُ السَّمواتِ(٢).

- قولُه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ الخِطابُ لغيرِ مُعيَّنٍ -على قولٍ-، أي: لا تَرى أيُّها الرَّائي تَفاوُتًا، والمقصودُ منه التَّعريضُ بأهلِ الشِّركِ؛ إذ أضاعوا النَّظَرَ والاستدلالَ بما يدُلُّ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالَى بما تُشاهِدُه أبصارُهم مِن نِظامِ الكواكبِ، وذلك مُمكنٌ لكلِّ مَن يُبصِرُ؛ قال تعالَى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، فكأنَّه قال: ما تَرَون في خلْقِ الرَّحمنِ مِن تَفاوُتٍ، فيَجوزُ أنْ يكونَ ﴿خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بمعْنى المفعولِ، ويُرادَ منه السَّمواتُ، والمعنى: ما تَرى في السَّمواتِ مِن تَفاوُتٍ؛ فيَكونَ العُدولُ عن الضَّميرِ لتَتأتَّى الإضافةُ إلى اسمِه الرَّحمنِ المُشعِرِ بأنَّ تلك المخلوقاتِ فيها رحمةٌ بالنَّاسِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿خَلْقِ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣، ٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧).

مَصدرًا، فيَشملَ خلْقَ السَّمواتِ وخلْقَ غيرِها؛ فإنَّ صُنْعَ اللهِ رحمةٌ للنَّاسِ لو استَقاموا كما صَنَعَ لهم وأوصاهم، فتُفيدُ هذه الجُملةُ مُفادَ التَّذييلِ في أثناءِ الكلامِ على وجْهِ الاعتراضِ، ولا يكونُ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ(١).

- والتَّعبيرُ بوصْفِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ دونَ اسمِ الجلالةِ إيماءٌ إلى أنَّ هذا النِّظامَ ممَّا اقتَضَتْه رَحمتُه تعالى بالناسِ؛ لتَجريَ أُمورُهم على حالةٍ تُلائِمُ نِظامَ عَيشِهم؛ لأنَّه لو كان فيما خلَقَ اللهُ تَفاوُتٌ لَكان ذلك التَّفاوُتُ سَببًا لاختلالِ النِّظامِ، فيَتعرَّضُ النَّاسُ بذلك لأهوالٍ ومَشاقَّ؛ قال تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٥]. وأيضًا في ذلك الوصْفِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تورُّكٌ على المشركين؛ إذ أنْكروا اسْمَه تعالَى الرَّحمنَ؛ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾(٢) [الفرقان: ٦٠].

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِن تَفَٰوُتٍ﴾ لتأكيدِ النَّفيِ(٣).

- والتَّفاوُتُ بوزْنِ التَّفاعُلِ: شدَّةُ الفَوتِ، والفَوتُ: البُعدُ، وليستْ صِيغةُ التَّفاعُلِ فيه لحُصولِ فِعلٍ مِن جانبينِ، ولكنَّها مُفيدةٌ للمُبالَغةِ(٤).

- والتَّفاوتُ مُعبَّرٌ به عن التَّخالُفِ وانعدامِ التَّناسُقِ؛ لأنَّ عدمَ المُناسَبةِ يُشبهُ البُعدَ بيْن الشَّيئَينِ تَشبيهَ مَعقولٍ بمَحسوسٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧، ١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ مُفرَّعٌ على قولِه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾، والتَّفريعُ للتَّسبُّبِ، أي: انتفاءُ رُؤيةِ التَّفاوُتِ جُعِلَ سببًا للأمْرِ بالنَّظرِ؛ ليَكونَ نفْيُ التَّفاوُتِ مَعلومًا عن يقينٍ[(١)].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ تَقريريٌّ، ووقَعَ بحرْفِ (هل)؛ لأنَّ (هل) تُفيدُ تأكيدَ الاستفهامِ؛ إذ هي بمعْنى (قد) في الاستفهامِ[(٢)]، وفي ذلك تأكيدٌ وحثٌّ على التَّبصُّرِ والتَّأمُّلِ، أي: لا تَقتنِعْ بنَظْرةٍ ونَظرتَينِ، فتقولَ: لمْ أجِدْ فُطورًا، بلْ كرِّرِ النَّظَرَ وعاوِدْه باحثًا عن مُصادَفةِ فُطورٍ؛ لعلَّك تَجِدُه، أي: لا يَسَعُك إلَّا أنْ تَعترِفَ بانتفاءِ الفُطورِ في نِظامِ السَّمواتِ فتَراها مُلتئمةً مَحبوكةً، لا تَرى في خِلالِها انشقاقًا، ولذلك كان انفطارُ السَّماءِ وانشقاقُها علامةً على انقراضِ هذا العالَمِ ونِظامِه الشَّمسيِّ؛ قال تعالَى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ [النبأ: ١٩]، وقال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾[(٣)] [الانفطار: ١].

- وعطْفُ ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ دالٌّ على التَّراخي الرُّتبيِّ، كما هو شأْنُ (ثُمَّ) في عطْفِ الجُمَلِ؛ فإنَّ مَضمونَ الجُملةِ المعطوفةِ بحرْفِ (ثُمَّ) هنا أهَمُّ وأدخَلُ في الغرَضِ مِن مَضمونِ الجُملةِ المعطوفِ عليها؛ لأنَّ إعادةَ النَّظَرِ تَزيدُ العِلمَ بانتفاءِ التَّفاوُتِ في الخلْقِ رُسوخًا ويَقينًا[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (١/ ١٠٠) و(٣/ ١٨٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٢) و(٤/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- و﴿ كَرَّتَيْنِ ﴾ تَثنيةُ كرَّةٍ، وهي المرَّةُ، وعُبِّرَ عنها هنا بالكَرَّةِ -مُشتقَّةٌ مِن الكَرِّ، وهو العَودُ-؛ لأنَّها عَودٌ إلى شَيءٍ بعدَ الانفصالِ عنه، ككَرَّةِ المقاتلِ يَحمِلُ على العدوِّ بعدَ أنْ يَفِرَّ فرارًا مَصنوعًا. وإيثارُ لَفظِ ﴿ كَرَّتَيْنِ ﴾ في هذهِ الآيةِ دونَ مُرادِفِه، نحْو مرَّتَين وتارَتَينِ؛ لأنَّ كَلمةَ (كرَّة) لم يَغلِبْ إطلاقُها على عدَدِ الاثنينِ، فكان إيثارُها في مَقامٍ لا يُرادُ فيه (اثنينِ) أظهَرَ في أنَّها مُستعمَلَةٌ في مُطلَقِ التَّكريرِ دونَ عدَدِ اثنينِ أو زَوجٍ، وهذا مِن خَصائصِ الإعجازِ؛ أَلَا تَرى أنَّ مَقامَ إرادةِ عدَدِ الزَّوجِ كان مُقتضيًا تَثنيةَ مرَّةٍ في قولِه تعالَى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ [البقرة: ٢٢٩]؛ لأنَّه أظهَرُ في إرادةِ العدَدِ؛ إذ لَفظُ (مرَّة) أكثَرُ تَداوُلًا[١].

فـ ﴿ كَرَّتَيْنِ ﴾، أي: كرَّةً بعدَ كرَّةٍ، لا كرَّتَينِ اثنتينِ؛ فالتَّثنيةُ فيها بمعنى التَّكريرِ بكَثرةٍ أو مُطلَقِ التَّكريرِ؛ فإنَّ مِن استِعمالاتِ صِيغةِ التَّثنيةِ في الكلامِ أنْ يُرادَ بها التَّكريرُ، وذلك كما في قولِهم: لبَّيك وسَعدَيك، يُريدون تَلبياتٍ كثيرةً، وإسعادًا كثيرًا، وقولِهم: دَوالَيك[٢].

- قولُه: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا ﴾ الانقلابُ: الرُّجوعُ، يُقالُ: انقلَبَ إلى أهْلِه، أي: رجَعَ إلى مَنزِله، وإيثارُ فِعلِ ﴿يَنقَلِبْ ﴾ هنا دونَ (يَرجِعُ)؛ لئلَّا يَلتبِسَ بفِعلِ ﴿ٱرْجِعِ ﴾ المذكورِ قبْلَه، وهذا مِن خَصائصِ الإعجازِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ﴾ وضْعُ الظَّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ، وفيه من

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩، ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠).

الفائدةِ التَّنبيهُ على أنَّ الَّذي يَرجِعُ خاسئًا حسيرًا غيرُ مُدرِكٍ الفُطورَ، هو الآلةُ الَّتي يُلتمَسُ بها إدراكُ ما هو كائنٌ، فإذا لم يُدرَكْ شَيءٌ دلَّ على أنَّه لا شَيءَ[١].

٤- قوله تعالَى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ...﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في ذِكرِ دَلائلَ أُخرى على تَمامِ قُدرتِه سُبحانه[٢]. وهو بَيانٌ لكَونِ خلْقِ السَّمواتِ في غايةِ الحُسنِ والبهاءِ، إثْرَ بَيانِ خُلوِّها عن شائبةِ القُصورِ[٣].

- بيَّن ما في إحدى السَّمواتِ مِن إتقانِ الصُّنعِ، وهو ممَّا شَمِلَه عُمومُ الإتقانِ في خلْقِ السَّمواتِ السَّبعِ، وذِكْرُه مِن ذِكرِ بَعضِ أفرادِ العامِّ، كذِكرِ المثالِ بعْدَ القاعدةِ الكُلِّيَّةِ، فدَقائقُ السَّماءِ الدُّنيا أوضَحُ دَلالةً على إتقانِ الصُّنعِ؛ لكَونِها نُصْبَ أعيُنِ المخاطَبين، ولأنَّ مِن بَعضِها يَحصُلُ تَخلُّصٌ إلى التَّحذيرِ مِن حِيَلِ الشَّياطينِ، وسُوءِ عَواقبِ أتْباعِهم[٤].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ فيه تَصديرُ الجُملةِ بالقسَمِ؛ لإبرازِ كَمالِ الاعتناءِ بمَضمونِها[٥].

- وتأْكيدُ الخبَرِ بـ(قدْ)؛ لأنَّه نَتيجةُ الاستِفهامِ التَّقريريِّ المؤكَّدِ بـ(هل) أُخْتِ (قدْ) في الاستفهامِ[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٥٧٦).
(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١). =

- وسُمِّيَت النُّجومُ هنا مَصابيحَ على التَّشبيهِ في حُسنِ المنظَرِ؛ فهو تَشبيهٌ بَليغٌ[١].

- وعُدِلَ عن تَعريفِ (مَصابيح) باللَّامِ إلى تَنكيرِه؛ لِما يُفيدُه التَّنكيرُ مِن التَّعظيمِ[٢].

- وذِكرُ التَّزيينِ إدماجٌ[٣] للامتِنانِ في أثناءِ الاستدلالِ، أي: زيَّنَّاها لكم، مِثل الامتنانِ في قولِه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ [النحل: ٦]، والمَقصدُ: التَّخلُّصُ إلى ذِكرِ رَجْمِ الشَّياطينِ؛ ليُتخلَّصَ منه إلى وَعيدِهم، ووَعيدِ مُتَّبِعيهم[٤].

- قولُه: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ ضَميرُ الغائبةِ في (جَعَلْنَاهَا) المتبادِرُ أنَّه عائدٌ إلى المصابيحِ، أي: أنَّ المصابيحَ رُجومٌ للشَّياطينِ. ومعْنى جَعْلِ المصابيحِ رُجومًا جارٍ على طَريقةِ إسنادِ عمَلِ بَعضِ الشَّيءِ إلى جَميعِه، مِثل إسنادِ الأعمالِ إلى القبائلِ؛ لأنَّ العاملينَ مِن أفرادِ القبيلةِ[٥]. أو نُسِبَ الرَّجْمُ إلى المصابيحِ؛ لأنَّ الشِّهابَ المُتَّبِعَ للمُسْتَرِقِ مُنفصِلٌ مِن نارِها، والكوكبُ قارٌّ في فَلَكِه على حالِه، فالشِّهابُ كقبَسٍ يُؤخَذُ مِن النَّارِ، والنَّارُ

= قال ابن عاشور: ((«هَلْ»... بمعنَى «قَدْ»، فلَمَّا كَثُرَ دُخولُ همزةِ الاستفهامِ عليه حَذَفوا الهمزةَ لكثرةِ الاستعمالِ، فأصْلُ هَلْ فَعَلْتَ: أَهَلْ فعلتَ؟)). ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٩٦). ويُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (١/ ١٠٠) و(٣/ ١٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

باقيةٌ لا تَنقُصُ[١]. أو الضَّميرُ المنصوبُ في ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ عائدٌ إلى السَّماءِ الدُّنيا، على تَقديرِ: وجَعَلْنا منها رُجومًا؛ إمَّا على حذْفِ حرْفِ الجرِّ، وإمَّا على تَنزيلِ المكانِ الَّذي صدَرَ منه الرُّجومُ مَنزلةَ نفْسِ الرُّجومِ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٣٨).

الآيات (٦-١١)

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩) وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠) فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (١١)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شَهِيقًا﴾: الشَّهيقُ: أقبحُ ما يكونُ مِن صَوتِ الحِمارِ، قيل: هو أوَّلُ نَهيقِ الحِمارِ، وقيل: هو آخِرُه، أو هو الصَّوتُ الَّذي يَخرُجُ مِن الجَوفِ بشِدَّةٍ كصَوتِ الحِمارِ، والشَّهيقُ: رَدُّ النَّفَسِ، ضِدُّ الزَّفيرِ وهو إخراجُ النَّفَسِ، وأصلُ (شهق): يدُلُّ على عُلُوٍّ[1].

﴿تَفُورُ﴾: أي: تَغْلي، وأصلُ (فور): يدُلُّ على غَلَيانٍ[2].

﴿تَمَيَّزُ﴾: أي: تتقَطَّعُ وتتفَرَّقُ، وأصلُ (ميز): يدُلُّ على انفِصالِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[3].

﴿فَوْجٌ﴾: أي: فِرقةٌ وجماعةٌ، وأصلُ (فوج): يدُلُّ على تجمُّعٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٢)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ١٠٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٥٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٥)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٩).

﴿خَزَنَتُهَآ﴾: أي: الملائكةُ الموكَلُ إليهم أمرُ جهنَّمَ، والخازنُ: الموكَلُ بالحفظِ، والخَزْنُ: حِفظُ الشَّيءِ في الخِزانةِ، ثمَّ يُعبَّرُ به عن كلِّ حِفْظٍ، وأصلُ (خزن): يدلُّ على صيانةِ الشَّيءِ(١).

﴿فَسُحْقًا﴾: أي: بُعْدًا، وأصلُ (سحق): يدُلُّ على بُعدٍ(٢).

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا ما أعدَّه لكلِّ كافرٍ: وللَّذين كَفَروا بربِّهم عذابُ جَهنَّمَ في الآخِرةِ، وبِئسَ المُنقَلَبُ والمَرجِعُ: جَهنَّمُ!

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه حالَهم حينَما يُلْقَونَ جميعًا في النَّارِ، فيقولُ: إذا أُلقِيَ فيها الكُفَّارُ سَمِعوا لها صَوتًا فَظيعًا كأقبَحِ ما يكونُ مِن صوتِ الحميرِ، وهي تَغْلي؛ مِن شِدَّةِ لهيبِها. تُوشِكُ أن تتقطَّعَ؛ مِن غَيظِها على أهلِها! كُلَّما أُلقِيَ فيها جماعةٌ مِن الكافِرينَ قال لهم خَزَنَتُها: ألَمْ يَأتِكم في الدُّنيا نذيرٌ يُنذِرُكم عَذابَ اللهِ تعالى؟! قالوا: بلى، قد جاءَنا نذيرٌ فكذَّبْنا، وقُلْنا: ما نزَّل اللهُ على أحدٍ مِن شَيءٍ مِنَ الوَحيِ، ما أنتُم إلَّا في ذَهابٍ بَعيدٍ عن الحَقِّ والصَّوابِ!

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى حسرتَهم في هذا اليومِ، فيقولُ: وقال الكافِرونَ: لو كُنَّا في الدُّنيا نَسمَعُ أو نَعقِلُ سَمعًا أو عَقلًا يُنتفَعُ به، ما كنَّا اليومَ في جُملةِ المُخَلَّدينَ في النَّارِ، فأقَرُّوا بذَنْبِهم، فبُعْدًا لهم مِن رَحمةِ اللهِ تعالى!

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٩).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ سُبحانَه عن تهيئتِه العذابَ للشَّياطينِ بالخُصوصِ؛ أخبَرَ أيضًا عن تهيئتِه لكُلِّ عامِلٍ بأعمالِهم، على وَجهٍ اندَرَجوا هم فيه[١].

وأيضًا أنَّ اللهَ تعالى بيَّن في أوَّلِ السُّورةِ أنَّه قادِرٌ على جميعِ المُمكِناتِ، ثمَّ ذَكَر بَعْدَه أنَّه وإن كان قادِرًا على الكُلِّ، فإنَّما خَلَق ما خَلَق لا للعَبَثِ والباطِلِ، بل مِن أجْلِ الابتلاءِ والامتحانِ، وبيَّن أنَّ المقصودَ من ذلك الابتلاءِ أن يكونَ عزيزًا في حَقِّ المصِرِّينَ على الإساءةِ، غَفورًا في حَقِّ التَّائبينَ، ومِن ذلك كان كونُه عزيزًا وغفورًا لا يَثبُتانِ إلَّا إذا ثبت كَونُه تعالى كامِلًا في القُدرةِ والعِلمِ- بيَّن ذلك بالدَّلائِلِ المذكورةِ، وحينَئذٍ ثَبت كَونُه قادِرًا على تعذيبِ العُصاةِ، فقال[٢]:

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾.

أي: ولِجَميعِ الَّذين كَفَروا برَبِّهم عذابُ جَهنَّمَ في الآخِرةِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣).

أي: وبِئسَ المُنقَلَبُ والمَرجِعُ: جَهنَّمُ[١]!

﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾؛ وصَفَ ذلك العذابَ، فقال[٢]:

﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ٧﴾.

أي: إذا أُلقِيَ فيها الكُفَّارُ سَمِعوا لها صَوتًا عاليًا فَظيعًا كأقبَحِ ما يكونُ مِن صوتِ الحميرِ، وهي تَغْلي؛ مِن شِدَّةِ تلَهُّبِها وتوَقُّدِها[٣]!

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨﴾.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾.

أي: تُوشِكُ جَهنَّمُ أن تَتقَطَّعَ وتَنفَصِلَ بَعضُ أجزائِها عن بَعضٍ؛ لِشدَّةِ غَيظِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٣، ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

قال البِقاعي: (فهم لا يَزالونَ فيها صاعِدينَ هابِطينَ كالحُبِّ [وعاءِ الماءِ] إذا كان الماءُ يَغْلي به، لا قرارَ لهم أصلًا). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢٣٤).

وقال ابن جُزَي: (يعني به هنا: ما يُسمَعُ مِن صوتِ جهنَّمَ لِشدَّةِ غَلَيانِها وهولِها، أو شهيق أهلِها، والأوَّلُ أظهَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٥).

وقال الواحدي: (قال عَطاءٌ: يريدُ: سمعوا لأهلِها شهيقًا، فجعَل الشَّهيقَ لأهلِ جهنَّمَ دونَها. والقولُ هو الأوَّلُ [أي: أنَّ الصوتَ لجهنَّمَ]). ((البسيط)) (٢٢/ ٤٧).

على أهلِها[١]!

كما قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾.

أي: كُلَّما أُلقِيَ في جَهنَّمَ جماعةٌ مِن الكافِرينَ، قال لهم خَزنَتُها مِن الملائِكةِ مُوَبِّخينَ: ألَمْ يَأتِكم في الدُّنيا نذيرٌ يُنذِرُكم عَذابَ اللهِ تعالى[٢]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ (٩)﴾.

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾.

أي: قال الكافِرونَ لخَزَنةِ جَهنَّمَ: بلى، قد جاءَنا نذيرٌ يُنذِرُنا عذابَ اللهِ، ولكِنَّنا كذَّبْنا[٣].

﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٤، ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٦، ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١١).

أي: وقُلْنا للمُنذِرينَ: ما نزَّل اللهُ على أحدٍ مِن الخَلْقِ أيَّ شَيءٍ مِنَ الوَحيِ[(١)]!

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾.

أي وقال الكافِرونَ أيضًا لِمَن أنذَروهم: ما أنتُم إلَّا في ذَهابٍ بَعيدٍ عن الحَقِّ والصَّوابِ[(٢)]!

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى اللهُ سُبحانَه ما قاله أهلُ النَّارِ للخَزَنةِ تحَسُّرًا على أنفُسِهم، حكى ما قالوه بَعْدَ ذلك فيما بيْنَهم -على قول-؛ زيادةً في التَّحَزُّنِ، ومَقتًا لأنفُسِهم بأنفُسِهم[(٣)]!

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١١).

قال ابنُ عطية: (﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ مِن قَولِ الملائكةِ للكُفَّارِ حينَ أخبَروا عن أنفُسِهم أنَّهم كذَّبوا النُّذُرَ، ويحتمِلُ أن يكونَ من كَلامِ الكُفَّارِ للنُّذُرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٠). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٨).

ممَّن ذهَب إلى الاحتمالِ الأوَّلِ: المهدوي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((التحصيل لفوائد كتاب التفصيل)) للمهدوي (٦/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦).

قال ابنُ عاشور: (الأظهَرُ أنَّها بَقيَّةُ كَلامِ خَزَنةِ جهنَّمَ... ويجوزُ أن تكونَ جُملةُ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ مِن تمامِ كَلامِ كُلِّ فَوجٍ لنذيرِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦).

وممَّن ذهب إلى الاحتِمالِ الثَّاني: الزَّمخشريُّ، واستظهره الرَّازيُّ، وذهب إليه القُرطبيُّ، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٧).

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾.

أي: وقال الكافِرونَ: لو كُنَّا في الدُّنيا نَسمَعُ أو نَعقِلُ سَمعًا أو عَقلًا يُنتفَعُ به، ما كنَّا اليَومَ في عِدادِ أهلِ النَّارِ، ومن جُملةِ المُخَلَّدينَ في عَذابِها[1].

كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).
وممَّن قال بأنَّ هذا مِن قَولِ الكُفَّارِ للخَزَنةِ: ابنُ جرير، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٠).
وقيل: هو من قَولِ الكُفَّارِ فيما بيْنَهم في النَّارِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧).
قال ابنُ عاشور: (أُعيدَ فِعلُ القَولِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ هذا كلامٌ آخَرُ غَيرُ الَّذي وقع جوابًا عن سُؤالِ خَزَنةِ جَهنَّمَ، وإنَّما هذا قَولٌ قالوه في مَجامِعِهم في النَّارِ؛ تَحَسُّرًا وتَنَدُّمًا، أي: وقال بَعضُهم لبعضٍ في النَّارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧).
قولُه تعالى: ﴿أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾: قال الألوسي: (المرادُ بهم قيل: الشَّياطينُ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]. وقيل: الكفَّارُ مُطلقًا). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٣).

﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾.

أي: فأقَرُّوا بذَنْبِهم الَّذي استَوجَبَ لهم الخُلودَ في السَّعيرِ(١).

قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

﴿فَسُحۡقًا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

أي: فبُعْدًا لأهلِ النَّارِ الملازِمينَ لها مِن رَحمةِ اللهِ تعالى(٢)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٩٠).

قيل: المرادُ بالذَّنْبِ هنا: الشِّركُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٥).

وقيل: هو تكذيبُهم للرُّسُلِ عليهم السَّلامُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: الواحديُّ، والقرطبي، وابنُ جُزَي، والقاسمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٩٠).

وقيل: هو الكفرُ وتكذيبُ الأنبياءِ. وممَّن اختار هذا القولَ: أبو السعود، والشوكانيُّ، والألوسي. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

قال الرازي: (قال المفسِّرون: فبُعدًا لهم اعترَفوا أو جَحَدوا؛ فإنَّ ذلك لا يَنفَعُهم). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٨).

وقال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يُرادَ مِن هذا الدُّعاءِ التَّعجيبُ مِن حالِهم... أي: فهم جَديرون بالدُّعاءِ عليهم بالإبعادِ، أو جديرونَ بالتَّعجيبِ مِن بُعْدِهم عن الحَقِّ، أو عن رحمةِ اللهِ تعالى. ويحتَمِلُ أيضًا أن يُقالَ لهم يومَ الحِسابِ عَقِبَ اعترافِهم؛ تنديمًا يَزيدُهم ألَمًا في نفوسِهم، فوقَ ألمِ الحَريقِ في جُلودِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فيه أعظَمُ فضيلةٍ للعَقلِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ نَفَوا عن أنفُسِهم طُرُقَ الهُدى، وهي السَّمعُ لِما أنزَلَ اللهُ وجاءت به الرُّسُلُ، والعَقلُ الَّذي يَنفَعُ صاحِبَه، ويَقِفُه على حقائِقِ الأشياءِ، وإيثارِ الخَيرِ، والانزِجارِ عن كُلِّ ما عاقِبَتُه ذَميمةٌ؛ فلا سَمْعَ لهم ولا عَقْلَ. وهذا بخِلافِ أهلِ اليَقينِ والعِرفانِ، وأربابِ الصِّدقِ والإيمانِ؛ فإنَّهم أيَّدوا إيمانَهم بالأدِلَّةِ السَّمْعيَّةِ، فسَمِعوا ما جاء مِن عندِ اللهِ وجاء به رَسولُ اللهِ، عِلمًا ومَعرِفةً وعَمَلًا؛ والأدِلَّةِ العَقليَّةِ المُعَرِّفةِ للهُدى مِن الضَّلالِ، والحسنِ مِن القَبيحِ، والخَيرِ مِنَ الشَّرِّ، وهم في الإيمانِ بحَسَبِ ما مَنَّ اللهُ عليهم به مِن الاقتِداءِ بالمَعقولِ والمنقولِ؛ فسُبحانَ مَن يختَصُّ بفَضلِه مَن يَشاءُ، ويَمُنُّ على مَن يَشاءُ مِن عبادِه، ويَخذُلُ مَن لا يَصلُحُ للخَيرِ[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يُؤخَذُ مِن هذه الآيةِ أنَّ قِوامَ الصَّلاحِ في حُسنِ التَّلقِّي وحُسنِ النَّظَرِ، وأنَّ الأثَرَ والنَّظَرَ -أي: القياسَ- هما أصلَا الهُدى[٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ذكَر اللهُ تعالى عن أهلِ النَّارِ في عددٍ مِن الآياتِ ما يدُلُّ على أنَّهم يَسمعونَ ويُبصِرونَ ويَتكلَّمونَ؛ كقَولِه: ﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا﴾، وقولِه: ﴿سَمِعُواْ لَهَا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨).



تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾، وقوله تعالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم: ٣٨]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ [السجدة: ١٢]، وقوله: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ ﴾ [الكهف: ٥٣]. مع أنَّه جلَّ وعلا ذكَر في قولِه: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٠] أنَّ أهلَ النَّارِ لا يَسمَعونَ فيها، وبيَّن أنَّهم لا يَتكلَّمونَ، ولا يُبصِرونَ في مواضعَ أخرى؛ كقولِه تبارك وتعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقولِه: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]، وقولِه: ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ [النمل: ٨٥]؟

والجوابُ عن هذا مِنْ أوجُهٍ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يكونَ المرادُ مِمَّا ذُكِر -مِن العمَى، والصَّممِ، والبَكَمِ- حقيقتَه، ويكونُ ذلك في مبدَأِ الأمرِ، ثُمَّ يَرُدُّ اللهُ تعالَى إليهم أبصارَهم ونُطْقَهم وسَمْعَهم، فيَرَونَ النَّارَ، ويَسمَعونَ زَفيرَها، ويَنطِقُونَ بما حَكَى اللهُ تعالى عنهم في غيرِ مَوضِعٍ.

الوجهُ الثَّاني: أنَّهم لا يَرونَ شيئًا يَسُرُّهم، ولا يَسمَعونَ كذلك، ولا يَنطِقونَ بحُجَّةٍ، كما أنَّهم كانوا في الدُّنيا لا يَسْتَبْصِرونَ، ولا يَنطِقونَ بالحقِّ، ولا يَسْمَعونَه، فنُزِّلَ ما يَقولونَه ويَسْمَعونَه ويُبْصِرونَه مَنزِلةَ العَدَمِ؛ لعَدَمِ الانتِفاعِ به، والعربُ في كلامِها تُطلِقُ الصَّمَمَ على السَّماعِ الَّذي لا فائدةَ فيه. وكذلك الكلامُ الَّذي لا فائدةَ فيه، والرُّؤيةُ الَّتي لا فائدةَ فيها.

الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ اللهَ تعالى إذا قال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، وَقَع بهم ذاك العمَى والصَّمَمُ والبَكَمُ مِن شِدَّةِ الكربِ واليأْسِ مِنَ الفَرَجِ، قال تعالَى: ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾[1] [النمل: ٨٥].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٢٨، ٢٤٧)، ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات =

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾ فيه إثباتُ أنَّ للنَّارِ حِسًّا وإدراكًا وإرادةً، وقد أثبَتَ القرآنُ للنَّارِ أنَّها تَغتاظُ وتُبصِرُ، وتتكَلَّمُ وتَطلُبُ المزيدَ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا﴾ أنَّ اللهَ تعالى لا يُعَذِّبُ أحدًا إلَّا بعدَ بُلوغِ الرِّسالةِ؛ فقد أخبرَ أنَّه كُلَّما أُلقِيَ في النَّارِ فوجٌ، أقَرُّوا بأنَّهم جاءَهم النَّذيرُ فكذَّبوه؛ فدلَّ ذلك على أنَّه لا يُلقى فيها فَوجٌ إلَّا مَن كذَّبَ النَّذيرَ[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ يدُلُّ على أنَّ أهلَ النَّارِ يَدخُلونَها جماعةً بعْدَ جَماعةٍ، كما في قَولِه تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾[٣] [الأعراف: ٣٨].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ﴾، وقولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تزالُ جهَنَّمُ يُلْقى فيها، وتَقولُ: هَلْ مِنْ مَزيدٍ ...))[٤] دليلٌ على أنَّ أهلَ النَّارِ -والعياذُ باللهِ- يُلْقَون فيها إلقاءً؛ لا يَدخلون مُكَرَّمِينَ! بل يُدَعُّون إلى نارِ جهنَّمَ دَعًّا[٥].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا﴾ فيه دَليلٌ على جوازِ الجَمعِ بيْن حَرفِ الجَوابِ ونَفْسِ الجُملةِ المُجابِ بها؛ إذ لو قالوا: (بلى)، لَفُهِمَ المعنى[٦].

= الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٤٣).

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٣٢).

(٤) أخرجه البخاريُّ (٧٣٨٤)، ومسلمٌ (٢٨٤٨) -واللَّفظُ له- مِن حديثِ أنسٍ رضيَ اللهُ عنه.

(٥) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٣٠).

(٦) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٢٣٩).

ويُنظر ما سيأتي في البلاغة (ص: ٢٧٦، ٢٧٧).

٧- في قَولِ الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ جمعٌ بيْن السَّمعِ والعَقلِ؛ لأنَّ مَدارَ التَّكليفِ على أدِلَّةِ السَّمعِ والعَقلِ[١].

٨- السَّمعُ والعَقلُ هما أصلُ العِلمِ، وبهما يُنالُ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[٢].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هم يَسمَعونَ، ولكن لا يَسمَعونَ ما يَنفَعُهم في الآخرةِ، ويَعقِلونَ، ولكن لا يَعقِلونَ ما يَنفَعُهم في الآخرةِ؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ﴾ [البقرة: ٧]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾[الكهف: ٥٧][٣]. فأهلُ النَّارِ ذَكَروا ما يدُلُّ على انتفاءِ السَّمعِ والعقلِ عنهم في الدُّنيا، وهم يُريدون سمعًا خاصًّا وعقلًا خاصًّا؛ فانتفاءُ السَّمعِ بإعراضِهم عن تَلَقِّي دَعوةِ الرُّسلِ، وانتفاءُ العقلِ بتَرْكِ التَّدبُّرِ في آياتِ الرُّسلِ ودَلائلِ صِدقِهم فيما يَدْعون إليه[٤].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ احتَجَّ به مَن فَضَّل السَّمعَ على البصَرِ؛ فقد دَلَّت الآيةُ على أنَّ للسَّمعِ مَدْخلًا في الخَلاصِ مِن النَّارِ والفَوزِ بالجنَّةِ، والبصَرُ ليس كذلك؛ فوَجَب أن يكونَ السَّمعُ أفضَلَ[٥].

١١- العقلُ يدُلُّ على صِحَّةِ السَّمعِ، والسَّمعُ يُبيِّنُ صِحَّةَ العقلِ، وأنَّ مَن سلَك أحدَهما أفْضَى به إلى الآخرِ، وأنَّ الَّذين يَستحِقُّونَ العَذابَ هم الَّذين لا يَسمَعونَ ولا يَعقِلونَ، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٨).
(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٩).
(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٣٣)، وهذه الفائدة من إملاء الشنقيطي.
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٨). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٠).

وقال تعالَى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، وقالَ تعالَى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقالَ تعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. فقد بَيَّنَ القرآنُ أنَّ مَن كان يَعقِلُ أو كان يَسمَعُ فإنَّه يكونُ ناجيًا وسعيدًا، ويكونُ مُؤمِنًا بما جاءتْ به الرُّسُلُ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أنَّ علامةَ العَقلِ الصَّريحِ مُتابَعةُ ما جاءتْ به الرُّسُلُ عن اللهِ تعالى؛ فإنَّ العَقلَ الصَّريحَ لا يُخالِفُ ذلك قَطُّ، بل لو وُجِدَ لَوُجِدَ الإيمانُ؛ ففي الآياتِ أنَّهم أخبَروا أنَّه أيُّ الأمْرَينِ وُجِدَ منَعَهم العَذابَ، وقد قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[٢] [الحج: ٤٦].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالَى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ تَتميمٌ[٣]؛ لئلَّا

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ١٥٩).

(٣) التَّتميم: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ من الكلام نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ. ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِالْإِثْمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها. يُنظر: =

يُتوهَّمَ أنَّ العذابَ أُعِدَّ للشَّياطينِ خاصَّةً، والمعْنى: ولجَميعِ الَّذين كَفَروا باللهِ عَذابُ جهنَّمَ، فالمرادُ عامَّةُ المشركين، ومِن أجْلِ ما في الجُملةِ مِن زِيادةِ الفائدةِ غايَرَت الجُملةَ الَّتي قبْلَها؛ فلذلك عُطِفَت عليها[(١)].

- وتَقديمُ المجرورِ ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ للاهتمامِ بتَعلُّقِه بالمسنَدِ إليه، والمبادَرةِ به[(٢)].

- وجُملةُ ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ حالٌ أو مُعترِضةٌ لإنشاءِ الذَّمِّ، وحُذِفَ المخصوصُ بالذَّمِّ؛ لدَلالةِ ما قبْلَ (بِئس) عليه، والتَّقديرُ: وبِئسَ المصيرُ عَذابُ جهنَّمَ[(٣)].

٢- قوله تعالَى: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ﴾ مُستأنَفٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لبَيانِ ذمِّ مَصيرِهم في جهنَّمَ، أي: مِن جُملةِ مَذامِّ مَصيرِهم مَذمَّةُ ما يَسمَعونه فيها مِن أصواتٍ مُؤلمةٍ مُخيفةٍ[(٤)].

- و(إذا) ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بـ﴿سَمِعُوا۟﴾، يدُلُّ على الاقترانِ بيْن زمَنِ الإلقاءِ وزمَنِ سَماعِ الشَّهيقِ[(٥)].

وجملةُ ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ حاليَّةٌ، أي: والحالُ أنَّها تَغلي بهم غَلَيانَ المِرْجَلِ بما فيه، وترتفعُ ألْسِنةُ لَهيبِها[(٦)].

= ((تحرير التَّحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٢٧)، ((التِّبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدِّين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التَّفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣).

٣- قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ كَبِيرٍ﴾

- قولُه: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ قيل: الجُملةُ مُستأنَفةٌ، كأنَّها وقَعت جوابًا لسُؤالِ سائلٍ[(١)].

- قولُه: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ أُتبِعَ وصْفُ ما يَجِدُه أهلُ النَّارِ عندَ إلْقائِهم فيها مِن فَظائعِ أهْوالِها، بوصْفِ ما يَتلقَّاهم به خَزَنةُ النَّارِ، فالجُملةُ استئنافٌ بَيانيٌّ، أثارَه وصْفُ النَّارِ عندَ إلقاءِ أهلِ النَّارِ فيها؛ إذ يَتساءَلُ السَّامعُ عن سَببِ وُقوعِ أهلِ النَّارِ فيها، فجاء بَيانُه بأنَّه تَكذيبُهم رُسلَ اللهِ الَّذين أُرسِلوا إليهم، مع ما انضمَّ إلى ذلك مِن وصْفِ نَدامةِ أهلِ النَّارِ على ما فرَطَ منهم مِن تَكذيبِ رُسلِ اللهِ، وعلى إهمالِهم النَّظَرَ في دَعوةِ الرُّسلِ والتَّدبُّرَ فيما جاؤوهم به[(٢)].

- واكتسَبَ التَّركيبُ معْنى الشَّرطِ باتِّصالِ (كلّ) بحرْفِ (ما) المصدريَّةِ الظَّرفيَّةِ، وشابَهَ أدواتِ الشَّرطِ في الاحتياجِ إلى جُملتَينِ مُرتَّبةٍ إحْداهما على الأُخرى. وجِيءَ بفِعلَيْ ﴿أُلْقِىَ﴾ و﴿سَأَلَهُمْ﴾ ماضيَينِ؛ لأنَّ أكثَرَ ما يقَعُ الفِعلُ بعْدَ (كُلَّما) أنْ يكونَ بصِيغةِ المُضيِّ؛ لأنَّها لَمَّا شابَهَت الشَّرطَ اسْتَوى الماضي والمضارعُ معها؛ لظُهورِ أنَّه للزَّمنِ المُستقبَلِ، فأُوثِرَ فِعلُ المُضيِّ؛ لأنَّه أخفُّ[(٣)].

- والفَوجُ: الجماعةُ، أي: جَماعةٌ ممَّن حقَّ عليهم الخُلودُ، وجِيءَ بالضَّمائرِ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٥).

العائدةِ إلى الفَوجِ ضَمائرَ جمْعٍ في قولِه: ﴿سَأَلَهُمْ﴾ إلخ؛ لتأويلِ الفَوجِ بجَماعةِ أفرادِه[1].

- والمرادُ أفواجُ أهلِ النَّارِ مِن جَميعِ الأُمَمِ الَّتي أُرسِلَت إليهم الرُّسلُ، فتكونُ جُملةُ ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ ...﴾ إلخ بمعْنى التَّذييلِ[2].

- والاستفهامُ في ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ استفهامٌ تَقريريٌّ للتَّوبيخِ والتَّنديمِ والتَّقريعِ؛ ليَزْدادوا به عذابًا إلى عَذابِهم، وحسْرةً إلى حسْرتِهم[3].

- جُملةُ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ قيل: هي مُعترضةٌ بيْنَ كَلامِ خَزَنةِ جهنَّمَ اعتراضًا يُشيرُ إلى أنَّ الفَوجَ قاطَعَ كلامَ الخَزَنةِ بتَعجيلِ الاعترافِ بما وبَّخوهم عليه؛ وذلك مِن شِدَّةِ الخوفِ، وفُصِلَت الجُملةُ لوَجْهَين: لأنَّها اعتِراضٌ، ولوُقوعِها في سِياقِ المحاوَرةِ[4]. وذلك على القولِ بأنَّ جُمْلَةَ: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ من بَقيَّةِ كلامِ خَزَنةِ جَهنَّمَ.

أو الجُملةُ مُستأنَفةٌ جَوابُ سُؤالٍ مُقدَّرٍ، كأنَّه قِيل: فماذا قالوا بعْدَ السُّؤالِ؟ فقال: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾[5].

- قولُه: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ قاله الكُفَّارُ اعترافًا بأنَّه تعالَى قد أزاحَ عِلَلَهم بالكُلِّيَّة، جامِعينَ بيْنَ حرفِ الجوابِ ونفْسِ الجُملةِ المُجابِ بها؛ مُبالَغةً في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٩).

الاعتِرافِ بمَجيءِ النَّذيرِ، وتحسُّرًا على ما فاتَهم مِن السَّعادةِ في تَصديقِهم، وتَمهيدًا لبَيانِ ما وقَعَ منهم مِن التَّفريطِ تَندُّمًا واغتمامًا على ذلك[١]. فجاء جوابُهم جَوابَ المُتحسِّرِ المُتندِّمِ؛ فابْتَدؤوا الجوابَ دَفْعةً بحرْفِ (بلى) المُفيدِ نَقيضَ النَّفيِ في الاستفهامِ، فهو مُفيدُ معْنى: جاءنا نَذيرٌ؛ ولذلك كان قولُهم: ﴿قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾ مُوكِّدًا لِما دلَّت عليه ﴿بَلَىٰ﴾، فلو قالوا: (بلى)، لَفُهِمَ المعنى، ولكِنَّهم أظهَروه تحَسُّرًا، وزيادةً في تغميمِهم على تفريطِهم في قَبولِ قَولِ النَّذيرِ، فهو مِن تَكريرِ الكلامِ عندَ التَّحسُّرِ، مع زِيادةِ التَّحقيقِ بحرْفِ (قدْ)، وذلك التَّأكيدُ هو مَناطُ النَّدامةِ والاعترافِ بالخطَأِ[٢].

- والنَّذيرُ إمَّا بمعْنى الجمْعِ؛ لأنَّه فَعيلٌ، أو مَصدرٌ مُقدَّرٌ بمُضافٍ، أي: أهلُ إنذارٍ، أو مَنعوتٌ به للمُبالَغةِ، كأنَّ الرُّسلَ عَينُ الإنذارِ، أو المرادُ الواحدُ، والخِطابُ له ولأمثالِه على التَّغليبِ، أو إقامةُ تَكذيبِ الواحدِ مُقامَ تَكذيبِ الكلِّ[٣].

- جُملةُ ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ مِن تَمامِ كَلامِ كلِّ فَوجٍ لنَذيرِهم. وأُتِيَ بضَميرِ جمْعِ المُخاطَبينَ معَ أنَّ لكلِّ قومٍ رسولًا واحدًا في الغالبِ -باستثناءِ مُوسى وهارونَ، وباستثناءِ رُسلِ أصحابِ القريةِ المذكورةِ في سُورةِ (يس)- إمَّا على اعتبارِ الحِكايةِ بالمعنى؛ بأنْ جُمِعَ كلامُ جَميعِ الأفواجِ في عبارةٍ واحدةٍ، فجِيءَ بضَميرِ الجمْعِ، والمرادُ التَّوزيعُ على الأفواجِ، أي: قال

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥، ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٤٥).



جَميعُ الأفواجِ: بلى قدْ جاءنا نَذيرٌ إلى قولِه: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾، على طَريقةِ المثالِ المشهورِ: (رَكِبَ القومُ دَوابَّهم)، وإمَّا على إرادةِ شُمولِ الضَّميرِ للنَّذيرِ وأتْباعِه الَّذين يُؤمِنون بما جاء به. وعُمومُ (شَيء) في قولِه: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾ المرادُ منه شَيءٌ مِن التَّنزيلِ، يدُلُّ على أنَّهم كانوا يُحيلون أنْ يُنزِّلَ اللهُ وحْيًا على بشَرٍ، وهذه عادةُ أهلِ الكفرِ؛ قال تعالَى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ٩١]، أو جُمِعَ ضَميرُ الخِطابِ مع أنَّ مُخاطَبَ كلِّ فَوجٍ نَذيرُه؛ لتَغليبِه على أمثالِه مُبالَغةً في التَّكذيبِ، وتَماديًا في التَّضليلِ، كما يُنبِئُ عنهُ تعميمُ المُنزَّلِ مع تَرْكِ ذِكرِ المُنزَّلِ عليه؛ فإنَّه مُلوِّحٌ بعُمومِه حتْمًا. وقيل: جُملةُ ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ هي بَقيَّةُ كَلامِ خَزَنةِ جهنَّمَ، فَصَلَ بيْنهما وبيْن ما سَبَقَها مِن كَلامِهم اعتراضُ جَوابِ الفَوجِ المُوجَّهِ إليهم الاستفهامُ التَّوبيخيُّ، أرادوا حِكايةَ ما كانوا عليه مِن ضَلالِهم في الدُّنيا، إخبارًا لهم وتَقريعًا، أو أرادوا بالضَّلالِ: الهلاكَ الَّذي همْ فيه، أو سَمَّوا عِقابَ الضَّلالِ باسمِه ضَلالًا لمَّا كان ناشئًا عن الضَّلالِ تَسميةً لهُ باسمِ سَببِه، ويُؤيِّدُ هذا إعادةُ فِعلِ القولِ في حِكايةِ بَقيَّةِ كَلامِ الفوجِ في قولِه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ ...﴾ [الملك: ١٠] إلخ؛ لانقطاعِه بالاعتراضِ الواقعِ خِلالَ حِكايتِه[١].

- قولُه: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ وصْفُ الضَّلالِ بالكبيرِ معْناه شَديدٌ بالغٌ غايةَ ما يَبلُغُ إليه جِنسُه، ومعْنى القصْرِ المُستفادِ مِن النَّفيِ والاستثناءِ قصْرُ قلْبٍ[٢]، أي: ما حالُكم الَّتي أنتم مُتلبِّسون بها إلَّا الضَّلالُ، وليس الوحْيَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٨، ٥٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩٢).

الإلهيَّ والهُدى كما تَزعُمون(١).

- والظَّرفيَّةُ ﴿فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ لتَشبيهِهم تَمحُّضَهم للضَّلالِ بإحاطةِ الظَّرفِ بالمظروفِ(٢).

٤- قوله تعالَى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ قيل: أُعِيدَ فِعلُ القولِ للإشارةِ إلى أنَّ هذا كلامٌ آخَرُ غيرُ الَّذي وقَعَ جوابًا عن سُؤالِ خَزنةِ جهنَّمَ، وإنَّما هذا قولٌ قالُوه في مَجامعِهم في النَّارِ تحسُّرًا وتَندُّمًا، أي: وقال بَعضُهم لبَعضٍ في النَّارِ، فهو مِن قَبيلِ قولِه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا ...﴾ إلخ [الأعراف: ٣٨]؛ لتَأكيدِ الإخبارِ على حسَبِ الوجْهَينِ المتقدِّمينِ في مَوقعِ جُملةِ ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾(٣).

وقيل: كأنَّ الخزَنةَ قالوا لهم في تَضاعيفِ التَّوبيخِ: ألَمْ تَسمَعوا آياتِ ربِّكم ولم تَعقِلوا مَعانيَها حتَّى لا تُكذِّبوا بها؟ فأجابوا بذلك(٤).

- وحرْفُ (أو) للتَّقسيمِ، وهو تَقسيمٌ باعتبارِ نَوعَيِ الأحوالِ الَّتي تَقْتضي حُسنَ الاستماعِ تارةً إذا أُلْقِيَ إليها إرشادٌ، وحُسْنَ التَّفهُّمِ والنَّظرِ تارةً إذا دُعِيَت إلى النَّظرِ مِن داعٍ غيرِ أنفُسِها، أو مِن دَواعي أنفُسِها(٥).

- ووَجْهُ تَقديمِ السَّمعِ على العقلِ أنَّ العقلَ بمَنزلةِ الكُلِّيِّ، والسَّمعَ بمَنزلةِ الجُزئيِّ، ورَعْيًا للتَّرتيبِ الطَّبيعيِّ؛ لأنَّ سمْعَ دَعوةِ النَّذيرِ هو أوَّلُ ما يَتلقَّاهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨).

المُنذَرون، ثمَّ يُعمِلون عُقولَهم في التَّدبُّرِ فيها[١]، فالمدعوُّ إذا لَقِيَ الرَّسولَ فأوَّلُ المراتبِ أنَّه يَسمَعُ كلامَه، ثمَّ إنَّه يَتفكَّرُ فيه، فلمَّا كان السَّمعُ مُقدَّمًا بهذا السَّببِ على التَّعقُّلِ والتَّفهُّمِ لا جَرَمَ قُدِّمَ عليه في الذِّكْرِ[٢].

٥- قوله تعالَى: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ﴾ فَصيحةٌ تُفصِحُ عن كلامٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: إذ قالوا بذلك فقدْ تبيَّنَ أنَّهم اعترَفوا هنالك بذَنْبِهم، أي: فهمْ مَحقوقون بما هم فيه مِن العذابِ[٣].

- ولم يُجمَعِ الذَّنْبُ؛ لأنَّه في الأصلِ مَصدرٌ، أو المرادُ به الكُفرُ[٤].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَسُحۡقٗا﴾ للتَّسبُّبِ[٥]، والسُّحقُ: اسمُ مَصدرٍ معْناه البُعدُ، أي: أسْحَقَهم اللهُ إسحاقًا؛ أبْعَدَهم مِن رَحمتِه. ويَجوزُ أنْ يُرادَ مِن هذا الدُّعاءِ التَّعجيبُ مِن حالِهم، كما يُقال: قاتَلَه اللهُ، ووَيلٌ له، في مَقامِ التَّعجُّبِ. وقِيل: هو مَفعولٌ به لفِعلٍ مَحذوفٍ، أي: ألْزَمَهم اللهُ سُحقًا[٦].

- واللَّامُ الدَّاخلةُ على (أصحابِ) لامُ التَّقويةِ إنْ جُعِلَ (سُحقًا) دُعاءً عليهم بالإبعادِ؛ لأنَّ المصدَرَ فرْعٌ في العملِ عن الفِعلِ. ويجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ لامَ التَّبيينِ لتأْكيدِ تَعلُّقِ العاملِ بمَعمولِه، كقولِهم: شُكرًا لك، فكلٌّ مِن (سُحقًا)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٥٠).

واللَّامِ المُتعلِّقةِ به مُستعمَلٌ في مَعنيَيْه[1].

- و﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يَعُمُّ المُخاطَبينَ بالقرآنِ وغيرَهم، فكان هذا الدُّعاءُ بمَنزلةِ التَّذييلِ؛ لِما فيه مِن العُمومِ تَبَعًا للجُمَلِ الَّتي قبْلَه[2]. وقيل: قولُه: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ المرادُ بهم الشَّياطينُ والدَّاخِلونَ في عِدادِهم بطَريقِ التَّغليبِ[3]. والتَّغليبُ في قولِه: ﴿فَسُحۡقًا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ للإيجازِ والمُبالَغةِ والتَّعليلِ؛ فأصحابُ السَّعيرِ -وهم الشَّياطينُ- غُلِّبوا على الكفَرةِ؛ إذ الظَّاهِرُ أنْ يُقال: فسُحْقًا لهم، أي: للقائلينَ: بلى قدْ جاءَنا... إلخ، ولأصحابِ السَّعيرِ الَّذين هم الشَّياطينُ، فغُلِّبَ للإيجازِ، والمُبالَغةِ في إبعادِ الأوَّلينَ؛ إذ لو أُفرِدَ كلٌّ مِن الفريقَينِ بالذِّكرِ لَأمكَنَ أن يُتوهَّمَ تَفاوُتُ الإبعادِ بأنْ يكونَ إبعادُ الكفَرةِ دونَ إبعادِ الشَّياطينِ؛ لجَعْلِهم الشَّياطينَ أصلًا، وأنفُسَهم مُلحقةً بهم في ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، فلمَّا ضُمُّوا إليهم في الحُكمِ دلَّ على أنَّ إبعادَهم لا يَقصُرُ عن إبعادِ أولئك. وأيضًا لَمَّا غُلِّب أصحابُ السَّعيرِ -وهم الشَّياطينُ- على الكفَّارِ، فقد جُعِل الكفَّارُ مِن قَبيلِ الشَّياطينِ، فكأنَّهم هُم بأعيانِهم، وفيه مِن المُبالَغةِ ما لا يَخفى. وأمَّا التَّعليلُ فإنَّ ترَقُّبَ الحُكمِ على الوصفِ -وكذا تَعَلُّقَه به- يُشعِرُ بعِلِّيَّتِه له، فيُشعِرُ ذلك بأنَّ الإبعادَ حصَل لهم مِن أجْلِ كَونِهم أصحابَ السَّعيرِ[4].



(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨، ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٩)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٨/ ٢٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٤).

الآيات (١٢-١٥)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَخْشَوْنَ﴾: الخَشيةُ: خَوفٌ يَشوبُه تَعظيمٌ، وهي: أشدُّ مِن الخَوفِ وأَخَصُّ منه؛ فهي خَوفٌ مَقرونٌ بمعرفةٍ، وأكثَرُ ما تكونُ الخَشيةُ عن عِلمٍ بالمَخوفِ منه، وأصلُ (خشِي): يدُلُّ على خَوفٍ وذُعْرٍ[(١)].

﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: أي: بالضَّمائِرِ والنِّيَّاتِ والأسرارِ؛ خَيرِها وشَرِّها؛ لأنَّها في الصُّدورِ، تَحُلُّها وتُصاحِبُها، وذاتُ: صاحبةٌ، مؤنَّثُ (ذو) بمعنى صاحبٍ، وقيل: حاجةِ الصُّدورِ، وقيل: بخَفِيَّاتِ القلوبِ، وقيل: بحقيقةِ ما في الصُّدورِ، وذاتُ الشَّيءِ: نفْسُه وحَقيقتُه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (٦/ ١٠٠)، ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٨٣، ١٣٨٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥) و (٢٣/ ٣٤٢).

قال ابنُ القَيِّم: (قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ليس المرادُ به عليمًا بمُجَرَّدِ الصُّدورِ؛ فإنَّ هذا ليس فيه كَبيرُ أمرٍ، وهو بمنزلةِ أن يُقالَ: عَليمٌ بالرُّؤوسِ والظُّهورِ والأيدي والأرجُلِ، وإنَّما المرادُ به: عليمٌ بما تُضمِرُه الصُّدورُ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، أي: بالأسرارِ الَّتي في الصُّدورِ، وصاحِبةِ =

﴿ٱللَّطِيفُ﴾: أي: العالِمُ بدقائقِ الأمورِ، الَّذي أحاط عِلمُه بالسَّرائرِ والخفايا، الرَّفيقُ بالعبادِ، اللَّطيفُ بهم في مَعايِشِهم، وأرزاقِهم، وهدايتِهم، الموصلُ إليهم مَصالِحَهم بلُطفِه وإحسانِه مِن طُرقٍ خفيَّةٍ لا يَشعُرون بها، وأصل (لطف): يدُلُّ على رِفْقٍ، وعلى صِغَرٍ في الشَّيءِ[1].

﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: أي: الَّذي انتهَى عِلمُه إلى الإحاطةِ ببَواطِنِ الأشياءِ وخَفاياها، كما أحاطَ بظَواهِرِها، والخُبْرُ: العِلمُ بالشَّيءِ، أو: هو العِلمُ بكُنْهِ المَعلوماتِ على حقائقِها، وأصلُ (خبر) هنا: يدُلُّ على عِلمٍ[2].

﴿ذَلُولًا﴾: أي: سَهلةً لَيِّنةً لا يَمتَنِعُ المَشيُ عليها؛ مِنَ الذِّلِّ: وهو اللِّينُ والانقيادُ، وأصلُ (ذلل): يدُلُّ على الخُضوعِ واللِّينِ[3].

﴿مَنَاكِبِهَا﴾: أي: أطرافِها ونواحيها وطُرُقِها وفِجاجِها، وأصلُ (نكب): يدُلُّ على مَيلٍ في شَيءٍ[4].

= الصُّدورِ؛ فأضافها إليها بلَفظٍ يَعُمُّ جميعَ ما في الصُّدورِ مِن خَيرٍ وشَرٍّ). ((الصواعق المرسلة)) (٤/ ١٣٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٤٤)، ((اشتقاق أسماء الله)) للزجاجي (ص: ١٣٨)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٠)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٩)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٩٣)، ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) لابن القيم (٢/ ٤٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((غريب =

﴿ٱلنُّشُورُ﴾: أي: البَعثُ والمَرجِعُ، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتشَعُّبه[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مبيِّنًا حُسنَ عاقبةِ المؤمنينَ: إنَّ الَّذين يَخافونَ رَبَّهم، والحالُ أنَّهم لم يَرَوه، ويُطيعونَه، ويَترُكونَ مَعصيتَه حتَّى في خَلَواتِهم: لهم مَغفِرةٌ وثوابٌ عَظيمٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُنَبِّهًا على أنَّه مُطَّلِعٌ على الضَّمائرِ والسَّرائرِ: وأخْفُوا كَلامَكم -أيُّها النَّاسُ- أو أظْهِروه؛ إنَّ اللهَ عليمٌ بما في قُلوبِ العِبادِ.

ثمَّ يَستَدِلُّ تعالى على عِلمِه بدليلٍ عقليٍّ، فيقولُ: مَن خلَق الخَلْقَ، كيفَ لا يَعلَمُه، وكيف يَخفى عليه سبحانَه، وهو العالِمُ بدقائِقِ الأشياءِ وخَباياها، فلا تخفى عليه خافِيةٌ؟!

ثُمَّ يذكرُ تعالى نِعمتَه على خَلقِه في تسخيرِه لهم الأرضَ، فيقولُ: هو الَّذي جَعَل لكم الأرضَ مُذَلَّلةً مُوطَّأةً؛ فامشُوا في جوانبِها ونواحيها، وكُلُوا مِن رِزقِ اللهِ، وإليه تعالى وَحْدَه المرجِعُ والبَعثُ بعْدَ المَوتِ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ وَعيدَ الكُفَّارِ؛ أتْبَعَه بوَعدِ المؤمِنينَ[٢]، ولَمَّا ذكَرَ حالةَ

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٤).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٨).

الأشقياءِ الفُجَّارِ؛ ذكَرَ حالةَ السُّعَداءِ الأبرارِ[(١)].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾.

أي: إنَّ الَّذين يخافُونَ اللهَ وهم لم يَرَوه في الدُّنيا، ولم يَرَوا عذابَه، فيُطيعونَه ويَترُكونَ مَعصيتَه حتَّى في خَلَواتِهم حيثُ لا يَراهم النَّاسُ: لهم مَغفِرةٌ مِنَ اللهِ لِذُنُوبِهم، وثوابٌ عَظيمٌ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٠ - ٢٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

قيل: معنى قولِه: ﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: في خَلَواتِهم إذا غابوا عن النَّاسِ، حيث لا يَطَّلِعُ عليهم ولا يَراهم إلَّا اللهُ. وممَّن اختاره في الجملةِ: ابنُ كثير، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

وقيل: المعنى: يَخافون ربَّهم وهم لم يَرَوْه. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي، والخازنُ، ونَسَبه ابنُ الجوزيِّ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٥٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٣).

قال الشوكاني: (﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ حالٌ مِن الفاعلِ أو المفعولِ، أي: غائبينَ عنه، أو غائبًا عنهم، والمعنى: أنَّهم يَخْشَون عذابَه ولم يَروه، فيُؤمِنونَ به خَوفًا مِن عذابِه. ويجوزُ أن يكونَ المعنى: يَخشون ربَّهم حالَ كَونِهم غائبينَ عن أعيُنِ النَّاسِ، وذلك في خَلَواتِهم. أو المرادُ بالغَيبِ كَوْنُ العذابِ غائبًا عنهم؛ لأنَّهم في الدُّنيا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٢).

وقال البِقاعي جامعًا بيْن معاني هذه الآيةِ: (﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: حالَ كَونِهم غائبينَ عنه سُبحانَه، ووعيده غائبًا عنهم، وهم غائبونَ عن أعيُنِ النَّاسِ، وقد ملأ الخَوفُ ما غاب منهم عن النَّاسِ وهي قُلوبُهم، فهم مع النَّاسِ يَتكلَّمونَ، وقُلوبُهم تَتلَظَّى بنيرانِ الخَوفِ، وتُكلَمُ بسيوفِ الهَيبةِ، فيَترُكونَ المعصيةَ حيث لا يَراهم أحدٌ مِن النَّاسِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢٤٠).

﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت الخَشيةُ مِن الأفعالِ الباطنةِ، وكان كلُّ أحدٍ يَدَّعي أنَّه يَخشى اللهَ؛ قال مخوِّفًا لهم بعِلمِه، نادبًا إلى مُراقبتِه لئلَّا يَغتَرُّوا بحِلمِه، عاطفًا على ما تقديرُه لإيجابِ المراقبةِ: فأبطَنوا أفعالَهم وأظْهَروها[1]:

﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾.

أي: وأخفُوا كَلامَكم -أيُّها النَّاسُ- أو أظْهِروه؛ فكِلا الأمْرَينِ سَواءٌ عِندَ اللهِ، فلا يَخفى عليه شَيءٌ ممَّا تُسِرُّونَه أو تَجهَرونَ به مِن أقوالٍ[2].

كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو عِلمٍ بالِغٍ تامٍّ بما في قُلوبِ العِبادِ مِن العقائِدِ والنِّيَّاتِ والأسرارِ والخواطِرِ الَّتي لم يُتكلَّمْ بها، فما تكَلَّم به الإنسانُ سِرًّا أو نطَقَ به جهرًا أَولى وأحرى أن يَعلَمَه اللهُ سُبحانَه[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

وقيل: هذه الآيةُ خِطابٌ للكفَّارِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٢).

والمعنَى: إنْ أخفَيْتُم كلامَكم أو جهَرْتُم به في أمرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، فكلُّ ذلك يَعلَمُه اللهُ، لا تَخفَى عليه منه خافِيةٌ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٠)، ((شفاء العليل)) =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَر كونَه عالِمًا بالجَهرِ وبالسِّرِّ، وبما في الصُّدورِ؛ ذكَرَ الدَّليلَ على كَونِه عالِمًا بهذه الأشياءِ[(١)].

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

أي: وكيف يَخفى عليه سبحانَه ما في الصُّدورِ مِنْ أسرارٍ هو خلَقَها، وهو العالِمُ بدقائِقِ الأشياءِ، فيُدَبِّرُها ويَسوقُها لعبادِه برِفقٍ وخَفاءٍ مِن حيثُ لا يَشعُرونَ؛ فهو سُبحانَه عالِمٌ بما بَثَّه في القُلوبِ، وهو العالِمُ ببواطِنِ الأشياءِ وخباياها، فلا تخفَى عليه خافيةٌ[(٢)]؟!

= لابن القيم (ص: ٥٥، ٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

قال ابن القيِّم: (ذاتُ الصُّدورِ كلمةٌ جامعةٌ لِما يَشتمِلُ عليه الصَّدرُ مِن الاعتقاداتِ والإراداتِ، والحُبِّ والبُغضِ، أي: صاحبةُ الصُّدورِ؛ فإنَّها لَمَّا كانت فيها قائمةً بها نُسِبَتْ إليها نِسبةَ الصُّحبةِ والمُلازَمةِ). ((شفاء العليل)) (ص: ٥٥).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (قَولُه بعْدَ ذلك: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ من بابِ التَّنبيهِ بالأدنى على الأعلى؛ فإنَّه إذا كان عليمًا بذاتِ الصُّدورِ، فعِلْمُه بالقَولِ المُسَرِّ والمَجهورِ به أَولى). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١١)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٤)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١٠/ ١١٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٢١١) و(١٦/ ٣٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير =

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

= السعدي)) (ص: ٨٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١).

قال ابن جُزَي: (يحتمِلُ أن يكونَ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ فاعلًا يُرادُ به الخالقُ، والمفعولُ محذوفٌ تقديرُه: ألَا يعلمُ الخالقُ خَلْقَه؟! أو يكونَ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ مفعولًا، والفاعلُ مُضمَرٌ تقديرُه: ألَا يَعلَمُ اللهُ مَن خَلَق؟!). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٦).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ قولَه: ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ فاعِلٌ يُرادُ به الخالِقُ-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والسمعاني، والبغوي، والرازي، والرَّسْعَني، والقرطبي، وابن جُزَي، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٠)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

قال ابن جُزَي: (لأنَّ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ إذا كان مفعولًا اختصَّ بمَن يعقِلُ، والمعنى الأوَّلُ يَعُمُّ مَن يَعقِلُ ومَن لا يعقِلُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٦).

وقال الرَّسْعَني: (﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ أي: ألَا يَعلَمُ ما في الصُّدورِ مَنْ خَلَقَها، و﴿مَنْ خَلَقَ﴾ في محلِّ الرَّفعِ بإسنادِ الفِعلِ إليه). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٠٥).

وقال الشَّوْكاني: (المعنى: ألَا يَعلَمُ السِّرَّ ومُضْمَراتِ القُلوبِ مَن خلَقَ ذلك وأوجَده، فالمَوصولُ عِبارةٌ عن الخالِقِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٢).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ -أنَّ قوله: ﴿مَنْ﴾ مفعولٌ-: ابنُ جرير، واستظهره أبو حيَّان، واستَحسَنه البقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٣).

قال ابن القيِّم: (وقد اختُلِف في إعرابِ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ هل هو النَّصبُ أو الرَّفعُ؟ فإن كان مرفوعًا فهو استِدلالٌ على عِلمِه بذلك لِخَلْقِه له، والتَّقديرُ: أنَّه يَعلَمُ ما تَضَمَّنَتْه الصُّدورُ، وكيف لا يَعلَمُ الخالقُ ما خلَقَه؟! وهذا الاستِدلالُ في غايةِ الظُّهورِ والصِّحَّةِ؛ فإنَّ الخَلقَ يَستلزِمُ حياةَ الخالقِ وقُدرتَه، وعِلمَه ومَشيئتَه. وإن كان منصوبًا فالمعنى: ألَا يَعلَمُ مَخلوقَه؟! وذكَر لَفظةَ «مَنْ» تغليبًا؛ لِيَتناوَلَ العِلمُ العاقلَ وصِفاتِه). ((شفاء العليل)) (ص: ٥٦).

لَمَّا ضرَبَ اللهُ سبحانَه لهم بخلْقِ أنفُسِهم دَليلًا على عِلمِه الدَّالِّ على وَحدانيَّتِه؛ شَفَعَه بدَليلِ خلْقِ الأرضِ الَّتي همْ عليها، مع المِنَّةِ بأنَّه خَلَقَها هيِّنةً لهم، صالحةً للسَّيرِ فيها، مُخرِجةً لأرزاقِهم[١]، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾.

أي: هو الَّذي جَعَل لكم الأرضَ مُذَلَّلةً مُوطَّأةً بحيثُ تَتمكَّنونَ مِن الانتفاعِ بها، بالوطْءِ عليها، والمشْيِ فَوقَها إلى غيرِ ذلك، ولم يَجعَلْها مُستصعَبةً ومُمتَنِعةً على مَن أراد ذلك منها[٢]!

﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾.

أي: فامشُوا في جوانبِها ونواحيها، وسافِروا حيثُ شئتُم مِن أقطارِها لطلبِ الرِّزقِ والمَكاسِبِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٤، ٢١٥)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

قال القرطبي: (هو أمرُ إباحةٍ، وفيه إظهارُ الامتنانِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٥).

واختلف المفسِّرون في معنى ﴿مَنَاكِبِهَا﴾؛ على أقوالٍ:

فقيل: المرادُ: طُرُقاتُها وفِجاجُها. وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: مُجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٥٩).

قال ابن عطيَّة: (قال مجاهِدٌ: هي الطُّرُقُ والفِجاجُ. وهذا قَولٌ جارٍ مع اللُّغةِ؛ لأنَّها تُنكَبُ يَمنةً ويَسرةً، ويَنكُبُ الماشي فيها في مَناكِبَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤١). ويُنظر: ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٨).

وقال ابنُ القيِّم: (حسُنَ التَّعبيرُ بمَناكِبِها عن طُرُقِها وفِجاجِها؛ لِما تقَدَّم مِن وَصفِها بكَونِها =

﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾.

أي: وكُلُوا مِن رِزقِ اللهِ الحَلالِ الَّذي أودَعَه فيها، وأقْدَرَكم على إخراجِه منها[1].

= ذَلولًا؛ فالماشي عليها يطَأُ على مَناكِبِها، وهو أعلى شَيءٍ فيها؛ ولهذا فُسِّرَت المَناكِبُ بالجبالِ، كمَناكِبِ الإنسانِ، وهي أعاليه. قالوا: وذلك تنبيهٌ على أنَّ المَشيَ في سُهولِها أيسَرُ. وقالت طائفةٌ: بل المناكِبُ الجوانِبُ والنَّواحي، ومنه مَناكِبُ الإنسانِ لِجَوانبِه. والَّذي يَظهَرُ أنَّ المُرادَ بالمناكِبِ الأعالي، وهذا الوَجهُ الَّذي يَمشي عليه الحيوانُ هو العالي مِن الأرضِ دونَ الوَجهِ المقابِلِ له؛ فإنَّ سَطحَ الكُرةِ أعلاها، والمَشيُ إنَّما يقعُ في سَطحِها، وحَسُنَ التَّعبيرُ عنه بالمَناكِبِ؛ لِما تقدَّمَ مِن وَصفِها بأنَّها ذَلولٌ). ((الفوائد)) (ص: ١٨).

وقيل: المرادُ: جِبالُها. وممَّن ذهب إلى هذا: الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٩٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠).

وقيل: المرادُ: جوانِبُها ونواحيها. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، وأبو عُبَيدةَ، وابنُ قُتَيبةَ، وابن جرير، والسمعاني، والخازن، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٧١)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٦٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٥).

ونسَبَ ابنُ كثيرٍ إلى ابنِ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٍ، وقَتادةَ، والسُّدِّيِّ أنَّ معنى ﴿مَنَاكِبِهَا﴾: أطرافُها وفِجاجُها ونواحيها. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠).

وقال الزمخشري: (المشيُ في مَناكِبِها: مَثَلٌ لِفَرطِ التَّذليلِ ومُجاوَزَتِه الغايةَ؛ لأنَّ المَنكِبَينِ ومُلتقاهما مِن الغارِبِ أرَقُّ شَيءٍ مِن البعيرِ، وأنباه عن أن يَطأَه الرَّاكِبُ بقَدَمِه ويعتَمِدَ عليه، فإذا جعَلَها في الذُّلِّ بحيثُ يُمشى في مَناكِبِها لم يَترُكْ [شَيئًا منها إلَّا قد ذَلَّلَه]). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٠).

وقيل المرادُ: أطرافُها ونواحيها وجبالُها. وممَّن اختاره: السمرقنديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٥)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٦).

﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه لا إلى غَيرِه المرجِعُ بعْدَ مَوتِكم، فتُبعَثونَ مِن قُبورِكم يومَ القيامةِ للجَزاءِ على أعمالِكم[١].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- خَشيةُ اللهِ تعالى في الغَيبِ والشَّهادةِ المعنيُّ بها أنَّ العَبدَ يَخشى اللهَ سِرًّا وإعلانًا، وظاهِرًا وباطِنًا؛ فإنَّ أكثَرَ النَّاسِ يرى أنَّه يخشى اللهَ في العَلانيةِ وفي الشَّهادةِ، ولكِنَّ الشَّأنَ في خشيتِه اللهَ في الغَيبِ إذا غاب عن أعيُنِ النَّاسِ، وقد مدَحَ اللهُ مَن يَخافُه بالغيبِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾[٢] [المائدة: ٩٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ خِطابٌ عامٌّ لجميعِ الخَلقِ في جميعِ الأعمالِ، والمرادُ أنَّ قَولَكم وعمَلَكم على أيِّ سَبيلٍ وُجِدَ، فالحالُ واحِدٌ في عِلْمِه تعالى بهذا؛ فاحذَروا من المعاصي سِرًّا كما تحتَرِزونَ عنها جَهرًا؛ فإنَّه لا يتفاوَتُ ذلك بالنِّسبةِ إلى عِلمِ اللهِ تعالى[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ تحذيرٌ للإنسانِ أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

قال القُرطبيُّ: (قيل: معناه: أنَّ الَّذي خلَقَ السَّماءَ لا تَفاوُتَ فيها، والأرضَ ذَلولًا: قادِرٌ على أن يَنشُرَكم). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٩).

يَعمَلَ بما يُسْخِطُ اللهَ تعالى؛ لا تَعمَلْ بما يُسْخِطُ اللهَ لا بالقَولِ ولا بالفِعلِ ولا بالاعتِقادِ؛ لأنَّ اللهَ عليمٌ به، احْذَرْ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾(١) [آل عمران: ٢٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يأكُلَ مِن عَمَلِ يدِه، ويَتعفَّفَ عن السُّؤالِ، وأنْ يَكتَسِبَ ويَتَّجِرَ(٢).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ الأمرُ للإباحةِ، ولكِنَّ التَّقديمَ لهذا الأمرِ بقَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ فيه امتِنانٌ مِنَ اللهِ تعالى على خَلْقِه، مِمَّا يُشعِرُ أنَّ في هذا الأمرِ مع الإباحةِ توجيهًا وحَثًّا للأمَّةِ على السَّعيِ، والعَمَلِ والجِدِّ، والمَشيِ في مَناكِبِ الأرضِ مِن كُلِّ جانِبٍ؛ لِتَسخيرِها وتَذليلِها؛ ممَّا يَجعَلُ الأمَّةَ أحَقَّ بها مِن غيرِها، وعليه فقد وَضَع القُرآنُ الأمَّةَ الإسلاميَّةَ في أعزِّ مَواضِعِ الغِنى والاستِغناءِ والاستِثمارِ والإنتاجِ، فما نَقَص عليها مِن أمورِ دُنياها إلَّا بقَدْرِ ما قصَّرَت هي في القيامِ بهذا العَمَلِ، وأضاعت مِن حَقِّها في هذا الوُجودِ(٣). فما حَصَلَ في الدُّولِ الغربيَّةِ الكافِرةِ المُلْحِدةِ مِن التَّقَدُّمِ في الصِّناعاتِ وغَيرِها؛ فإنَّ دِينَنا لا يَمنَعُ منه -لو أنَّنا التفَتْنا إليه- لكنْ مع الأسفِ ضَيَّعْنا هذا وهذا؛ ضَيَّعْنا دِينَنا، وضَيَّعْنا دُنْيانا، وإلَّا فإنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ لا يُعارِضُ هذا التَّقدُّمَ، بل قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾(٤) [الأنفال: ٦٠].

---

(١) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٤٩).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أنَّ الإسلامَ يأمُرُ بكلِّ تَقدُّمٍ نافعٍ؛ فقد أُمِرْنا بالمشيِ في مناكِبِ الأرضِ -أي: جِهاتِها- ثُمَّ أُمِرْنا بالأكلِ مِن رِزْقِه، ومعنى ذلك أنْ نسعَى بطَلَبِ هذا الرِّزقِ؛ إذْ لا يُمكِنُ تحصيلُه إلَّا بأسبابه، والنَّاسُ يَختَلِفونَ في سُلوكِ ما يُلائِمُهم مِن أسبابِ الرِّزقِ؛ فمِنهم مَن يُحَصِّلُه بالتِّجارةِ، ومِنهم مَن يُحَصِّلُه بالصِّناعةِ، ومِنهم مَن يُحَصِّلُه بالزِّراعةِ، ومِنهم مَن يُحَصِّلُه بالعَمَلِ، إلى غيرِ ذلك مِن أسبابِ الرِّزقِ[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ حُجَّةٌ في السَّعيِ والحَركةِ في طَلَبِ الرِّزقِ، والتِماسِه بالمكاسِبِ في الأسفارِ والحَضَرِ[2].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾، يعني: يَنبغي أن يكونَ مُكْثُكم في الأرضِ، وأكْلُكم مِن رزقِ اللهِ: مُكْثَ مَن يَعلَمُ أنَّ مَرجِعَه إلى اللهِ، وأكْلَ مَن يتيَقَّنُ أنَّ مَصيرَه إلى اللهِ، والمرادُ تحذيرُهم عن الكُفرِ والمعاصي في السِّرِّ والجَهرِ[3].

وأيضًا فقولُه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّا في هذا المسكَنِ غيرُ مُستَوطِنينَ ولا مُقيمينَ، بل دخَلْناه عابِري سَبيلٍ؛ فلا يَحسُنُ أنْ نَتَّخِذَه وطَنًا ومُستقَرًّا، وإنَّما دخَلْناه لِنَتزَوَّدَ منه إلى دارِ القَرارِ، فهو مَنزِلُ عُبورٍ، لا مُستقَرُّ حُبُورٍ، ومَعْبَرٌ ومَمَرٌّ، لا وطَنٌ ومُستَقَرٌّ.

فتضمَّنَتِ الآيةُ التَّحذيرَ مِن الرُّكونِ إلى الدُّنيا، واتِّخاذِها وطَنًا ومُستقَرًّا، بل نُسرِعُ فيها السَّيرَ إلى الجَنَّةِ ودارِ القرارِ. فلِلَّهِ ما في ضِمنِ هذه الآيةِ مِن معرفتِه

---

(١) يُنظر: ((الضياء اللامع من الخطب الجوامع)) لابن عثيمين (١/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩١).

وتوحيدِه، والتَّذكيرِ بنِعَمِه، والحثِّ على السَّيرِ إليه، والاستِعدادِ لِلِقائِه والقُدومِ عليه، والإعلامِ بأنَّه سُبحانَه يَطوي هذه الدَّارَ كأنْ لم تكُنْ، وأنَّه يُحْيي أهْلَها بعدَ ما أماتَهم وإليه النُّشورُ(١)!

وأيضًا فقولُه: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ فيه تحذيرٌ مِن اللهِ لعبادِه أنْ يَسْلُكوا في تحصيلِ رِزْقِهم سُبُلًا حَرَّمَها اللهُ عليهم؛ فإنَّهم راجِعونَ إليه، ومُحاسِبُهم عليها(٢).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ السِّرَّ والجَهرَ عندَ الله وفي عِلمِ اللهِ على حَدٍّ سَواءٍ؛ لأنَّه عَليمٌ بذاتِ الصُّدورِ، يَعلَمُ خائِنةَ الأعيُنِ وما تُخفِي الصُّدورُ(٣).

٢- مِن صِفاتِ اللهِ تعالى ما قد يُعلَمُ بالعَقلِ، كما يُعْلَمُ أنَّه عالِمٌ، وأنَّه قادرٌ، وأنَّه حيٌّ؛ كما أرْشَد إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾(٤).

٣- قَولُه تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّه سُبحانَه خالِقُ أقوالِ العِبادِ وما في صُدورِهم(٥).

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٨).

(٢) يُنظر: ((الضياء اللامع من الخطب الجوامع)) لابن عثيمين (١/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٨٨).

(٥) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١٠/ ١١٧).

قال ابن القيِّم: (على التَّقديرَينِ [أي: كونِ ﴿مَنۡ خَلَقَ﴾ فاعلًا أو مفعولًا] فالآيةُ دالَّةٌ على خَلقِ ما في الصُّدورِ كما هي دالَّةٌ على عِلْمِه سُبحانَه به...، فقال: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾ أي: كيف يَخفى عليه ما في الصُّدورِ وهو الَّذي خلَقه، فلو كان ذلك غيرَ مخلوقٍ له لَبَطَلَ الاستِدلالُ به على العِلمِ، فخَلْقُه سُبحانَه للشَّيءِ مِن أعظَمِ الأدِلَّةِ على عِلمِه به، فإذا انتفَى الخَلقُ انتفى دليلُ العِلمِ، فلم يَبْقَ ما يدُلُّ على عِلمِه بما يَنطوي عليه الصَّدرُ إذا كان غيرَ خالِقٍ لذلك، وهذا مِن أعظَمِ =

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ أنَّ كُلَّ مخلوقٍ للهِ فهو مَعلومٌ له[١].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ له سُبحانه صِفَتا اللُّطفِ والخُبْرِ اللَّتانِ شَأنُهما إدراكُ البواطِنِ إدراكًا لا يكونُ مِثلُه؛ لأنَّ الغَرَضَ إثباتُ العِلمِ لِما أخفَوه؛ لظَنِّهم أنَّهم إذا أَسَرُّوا يَخفى، لا إثباتُ مُطلَقِ العِلمِ؛ فإنَّهم لم يُنكِروه[٢]. على القولِ بأنَّ الخطابَ للكفَّارِ.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ أنَّه سُبحانَه عالِمٌ بالجُزئيَّاتِ، وذلك مِن طُرُقٍ؛ أحَدُها: مِن جهةِ كَونِ الخَلْقِ يَستَلزِمُ العِلمَ بالمخلوقِ. والثَّاني: مِن جهةِ كَونِه في نفْسِه «لطيفًا خبيرًا»، وذلك يُوجِبُ عِلْمَه بدقيقِ الأشياءِ وخَفيِّها. ثُمَّ يُقالُ: ﴿اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ عِلْمُه بنَفْسِه أَولى مِن عِلْمِه بغَيرِه، وعِلْمُه بنَفْسِه مُستَلزِمٌ لعِلْمِه بلَوازِمِ ذاتِه[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ أنَّه سُبحانَه يَجعَلُ أسماءَه دليلًا على ما يُنكِرُه الجاحِدونَ مِن صِفاتِ كَمالِه[٤].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ

= الكفرِ برَبِّ العالَمينَ، وجَحْدٌ لِما اتَّفقَتْ عليه الرُّسلُ مِن أوَّلِهم إلى آخِرِهم، وعُلِم بالضَّرورةِ أنَّهم ألْقَوْه إلى الأُمَمِ كما ألْقَوْا إليهم أنَّه إلهٌ واحدٌ لا شريكَ له). ((شفاء العليل)) (ص: ٥٦).
لكِنْ قال ابنُ عاشور: (الآيةُ دليلٌ على عُمومِ عِلْمِه تعالى، ولا دَلالةَ فيها على أنَّه تعالى خالِقُ أفعالِ العبادِ؛ للانفكاكِ الظَّاهرِ بيْن تعَلُّقِ العِلمِ وتعَلُّقِ القُدرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٣، ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١٠/ ١١٧).

(٤) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٦).

﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ فيه الأمرُ بالتَّسَبُّبِ والكَسبِ[١].

٩- قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أخبَر سُبحانَه أنَّه جعَل الأرضَ ذَلولًا مُنقادةً لِلْوَطْءِ عليها وحَفرِها وشَقِّها والبناءِ عليها، ولم يَجعَلْها مُستصعَبةً مُمتَنِعةً على مَن أراد ذلك منها، والمقصودُ أنَّه سُبحانَه جعَل لنا الأرضَ كالجَمَلِ الذَّلولِ، الَّذي كَيْفَما يُقادُ يَنقادُ، ثمَّ أمَرَهم أن يأكُلوا مِن رِزقِه الَّذي أودعه فيها، فذَلَّلها لهم ووَطَّأها، وفتَقَ فيها السُّبُلَ والطُّرُقَ الَّتي يَمشون فيها، وأودعها رِزقَهم، فذكَرَ تهيئةَ المَسكَنَ للانتِفاعِ والتَّقلُّبِ فيه بالذَّهابِ والمجيءِ، والأكلِ ممَّا أودع فيها للسَّاكنِ؛ فتضَمَّنَت الآيةُ الدَّلالةَ على رُبوبيَّتِه ووحدانيَّتِه وقُدرتِه وحِكمتِه ولُطفِه، والتَّذكيرَ بنِعَمِه[٢].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ اعتِراضٌ -وذلك على القولِ بأنَّ الخطابَ في قولِه: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ ...﴾ للكفَّارِ- يُفيدُ استئنافًا بيانيًّا جاء على سَنَنِ أساليبِ القرآنِ مِن تَعقيبِ الرَّهبةِ بالرَّغبةِ، فلمَّا ذَكَر ما أعدَّ للكافِرين المعرِضينَ عن خَشيةِ اللهِ، أعقبَه بما أعدَّ للَّذين يَخشَون ربَّهم بالغَيبِ مِن المغفرةِ والثَّوابِ؛ للعِلمِ بأنَّهم يَترقَّبون ما يُميِّزُهم عن أحوالِ المشركين[٣].

- وفي قولِه: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ قدَّمَ المغفرةَ تَطمينًا لقُلوبِ الَّذين يَخشَون ربَّهم بالغَيبِ؛ لأنَّهم يَخشَون المؤاخَذةَ على ما فرَطَ منهم مِن الكفرِ قبْلَ الإسلامِ، ومِن اللَّمَمِ ونحْوِه، ثمَّ أُعقِبَت بالبِشارةِ بالأجْرِ العظيمِ، فكان الكلامُ جاريًا

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩).

على قانونِ تَقديمِ التَّخليةِ على التَّحليةِ، أو تَقديمِ دفْعِ الضُّرِّ على جلْبِ النَّفْعِ[١].

- وتَنكيرُ ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ للتَّعظيمِ؛ بقَرينةِ مُقارَنتِه بـ(أَجْرٌ كَبيرٌ)، وبقَرينةِ التَّقديمِ[٢].

- وتَقديمُ المسنَدِ ﴿لَهُم﴾ على المسنَدِ إليه ﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾؛ لإفادةِ الاهتمامِ، وللرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ عطْفٌ على الجُمَلِ السَّابقةِ عطْفَ غرَضٍ على غرَضٍ، وهو انتقالٌ إلى غرَضٍ آخَرَ لمُناسَبةِ حِكايةِ أقوالِهم في الآخرةِ بذِكرِ أقوالِهم في الدُّنيا، وهي الأقوالُ الَّتي كانت تَصدُرُ منهم بالنَّيلِ مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٤]. وذلك على القولِ بأنَّ الخطابَ للكفَّارِ.

- وصِيغةُ الأمرِ في ﴿وَأَسِرُّواْ﴾ و﴿ٱجۡهَرُواْ﴾ مُستعمَلةٌ في التَّسويةِ بيْن السِّرِّ والجَهرِ بالنِّسبةِ إلى عِلمِه تَعالى[٥].

- وتَقديمُ السِّرِّ على الجَهرِ؛ للإيذانِ بافتضاحِهم، ووُقوعِ ما يَحذَرونه مِن أوَّلِ الأمرِ، والمُبالَغةِ في بَيانِ شُمولِ عِلمِه عزَّ وجلَّ المحيطِ لجَميعِ المعلوماتِ، كأنَّ عِلمَه تعالَى بما يُسِرُّونه أقدَرُ منهُ بما يَجهَرونَ به، مع كَونِهما في الحقيقةِ على السَّويَّةِ؛ فإنَّ عِلمَه تعالَى بمَعلوماتِه ليس بطريقِ حُصولِ صُوَرِها، بلْ وُجودُ كلِّ شَيءٍ في نفْسِه عِلْمٌ بالنِّسبةِ إليه تعالَى. أو لأنَّ مَرتبةَ السِّرِّ مُتقدِّمةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٩، ٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠).

على مَرتبةِ الجَهرِ؛ إذْ ما مِن شَيءٍ يُجهَرُ به إلَّا وهو أو مَباديهِ مُضْمَرٌ في القلبِ يَتعلَّقُ بهِ الإسرارُ غالبًا، فتَعلُّقُ عِلمِه تعالَى بحالَتِه الأُولى مُتقدِّمٌ على تَعلُّقهِ بحالتِه الثَّانيةِ(١).

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تَعليلٌ لِما قبْلَه، وتَقريرٌ لهُ. وفي صِيغةِ الفَعيلِ، وتَحليةِ الصُّدورِ بلامِ الاستِغراقِ، ووصْفِ الضَّمائرِ بصاحبِيَّتِها؛ مِن الجَزالةِ ما لا غايةَ وَراءَه، كأنَّه قيلَ: إنَّه عزَّ وجلَّ مُبالِغٌ في الإحاطةِ بمُضْمَراتِ جَميعِ النَّاسِ وأسرارِهم الخفيَّةِ المُستكِنَّةِ في صُدورِهم، بحيثُ لا تَكادُ تُفارِقُها أصلًا، فكيفَ يَخْفَى عليه ما تُسِرُّونَه وتَجْهرونَ به(٢)؟!

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣]؛ بأنْ يَسألَ سائلٌ منهم: كيف يَعلَمُ ذاتَ الصُّدورِ، والمعروفُ أنَّ ما في نفْسِ المرءِ لا يَعلَمُه غيرُ نفْسِه؟ فأُجيبوا بإنكارِ انتفاءِ عِلمِه تعالَى بما في الصُّدورِ؛ فإنَّه خالِقُ أصحابِ تلك الصُّدورِ، فكما خَلَقَهم وخلَقَ نُفوسَهم، جعَلَ اتِّصالًا لتَعلُّقِ عِلمِه بما يَختلِجُ فيها، وليس ذلك بأعجَبَ مِن عِلمِ أصحابِ الصُّدورِ بما يَدورُ في خَلَدِها؛ فالإتيانُ بـ(مَن) الموصولةِ لإفادةِ التَّعليلِ بالصِّلةِ(٣).

- يَجوزُ أنْ يكونَ ﴿مَنۡ خَلَقَ﴾ مَفعولَ ﴿يَعۡلَمُ﴾، فيكونَ ﴿يَعۡلَمُ﴾ و﴿خَلَقَ﴾ رافعَينِ ضَميرينِ عائدينِ إلى ما عاد إليه ضَميرُ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠).

فيكونَ (مَن) الموصولةُ صادقةً على المخلوقينَ، وحُذِفَ العائدُ مِن الصِّلةِ؛ لأنَّه ضَميرُ نصْبٍ يَكثُرُ حذْفُه، والتَّقديرُ: مَن خَلَقَهم. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ فاعلَ ﴿يَعْلَمُ﴾، والمرادُ اللهُ تَعالى، وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَعْلَمُ﴾؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾، والتَّقديرُ: ألَا يَعلَمُ خالِقُكم سِرَّكم وجَهْرَكم، وهو الموصوفُ بلطيفٍ خبيرٍ[١]؟!

- وتَخصيصُ ذِكرِ الخالِقِ دونَ سائرِ الأسماءِ في مَقامِ إثباتِ العِلمِ، إشعارٌ بأنَّ الخالقَ يَنْبغي أنْ يكونَ عالِمًا بما يَخلُقُه وبتَفاصيلِه. وفيه إدماجٌ لمعْنى أنَّ العبْدَ غيرُ خالقٍ لأفعالِه؛ لأنَّه لا يَعلَمُها في الأزَلِ[٢].

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الأحسَنُ أنْ تُجعَلَ عطْفًا على جُملةِ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾؛ لتُفيدَ تَعليمًا للنَّاسِ بأنَّ عِلمَ اللهِ تعالى مُحيطٌ بذَواتِ الكائناتِ وأحوالِها؛ فبَعْدَ أنْ أنكَرَ ظَنَّهم انتفاءَ عِلمِ اللهِ بما يُسِرُّون، أعلَمَهم أنَّه يَعلَمُ ما هو أعمُّ مِن ذلك، وما هو أخْفَى مِن الإسرارِ مِن الأحوالِ[٣].

- أو هي حالٌ مِن فاعلِ ﴿يَعْلَمُ﴾ مُؤكِّدةٌ للإنكارِ والنَّفيِ، أي: ألَا يَعلَمُ ذلكَ والحالُ أنَّه المُتوصِّلُ عِلمُه إلى ما ظهَرَ مِن خلْقِه وما بطَنَ؟! أو المعنَى: ألَا يَعلَمُ اللهُ مَنْ خلَقَه؛ والحالُ أنَّه بهذه المثابةِ مِن شُمولِ العلمِ، على القولِ بأنَّ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ مَنصوبًا، وقيل: هي حالٌ مِن فاعلِ ﴿خَلَقَ﴾[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠، ٣١).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٥٠، ٥٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٩، ٥٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٠)، ((حاشية الطيبي)) (١٥/ ٥٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٥).

٤- قولُه تعالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾

- قولُه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾ استئنافٌ فيه عَودٌ إلى الاستِدلالِ، وإدماجٌ[1] للامتنانِ؛ فإنَّ خلْقَ الأرضِ الَّتي تَحْوي النَّاسَ على وَجْهِها أدلُّ على قُدرةِ اللهِ تعالَى وعِلمِه مِن خلْقِ الإنسانِ؛ إذ ما الإنسانُ إلَّا جُزءٌ مِن الأرضِ، أو كجُزْءٍ منها، قال تعالَى: ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ ﴾ [طه: ٥٥]، وامتنَّ عليهم بأنَّه خَلَقَ الأرضَ هيِّنةً لهم، صالحةً للسَّيرِ فيها، مُخرِجةً لأرزاقِهم، وذيَّلَ ذلك بأنَّ النُّشورَ منها، وأنَّ النُّشورَ إليه لا إلى غيرِه[2].

- والقصْرُ المستفادُ مِن تَعريفِ جُزأي ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ قصْرُ قلْبٍ[3] بتَنزيلِ المخاطَبين مَنزِلةَ مَن يَعتقِدُ أنَّ الأصنامَ خَلَقَت الأرضَ؛ لأنَّ اعتقادَهم إلهيَّتَها يَقْتضي إلزامَهم بهذا الظَّنِّ الفاسدِ وإنْ لم يَقولوه[4].

- وتَقديمُ ﴿ لَكُمُ ﴾ على مَفعُولَي الجَعْلِ مع أنَّ حقَّه التَّأخُّرُ عنهُما؛ للاهتمامِ بِما قُدِّمَ، والتَّشويقِ إلى ما أُخِّرَ؛ فإنَّ ما حقُّه التَّقديمُ إذا أُخِّرَ -لا سيَّما عندَ كَونِ المقدَّمِ ممَّا يدُلُّ على كَونِ المؤخَّرِ مِن مَنافعِ المخاطَبينَ- تَبقَى النَّفْسُ مُترقِّبةً لِوُرودِه، فيَتمكَّنُ لَدَيها عِندَ ذِكرِه فضْلَ تَمكُّنٍ[5].

- والذَّلولُ فَعولٌ للمُبالَغةِ، مِن ذلك تقولُ: دابَّةٌ ذَلولٌ: بيِّنةُ الذِّلِّ، ورجُلٌ

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧).

ذَليلٌ: بيِّنُ الذُّلِّ[(١)].

- قولُه: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ الفاءُ الفصيحةُ لتَرتيبِ الأمْرِ على الجَعْلِ المذكورِ، أي: إنْ عرَفْتُم ذلك فامْشُوا في...[(٢)].

- قولُه: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أمرُ إباحةٍ. وقيل: هو خبرٌ بلَفظِ الأمرِ[(٣)]. وقيل: صِيغةُ الأمرِ ﴿فَٱمۡشُواْ﴾ مُستعمَلةٌ في معْنى الإدامةِ؛ تَذكيرًا بما سخَّرَ اللهُ لهم مِن المشْيِ في الأرضِ امتنانًا بذلك[(٤)].

- ومُناسَبةُ قولِه: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ أنَّ الرِّزقَ مِن الأرضِ، والأمْرُ قيل: هو مُستعمَلٌ في الإدامةِ أيضًا؛ للامتنانِ[(٥)].

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ تَذكيرٌ بشَواهدِ الرُّبوبيَّةِ والإنعامِ؛ ليَتدبَّروا فيَترُكوا العِنادَ[(٦)].

- وعطْفُ جُملةِ ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ على ما قبْلَها تَتميمٌ[(٧)] واستِطرادٌ لمُناسَبةِ ذِكرِ الأرضِ؛ فإنَّها مَثوى النَّاسِ بعْدَ الموتِ، والمعْنى: إليه النُّشورُ منها، وذلك يَقْتضي حذْفًا، أي: وفيها تَعودون[(٨)]. أو مُناسَبةُ ذِكرِ النُّشورِ هو ذِكرُ خلْقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٨).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢).

الأرضِ؛ فإنَّ البعثَ يكونُ مِن الأرضِ[١].

- وتَعريفُ النُّشورِ تَعريفُ الجِنسِ؛ فيَعُمُّ، أي: كلُّ نُشورٍ، ومنه نُشورُ المخاطَبينَ، فكان قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ بمَنزلةِ التَّذييلِ[٢].

- قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: المرجِعُ بعدَ البعثِ لا إلى غيرِه، فبالِغُوا في شُكرِ نِعَمِه وآلائِه[٣]. وقيل: تَقديمُ المجرورِ في جُملةِ ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ للاهتمامِ[٤].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢).

الآيات (١٦-١٩)

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾: أي: يُغَيِّبَكم فيها، يُقالُ: خسَفَ اللهُ به الأرضَ، أي: غيَّبَه فيها، وأصلُ (خسف): يدُلُّ على ذَهابٍ وغُؤورٍ[١].

﴿تَمُورُ﴾: أي: تَدورُ وتتحَرَّكُ وتَضطَرِبُ، وأصلُ (مور): يدُلُّ على تردُّدٍ[٢].

﴿حَاصِبٗا﴾: أي: حِجارةً أو ريحًا عاصِفًا تَرمي بالحَصْباءِ، وهي الحَصَى الصِّغارُ، وأصلُ (حصب): يدُلُّ على الرَّميِ[٣].

﴿نَكِيرِ﴾: أي: إنكاري، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المَعرِفةِ[٤].

﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾: أي: باسِطاتٍ أجنِحتَها، وأصلُ (صفف): يدُلُّ على استِواءٍ في

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٧).

شَيءٍ[١].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى مهدِّدًا مَن استمرَّ في طغيانِه وكفرِه، ومحذِّرًا مِن عِقابِه: أأَمِنتُم -أيُّها الكافِرونَ- اللهَ الَّذي في العُلُوِّ فوقَ سَمواتِه؛ أن يَخسِفَ بكم الأرضَ عُقوبةً لكم على كُفرِكم به، فإذا بها تَضطَرِبُ بكم، أمْ أَمِنتُم اللهَ الَّذي في العُلُوِّ فوقَ السَّماءِ؛ أن يُرسِلَ عليكم حِجارةً يَرميكم بها؟! فستَعلَمونَ حينَها كيف يكونُ إنذاري وعاقِبةُ مَن كذَّبَ به!

ثمَّ يُذكِّرُهم سبحانَه بما جرَى للكافِرينَ السَّابقينَ، فيقولُ: ولقد كذَّب الكُفَّارُ الَّذين مِن قَبلِكم -يا مُشرِكي قُرَيشٍ- رُسُلَهم، فكيف كان إنكاري عليهم!

ثمَّ يَدْعوهم اللهُ تعالى إلى التَّأمُّلِ والتَّفكُّرِ بعدَ هذا التَّهديدِ والإنذارِ، فيقولُ: أوَلَم يرَ هؤلاء المُشرِكون المكَذِّبونَ إلى الطَّيرِ فَوقَهم ناشِراتٍ أجنِحتَهنَّ، ويَجمَعْنَها أحيانًا، ما يُمسِكُ تلك الطُّيورَ عن السُّقوطِ مِنَ السَّماءِ إلَّا الرَّحمنُ سُبحانَه؛ إنَّه بكُلِّ شَيءٍ بَصيرٌ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بيَّن أنَّ بقاءَ الخَلْقِ مع هذه السَّلامةِ في الأرضِ إنَّما كان بفَضْلِه ورَحمتِه، وأنَّه لو شاء لقَلَب الأمرَ عليهم[٢].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩١).

وأيضًا لَمَّا لم يكُنْ بعدَ ما ذكَر اللهُ تعالى إلَّا الإنذارُ؛ هدَّد اللهُ تعالى المكَذِّبينَ بعذابٍ دونَ عذابِ جَهنَّمَ، مُنكِرًا عليهم الأمانَ بعدَ إقامةِ الدَّليلِ على أنَّ بيَدِه المُلْكَ، وأنَّه قادِرٌ على ما يُريدُ منه بأسبابِ جُنودِه وبغيرِ سَبَبٍ، مقَرِّرًا بَعْدَ تقريرِ حاجةِ الإنسانِ وعَجْزِه أنَّه لا حِصْنَ له ولا مانِعَ له بوَجهٍ مِن عذابِ اللهِ؛ فهو دائِمُ الافتقارِ، ملازِمٌ للصَّغارِ[١]. فهو انتقالٌ مِن الاستدلالِ إلى التَّخويفِ؛ لأنَّه لَمَّا تَقرَّرَ أنَّه سُبحانَه خالقُ الأرضِ ومُذلِّلُها للنَّاسِ، وتقرَّر أنَّهم ما رَعَوا خالِقَها حقَّ رِعايتِه؛ فقدِ استَحقُّوا غَضَبَه وتَسليطَ عِقابِه، بأنْ يَصيرَ مَشْيُهم في مَناكبِ الأرضِ إلى تَجلجُلٍ في طَبَقاتِ الأرضِ[٢].

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾.

أي: أأَمِنتُم -أيُّها الكافِرونَ- اللهَ الَّذي هو في العُلُوِّ مُستَوٍ على عَرشِه فوقَ سَمواتِه؛ أن يَخسِفَ بكم الأرضَ عُقوبةً لكم على كُفرِكم به، فإذا بها تَضطَرِبُ بكم ذَهابًا وإيابًا[٣]؟!

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ [الأنعام: ٦٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٩)، ((الهداية)) لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٧٦٠٠)، ((الأسماء والصفات)) للبيهقي (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير القِنَّوْجي)) (١٤/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

قال ابنُ قُدامةَ: (اللهُ تعالى وَصَف نَفْسَه بالعلُوِّ في السَّماءِ، ووصَفَه بذلك محمَّدٌ خاتَمُ الأنبياءِ، وأجمَعَ على ذلك جميعُ العُلَماءِ مِن الصَّحابةِ الأتقياءِ، والأئمَّةِ مِن الفُقَهاءِ، وتواتَرَت الأخبارُ بذلك على وَجهٍ حَصَل به اليقينُ، وجمَعَ اللهُ تعالى عليه قلوبَ المسلمينَ، وجعَلَه مغروزًا في طِباعِ الخَلقِ أجمَعينَ). ((إثبات صفة العلو)) (ص: ٦٣).

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النحل: ٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٨].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ألَا تَأْمَنوني وأنا أمينُ مَن في السَّماءِ؟!))[(١)].

وعن مُعاويةَ بنِ الحَكَمِ السُّلَميِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه لطَم جاريةً له، وأتَى بها النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُريدُ عِتقَها، فسألَها النبيُّ: ((أينَ اللهُ؟ قالت: في السَّماءِ. قال: مَن أنا؟ قالت: أنت رَسولُ اللهِ. قال: أَعْتِقْها؛ فإنَّها مُؤمِنةٌ))[(٢)].

وعن عَبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((الرَّاحِمونَ يَرحَمُهمُ الرَّحمنُ، ارحَموا مَن في الأرضِ يَرحَمْكم مَن في السَّماءِ))[(٣)].

﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ۝١٧﴾.

﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾.

أي: أمْ أَمِنتُم اللهَ الَّذي هو في العُلُوِّ فوقَ السَّماءِ؛ أن يُرسِلَ عليكم حِجارةً

---

(١) رواه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤).

(٢) رواه مسلم (٥٣٧).

(٣) أخرجه أبو داودَ (٤٩٤١) واللَّفظُ له، والترمذيُّ (١٩٢٤)، وأحمدُ (٦٤٩٤) مُطوَّلًا.
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وصَحَّحه ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (١٢٧)، والعراقيُّ في ((الأربعون العشارية)) (١٢٥)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٩٤١)، وحَسَّنه ابنُ حجر في ((الإمتاع)) (١/ ٦٢)، وقال السخاوي في ((البلدانيات)) (٤٧): (حسَنٌ، بل صحَّحه غيرُ واحدٍ).

يَرميكم بها[(١)]؟!

﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾.

أي: فستَعلَمونَ حينَ يَحُلُّ العذابُ كيف يكونُ إنذاري، وعاقِبةُ مَن كذَّبَ به[(٢)]!

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: ولقد كذَّب الكُفَّارُ الَّذين مِن قَبلِ مُشركي قُرَيشٍ رُسُلَهم؛ كقَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ، وقَومِ لُوطٍ، وقَومِ شُعَيبٍ، وقَومِ فِرعَونَ، وغَيرِهم مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ الَّتي

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٤)، ((الأسماء والصفات)) للبيهقي (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

قيل: الحاصِبُ: حِجارةٌ مِنَ السَّماءِ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٧).

وقيل: الحاصِبُ هو التُّرابُ فيه الحَصباءُ الصِّغارُ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، ومكِّي، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٩، ١٣٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٩٢).

وقيل: المرادُ: ريحٌ ذاتُ حجارةٍ. وممن اختاره: الثعلبيُّ، والسمعاني، والبغوي، والخازن، وابن كثير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

أهلكَها اللهُ بعَذابِه في الدُّنيا(١).

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

أي: فكيف كان إنكاري عليهم تَكذيبَهم حينَ عَذَّبْتُهم(٢)؟!

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢ - ٤٤].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ * إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٢ - ١٤].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه انتُقِلَ مِن دَلالةِ أحوالِ البشَرِ وعالَمِهم إلى دَلالةِ أعجَبِ أحوالِ العَجْماواتِ، وهي أحوالُ الطَّيرِ في نِظامِ حَرَكاتِها في حالِ طَيَرانِها؛ إذ لا تَمْشي على الأرضِ كما هو في حَرَكاتِ غَيرِها على الأرضِ، فحالُها أقوى دَلالةً على عَجيبِ صُنْعِ اللهِ المنفرِدِ به(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧).

وأيضًا لَمَّا حذَّرَهم ما يُمكِنُ إحلالُه بهم مِن الخَسْفِ وإرسالِ الحاصِبِ؛ نبَّهَهم على الاعتبارِ بالطَّيرِ وما أُحكِمَ مِن خَلْقِها، وعلى عَجْزِ آلهتِهم عن شَيءٍ مِن ذلك، وناسَبَ ذلك الاعتبارُ بالطَّيرِ؛ إذ قدْ تَقدَّمَه ذِكرُ الحاصِبِ، وقد أهلَكَ اللهُ أصحابَ الفيلِ بالطَّيرِ والحاصِبِ الَّذي رمَتْهم به، ففيه إذكارُ قُرَيشٍ بهذه القصَّةِ، وأنَّه تعالَى لو شاءَ لَأهْلَكَهم بحاصِبٍ تَرْمي به الطَّيرُ، كما فَعَلَ بأصحابِ الفيلِ[1].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾.

أي: أوَلَم يَرَ هؤلاء المُشرِكون المكَذِّبونَ إلى الطَّيرِ وهي تطيرُ فَوقَهم في الجَوِّ ناشِراتٍ أجنِحتَهنَّ غالِبًا، ويَجمَعْنها أحيانًا حينَ يُدنينَها مِن جُنوبِهنَّ؛ للازديادِ مِن تَحريكِ الهواءِ للاستِمرارِ في الطَّيرانِ[2]؟

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩].

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾.

أي: ما يُمسِكُ تلك الطُّيورَ عن السُّقوطِ مِنَ السَّماءِ إلَّا الرَّحمنُ سُبحانَه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٧، ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩).

قال القرطبي: (﴿صَافَّاتٍ﴾ أي: باسطاتٍ أجنِحَتَهُنَّ في الجوِّ عندَ طَيَرانِها؛ لأنَّهنَّ إذا بَسَطْنَها صَفَفْنَ قَوادِمَها صفًّا. و﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أي: يَضرِبْنَ بها جُنوبَهُنَّ... وقيل: ويَقبِضْنَ أجنِحَتَهُنَّ بَعْدَ بَسْطِها إذا وَقَفْنَ مِن الطَّيَرانِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٧).

وقال أيضًا: (كما ذَلَّلَ الأرضَ للآدميِّ، ذلَّل الهواءَ للطُّيورِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير =

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىۡءِۭ بَصِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ بكُلِّ شَيءٍ مِن مخلوقاتِه بَصيرٌ، وكُلُّها تحتَ تَدبيرِه بما تقتَضيه حِكمتُه(١).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا عَلِم بأنَّ اللهَ تعالى فوقَ كلِّ شيءٍ، فإنَّه يَعرِفُ مِقدارَ سُلطانِه، وسيطرتِه على خَلْقِه، وحينَئذٍ يَخافُه ويُعَظِّمُه، وإذا خاف الإنسانُ ربَّه وعَظَّمَه فإنَّه يتَّقيه، ويقومُ بالواجِبِ، ويَدَعُ المُحَرَّمَ(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ هذا عِتابٌ وحَثٌّ على النَّظَرِ إلى حالةِ الطَّيرِ الَّتي سَخَّرَها اللهُ، وسَخَّر لها الجَوَّ والهواءَ، تَصُفُّ فيه أجنحتَها، وتَقبِضُها، فتظَلُّ سابِحةً في الجَوِّ، مُتَرَدِّدةً فيه بحَسَبِ إرادتِها وحاجتِها؛ فمَن نظَر في حالةِ الطَّيرِ واعتبَرَ فيها، دلَّتْه على قُدرةِ

= القرطبي)) (١٨/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

قال السعدي: (﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ فإنَّه الَّذي سخَّر لهنَّ الجَوَّ، وجعَلَ أجسادَهنَّ وخِلقتَهنَّ في حالةٍ مُستعِدَّةٍ للطَّيرانِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

وقال ابنُ عاشور: (معنى إمساكِ اللهِ إيَّاها: حِفظُها مِن السُّقوطِ على الأرضِ بما أودع في خِلقَتِها مِن الخصائصِ في خِفَّةِ عِظامِها، وقوَّةِ حركةِ الجَوانحِ، وما جعل لهنَّ مِن القَوادِمِ، وهي ريشاتٌ عَشْرٌ هي مَقاديمُ ريشِ الجَناحِ، ومِن الخَوافي، وهي ما دُونَها مِن الجَناحِ إلى منتهى ريشِه، وما خلَقَه مِن شكلِ أجسادِها المُعينِ على نُفوذِها في الهواءِ؛ فإنَّ ذلك كلَّه بخَلقِ اللهِ إيَّاها مانعًا لها مِن السُّقوطِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩، ٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٣٤٠).

الباري، وعنايتِه الرَّبَّانيَّةِ، وأنَّه الواحِدُ الأحَدُ الَّذي لا تَنبغي العِبادةُ إلَّا له(١).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ دَلالةٌ على عُلُوِّ اللهِ تعالى بذاتِه فوقَ خَلْقِه(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ كَنَّى سُبحانَه عن نفْسِه بهذا؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ إظهارِ عَظَمتِه، وأنَّه فَوقَكم، قادِرٌ عليكم، مُسيطِرٌ عليكم، مُهيمِنٌ عليكم؛ لأنَّ العاليَ له سُلطةٌ على مَن تَحْتَه(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ سؤالٌ: أنَّ «في» للظَّرفيَّةِ، فإذا كان اللهُ تعالى في السَّماءِ، و«في» للظَّرفيَّةِ؛ فإنَّ الظَّرفَ مُحيطٌ بالمَظروفِ! أرأَيْتَ لو قُلتَ: «الماءُ في الكأسِ»، فالكأسُ مُحيطٌ بالماءِ، وأوسَعُ مِن الماءِ، فإذا كان اللهُ يقولُ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فهذا ظاهِرُه أنَّ السَّماءَ محيطةٌ باللهِ تعالى. وهذا الظَّاهِرُ باطِلٌ، وإذا كان الظَّاهِرُ باطِلًا فإنَّنا نَعلَمُ عِلمَ اليقينِ أنَّه غيرُ مرادٍ للهِ؛ لأنَّه لا يمكنُ أنْ يكونَ ظاهِرُ الكِتابِ والسُّنَّةِ باطِلًا.

الجوابُ: أنْ نَسْلُكَ أحدَ طريقَينِ: فإمَّا أنْ نَجعَلَ السَّماءَ بمعنى العُلُوِّ، والسَّماءُ بمعنى العُلُوِّ: وارِدٌ في اللُّغةِ، بل في القُرآنِ؛ قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]، والمرادُ بالسَّماءِ العُلُوُّ؛ لأنَّ الماءَ يَنزِلُ مِن السَّحابِ لا مِن السَّماءِ الَّتي هي السَّقفُ المحفوظُ، والسَّحابُ في العُلُوِّ بيْن السَّماءِ والأرضِ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٩٦).

فيكونَ معنى: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مَن في العُلُوِّ، ولا يُوجَدُ إشكالٌ بعْدَ هذا، فهو في العُلُوِّ، ليس يُحاذيه شَيءٌ، ولا يكونُ فَوقَه سُبحانَه شَيءٌ!

الطَّريقُ الثَّاني: أنْ نَجعَلَ «في» بمعنى «على»، ونَجعَلَ السَّماءَ هي السَّقفَ المحفوظَ المرفوعَ، يعني: الأجرامَ السَّماويَّةَ، وتأتي «في» بمعنى «على» في اللُّغةِ العربيَّةِ، بل في القُرآنِ الكريمِ؛ قال فِرعَونُ لقَومِه السَّحَرةِ الَّذين آمَنوا: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، أي: على جُذوعِ النَّخلِ، فيكونَ معنى ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مَن على السَّماءِ، ولا إشكالَ بعْدَ هذا[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ سُؤالٌ: كيف الجَمعُ بيْن هذه الآيةِ وبيْن قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وقَولِه: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣]؟

الجوابُ: أمَّا الآيةُ الأُولى فإنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ فالظَّرفُ هنا لألوهيَّتِه، يعني: أنَّ ألوهيَّتَه ثابِتةٌ في السَّماءِ وفي الأرضِ، كما تقولُ: فلانٌ أميرٌ في المدينةِ ومكَّةَ، فهو نفْسُه في واحِدةٍ منهما، وفيهما

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٣٣٧).

قال ابنُ تيميَّةَ: (مَن توهَّم أنَّ مُقتضى هذه الآيةِ أن يكونَ اللهُ في داخِلِ السَّمَوات، فهو جاهِلٌ ضالٌّ بالاتِّفاق، وإن كنَّا إذا قُلْنا: إنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ في السَّماءِ يَقتضي ذلك؛ فإنَّ حرف «في» متعلِّقٌ بما قبْلَه وما بعْدَه، فهو بحَسَبِ المضافِ والمضافِ إليه؛ ولهذا يُفرَّقُ بيْن كَونِ الشَّيءِ في المكانِ، وكَونِ الجِسمِ في الحَيِّزِ، وكونِ العَرَضِ في الجِسمِ، وكونِ الوَجهِ في المرآةِ، وكونِ الكلامِ في الورَقِ، فإنَّ لكُلِّ نَوعٍ من هذه الأنواعِ خاصِّيَّةً يتميَّزُ بها عن غيرِه، وإن كان حرفُ «في» مُستعمَلًا في ذلك كُلِّه؛ فلو قال قائِلٌ: العَرشُ في السَّماءِ أم في الأرضِ؟ لقيل: في السَّماءِ. ولو قيل: الجنَّةُ في السَّماءِ أم في الأرضِ؟ لقيل: الجنَّةُ في السَّماءِ، ولا يلزَمُ من ذلك أن يكونَ العَرشُ داخِلَ السَّمَوات، بل ولا الجنَّةُ). ((التدمرية)) (ص: ٨٥، ٨٦). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦، ٤٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨-٣٢).

جميعًا بإمارتِه وسُلطتِه؛ فاللهُ تعالى ألوهيَّتُه في السَّماءِ وفي الأرضِ، وأمَّا هو عزَّ وجلَّ ففي السَّماءِ.

أمَّا الآيةُ الثَّانيةُ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ فنَقولُ فيها كما قُلْنا في الَّتي قَبْلَها: وهو اللهُ، أي: وهو الإلهُ الَّذي ألوهيَّتُه في السَّموات وفي الأرضِ، أمَّا هو نفْسُه ففي السَّماءِ، فيكونُ المعنى: هو المألوهُ في السَّمواتِ، المألوهُ في الأرضِ، فألوهيَّتُه في السَّمواتِ وفي الأرضِ، فتُخَرَّجُ هذه الآيةُ كتَخريجِ الَّتي قَبْلَها[1]، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فقد ذَكَر سُبحانَه السَّماءَ دونَ الأرضِ، ولم يُعَلِّقْ بذلك ألوهيَّةً أو غيرَها كما ذَكَرَ في الآيتينِ السَّابقَتَينِ[2].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فيه سُؤالٌ: هل تدُلُّ هذه الآيةُ على أنَّ الأفعالَ الاختياريَّةَ للعَبدِ مخلوقةٌ للهِ؟

الجوابُ: نعم؛ وذلك لأنَّ استِمساكَ الطَّيرِ في الهواءِ فِعلٌ اختياريٌّ للطَّيرِ[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ حُجَّةٌ على المعتَزِلةِ في بابِ الاستِطاعةِ؛ إذ قد أخبَرَ بإمساكِهنَّ عن نَفْسِه، ولم يَقُلْ: «يَسْتَمْسِكْنَ بالَّذي جَعَلَه في استِطاعَتِهنَّ مِن سُلطانِ الطَّيرانِ بالأجنحةِ والقَبضِ والبَسْطِ بهنَّ»، كما جَعَلَ للنَّاس سُلطانَ الحرَكاتِ والأعمالِ بالجَوارحِ الَّتي في أدواتِ الأفعالِ، وهم لا يَستطيعونَها إلَّا به سُبحانَه[4].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٧٦).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ الجُملةُ مُعترِضةٌ، والاستفهامُ إنكارٌ وتَوبيخٌ وتَحذيرٌ[١].

- والباءُ في قولِه: ﴿بِكُمُ﴾ للمُصاحَبةِ، أي: يَخسِفَ الأرضَ مُصاحِبةً لذَواتِكم[٢].

- قولُه: ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ فُرِّعَ على الخسْفِ المُتوقَّعِ المهدَّدِ به أنْ تَمورَ الأرضُ تَفريعَ الأثرِ على المؤثِّرِ؛ لأنَّ الخسْفَ يُحدِثُ المَورَ، فإذا خُسِفت الأرضُ فاجَأَها المَورُ لا مَحالةَ، لكنَّ نظْمَ الكلامِ جَرى على ما يُناسِبُ جَعْلَ التَّهديدِ بمَنزلةِ حادثٍ وقَعَ؛ فلذلك جِيءَ بعْدَه بالحرفِ الدَّالِّ على المفاجأةِ؛ لأنَّ حقَّ المفاجأةِ أنْ تكونَ حاصِلةً زمَنَ الحالِ لا الاستقبالِ، فإذا أُرِيدَ تَحقيقُ حُصولِ الفِعلِ المستقبَلِ نُزِّلَ مَنزلةَ الواقعِ في الحالِ، فكان قولُه: ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ مُؤذِنًا بتَشبيهِ حالةِ الخسْفِ المتوقَّعِ المهدَّدِ به بحالةِ خسْفٍ حصَلَ بجامعِ التَّحقُّقِ، وحُذِفَ المركَّبُ الدَّالُّ على الحالةِ المشبَّهِ بها، ورُمِزَ إليه بما هو من آثارِه ويَتفرَّعُ عنه[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾

- (أم) لإضرابِ الانتِقالِ مِن غرَضٍ إلى غرَضٍ، وهو انتِقالٌ مِن الاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّعجيبيِّ إلى آخَرَ مِثلِه، باعتبارِ اختلافِ الأثَرَينِ الصَّادِرَينِ عن مَفعولِ الفعلِ المُستفهَمِ عنه اختلافًا يُوجِبُ تَفاوُتًا بيْن كُنْهَي الفِعلَينِ، وإنْ كانَا مُتَّحِدَينِ في الغايةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٤، ٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٥).

- وهو إضرابٌ عن التَّهديدِ بما ذُكِرَ، وانتقالٌ إلى التَّهديدِ بوجْهٍ آخرَ[١].

- وتَفريعُ جُملةِ ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ على الاستفهامِ الإنكاريِّ كتَفريعِ جُملةِ ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦]، أي: فحِينَ يُخسَفُ بكم أو يُرسَلُ عليكم حاصِبٌ تَعلَمون كيف نَذيري، وحرْفُ التَّنفيسِ حقُّه الدُّخولُ على الأخبارِ الَّتي ستَقَعُ في المستقبَلِ، وإرسالُ الحاصِبِ غيرُ مُخبَرٍ بحُصولِه، وإلَّا لَما تَخلَّفَ؛ لأنَّ خبرَ اللهِ لا يَتخلَّفُ، وإنَّما هو تَهديدٌ وتَحذيرٌ؛ فإنَّهم ربَّما آمَنوا وأقْلَعوا فسَلِموا مِن إرسالِ الحاصبِ عليهم، ولكنْ لَمَّا أُرِيدَ تَحقيقُ هذا التَّهديدِ، شُبِّهَ بالأمْرِ الَّذي وَقَعَ، فكان تَفريعُ صِيغةِ الإخبارِ على هذا مُؤذِنًا بتَشبيهِ المهدَّدِ به بالأمْرِ الواقعِ، و﴿كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ استفهامٌ مُعلِّقٌ فِعلَ (تَعلَمون) عن العملِ، وهو استفهامٌ للتَّهديدِ والتَّهويلِ، والجُملةُ مُستأنَفةٌ[٢].

- قولُه: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾[الملك: ١٦] ليس بتَكرارٍ مع قولِه تعالَى: ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾؛ لأنَّ الأوَّلَ في تَخويفِهم بخسْفِ الأرضِ بهم، والثَّانيَ في تَخويفِهم بالحصْبِ مِن السَّماءِ. وقُدِّمَ الأوَّلُ؛ لأنَّه لَمَّا كانت الأرضُ الَّتي خَلَقَها اللهُ تعالَى لهم ومهَّدَها لاستِقرارِهم، يَعبُدون عليها غيرَ خالقِها، ويُعظِّمون فيها الأصنامَ الَّتي هي مِن شَجَرِها وحَجَرِها -خوَّفهم بما هو أقرَبُ إليهم مِن الأشياءِ الَّتي أهلَكَ بها مَن كان قبْلَهم. والآيةُ الثَّانيةُ تَخويفٌ بالحاصِبِ مِن السَّماءِ، وهي الَّتي لا يَصعَدُ إليها الطَّيِّبُ مِن كَلامِهم، ولا الحسَنُ مِن عَمَلِهم، إلَّا سيِّئاتِ أفعالِهم، ونَتائجَ ما كُتِبَ عليهم، وتلك حالٌ ثانيةٌ، فذُكِرَ في الثَّانيةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٨٨، ١٢٨٩)، ((حاشية الطيبي على =

أو قُدِّمَ التَّهديدُ بالخسْفِ على التَّهديدِ بالحاصبِ؛ لأنَّ الخسْفَ مِن أحوالِ الأرضِ، والكلامُ على أحوالِها أقربُ هنا، فسُلِكَ شِبْهُ طَريقِ النَّشرِ المعكوسِ[(١)]، ولأنَّ إرسالَ الحاصبِ عليهم جَزاءٌ على كُفْرِهم بنِعمةِ اللهِ، الَّتي منها رِزْقُهم في الأرضِ المشارُ إليه بقولِه: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]؛ فإنَّ مَنشأَ الأرزاقِ الأرضيَّةِ مِن غُيوثِ السَّماءِ[(٢)].

= الكشاف)) (١٥/ ٥٥٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٦).

(١) اللَّفُّ والنَّشْرُ: هو أن يُذكَرَ شَيئانِ أو أشياءُ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتى بلَفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ يُذكَرَ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضَ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ والنَّشرُ إمَّا مُرتَّبٌ، وإمَّا غيرُ مُرتَّبٍ؛ فاللَّفُّ والنَّشرُ المُرتَّبُ هو: أن يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ ويُضافُ إلى كلٍّ ما يَليقُ به على التَّرتيبِ، كقولِه تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]؛ حيث جاء اللَّفُّ بعبارة ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، وجاء النَّشرُ وَفْقَ توزيعٍ مُرتَّبٍ؛ فقولُه: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ يتعلَّقُ باللَّيلِ، وقولُه: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يتعلَّقُ بالنَّهارِ.

وغيرُ المرتَّبِ -وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس»- هو: أن يأتيَ النَّشرُ على غيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فهذه الجُمَلُ لفٌّ مُفَصَّلٌ، وجاء بعدَها نَشْرٌ غيرُ مُرَتَّبٍ؛ فجُملةُ ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الأُولى، ومتعلِّقةٌ بها. وجملةُ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّالثةِ، ومُتعلِّقةٌ بها. وجملةُ ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّانيةِ، ومتعلِّقةٌ بها.

يُنظر في تفصيلِ أقسامِه وأمثلةٍ على ذلك: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠، ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣ - ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦).

وفيه وجْهٌ آخَرُ: أنَّه لَمَّا تَقدَّمَ ما اتَّصلَ به التَّوعُّدُ مِن قولِه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]، فحضَرَ في النُّفوسِ عند ذلك، وتَقرَّرَ تَذكرةُ هذه النِّعمةِ، وجَليلُ الامتِنانِ بها، شاهدًا حاضرًا للمُتذكِّرِ، وعليها قَرارُه حالَ تَذكُّرِه وتَنعُّمِه بالتَّقلُّبِ فيها حِينَ خِطابِه، متَّصلًا غيرَ مُنفصِلٍ، ومُلتصِقًا غيرَ مُتباعِدٍ -كان أنسَبُ شَيءٍ لهذه في الموعظةِ تَذكيرَه؛ اتِّعاظًا بخَسْفِها مِن تَحتِه، حتَّى كأنَّ ذلك الأمرَ جاء منه، لا مِن خارجٍ عنه[(١)].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا قولُه تعالَى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾، ووَرَدَ في سُورةِ (الأنعامِ): ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]؛ وذلك لأنَّ آيةَ (الأنعام) تَقدَّمَها قولُه تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]، فصَرَف هذا الخِطابُ تَفكُّرَ النَّفْسِ في عَينِ الجِهةِ الَّتي ذُكِرَ منها القهْرُ، فكان أنسَبُ شَيءٍ ذِكرَ التَّخويفِ مِن تلك الجِهةِ، بخِلافِ آيةِ (الملْكِ)، فكلُّ آيةٍ مِن هاتَينِ الآيتَينِ تُبيِّنُ حالَ الأُخرى، وإنَّ التَّناسُبَ إنَّما هو فيما وَرَدَت عليه كلُّ آيةٍ منهما[(٢)].

- وحُذِفَت ياءُ المتكلِّمِ مِن (نَذيري)؛ تَخفيفًا، وللرَّعْيِ على الفاصِلةِ[(٣)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فيه مِن المبالَغةِ في

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦).

تَسليةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَشديدِ التَّهديدِ لقَومِه ما لا يَخْفَى[١].

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، أي: مِن قبْلِ كفَّارِ مكَّةَ مِن كفَّارِ الأُمَمِ السَّالفةِ، كقومِ نوحٍ وعادٍ وأضرابِهم، والالتفاتُ إلى الغَيبةِ لإبرازِ الإعراضِ عنهم[٢].

- بعْدَ أنْ وجَّهَ اللهُ إليهم الخِطابَ تَذكيرًا واستدلالًا وامتنانًا وتَهديدًا وتَهويلًا، ابتداءً مِن قولِه: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ [الملك: ١٣]؛ الْتَفَتَ عن خِطابِهم إلى الإخبارِ عنهم بحالةِ الغَيبةِ؛ تَعريضًا بالغضَبِ عليهم بما أَتَوه مِن كلِّ تَكذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكانوا جَديرين بإبعادِهم عن الحُضورِ للخِطابِ، فلذلك لم يَقُلْ: ولقد كذَّب الَّذين مِن قبْلِكم، ولم يَقطَعْ تَوجيهَ التَّذكيرِ إليهم والوعيدِ؛ لعلَّهم يَتدبَّرون في أنَّ اللهَ لم يَدَّخِرْهم نُصحًا، فالجُملةُ عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا﴾ [الملك: ١٧]؛ لِمُناسَبةِ أنَّ ممَّا عُوقِبَ به بعضُ الأُمَمِ المكذِّبينَ الخسْفَ، وإرسالَ حِجارةٍ مِن السماءِ. ولك أنْ تَجعَلَ الواوَ للحالِ، أي: كيف تَأْمَنون ذلك عندَما تُكذِّبون الرَّسولَ في حالِ أنَّه قدْ كذَّبَ الَّذين مِن قبْلِكم، فهل عَلِمْتم ما أصابَهم على تَكذيبِهم الرُّسلَ؟! ضَرَب اللهُ لهم مَثَلًا بأُمَمٍ مِن قبْلِهم؛ كذَّبوا الرُّسلَ، فأصابَهم مِن الاستئصالِ ما قد عَلِموا أخبارَه؛ لعلَّهم أنْ يتَّعِظوا بقِياسِ التَّمثيلِ إنْ كانت عُقولُهم لم تَبلُغْ دَرجةَ الانتفاعِ بأقيسةِ الاستنتاجِ؛ فإنَّ المشرِكين مِن العرَبِ عَرَفوا آثارَ عادٍ وثَمودَ، وتَناقَلوا أخبارَ قومِ نُوحٍ وقومِ لُوطٍ[٣].

- وفُرِّعَ قولُه: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استِفهامًا تَقريريًّا، وهو كِنايةٌ عن تَحقيقِ وُقوعِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧، ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦).

وأنَّه وَقَع في حالٍ فَظاعةٍ[(١)].

- وقد أُكِّدَ الخبَرُ بـ(اللَّامِ) و(قدْ)؛ لتَنزيلِ المُعرَّضِ بهم مَنزِلةَ مَن يظُنُّ أنَّ اللهَ عاقَبَ الَّذين مِن قبْلِهم لغيرِ جُرمٍ، أو لجُرمٍ غيرِ التَّكذيبِ، فهو مُفرَّعٌ على المؤكَّدِ، فالمعْنى: لقد كذَّبَ الَّذين مِن قبْلِهم، ولقد كان نَكيري عليهم بتلك الكيفيَّة[(٢)].

- و﴿نَكِيرِ﴾ أصْلُه نَكيري، بالإضافةِ إلى ياءِ المتكلِّمِ المحذوفةِ تَخفيفًا[(٣)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [الملك: ١٥]؛ استِرسالًا في الدَّلائلِ على انفرادِ اللهِ تعالَى بالتَّصرُّفِ في الموجودات[(٤)].

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ ...﴾ الهمزةُ للاستِفهامِ، والواوُ للعطفِ على مُقدَّرٍ، أي: أغفَلوا ولم يَنظُروا[(٥)]. والاستِفهامُ إنكاريٌّ، ونُزِّلوا مَنزِلةَ مَن لم يَرَ هاتِه الأحوالَ في الطَّيرِ؛ لأنَّهم لم يَعتبِروا بها، ولم يَهتَدوا إلى دَلالتِها على انفرادِ خالِقِها بالإلهيَّة[(٦)].

- واشتَمَلَ التَّذكيرُ بعَجيبِ خِلقةِ الطَّيرِ في طَيرانِها على ضَرْبٍ مِن الإطنابِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٥٧).

لأنَّ الأوصافَ الثَّلاثةَ المُستفادةَ مِن قولِه: ﴿فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَ﴾ تُصوِّرُ صُورةَ حَرَكاتِ الطَّيَرانِ للسَّامِعينَ، فتُنبِّهُهم لدَقائقَ رُبَّما أغفَلَهم عن تَدقيقِ النَّظَرِ فيها نَشأتُهم بيْنَها مِن وَقتِ ذُهولِ الإدراكِ في زمَنِ الصِّبا، وكمْ غَفَلَ النَّاسُ عن دَقائقَ في المخلوقاتِ مِن الحيوانِ والجَمادِ ما لو تتبَّعوه لتَجلَّى لهم منها ما يَملأُ وَصْفُه الصُّحفَ!

وهذا الإطنابُ في هذه السُّورةِ مُخالِفٌ لِما في نَظيرِ هذه الآيةِ مِن سُورةِ (النَّحلِ) في قولِه: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ [النحل: ٧٩]، وذلك بحسَبِ ما اقتضاهُ اختلافُ المَقامَينِ؛ فسُورةُ (النَّحلِ) واقعةٌ قبْلَ سُورةِ (المُلْكِ)، فلمَّا أوقَظَت عُقولَهم فيها للنَّظَرِ إلى ما في خِلقةِ الطَّيرِ مِن الدَّلائلِ فلم يَتفطَّنوا، سُلِكَ في هذه السُّورةِ مَسلَكُ الإطنابِ بزيادةِ ذِكرِ أوصافٍ ثلاثةٍ: فالوصفُ الأوَّلُ: ما أفادَهُ قولُه: ﴿فَوۡقَهُمۡ﴾؛ فإنَّ جَميعَ الدَّوابِّ تَمْشي على الأرضِ، والطَّيرُ كذلك، فإذا طار الطَّائرُ انتقَلَ إلى حالةٍ عَجيبةٍ مُخالِفةٍ لبَقيَّةِ المخلوقاتِ، وهي السَّيرُ في الجوِّ بواسطةِ تَحريكِ جَناحيْه، وذلك سِرُّ قولِه تعالَى: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ﴾ [الأنعام: ٣٨]؛ لقصْدِ تَصويرِ تلك الحالةِ.

والوصْفُ الثَّاني: ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾، وهو وصْفٌ بوزْنِ اسمِ الفاعلِ مُشتقٌّ مِن الصَّفِّ، وهو كَونُ أشياءَ مُتعدِّدةٍ مُتقاربةَ الأمكنةِ وباستواءٍ، وهو قاصرٌ ومُتعدٍّ، والمرادُ هنا أنَّ الطَّيرَ صافَّةٌ أجْنحتَها، فحُذِفَ المفعولُ لعِلمِه مِن الوصفِ الجاري على الطَّيرِ؛ إذ لا تَجعَلُ الطَّيرُ أشياءَ مَصفوفةً إلَّا ريشَ أجْنحتِها عندَ الطَّيَرانِ، فالطَّائرُ إذا طار بَسَطَ جَناحَيْه -أي: مدَّهما- فصَفَّ رِيشَ الجَناحِ، فإذا تَمدَّدَ الجَناحُ ظَهَر رِيشُه مُصطفًّا، فكان ذلك الاصطفافُ مِن أثَرِ فِعلِ الطَّيرِ، فوُصِفَت به، وبَسْطُ

الجَناحَينِ يُمكِّنُ الطَّائرَ مِن الطَّيَرانِ، فهو كمَدِّ اليَدينِ للسَّابحِ في الماءِ.

والوصْفُ الثَّالثُ: ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾، وهو عطْفٌ على ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ مِن عطْفِ الفِعلِ على الاسمِ الشَّبيهِ بالفِعلِ في الاشتقاقِ، وإفادةِ الاتِّصافِ بحُدوثِ المصدَرِ في فاعِلِه، فلم يَفُتْ بعَطْفِه تَماثُلُ المعْطوفينِ في الاسميَّةِ والفِعليةِ الذي هو مِن مُحسِّناتِ الوصْلِ[١].

- والقبْضُ: ضِدُّ البَسطِ، والمرادُ به هنا ضِدُّ الصَّفِّ المذكورِ قبْلَه؛ إذ كان ذلك الصَّفُّ صادقًا على معْنى البَسطِ، ومَفعولُه المحذوفُ هنا هو عَينُ المحذوفِ في المعطْوفِ عليه، أي: قابضاتٍ أجْنحتَهنَّ حينَ يُدْنينَها مِن جُنوبِهنَّ للازديادِ مِن تَحريكِ الهواءِ للاستمرارِ في الطَّيَرانِ[٢].

- وأُوثِرَ الفعلُ المضارعُ في ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾؛ لاستحضارِ تلك الحالةِ العجيبةِ، وهي حالةُ عكْسِ بَسْطِ الجناحَينِ؛ إذ بذلك العكْسِ يَزدادُ الطَّيَرانُ قوَّةَ امتدادِ زَمانٍ[٣].

- وجِيءَ في وصْفِ الطَّيرِ بـ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ بصِيغةِ الاسمِ؛ لأنَّ الصَّفَّ هو أكثرُ أحوالِها عِندَ الطَّيَرانِ، فناسَبَه الاسمُ الدَّالُّ على الثَّباتِ، وجِيءَ في وصْفِهنَّ بالقبْضِ بصِيغةِ المضارعِ؛ لدَلالةِ الفِعلِ على التَّجدُّدِ، أي: ويُجدِّدْنَ قبْضَ أجْنحَتِهنَّ في خِلالِ الطَّيَرانِ للاستِعانةِ بقبْضِ الأجنحةِ على زِيادةِ التَّحرُّكِ عندَما يَحْسُسْنَ بتَغلُّبِ جاذبيَّةِ الأرضِ على حَرَكاتِ الطَّيرانِ[٤]. فالطَّيَرانُ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧، ٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٧، ٢٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩)، =

الهواءِ كالسِّباحةِ في الماءِ، والأصلُ في السِّباحةِ مَدُّ الأطرافِ وبَسْطُها، وأمَّا القَبضُ فطارِئٌ على البَسطِ للاستِظهارِ به على التَّحرُّكِ؛ فجِيءَ بما هو طارئٌ غيرُ أصليٍّ بلَفظِ الفِعلِ، على معنى: أنَّهنَّ صافَّاتٌ، ويكونُ مِنهنَّ القَبضُ تارةً بعدَ تارةٍ، كما يكونُ مِن السَّابحِ[1].

- جُملةُ ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ﴾، وما فيها مِن استفهامِ إنكارٍ، أي: كان حقُّهم أنْ يَعلَموا أنَّهنَّ ما يُمسِكُهنَّ إلَّا الرَّحمنُ؛ إذ لا مُمسِكَ لها تَرَونَه، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ الَّذي أمسَكَ الطَّيرَ عن الهُويِّ المُفْضي إلى الهلاكِ هو الَّذي أهْلَكَ الأُمَمَ الَّذين مِن قبْلِ هؤلاء، فلو لم يُشْرِكوا به ولو استَعْصَموا بطاعتِه، لَأنْجاهم مِن الهلاكِ كما أنْجى الطَّيرَ مِن الهُويِّ[2]. وقيل: هذه الجملةُ مستأنَفةٌ أو حالٌ من الضميرِ في (يقبضنَ)[3].

- قولُه: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ لعلَّ إيثارَ اسمِ الرَّحمنِ هنا دونَ الاسمِ العَلَمِ (الله)؛ لأنَّ مِن جُملةِ عِنادِهم إنكارَهم اسمَ (الرَّحمن)، فلمَّا لم يَرْعَوُوا عمَّا هم عليه ذُكِرَ وصْفُ الرَّحمنِ في هذه السُّورةِ أربَعَ مرَّاتٍ[4].

وقيل: ﴿إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ حيثُ برَأهنَّ عزَّ وجلَّ على أشكالٍ وخصائصَ، وألهمَهنَّ حركاتٍ قد تأتَّى منها الجريُ في الهواءِ[5].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ تَعليلٌ لمَضمونِ ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾[6].

= ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠).

- وتَقديمُ ﴿بِكُلِّ شَىۡءٍ﴾ على مُتعلِّقِه لإفادةِ القَصرِ الإضافيِّ، وهو قصْرُ قلْبٍ[١] ردًّا على مَن يَزعُمون أنَّه لا يَعلَمُ كلَّ شَيءٍ[٢]! وكذلك للرِّعايةِ على الفاصلةِ.



(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠).

الآيات (٢٠-٢٢)

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

غريبُ الكَلِماتِ:

﴿غُرُورٍ﴾: أي: باطِلٍ، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقظةِ، يقال: غَررْتُ فلانًا: أصبتُ غِرَّتَهُ ونِلتُ منه ما أُريدُه، وأصلُ ذلك مِن الغَرِّ، وهو الأثَرُ الظَّاهِرُ مِن الشَّيءِ، والغَرورُ: كلُّ ما يَغُرُّ الإنسانَ مِن مالٍ وجاهٍ وشهوةٍ وشيطانٍ[(١)].

﴿لَّجُّوا۟﴾: أي: تَمادَوْا واستمَرُّوا، واللَّجاجُ: التَّمادي والعِنادُ في تعاطي الفِعلِ المَزجورِ عنه، وأصلُ (لجج): يدُلُّ على تردُّدِ الشَّيءِ بَعضِه على بَعضٍ[(٢)].

﴿عُتُوٍّ﴾: أي: طُغيانٍ ومُعانَدةٍ واستِكبارٍ، والعُتُوُّ: الخُروجُ عن الطَّاعةِ، وأصلُ (عتو): يدُلُّ على استِكبارٍ[(٣)].

﴿وَنُفُورٍ﴾: أي: ذَهابٍ، وبُعدٍ عن الحَقِّ، وأصلُ (نفر): يدُلُّ على تَجافٍ وتَباعُدٍ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣، ٦٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((العين)) للخليل (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٧).

﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾: أي: لا يُبصِرُ يمينًا ولا شمالًا، ولا ما بيْنَ يدَيْه، والكَبُّ: إسقاطُ الشَّيءِ على وجهِه، وأصلُ (كبب): يدُلُّ على جمعٍ وتجَمُّعٍ[1].

﴿سَوِيًّا﴾: أي: مُنتصِبَ القامةِ، مُعتدلًا، ناظرًا إلى ما بيْنَ يدَيْه، سالمًا مِن العُثُورِ والخُرورِ، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ بيْنَ شَيئَيْنِ[2].

﴿صِرَٰطٍ﴾: أي: طريق[3].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى للمشركينَ الَّذينَ عَبَدوا غيرَه، يَبْتَغونَ عندَهم نصرًا ورِزقًا، مُنكِرًا عليهم: أمْ مَن هذا الَّذي هو عَونٌ وناصِرٌ لكم -أيُّها الكافِرونَ- يَدفَعُ عنكم العذابَ مِن دُونِ الرَّحمنِ؟! ما الكافِرونَ باللهِ إلَّا في غُرورٍ!

أمْ مَن هذا الَّذي يأتيكم بالرِّزقِ إنْ منَعَه اللهُ عنكم؟! بل استَمَرَّ -هؤلاء الكافِرون- وتمادَوا في طُغيانِهم وتكَبُّرِهم، ونُفورِهم عن الحَقِّ!

ثمَّ يضربُ الله تعالى المَثَلَ للمؤمنِ والكافرِ، فيقولُ: أفمَن يَمشي مُنكَّسًا رأسَه لا يُبصِرُ طَريقَه، فيَخِرُّ على وَجهِه: أهدَى أمِ الَّذي يَمشي مُعتَدِلًا سالِمًا مِن التَّعثُّرِ مُبصِرًا طَريقَه؟!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٣).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الكُفَّارُ يمتَنِعونَ عن الإيمانِ ويُنكِرونَ التَّوحيدَ مع وُضوحِ الأدِلَّةِ، صاروا كأنَّهم يمتَنِعونَ مِن عذابِ اللهِ بجُندٍ، وأشبَهَت حالُهم مَن يملِكُ دَفْعَ العذابِ إن أتاه؛ فقال اللهُ تعالى مُنكِرًا عليهم أن يكونَ لهم امتناعٌ مِن عَذابِه[1]:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

أي: أم مَن هذا الَّذي هو عَونٌ وناصِرٌ لكم -أيُّها الكافِرونَ- يَدفَعُ عنكم العذابَ غَيرُ الرَّحمنِ[2]؟!

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٢، ٤٣].

﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾.

أي: ما الكافِرونَ باللهِ إلَّا في غُرورٍ عَظيمٍ قد أحاط بهم، فلا خَلاصَ لهم منه، وذلك باستِمرارِهم على كُفرِهم الَّذي يتوَهَّمونَه صَوابًا، وتوَهُّمِهم أنَّ آلهتَهم تَنفَعُهم[3].

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٥٨، ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٨)، ((نظم الدرر)) =

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قدَّم أعظَمَ الرَّحمةِ بالحِياطةِ والنُّصرةِ المُوجِبةِ للبقاءِ؛ أتْبَعَه ما يَتِمُّ به البقاءُ[(١)].

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾.

أي: أم مَن هذا الَّذي يأتيكم بالرِّزقِ -أيُّها الكافِرونَ- إنْ منَعَه اللهُ عنكم[(٢)]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣].

﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾.

أي: لم يَرجِعوا عن تكذيبِهم وكُفرِهم مع ما ذُكِرَ مِن دلائِلَ وحُجَجٍ، بل استَمَرُّوا وتمادَوا في طُغيانِهم وعِنادِهم وتكَبُّرِهم، ونُفورِهم عن الحَقِّ، وهُروبِهم منه[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

= للبقاعي (٢٠/ ٢٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢، ٤٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٦، ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤).

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١].

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وصَفَهم بالعُتُوِّ والنُّفورِ؛ نبَّه على ما يدُلُّ على قُبحِ هذَينِ الوَصفَينِ[1].

وأيضًا لَمَّا كان ذلك فِعلَ مَن لا بَصَرَ له ولا بصيرةَ؛ سَبَّبَ عنه قَولَه مُمثِّلًا للمُوَحِّدِ والمُشرِكِ بسالكَينِ، ولدِينَيْهما بمَسْلَكَينِ[2].

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٢﴾.

أي: أفمَن يَمشي مُنكِّسًا رأسَه لا يُبصِرُ طَريقَه، فيَسقُطُ مُتعَثِّرًا ويَخِرُّ على وَجهِه: أهْدَى أمِ الَّذي يَمشي مُعتَدِلًا قائِمًا، رافِعًا رأسَه ناصِبًا وَجْهَه، سالِمًا من التَّعثُّرِ مُبصِرًا طَريقَه، سائِرًا على دَربٍ مُستَوٍ واضِحٍ لا اعوِجاجَ فيه[3]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٧).

قال ابنُ عاشور: (هذا مَثَلٌ ضرَبه اللهُ للكافِرينَ والمؤمِنينَ، أو لِرَجُلَينِ: كافرٍ ومُؤمِنٍ... وذلك ممَّا اتَّفَق عليه المفسِّرونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤).

وقال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ ضرَبَ الله مثَلًا للمؤمنِ والكافرِ ﴿مُكِبًّا﴾ أي: مُنكِّسًا رأسَه، لا يَنظُرُ أمامَه ولا يمينَه ولا شِمالَه، فهو لا يأمَنُ مِن العُثورِ والانكبابِ على وجْهِه؛ كمَنْ يَمشي سَويًّا مُعتَدِلًا ناظرًا ما بيْنَ يدَيْه وعن يمينِه وعن شِمالِه؟!). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٩).

=

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ۞ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ جَمَعَ سُبحانَه بيْن النَّصرِ والرِّزقِ؛ فإنَّ العَبدَ مُضطَرٌّ إلى مَن يَدفَعُ عنه عَدُوَّه بنَصرِه، ويَجلِبُ له مَنافِعَه برِزقِه؛ فلا بُدَّ له مِن ناصرٍ ورازقٍ، واللهُ وحْدَه هو الَّذي يَنصُرُ ويَرزُقُ، فهو الرَّزَّاقُ ذو القُوَّةِ المتينُ[١]، فالنَّصرُ يتضمَّنُ دفْعَ الضَّررِ؛ والرِّزقُ يتضمَّنُ حُصولَ المنفعةِ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ مَثَلُ الكافِرِ؛ حالُه في سَيرِه إلى اللهِ حالُ المُكِبِّ، أي: الَّذي كَبَّ نَفْسَه بغايةِ الشَّهوةِ على وَجْهِه، لا يرى ما حَوْلَه، ولا يَشعُرُ بما أحاط به، ولا يَنظُرُ في الآياتِ، ولا يَعتَبِرُ بالمسموعاتِ، فهو اليَومَ شَيءٌ باطِنٌ يظهرُ يومَ القيامةِ، فيُحشَرُ على وَجْهِه إلى النَّارِ؛ جزاءً لِرضاه بحالتِه هذه في هذه الدَّارِ، فيُظهِرُ له سُبحانَه ما أبطَنَ له اليومَ، والمؤمِنُ بخِلافِ ذلك، فقَولُه تعالى: ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هذا مَثَلُ مَن رَضيَ باللهِ رَبًّا، وبالإسلامِ دِينًا، فإنَّه يَتبَعُ الفِطرةَ الأُولى، السَّليمةَ عن شَهوةٍ أو غَضَبٍ

= وقال الشوكاني: (قيل: هو الَّذي يَكُبُّ رأسَه فلا يَنظُرُ يمينًا ولا شِمالًا ولا أمامًا،... وقيل: أرادَ به الأعمَى الَّذي لا يَهتدي إلى الطَّريقِ، فلا يَزالُ مَشْيُه يُنَكِّسُه على وجهِه. قال قَتادةُ: هو الكافِرُ يَكُبُّ على معاصي اللهِ في الدُّنيا، فيَحشُرُه اللهُ يومَ القيامةِ على وجْهِه... وقيل: أراد بمَنْ يَمشي مُكِبًّا على وجْهِه: مَن يُحشَرُ على وجْهِه إلى النَّارِ، ومَن يَمشي سَوِيًّا: مَن يُحشَرُ على قدَمَيْه إلى الجنَّةِ، وهو كقَولِ قَتادةَ الَّذي ذَكَرْناه، ومِثْلُه قولُه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٤).

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٣١).

أو شائبةِ حَظٍّ[١].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إنَّ المخلوقَ ليس عندَه للعبدِ نفعٌ ولا ضرٌّ، ولا عطاءٌ ولا منعٌ، ولا هُدًى ولا ضلالٌ، ولا نصرٌ ولا خِذلانٌ، ولا خَفضٌ ولا رفعٌ، ولا عِزٌّ ولا ذُلٌّ، بلِ اللهُ وحْدَه هو الَّذي يَملِكُ له ذلك كلَّه؛ قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ * أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾، وقال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، إلى غيرِ ذلك[٢].

٢- مِن القواعدِ الَّتي يَكثُرُ ذِكرُها في القرآنِ في المقاماتِ المُهِمَّةِ -كالمُقابَلةِ بيْنَ الإيمانِ والكفرِ، والتَّوحيدِ والشِّركِ- قاعدةُ: (ذِكْر الأوصافِ المُتقابِلاتِ يُغْني عن التَّصريحِ بالمُفاضَلةِ إذا كان الفرقُ معلومًا). فيَذكُرُ تَبايُنَ الأوصافِ الَّتي يَعرِفُ العقلاءُ بالبداهةِ التَّفاوُتَ بيْنَها، ويَدَعُ التَّصريحَ بالمُفاضَلةِ للعقلاءِ، وهو مِن بلاغةِ القرآنِ وأسلوبِه العجيبِ، ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٣].

٣- الكُفرُ هو التَّأخُّرُ والرَّجعيَّةُ والانقِلابُ على العَقِبِ، وأمَّا الإسلامُ فإنَّه التَّقدُّمُ والمُضيُّ إلى الأمامِ فيما يَنفَعُ الإنسانَ في دِينِه ودُنياه، يَشهَدُ لهذا قولُه

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((القواعد الحسان لتفسير القرآن)) للسعدي (ص: ١٦٢، ١٦٣).

تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾[1].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾

- قولُه: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عَديلٌ لقولِه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ على معْنى: أوَلَمْ تَنظُروا في أمثالِ هذه الصَّنائعِ، فلم تَعلَموا قُدرتَنا على تَعذيبِهم بنحْوِ خَسفٍ وإرسالِ حاصبٍ، أمْ لكم جُندٌ يَنصُرُكم من دونِ اللهِ إنْ أرسَلَ عليكم عَذابَه، فهو كقولِه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾ [الأنبياء: ٤٣]، إلَّا أنَّه أُخرِجَ مُخرَجَ الاستِفهامِ لنُكتةٍ؛ وهو أنَّهم لاعتِقادِهم نصْرَ آلهتِهم لهم أتى باسمِ الاستفهامِ بعْدَها تهكُّمًا بهم، كأنَّ النُّصرةَ مُقرَّرةٌ، وإنَّما الكلامُ في تَعيينِ النَّاصرِ لهم[2].

- وقيل: مَساقُ هذه الآيةِ إمَّا لإنكارِ أنْ يكونَ للمُخاطَبينَ ناصرٌ ورازقٌ سِوى الرَّحمنِ، وإمَّا لإنكارِ كَونِ الأصنامِ تَنصُرُهم وترزُقُهم، وعلى الأوَّلِ الاستِفهامُ للإنكارِ، ويُقدَّرُ بعْدَه: يُقالُ:...، وعلى الثَّاني للتَّحقيرِ[3].

- وقيل: إنَّ قولَه: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ تَبْكيتٌ لهم بنفْيِ أنْ يكونَ لهم ناصرٌ غيرُ اللهِ تعالَى كما يُلوِّحُ به التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرَّحمانيَّةِ، ويَعضُدُه قولُه تعالَى: ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، أو ناصرٌ مِن عَذابِه تعالى،

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣١)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٢٣).

كما هو الأنسَبُ بما سَيأتي مِن قولِه تعالَى: ﴿إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾، كقولِه تعالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: ٤٣] في المعنيينِ معًا، خَلا أنَّ الاستفهامَ هُناكَ مُتوجِّهٌ إلى نفْسِ المانعِ وتَحقُّقِه، وهاهُنا إلى تَعيينِ النَّاصرِ؛ لتَبكيتِهم بإظهارِ عَجزِهم عن تَعيينِه له(١). فالاستفهامُ هنا مُستعمَلٌ في التَّعجيزِ عن التَّعيينِ، فيَؤولُ إلى الانتفاءِ، والإشارةُ مُشارٌ بها إلى مَفهومِ جُندٍ مَفروضٍ في الأذهانِ استُحضِرَ للمُخاطَبينَ، فجُعِلَ كأنَّه حاضرٌ في الخارجِ يُشاهِدُه المخاطَبونَ، فيَطلُبُ المُتكلِّمُ منهم تَعيينَ قَبيلةٍ بأنْ يَقولوا: بنو فُلانٍ، ولَمَّا كان الاستفهامُ مُستعمَلًا في التَّعجيزِ استَلزَمَ ذلك أنَّ هذا الجندَ المفروضَ غيرُ كائنٍ(٢). ويَجوزُ أنْ يكونَ اسمُ الإشارةِ مُشارًا به إلى جَماعةِ الأصنامِ المعروفةِ عِندَهم الموضوعةِ في الكعبةِ وحوْلَها الَّذي اتَّخذْتُموه جُندًا، فمَن هو حتَّى يَنصُرَكم مِن دونِ اللهِ؟! فتَكونَ (مَن) استفهاميَّةً مُستعمَلةً في التَّحقيرِ والتَّقريعِ والتَّوبيخِ، أي: مَن هذا الجندُ؟! فإنَّه أحقَرُ من أنْ يُعرَفَ، واسمُ الإشارةِ صِفةٌ لاسمِ الاستفهامِ مُبيِّنةٌ له، و﴿ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ صِفةٌ لاسمِ الإشارةِ، وجُملةُ ﴿يَنصُرُكُم﴾ خبَرٌ عن اسمِ الاستفهامِ، أي: هو أقَلُّ مِن أنْ يَنصُرَكم مِن دونِ الرَّحمنِ(٣). وإيثارُ (هذا) لتَحقيرِ المُشارِ إليه(٤).

- و(أم) في ﴿أَمَّنْ﴾ مُنقطِعةٌ، وهي للإضرابِ الانتقاليِّ مِن غرَضٍ إلى غرَضٍ، مُقدَّرةٌ بـ (بل) المُفيدةِ للانتقالِ مِن تَوبيخِهم على ترْكِ التَّأمُّلِ فيما يُشاهِدونَه مِن أحوالِ الطَّيرِ المُنبئةِ عن تَعاجيبِ آثارِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١، ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١).

إلى التَّبكيتِ بما ذُكِرَ؛ فبَعْدَ استيفاءِ غرَضِ إثباتِ الإلهيَّةِ الحقِّ للهِ تعالَى بالوَحدانيَّةِ وتَذكيرِهم بأنَّهم مُفتقِرونَ إليه، انتُقِلَ إلى إبطالِ أنْ يكونَ أحدٌ يَدفَعُ عنهم العذابَ الَّذي تَوعَّدَهم اللهُ به، فوُجِّهَ إليهم استفهامٌ أنْ يَدُلُّوا على أحدٍ مِن أصنامِهم أو غيرِها يُقالُ فيه: هذا هو الَّذي يَنصُرُ مِن دونِ اللهِ؛ فإنَّهم غيرُ مُستطيعينَ تَعيينَ أحدٍ لذلك إلَّا إذا سَلَكوا طَريقَ البُهتانِ، وما هم بسالِكِيه في مِثلِ هذا؛ لافتِضاحِ أمْرِه، وهذا الكلامُ ناشئٌ عن قولِه تعالَى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] الآيةَ، فهو مِثلُه مُعترِضٌ بيْنَ حُجَجِ الاستِدلالِ[(١)].

- وقولُه: ﴿هُوَ جُندٌ لَّكُمۡ﴾ فيه الْتِفاتٌ، ونُكتَتُه المُبالَغةُ في التَّهديدِ، والتَّشديدُ في التَّبكيتِ[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ جِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمۡ﴾؛ لدَلالتِها على الدَّوامِ والثُّبوتِ؛ لأنَّ الجُندَ يكونُ على استعدادٍ للنَّصرِ إذا دُعِيَ إليه، سواءٌ أقاتَلَ أمْ لم يُقاتِلْ؛ لأنَّ النَّصرَ يَحتاجُ إلى استعدادٍ وتَهيُّؤٍ؛ فالمعنى: يَنصرُكم عِندَ احتياجِكم إلى نَصرِه؛ فهذا وجْهُ الجمْعِ بيْنَ جُملةِ ﴿هُوَ جُندٌ لَّكُمۡ﴾ وجُملةِ ﴿يَنصُرُكُم﴾، ولم يَستغنِ بالثَّانيةِ عن الأُولَى[(٣)].

- قولُه: ﴿إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لِما قبلَه، ناعٍ عليهم ما هُم فيه مِن غايةِ الضَّلالِ، أي: ما هُم في زعْمِهم أنَّهم مَحفوظونَ مِن النَّوائبِ بحِفظِ آلهتِهم لا بحِفظِه تعالَى فقطْ، أو أنَّ آلهتَهم تَحفَظُهم مِن بأسِ اللهِ؛ إلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠، ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢).

في غُرورٍ عَظيمٍ وضَلالٍ فاحشٍ مِن جِهةِ الشَّيطانِ، ليس لهم في ذلك شَيءٌ يُعتَدُّ به في الجُملةِ، والالتفاتُ إلى الغَيبةِ؛ للإيذانِ باقتضاءِ حالِهم للإعراضِ عنهم، وبَيانِ قَبائحِهم لغيرِهم، والإظهارُ في مَوقعِ الإضمارِ لذَمِّهم بالكُفرِ، وتَعليلِ غُرورِهم به[1].

وقيل: قولُه: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ اعتِراضٌ تَذييليٌّ، أي: ذلك شأْنُ الكافرينَ كلِّهم، وهم أهلُ الشِّركِ مِن المخاطَبينَ وغيرِهم، فتَعريفُ ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ للاستِغراقِ، وليس المرادُ به كافِرينَ معهودينَ حتَّى يكونَ مِن وضْعِ المظهَرِ مَوضعَ الضَّميرِ[2].

- والظَّرفيَّةُ في قولِه: ﴿فِى غُرُورٍ﴾ مُستعمَلةٌ في شِدَّةِ التَّلبُّسِ بالغُرورِ، حتَّى كأنَّ الغُرورَ مُحيطٌ بهم إحاطةَ الظَّرفِ، والمعْنى: ما الكافِرونَ في حالٍ مِن الأحوالِ إلَّا في حالِ الغرورِ، وهذا قصْرٌ إضافيٌّ[3] لقلْبِ اعتقادِهم أنَّهم في مأْمنٍ مِن الكوارثِ بحِمايةِ آلهتِهم[4].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ انتقالٌ آخَرُ، وهذا الكلامُ ناظِرٌ إلى قولِه: ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥] على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المعكوسِ[5].

- وجِيءَ بالصِّلةِ فِعلًا مُضارعًا ﴿يَرْزُقُكُمْ﴾؛ لدَلالتِه على التَّجدُّدِ؛ لأنَّ الرِّزقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

واللَّف والنَّشْر تقدَّم تعريفُه (ص: ٣١٦).

يَقْتضي التَّكرارَ؛ إذ حاجةُ البشرِ إليه مُستمرَّةٌ[1].

- قولُه: ﴿بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ وقَعَ جوابًا عن سُؤالٍ ناشئٍ عن الدَّلائلِ والقَوارعِ، والزَّواجرِ والعِظاتِ، والعِبَرِ المتقدِّمةِ، فيَتَّجِهُ للسَّائلِ أنْ يقولَ: لعلَّهم نفَعَت عِندَهم الآياتُ والنُّذُرُ، واعتَبَروا بالآياتِ والعِبَرِ، فأُجِيبَ بإبطالِ ظنِّه بأنَّهم لَجُّوا في عُتوٍّ ونُفورٍ[2].

أو: أنَّ قولَه: ﴿بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ مُنبِئٌ عن مُقدَّرٍ يَستدعيهِ المقامُ، كأنَّه قيلَ: إثرَ تَمامِ التَّبكيتِ والتَّعجيزِ لمْ يَتأثَّروا بذلكَ، ولم يُذعِنُوا للحقِّ، بلْ لجُّوا وتَمادَوا في عُتوٍّ ونُفورٍ[3].

- وحرْفُ (بَل) للإضرابِ أو الإبطالِ عمَّا تَضمَّنه الاستِفهامانِ السَّابقانِ، أو للانتقالِ مِن غرَضِ التَّعجيزِ إلى الإخبارِ عن عِنادِهم[4].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

- الفاءُ الَّتي في صدْرِ الجُملةِ للتَّفريعِ على جميعِ ما تَقدَّمَ مِن الدَّلائلِ والعِبَرِ مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا، والاستفهامُ تَقريريٌّ تَوبيخيٌّ[5].

- وهذا مَثَلٌ للمُؤمنِ والكافرِ؛ فالكافرُ في اضطرابِه وتَعسُّفِه في عَقيدتِه، وتَشابُهِ الأمرِ عليه، كالماضي في انخفاضٍ وارتفاعٍ، كالأعمى يَتعثَّرُ كلَّ ساعةٍ فيَخِرُّ لوَجْهِه، وأمَّا المؤمنُ فإنَّه لطُمأنينةِ قلْبِه بالإيمانِ، وكَونِه قد وَضَحَ له الحقُّ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٥٨).

كالماشي صَحيحَ البصرِ، مُستويًا، لا يَنحرِفُ، على طَريقٍ واضحِ الاستِقامةِ، لا حُزونَ[١] فيها؛ فآلةُ نَظَرِه صَحيحةٌ، ومَسلكُه لا صُعوبةَ فيه[٢]؛ فهذا مَثَلٌ ضَرَبَه اللهُ للكافرين والمؤمنينَ، أو لرُجَلينِ: كافرٍ ومؤمنٍ؛ لأنَّه جاء مُفرَّعًا على قولِه: ﴿إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠]، وقولِه: ﴿بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢١]، وما اتَّصَلَ ذلك به مِن الكلامِ الَّذي سِيقَ مَساقَ الحُجَّةِ عليهم بقولِه: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ﴾ [الملك: ٢٠] ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥ﴾ [الملك: ٢١]. والتَّمثيلُ جَرى على تَشبيهِ حالِ الكافرِ والمؤمنِ بحالةِ مَشْيِ إنسانٍ مُختلفةٍ، وعلى تَشبيهِ الدِّينِ بالطَّريقِ المَسلوكةِ، كما يَقْتضيهِ قولُه: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، فلا بُدَّ مِن اعتبارِ مشْيِ المُكِبِّ على وَجْهِه مَشيًا على صِراطٍ مُعْوجٍّ، وتَعيَّنَ أنْ يكونَ في قولِه: ﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ﴾ تَشبيهُ حالِ السَّالكِ صِراطًا مُعْوجًّا في تَأمُّلِه وتَرسُّمِه آثارَ السَّيرِ في الطَّريقِ غيرِ المستقيمِ خَشيةَ أنْ يَضِلَّ فيه؛ بحالِ المُكِبِّ على وَجْهِه يَتوسَّمُ حالَ الطَّريقِ، وقَرينةُ ذلك مُقابَلتُه بقولِه: ﴿سَوِيًّا﴾ المُشعِرِ بأنَّ ﴿مُكِبًّا﴾ أُطلِقَ على غيرِ السَّويِّ، وهو المُنْحني المُطأْطِئُ يَتوسَّمُ الآثارَ اللَّائحةَ مِن آثارِ السَّائرينَ؛ لعلَّه يَعرِفُ الطَّريقَ المُوصِلةَ إلى المقصودِ، فالمُشرِكُ يَتوجَّهُ بعِبادتِه إلى آلهةٍ كَثيرةٍ لا يَدْري لعلَّ بَعضَها أقْوى مِن بَعضٍ، وأعطَفُ على بَعضِ القبائلِ مِن بَعضٍ؛ فقد كانت ثَقيفٌ يَعْبُدون اللَّاتَ، وكان الأوسُ والخزرجُ يَعبُدون مَناةَ، ولكلِّ قَبيلةٍ إلهٌ أو آلهةٌ، فتَقَسَّموا الحاجاتِ عِندَها، واستَنصَرَ كلُّ قومٍ

(١) الحُزُون: جمعُ الحَزْنِ، وهو ما غَلُظ مِن الأرضِ، وهو خِلافُ السَّهلِ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٥٩).

بآلهتِهم، وطَمِعوا في غَنائها عنهم، وهذه حالةٌ يَعرِفونَها، فلا يَمترُون في أنَّهم مَضربُ المَثَلِ الأوَّلِ، وكذلك حالُ أهلِ الإشراكِ في كلِّ زَمانٍ؛ ألَا تَسمَعُ ما حَكاهُ اللهُ عن يُوسُفَ عليه السَّلامُ مِن قولِه: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

وقولُه: ﴿أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا﴾ تَشبيهٌ لحالِ الَّذي آمَنَ بربٍّ واحدٍ، الواثقِ بنصْرِ ربِّه وتأْييدِه، وبأنَّه مُصادِفٌ للحقِّ؛ بحالِ الماشي في طَريقٍ جادَّةٍ واضحةٍ، لا يَنظُرُ إلَّا إلى اتِّجاهِ وَجْهِه، فهو مُستوٍ في سَيرِه. وقد حصَلَ في الآيةِ إيجازُ حذْفٍ؛ إذ استُغْنِيَ عن وصْفِ الطَّريقِ بالالتواءِ في التَّمثيلِ الأوَّلِ؛ لدَلالةِ مُقابَلتِه بالاستِقامةِ في التَّمثيلِ الثَّاني(١).

- و﴿أَهۡدَىٰٓ﴾ مُشتَقٌّ مِن الهُدى، وهو مَعرفةُ الطَّريقِ، وهو اسمُ تَفضيلٍ مَسلوبُ المُفاضَلةِ؛ لأنَّ الَّذي يَمْشي مُكِبًّا على وَجْهِه لا شَيءَ عندَه مِن الاهتداءِ، ومِثلُ هذا لا يَخلُو مِن تَهكُّمٍ أو تَمْليحٍ بحسَبِ المقامِ(٢).

- والآيةُ فيها احتِباكٌ(٣)؛ فذَكَر (الكَبَّ) أوَّلًا دليلًا على ضِدِّه ثانيًا، و(المستقيمَ) ثانيًا دليلًا على المُعوَجِّ أوَّلًا، وسِرُّه أنَّه ذَكَر أنكَأَ ما للمُجرِمِ، وأسَرَّ ما للمُسلِمِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤ - ٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٦).

(٣) الاحْتِبَاك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لِدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخِرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القُرآنِ وعناصِرِ إعجازِه، وهو مِن ألْطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٨).

الآيات (٢٢-٢٧)

﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾: جمْعُ فؤادٍ، وهو القلبُ؛ سمِّيَ بذلك لحرارَتِه، أو لتَوقُّدِه، وأصلُ (فأد): يدُلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ[١].

﴿ ذَرَأَكُمْ ﴾: أي: خلَقَكم وكَثَّرَكم، والذَّرْءُ: بَثُّ الخَلقِ وتَكثيرُه، وأصلُ (ذرأ) هنا: يدُلُّ على بَذْرٍ وزَرعٍ[٢].

﴿ زُلْفَةً ﴾: أي: قَريبًا، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على تَقدُّمٍ في قُربٍ إلى شَيءٍ[٣].

﴿ سِيٓـَٔتْ ﴾: أي: ظهَر فيها السُّوءُ لما حلَّ بها، وقبُحَتْ بالسَّوادِ وأثرِ الكآبةِ، يُقالُ: ساء الشيءُ يسوءُ، فهو سيِّئٌ: إذا قبُح، وسِيء يُساءُ: إذا قبُح، والسُّوءُ: كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ مِن الأمورِ الدُّنيويَّةِ، والأُخرويةِ، وأصلُ السُّوءِ: القُبحُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٦٢)، ((المفردات =

﴿تَدَّعُونَ﴾: أي: تَطلُبونَ وتَستعجِلونَ؛ (تفتعلونَ) مِن الدُّعاءِ، أو تَدَّعونَ أن لا بعثَ، فهو مِن الدَّعوَى، وأصلُ (دعو) أنْ تُميلَ الشَّيءَ إليك بصَوتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنكَ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مذكِّرًا بنِعَمِه، ومبيِّنًا أنَّه المعبودُ وحْدَه، وداعيًا عِبادَه إلى شُكرِه، وإفرادِه بالعبادةِ: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ المكَذِّبينَ: اللهُ وَحْدَه هو مَنْ أوجَدَكم مِنَ العَدَمِ، وجعَلَ لكم السَّمعَ والأبصارَ والأفئِدةَ، قليلًا ما تَشكُرونَ اللهَ تعالى على ما آتاكم!

قُلْ -يا محمَّدُ-: اللهُ هو الَّذي نَشَرَكم في أقطارِ الأرضِ وأرجائِها، وإليه وَحْدَه تُجمَعونَ.

ثُمَّ يخبِرُ اللهُ تعالى عن الكفَّارِ المُنكِرينَ للمَعادِ، المُستبعِدينَ وُقوعَه، فيقولُ: ويقولُ المُشرِكونَ تكذيبًا واستِهزاءً: متى يكونُ ما تَعِدُونَنا به مِنَ الحَشرِ إلى اللهِ إنْ كُنتُم صادِقينَ؟ قُلْ لهم: إنَّما عِلْمُ ذلك عِندَ اللهِ وَحْدَه، وما أنا إلَّا مُنذِرٌ لكم عَذابَ اللهِ!

ثمَّ يذكرُ حالَهم عندَما يرَونَ العذابَ، فيقولُ: فلمَّا رأى أولئك الكافِرونَ ما وُعِدُوا به قريبًا منهم وعايَنوه، ساءهم وأفزَعَهم؛ فتغيَّرَت وُجوهُهم وقَبُحَت، وقِيلَ لهم يومَ القيامةِ تَوبيخًا: هذا هو العَذابُ الَّذي كُنتُم تَطلُبونَه وتَسألُونَ تَعجيلَه في الدُّنيا!

= في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٧).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٧).

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٢٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أورد البُرهانَ أوَّلًا من حالِ سائرِ الحيواناتِ، وهو وُقوفُ الطَّيرِ في الهواءِ؛ أورد البُرهانَ بَعْدَه مِن أحوالِ النَّاسِ، وهو هذه الآيةُ، وذكَرَ مِن عجائِبِ ما فيه حالَ السَّمعِ والبَصَرِ والفُؤادِ[1].

وأيضًا لَمَّا كان العرَبُ المَوعوظونَ بهذا الذِّكْرِ يَتغالَونَ في التَّفاخُرِ بالهدايةِ في الطُّرُقِ المحسوسةِ، وعدَمِ الإخلالِ بشُكرِ المعروفِ لِمُسْديه ولو قَلَّ، فنفَى عنهم الأوَّلَ بِقيامِ الأدِلَّةِ على خَطَئِهم الفاحِشِ في كُلِّ ما خالَفوا فيه الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن طريقِهم المعنويِّ الَّذي اتَّخَذوه دِينًا؛ فهو أشرَفُ من الطَّريقِ المحسوسِ- أتْبَعَه بيانَ انسِلاخِهم مِنَ الثَّاني مع التأكيدِ؛ لانسلاخِهم مِنَ الأوَّلِ[2].

﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ المكَذِّبينَ: اللهُ وَحْدَه هو مَنْ أوجَدكم مِنَ العَدَمِ[3].

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾.

أي: وهو الَّذي جعَلَ لكم السَّمعَ لِتَسمَعوا آياتِ اللهِ تعالى، والأبصارَ لِتَنظُروا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٨، ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

خَلْقَ اللهِ عزَّ وجلَّ، والأفئِدةَ لِتَتفكَّروا وتَعتَبِروا فيما سَمِعتُم وشاهَدتُم[١].

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

أي: قليلًا ما تَشكُرونَ اللهَ تعالى على ما آتاكم مِنَ السَّمعِ والأبصارِ والأفئِدةِ[٢].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩].

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤)﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى استدَلَّ بأحوالِ الحيَواناتِ أوَّلًا، ثمَّ بصِفاتِ الإنسانِ ثانيًا، وهي السَّمعُ والبصَرُ والعَقلُ، ثمَّ بحُدوثِ ذاتِ هذا الإنسانِ ثالثًا، وهو قَولُه[٣]:

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ-: اللهُ هو الَّذي نشَرَكم في أقطارِ الأرضِ وأرجائِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٩، ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢).

قال النسفي: (﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ هذه النِّعَمَ؛ لأنَّكم تُشرِكونَ باللهِ، ولا تُخلِصونَ له العِبادةَ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥١٦).

وقال ابنُ كثير: (﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: ما أقَلَّ ما تَستَعمِلونَ هذه القُوى الَّتي أنعَمَ اللهُ بها عليكم في طاعتِه، وامتِثالِ أوامِره وتَركِ زَواجِره!). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

أي: وإلى اللهِ تُجمَعونَ بعْدَ هذا التَّفرُّقِ والشَّتاتِ، فيَبعَثُكم مِن قُبورِكم للحِسابِ والجَزاءِ[1].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي ويقولُ المُشرِكونَ: متى يكونُ ما تَعِدُونَنا مِنَ الحَشرِ إلى اللهِ إنْ كُنتُم صادِقينَ في وَعْدِكم هذا[2]؟

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاءِ السَّائِلينَ: إنَّما عِلْمُ وقتِ مجيءِ القيامةِ عِندَ اللهِ وَحْدَه، لا يَعلَمُه أحدٌ سِواه[3].

كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: وما أنا إلَّا مُنذِرٌ لكم عَذابَ اللهِ إنْ كفَرْتُم إنذارًا بيِّنًا واضِحًا تُقامُ به الحُجَّةُ عليكم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ٢٧﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

أي: فلمَّا رأى أولئك الكافِرونَ ما وُعِدُوا به شَديدَ القُربِ منهم وعايَنوه، ساءهم وأفزَعَهم، وأقلَقَ أفئِدتَهم؛ فتغيَّرَت وُجوهُهم وقَبُحَت، وعَلَتْها الكآبةُ[1]!

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ * وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ [الشورى: ٤٤، ٤٥].

﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿تَدْعُونَ﴾ أي: هذا هو العَذابُ الَّذي كُنتُم تَدْعُون اللهَ لِيأتيَكم به[2].

٢- قِراءةُ ﴿تَدَّعُونَ﴾: أي: تَطلبونَ، وقيل: المعنى: هذا هو العَذابُ الَّذي كُنتُم به تُكَذِّبونَ، فتَدَّعونَ أنَّكم إذا مُتُّم لا تُبعَثونَ. وقيل: معنى ﴿تَدَّعُونَ﴾:

= (٨/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٦٤، ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٠، ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٠).

قال البغوي: (﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ﴾ يعني: العذابَ في الآخرةِ، على قولِ أكثرِ المفسِّرينَ. وقال مجاهدٌ: يعني: العذابَ ببَدرٍ). ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٢٧).

(٢) قرأ بها يعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٠١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٨١).

تَمْتَرونَ. وقيل: المعنى: تتَمَنَّونَ. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ، وهو الدُّعاءُ[١].

﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾.

أي: وقِيلَ لهم يومَ القيامةِ تَقريعًا وتَوبيخًا: هذا هو العَذابُ الَّذي كُنتُم تَطلُبونَه وتَسألُونَ تَعجيلَه؛ تكذيبًا واستِبعادًا لوُقوعِه[٢]!

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٠١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٨١)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٦٥، ٢٦٦).

قال الماوَرْدي: (في قَولِه: ﴿كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أربعةُ أوجُهٍ:

أحَدُها: تَمتَرونَ فيه وتختَلِفونَ. قاله مقاتِلٌ.

الثَّاني: تَشُكُّونَ في الدُّنيا وتَزعمونَ أنَّه لا يكونُ. قاله الكَلْبيُّ.

الثَّالثُ: تَستَعجِلونَ مِن العَذابِ. قاله زيدُ بنُ أسْلَمَ.

الرَّابعُ: أنَّه دُعاؤُهم بذلك على أنفُسِهم، وهو افتِعالٌ مِن الدُّعاءِ. قاله ابنُ قُتيبةَ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٥٧). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٤)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٥).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: تَطلُبون وتَستعجِلونَ به: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، وابنُ جُزَي، وأبو السعود، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٦).

قال القرطبي: (قال الفرَّاءُ: «﴿تَدَّعُونَ﴾ تَفْتَعِلونَ مِن الدُّعاءِ». وهو قولُ أكثرِ العُلماءِ، أي: تتمَنَّونَ وتَسألونَ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٠). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٣/ ١٧١).

وقال الزجاج: (أمَّا ﴿تَدَّعُونَ﴾ فجاء في التَّفسيرِ: تُكَذِّبونَ. وتأويلُه في اللُّغةِ: هذا الَّذي كنتم مِن أجْلِه تَدَّعُونَ الأباطيلَ والأكاذيبَ، أي: تَدَّعونَ أنَّكم إذا مِتُّم وكنتُم تُرابًا وعِظامًا أنَّكُم لا تُخرَجُونَ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٠١).

قال البِقاعي: (﴿تَدَّعُونَ﴾ أي: تَطلُبون وتُوقِعونَ الطَّلَبَ له طلبًا شديدًا، تَبلُغون فيه غايةَ =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يكونَ شُكرُه على حَسَبِ النِّعمةِ؛ ففي السَّمعِ: يَستعمِلُ السَّمعَ فيما يُقَرِّبُ إلى اللهِ، ويَمنَعُه عمَّا حَرَّمَ اللهُ، وكذلك في البَصَرِ، أمَّا القَلبُ: فيَجِبُ عليه أنْ يُعرِضَ بقَلبِه عن كُلِّ ما حَرَّمَ اللهُ، وأنْ يُقبِلَ بقَلبِه على كُلِّ ما أَمَرَ اللهُ به[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ في ذِكرِ السَّمعِ والبَصَرِ والفُؤادِ هاهنا تَنبيهٌ على دقيقةٍ لَطيفةٍ، كأنَّه تعالى قال: أعطيتُكم هذه الإعطاءاتِ الثَّلاثةَ، معَ ما فيها مِن القُوى الشَّريفةِ، لكِنَّكم ضيَّعتُموها، فلم تَقبَلوا ما سَمِعتُموه، ولا اعتبَرْتُم بما أبصَرْتُموه، ولا تأمَّلْتُم في

= الجهدِ على وجهِ الاستعجالِ أن يَستنزِلَ بكم مَكروهَه فِعلَ مَن لا يبالي به بوجهٍ، وتُكرِّرون ذلك الطَّلَبَ، وتَعودون إليه في كلِّ وقتٍ مُعرِضينَ عن السَّعيِ في الخلاصِ فيه من عدوانِ العذابِ، ونَيلِ الوعدِ الحسَنِ بجزيلِ الثَّوابِ؛ لبيانِ قوَّةِ طلَبِهم له، وتَداعيهم إليه استِهزاءً به، حتَّى كأنَّهم لا مطلوبَ لهم غيرُه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢٦٦).

وقال الواحديُّ: (معناه: كنتُم به تستعجلونَ، وتَدْعونَ اللهَ بتعجيلِه). ((البسيط)) (٢٢/ ٦٣).

وممَّن قال بأنَّ المعنى: تُكَذِّبونَ: السعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٠).

قيل: قائِلُ هذا هو اللهُ سبحانَه. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٠٦).

وقيل: القائلُ هم خَزَنةُ جهنَّمَ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والثعلبيُّ، والماوَرْدي، والبَغَوي، والزمخشري، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٦١)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٥٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٧).

وقال ابنُ عاشور: (القائِلُ لهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾: ملائِكةُ المحشَرِ، أو خَزَنةُ جهنَّمَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٠، ٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٥٠).

عاقبةِ ما عَقَلْتُموه، فكأنَّكم ضيَّعتُم هذه النِّعَمَ، وأفسَدْتُم هذه المَواهِبَ؛ فلهذا قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ شُكرَ نِعمةِ اللهِ تعالى هو أن يَصرِفَ تلك النِّعمةَ إلى وَجهِ رِضاه، وأنتم لَمَّا صَرَفتُم السَّمعَ والبَصَرَ والعَقلَ لا إلى طَلَبِ مَرضاتِه، فأنتم ما شكَرْتُم نِعمتَه البتَّةَ[(١)]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ذَمُّ مَن لا يَشكُرُ[(٢)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ بيانُ نِعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى على الإنسانِ بجَعلِ السَّمعِ والأبصارِ والأفئدةِ الَّتي بها إدراكُ المعقولِ وعَقْلُه؛ فإدراكُ المعقولِ بالسَّمعِ والبَصَرِ، وعقْلُه بالقَلبِ ووَعيُه[(٣)].

٢- قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ الأفئدةُ: القُلوبُ، وقد ذكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ طريقَ الفَهْمِ ومكانَ الفَهمِ؛ فطريقُ الفَهمِ هو السَّمعُ والبَصَرُ، ومَحَلُّ الفَهمِ والوَعيِ هو القلبُ؛ ولهذا يكونُ السَّمعُ والبصَرُ كقَناتَينِ تَصُبَّانِ في القَلبِ، فيَتلقَّى ما يُسمَعُ أو يُبصَرُ، ثمَّ يَصُبَّانِ في القَلبِ، وهو محلُّ الوَعيِ والإدراكِ[(٤)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ بيانُ الأساليبِ الَّتي يقومُ بها دُعاةُ الباطلِ؛ حيثُ يَتحدَّونَ أهلَ الحقِّ بمِثْلِ هذا التَّحدِّي، مع العِلمِ بأنَّ الوَعيدَ بالعَذابِ أو نَحوِه هو كالآياتِ تمامًا، والآياتُ عندَ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَـٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٧).

٥٠]، وكذلك العَذابُ الَّذي وَعَدَتْ به الرُّسُلُ ليس هو بأيديهم حتَّى يقولوا: أَرُونا العَذابَ! وإنَّما العَذابُ عندَ اللهِ تعالى؛ ولهذا كان جوابُ الرُّسُلِ بأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٣٠]، فالأمرُ ليس كُلَّما طلَبْتُم أعطَيْناكم، وإنَّما اللهُ عزَّ وجلَّ هو الَّذي يُقَدِّرُ هذه الأشياءَ، فكما أنَّ المشركينَ إذا طَلَبوا آياتٍ يُقالُ لهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْأَيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، فإذا طلبوا نُزولَ العَذابِ نقولُ: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٣٠]، وليس الأمرُ إلينا، وهم لا يقولون ذلك إلَّا تمويهًا على النَّاسِ وتغريرًا بالعامَّة، فيقولون: انظرْ هؤلاء يتوعَّدونَنا إذا كَفَرنا بهم بالعَذابِ، فأين العذابُ؟! فيُؤخَذُ من ذلك: بيانُ أساليبِ دُعاةِ الضَّلالِ حيث يُنَوِّعونَها بكلِّ ما يستطيعونَ مِن الشِّدَّةِ لإضلالِ الخَلْقِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنَّه لا يَجِبُ على مَن بَلَّغَ عنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلَّا الإنذارُ؛ فأهلُ العِلمِ الَّذين هم وَرَثةُ الأنبياءِ لا يَملِكونَ هدايةَ الخَلْقِ، لكنْ عليهم الإنذارُ والتَّبليغُ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وظيفتُه الإنذارُ لا الهِدايةُ[٣]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ المنْقَبةُ للمُنْذِرِ إذا كان مُبينًا في إنذارِه، فيَكونُ فيه مَدْحٌ للفَصاحةِ والبلاغةِ، وقد قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((إنَّ مِن البَيانِ لَسِحْرًا))[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٠). =

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ هذا انتِقالٌ مِن توجيهِ اللهِ تعالَى الخِطابَ إلى المشركينَ للتَّبصيرِ بالحُجَجِ والدَّلائلِ، وما تَخلَّلَ ذلك مِن الوعيدِ أو التَّهديدِ؛ إلى خِطابِهم على لِسانِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يقولَ لهم ما سيُذكَرُ؛ تفنُّنًا في البَيانِ، وتَنشيطًا للأذهانِ، حتَّى كأنَّ الكلامَ صَدَرَ مِن قائلَينِ، وترفيعًا لقدْرِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإعطائِه حظًّا مِن التَّذكيرِ مَعه. والانتقالُ هنا إلى الاستِدلالِ بفُروعِ المخلوقاتِ بعْدَ الاستدلالِ بأُصولِها، ومِن الاستِدلالِ بفُروعِ أعراضِ الإنسانِ بعْدَ أصْلِها، ومِن الاستِدلالِ بخَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ والموتِ والحياةِ إلى الاستِدلالِ بخلْقِ الإنسانِ ومَداركِه، وقد أُتبِعَ الأمرُ بالقولِ بخَمْسةٍ مِثلِه بطَريقةِ التَّكريرِ بدُونِ عاطفٍ؛ اهتِمامًا بما بعْدَ كلِّ أمْرٍ مِن مَقالةٍ يُبلِّغُها إليهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١).

- وإنَّما أُفرِدَ السَّمعُ ولم يُجمَعْ كما جُمِعَ الأفئدةُ والأبصارُ؛ إمَّا لأنَّه أُريدَ منه المَصدرُ الدَّالُّ على الجِنسِ؛ إذ لا يُطلَقُ على الآذانِ سمْعٌ؛ ألَا تَرى أنَّه جَمَعَ لَمَّا ذَكَرَ الآذانَ في قولِه: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ [البقرة: ١٩] وقولِه: ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥]، فلمَّا عبَّرَ بالسَّمعِ أُفرِدَ؛ لأنَّه مَصدرٌ، بخِلافِ الأفئدةِ والأبصارِ؛ فإنَّ الأفئدةَ مُتعدِّدةٌ، والأبصارَ جمْعُ بَصَرٍ الَّذي هو اسمٌ لا مَصدرٌ، وإمَّا لتَقديرِ مَحذوفٍ، أي: حواسَّ سَمْعِهم أو جَوارحَ

= والحديث أخرجه البخاريُّ (٥٧٦٧) من حديثِ عبدِ الله بنِ عُمرَ رضيَ الله عنهما.
وأخرجه مسلمٌ (٨٦٩) مطوَّلًا من حديثِ عمَّارِ بنِ ياسرٍ رضيَ الله عنهما.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٦، ٤٧).

سَمْعِهم. وقد تكونُ في إفرادِ السَّمعِ لَطيفةٌ رُوعِيَت مِن جُملةِ بَلاغةِ القرآنِ؛ هي أنَّ الأفئدةَ كانت مُتفاوِتةً، واشتِغالَها بالتَّفكُّرِ في أمْرِ الإيمانِ والدِّين مُختلِفٌ باختلافِ وُضوحِ الأدِلَّةِ، وبالكثرةِ والقِلَّةِ، وتَتلقَّى أنواعًا كثيرةً مِن الآياتِ، فلِكُلِّ عقلٍ حظُّه مِن الإدراكِ، وكانت الأبصارُ أيضًا مُتفاوِتةَ التَّعلُّقِ بالمَرئيَّاتِ الَّتي فيها دَلائلُ الوَحدانيَّةِ في الآفاقِ، وفي الأنفُسِ الَّتي فيها دَلالةٌ، فلِكُلِّ بصَرٍ حَظُّه مِن الالتِفاتِ إلى الآياتِ المُعجِزاتِ والعِبَرِ والمواعظِ، فلمَّا اختَلَفَت أنواعُ ما تَتعلَّقانِ به جُمِعَت. وأمَّا الأسماعُ فإنَّما كانت تَتعلَّقُ بسَماعِ ما يُلْقى إليها مِن القرآنِ، فالجماعاتُ إذا سَمِعوا القرآنَ سَمِعوه سَماعًا مُتساوِيًا، وإنَّما يَتفاوَتون في تَدبُّرِه، والتَّدبُّرُ مِن عمَلِ العقولِ، فلمَّا اتَّحَدَ تَعلُّقُها بالمسموعاتِ جُعِلَت سَمْعًا واحدًا[1]. فوحَّدَ السَّمْعَ لِقِلَّةِ التَّفاوُتِ فيه؛ لِيَظهَرَ سِرُّ تصَرُّفِه سُبحانَه في القُلوبِ بغايةِ المُفاوَتةِ، مع أنَّه أعظَمُ الطُّرُقِ المُوصِلةِ للمَعاني إليها، وجمَعَ الأبصارَ والأفئِدةَ لكَثرةِ التَّفاوُتِ في نُورِ الأبصارِ، وإدراكِ الأفكارِ[2].

- قَولُه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ بَدَأَ بالسَّمعِ لأنَّه أشمَلُ وأعمُّ؛ لأنَّك تَسمَعُ ما لا تَراه، ولَمَّا كان أشمَلَ وأعمَّ كان الابتِلاءُ به -والحمدُ للهِ- أقلَّ، لو نَسَبْتَ الصُّمَّ إلى العُمْيِ لَوجدْتَ النِّسبةَ قليلةً؛ لأنَّ الصَّمَمَ أشدُّ، فوُجودُ السَّمعِ أهمُّ. ولم يَذْكُرْ سُبحانَه «الشَّمَّ والذَّوقَ واللَّمْسَ»؛ لأنَّ الاتِّعاظَ بالآياتِ يكونُ بالسَّمعِ والبَصَرِ[3].

- والقصْرُ المُستفادُ مِن تَعريفِ المسنَدِ إليه والمسنَدِ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٥٥، ٢٥٦) و(٢٩/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٤٧).

﴿أَنشَأَكُمۡ﴾ إلى آخِره قصْرُ إفرادٍ[١]؛ بتَنزيلِ المخاطَبين -لشِرْكِهم- مَنزِلةَ مَن يَعتقِدُ أنَّ الأصنامَ شارَكَت اللهَ في الإنشاءِ، وإعطاءِ الإحساسِ والإدراكِ[٢].

- قولُه: ﴿قَلِيلًا﴾ نَعتٌ لمحذوفٍ، و(ما) مَزيدةٌ لتأكيدِ القِلَّةِ، أي: شُكرًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا تَشْكرونَ. أو استُعمِلَ ﴿قَلِيلًا﴾ في معْنى النَّفيِ والعدَمِ، وهذا الإطلاقُ مِن ضُروبِ الكِنايةِ والاقتصادِ في الحكْمِ على طَريقةِ التَّمليحِ القَريبِ مِن التَّهكُّمِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾

- إعادةُ فِعلِ ﴿قُلۡ﴾ مِن قَبيلِ التَّكريرِ المُشعِرِ بالاهتمامِ بالغَرَضِ المَسوقةِ فيه تلك الأقوالُ[٤].

---

(١) القَصرُ أو الحَصرُ: هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ. ويَنقسِمُ القَصرُ أو الحَصرُ باعتبارٍ آخَرَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: قَصْرُ إفرادٍ، وقَصْرُ قَلْبٍ، وقَصْرُ تعيينٍ؛ فالأوَّلُ: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ الشَّرِكةَ؛ نحو: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [النحل: ٥١]، خُوطِبَ به مَن يَعتقدُ اشتراكَ اللهِ والأصنامِ في الأُلوهيَّةِ. والثَّاني: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ إثباتَ الحُكمِ لغيرِ مَن أثبتَه المُتكلِّمُ له؛ نحو: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، خُوطِبَ به نَمرودُ، الَّذي اعتقد أنَّه هو المحيي المميتُ دون اللهِ. والثَّالثُ: يُخاطَبُ به مَن تَساوَى عندَه الأمْرانِ، فلمْ يَحكُمْ بإثباتِ الصِّفةِ لواحدٍ بعَيْنِه، ولا لواحدٍ بإحْدى الصِّفتَينِ بعَيْنِها. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقَزْويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٨).

- والقصْرُ المُستفادُ مِن تَعريفِ المسنَدِ إليه والمسنَدِ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قصْرُ إفرادٍ بتَنزيلِ المخاطَبين -لشِرْكِهم- مَنزِلةَ مَن يَعتقِدُ أنَّ الأصنامَ شارَكَتِ اللهَ في ذَرْءِ الخَلْقِ في الأرضِ(١).

- قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، قيل: المعنى: بعْدَ أنْ أكثَرَكم في الأرضِ، فهو يُزيلُكم بمَوتِ الأجيالِ، فكُنِّيَ عن الموتِ بالحشرِ؛ لأنَّهم قد عَلِموا أنَّ الحشرَ الَّذي أُنذِروا به لا يكونُ إلَّا بعْدَ البعثِ، والبعثُ بعدَ الموتِ، فالكِنايةُ عن الموتِ بالحشْرِ بمَرتبتَينِ مِن الملازَمةِ، وقد أُدمِجَ في ذلك تَذكيرُهم بالموتِ الَّذي قدْ عَلِموا أنَّه لا بُدَّ منه، وإنذارُهم بالبعثِ والحشْرِ(٢).

- قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على عامِلِه للحصرِ(٣). وقيل: تَقديمُ المعمولِ في ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للاهتِمامِ، والرِّعايةِ على الفاصلةِ، وليس للاختِصاصِ؛ لأنَّهم لم يَكونوا يَدَّعون الحشْرَ أصلًا، فضْلًا عن أنْ يَدَّعوه لغيرِ اللهِ(٤).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لَمَّا لم تكُنْ لهم مُعارَضةٌ للحُجَّةِ الَّتي في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ [الملك: ٢٣] إلى ﴿هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الملك: ٢٤]؛ انحصَرَ عِنادُهم في مَضمونِ قولِه: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الملك: ٢٤]؛ فإنَّهم قدْ جَحَدوا البعثَ وأعْلَنوا بجَحْدِه، وتَعجَّبوا مِن إنذارِ القرآنِ به، وقال بَعضُهم لبعضٍ: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٧، ٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٨).

﴿يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [سبأ: ٧، ٨]، وكانوا يقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، واستمرُّوا على قولِه؛ فلذلك حكاهُ اللهُ عنهم بصيغةِ المضارعِ المُقتضيةِ للتَّكرير[١].

- والاستفهامُ بقولِهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ مُستعمَلٌ في التَّهكُّم؛ لأنَّ مِن عادتِهم أنْ يَستهزِئوا بذلك، وأَتَوا بلَفظِ ﴿ٱلْوَعْدُ﴾ استنجازًا له؛ لأنَّ شأْنَ الوعدِ الوفاءُ[٢].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ جوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ، أي: إنْ كنتُم صادِقينَ فيما تُخبِرونَه مِن مَجيءِ السَّاعةِ والحشرِ، فبيِّنُوا وقتَهُ[٣].

- قولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أمَرَ اللهُ رسولَه بأنْ يُجيبَ سُؤالَهم بجُملةٍ على خِلافِ مُرادِهم، بلْ على ظاهرِ الاستِفهامِ عن وقْتِ الوعدِ على طَريقةِ الأُسلوبِ الحكيمِ[٤]؛ بأنَّ وقْتَ هذا الوعدِ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، فقولُه: ﴿قُلْ﴾ هنا أمْرٌ بقولٍ يَختَصُّ بجَوابِ كَلامِهم، وفُصِلَ دونَ عطْفٍ لجريانِ المَقولِ في سِياقِ المُحاوَرةِ، فلم يُعطَفْ فِعلُ (قُل) بالفاءِ جرْيًا على سَنَنِ أمثالِه الواقعةِ في المُجاوَبةِ والمحاوَرةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦١).

(٤) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المخاطَب بغير ما يترقَّبُ بحملِ كلامه على غيرِ مُراده؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السَّائلِ بغير ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأَولى بحالِه وبالسُّؤالِ عنه، وهو من خلافِ مقتضَى الظَّاهرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٩).

- ولامُ التَّعريفِ في ﴿ٱلْعِلْمُ﴾ للعهْدِ، أي: العِلمُ بوقْتِ هذا الوعدِ، وهذه هي اللَّامُ الَّتي تُسمَّى عِوَضًا عن المُضافِ إليه، وهذا قصْرٌ حَقيقيٌّ[١].

- والقصْرُ في قولِه: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ قصْرٌ إضافيٌّ[٢]، أي: ما أنا إلَّا نَذيرٌ بوُقوعِ هذا الوعدِ، لا أتجاوَزُ ذلك إلى كَوني عالِمًا بوقْتِه[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ الفاءُ فَصيحةٌ؛ لأنَّها اقتَضَت جُملةً مَحذوفةً تَقديرُها: فحلَّ بهم الوعدُ، فلمَّا رَأَوه... إلخ. أو جُملتَينِ مُقدَّرتينِ، كأنَّه قِيل: وقدْ أتاهم ما وُعِدوا به، فرَأَوه، فلمَّا رَأَوه...[٤].

- وفِعلُ ﴿رَأَوۡهُ﴾ مُستعمَلٌ في المُستقبَلِ، وجِيءَ به بصِيغةِ الماضي لشَبَهِه بالماضي في تَحقُّقِ الوُقوعِ؛ لأنَّه صادرٌ عمَّن لا إخلافَ في أخبارِه، وأصلُ المعْنى: فإذا يَرَونه تُساءُ وُجوهُ الَّذين كَفَروا... إلخ، فعُدِلَ عن ذلك إلى صَوغِ الوعيدِ في صُورةِ الإخبارِ عن أمْرٍ وقَعَ، فجِيءَ بالأفعالِ الماضيةِ[٥].

- وقولُهُ: ﴿زُلۡفَةٗ﴾ حالٌ مِن مَفعولِ ﴿رَأَوۡهُ﴾؛ إمَّا بتَقديرِ المُضافِ، أيْ: ذا زُلفةٍ وقُرْبٍ، أو على أنَّه مَصدرٌ بمعْنى الفاعلِ، أي: مُزدَلِفًا، أو على أنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٩).
والقصر تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩٢).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٩، ٥٠).

مَصدرٌ نُعِتَ بهِ مُبالَغةً، أي: رَأَوه شَديدَ القُربِ منهم، أي: أخَذَ يَنالُهم، أو ظَرْفٌ، أيْ: رَأَوهُ في مكانٍ ذِي زُلفةٍ[1].

- قولُه: ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أُسنِدَ حُصولُ السُّوءِ إلى الوُجوهِ؛ لتَضمينِه معْنى (كَلَحَت)، أي: لأنَّه سُوءٌ شديدٌ تَظهَرُ آثارُ الانفعالِ منه على الوُجوهِ[2].

- قولُه: ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: سِيئَتْ وُجُوهُهم، ووُضِعَ الموصولُ مَوضعَ ضَميرِهم؛ لذمِّهم بالكُفرِ، وتَعليلِ المَساءةِ به[3].

- وقد حُذِفَ مَفعولُ ﴿تَدَّعُونَ﴾؛ لظُهورِه من قولِه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥]، أي: تَدَّعون أنَّه لا يكونُ، وذلك على قولٍ. والجارُّ والمجرورُ ﴿بِهِۦ﴾ مُتعلِّقٌ بفِعلِ ﴿تَدَّعُونَ﴾؛ لأنَّه ضُمِّنَ معْنى (تُكذِّبون)؛ فإنَّه إذا ضُمِّن عاملٌ معْنَى عاملٍ آخَرَ يُحذَفُ مَعمولُ العاملِ المذكورِ، ويُذكَرُ مَعمولُ ضِمْنِه؛ لِيَدُلَّ المذكورُ على المحذوفِ، وذلك ضَرْبٌ مِن الإيجازِ[4].

- وتَقديمُ المجرورِ على العاملِ؛ للاهتمامِ بإخطارِه، وللرِّعايةِ على الفاصلةِ[5].

- قولُه: ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ عُدِلَ عن تَعيينِ القائلِ؛ إذ المقصودُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المقولُ دونَ القائلِ، فحذْفُ القائلِ مِن الإيجازِ[١].

- والقصْرُ المستفادُ مِن تَعريفِ جُزأيِ الإسنادِ ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى﴾ تَعريضٌ بهم بأنَّهم مِن شِدَّةِ جُحودِهم بمَنزِلةِ مَن إذا رَأَوُا الوعدَ حَسِبوه شيئًا آخَرَ[٢].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (٢٨-٣٠)

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُجِيرُ﴾: أي: يَمنَعُ ويُغيثُ، يُقالُ: أجَرْتُ فُلانًا: أي: حَميتُه ومنَعْتُه[١].

﴿غَوْرًا﴾: أي: غائِرًا ذاهِبًا في الأرضِ لا تَنالُه الدِّلاءُ، وأصلُ (غور): يدُلُّ على خُفوضٍ في الشَّيءِ وانحِطاطٍ[٢].

﴿مَّعِينٍ﴾: أي: جارٍ ظاهِرٍ على وَجهِ الأرضِ، يُقالُ: مَعَنَ الماءُ: إذا جرى. والمَعينُ: السَّهلُ الَّذي يَنقادُ ولا يَعتاصُ (يصعبُ إخراجُه)، ومُعنانُ الماءِ: مَسايِلُه ومَجاريه، وأصلُ (معن): يدُلُّ على سُهولةٍ في جَرَيانٍ، وقيل: هو مشتقٌّ مِن العينِ، ووزنُه مفعولٌ، فالميمُ زائدةٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٩٩، ٦٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٩)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٩).

وقال النَّحَّاس: (﴿مَّعِينٍ﴾ يكونُ فَعيلًا مِن مَعَنَ الماءُ إذا كثُر، ويجوزُ أن يكونَ مفعولًا، ويكونَ الأصل فيه مَعْيونًا، مثل مَبِيعٍ، ويكونَ معناه على هذا: الماءُ يُرى بالأعيُنِ). ((إعراب القرآن)) (٤/ ٣١١). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٩٩). =

المعنى الإجماليُّ:

يأمرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يرُدَّ على ما كان المشركونَ يَتمَنَّوْنَه بالنِّسبةِ له ولأصحابِه، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء الكافِرينَ: أرأَيْتُم إن أماتَنيَ اللهُ ومَن مَعيَ مِن المؤمِنينَ بعذابٍ أو بغيرِه أو رَحِمَنا؛ فمَن يُجيرُكم أنتم مِن عَذابِه الأليمِ ما دُمتُم مُصِرِّينَ على الكُفرِ به؟!

قُلْ لهم: هو ربُّنا الرَّحمنُ آمَنَّا به، وعليه وَحْدَه اعتمَدْنا، فستَعلَمونَ عِندَ مَجيءِ العَذابِ مَن هو في ذَهابٍ بيِّنٍ عن الحَقِّ!

ثمَّ يخبرُ تعالى عن انفِرادِه بالنِّعَمِ، ومنها نِعمةُ الماءِ الَّذي يَشرَبونَه، فيقولُ: وقُلْ لهم: أرأيتُم إن أصبَحَ ماؤُكم غائِرًا في الأرضِ، فمَن يأتيكم بماءٍ ظاهرٍ جارٍ على وَجْهِ الأرضِ؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن بَذاءةِ المشركين أنْ يَجهَروا بتَمنِّي هَلاكِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهلاكِ مَن معه مِن المسلمينَ، وكانوا يَتآمَرون على قَتْلِه؛ أمَرَه اللهُ بأنْ

= وقال ابن عطية: (المَعِين: فَعيلٌ مِن مَعَنَ الماءُ إذا كثُر، أو مفعولٌ من العَينِ، أي: جارٍ كالعَينِ، أصلُه مَعْيونٌ، وقيل هو مِن العَينِ، لكنْ مِن حيثُ يُرى بعينِ الإنسانِ، لا مِن حيثُ يُشبَّهُ بالعَينِ الجاريةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٤).

وقال الأصبهاني: (المَعِينُ: الَّذي تَراه العُيونُ، وقيل المَعِينُ: الجاري، وهو قولُ قَتادةَ والضَّحَّاكِ؛ فعلى القولِ الأوَّلِ يكونُ مفعولًا مِن العَينِ، كمَبيعٍ مِن البَيعِ ومَكيلٍ مِن الكَيلِ، وعلى القولِ الثَّاني يكونُ في تقديرِ الفاعلِ، وتكونُ ميمُه أصليَّةً، ويكونُ مِن الإمعانِ في الجَريِ. ويجوزُ أن يكونَ في معنَى مفعولٍ، فتكونَ الميمُ زائدةً، كأنّه قد أُجريَ عُيونًا). ((إعراب القرآن)) (ص: ٤٥٨).

يُعرِّفَهم حَقيقةً تَدحَضُ أمانِيَّهم، وهي أنَّ موتَ أحدٍ أو حياتَه لا يُغْني عن غيرِه ما جرَّه إليه عمَلُه، وقد جرَّت إليهم أعمالُهم غضَبَ اللهِ ووَعيدَه، فهو نائلُهم حَيِيَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو بادَرَه المَنونُ[1]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء الَّذين يتضَجَّرونَ مِنك، ويَتمَنَّونَ هَلاكَك والمؤمِنينَ معك: أرأيتُم إن أماتَنيَ اللهُ ومَن معيَ مِن المؤمِنينَ بعَذابٍ أو غيرِه، أو رَحِمَنا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٢).

قال ابن جُزَي: (الهلاكُ هنا يحتملُ أن يُرادَ به الموتُ أو غيرُه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٧).

وقال الشَّوكاني: (أخبِروني إن أهلَكنيَ الله بموتٍ أو قتلٍ، ومَن مَعيَ مِن المؤمنينَ، أو رَحِمَنا بتأخيرِ ذلك إلى أجَلٍ. وقيل: المعنى: إنْ أهلَكنيَ اللهُ ومَن معي بالعذابِ، أو رَحِمَنا فلمْ يُعَذِّبْنا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالإهلاكِ: الإماتةُ، وبالرَّحمةِ: التَّأخيرُ في الأجَلِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والقرطبي، والبيضاوي، والنَّسَفي، والعُلَيمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥١٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٢).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالإهلاكِ: العذابُ، وبالرَّحمةِ: عدمُ العذابِ -وبعضُهم قال: المغفرةُ-: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، وابن الجوزي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٦١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٧).

وقال البِقاعي: (﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ﴾ أي: أماتَني بعذابٍ أو غيرِه، ... ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بالنُّصرةِ وإظهارِ الإسلامِ كما نرجو، فأنجانا بذلك مِن كلِّ سوءٍ، ووَقانا كلَّ مَحذورٍ، وأنالَنا كلَّ سرورٍ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢٦٨).

﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أي: لا يَنفَعُكم وُقوعُ ما تتمَنَّونَ لنا مِنَ الهَلاكِ؛ فسَواءٌ أهلَكَنا اللهُ أو رَحِمَنا، فلا نجاةَ لكم مِن عَذابِه الأليمِ ما دُمتُم مُصِرِّينَ على الكُفرِ به[١].

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

أي: قُلْ لهم -يا محمَّدُ-: هو ربُّنا الرَّحمنُ آمَنَّا به، وعليه وَحْدَه اعتمَدْنا[٢].

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: فستَعلَمونَ عِندَ مَجيءِ العَذابِ مَن هو في خَطَأٍ واضِحٍ وذَهابٍ بيِّنٍ عن الحَقِّ: أنحن أم أنتم[٣]؟!

قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أنَّه يَجِبُ أن يُتوكَّلَ عليه لا على غَيرِه؛ ذكَرَ الدَّليلَ عليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢، ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٧).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى العَذابَ، وهو مُطلَقٌ؛ ذكَرَ فَقْدَ ما به حياةُ النُّفوسِ، وهو الماءُ، وهو عذابٌ مَخصوصٌ[(١)].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾.

أي: قُلْ لهم -يا محمَّدُ-: أرأيتُم إن أصبحَ ماؤُكم غائِرًا في الأرضِ بحيثُ لا تَقدِرونَ على تناوُلِه أو استِخراجِه[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾.

أي: فمَن يأتيكم إذَنْ بماءٍ ظاهرٍ جارٍ على وَجْهِ الأرضِ تراه العُيونُ؟! لا يَقدِرُ على ذلك أحدٌ غيرُ اللهِ عزَّ وجلَّ[(٣)].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٦).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مَّعِينٍۭ﴾ أي: ظاهِرٍ تَراه العُيونُ، وتَنالُه الأيدي والدِّلاءُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والواحديُّ -ونسَبَه لقولِ المفسِّرينَ-، والبَغَويُّ، وابن الجوزي، والرازي، والرَّسْعَني، والخازن، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٦٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٠٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢١١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٦). =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾، فإذا كانت هذه حالَ الرَّسولِ وحالَ مَن اتَّبعَه، وهي الحالُ الَّتي تتعيَّنُ للفلاحِ، وتتوقَّفُ عليها السَّعادةُ، وحالةُ أعدائِه بضِدِّها، فلا إيمانَ لهم ولا توَكُّلَ؛ عُلِم بذلك مَن هو على هدًى، ومَن هو في ضلالٍ مبينٍ[1].

٢- عن صالحِ بنِ أحمَدَ، قال: (كان أبي لا يَدَعُ أحدًا يَستقي له الماءَ لِوُضوئِه إلَّا هو، وكان إذا خَرجَت الدَّلوُ مَلْأَى، قال: الحمدُ لله! قُلتُ: يا أبَتِ، أيُّ شَيءٍ الفائِدةُ في هذا؟! فقال: يا بُنيَّ، أمَا سَمِعتَ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾؟!)[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ فيه إفرادُ الله تعالى بالتَّوكُّلِ، ويُؤخَذُ مِن تقديمِ المعمولِ على عامِلِه؛ لأنَّ تقديمَ ما حقُّه التَّأخيرُ يُفيدُ الحصرَ، وهذه قاعِدةٌ، فلا يجوزُ التَّوكُّلُ إلَّا على اللهِ، كما قال تعالى أيضًا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

= وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ معنى ﴿مَّعِينٍ﴾: ظاهرٌ: سعيدُ بنُ جُبَيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٩).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿مَّعِينٍ﴾ جارٍ: النَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥١٧).

وممَّن قال به من السَّلفِ: قَتادةُ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٩).

وقال جلال الدين المحلِّي: (جارٍ تَنالُه الأيدي والدِّلاءُ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٧).

وقال ابن كثير: (﴿مَّعِينٍ﴾ أي: نابعٌ سائحٌ جارٍ على وجهِ الأرضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٣).

وقال العُلَيمي: (﴿مَّعِينٍ﴾ جارٍ ظاهرٍ تَراه العُيونُ، وتَنالُه الأيدي). ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

(٢) يُنظر: ((مناقب الإمام أحمد)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٢).

ﵟٱلۡمُتَوَكِّلُونَﵞ [إبراهيم: ١٢]، وقال عزَّ وجلَّ: ﵟوَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَﵞ[1] [آل عمران: ١٢٢، ١٦٠].

٢- قال تعالى: ﵟقُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاﵞ التَّوكُّلُ هو الحامِلُ للأعمالِ كُلِّها، فلا تُوجَدُ ولا تَكمُلُ إلَّا به، قال سعيدُ بنُ جُبيرٍ: (التَّوكُّلُ على اللهِ جِماعُ الإيمانِ)[2].

٣- قال تعالى: ﵟقُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاﵞ إنَّ التَّوكُّلَ مِن لوازِمِ الإيمانِ ومُقتَضياتِه، وإنَّ قوَّةَ التَّوكُّلِ وضَعْفَه بحسَبِ قوَّةِ الإيمانِ وضَعفِه، وكلَّما قَويَ إيمانُ العبدِ كان تَوكُّلُه أقوى، وإذا ضَعُفَ الإيمانُ ضعُف التَّوكُّلُ، وإذا كان التَّوكُّلُ ضعيفًا فهو دليلٌ على ضَعفِ الإيمانِ ولا بُدَّ، واللهُ تعالى يَجمَعُ بيْنَ التَّوكُّلِ والإيمانِ، كما في قولِه أيضًا: ﵟوَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَﵞ [المائدة: ٢٣]، وقوله: ﵟوَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَﵞ[3] [آل عمران: ١٢٢، ١٦٠].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﵟقُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭﵞ، لَمَّا افتتَح -سُبحانَه- السُّورةَ بعظيمِ بَرَكَتِه، وتمامِ قُدرتِه، وتفرُّدِه في مملكتِه، ودلَّ على ذلك بتفرُّدِه بالإماتةِ والإحياءِ، ختَم بمثلِ ذلك: بالماءِ الَّذي وُجودُه هو سببٌ للحياةِ، وعدمُه سببٌ للموتِ[4].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥).

وأثرُ سعيدِ بنِ جُبيرٍ أخرجه ابنُ أبي شيبةَ في ((المصنف)) (٣٦٤٩٠)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٤/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٧١).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

- الاستِفهامُ في ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ إنكاريٌّ؛ أنكَرَ اندفاعَهم إلى أُمنيَّاتٍ ورغائبَ لا يَجتَنون منها نفْعًا، ولكنَّها ممَّا تُمْليه عليهم النُّفوسُ الخبيثةُ مِن الحقدِ والحسَدِ. والرُّؤيةُ عِلميَّةٌ، وفِعلُها مُعلَّقٌ عن العملِ؛ فلذلك لم يَرِدْ بعْدَه مَفعولاهُ، وهو مُعلَّقٌ بالاستِفهامِ الَّذي في جُملةِ جَوابِ الشَّرطِ، فتَقديرُ الكلامِ: أرأَيْتُم أنفُسَكم ناجينَ مِن عذابٍ أليمٍ إنْ هلَكْتُ وهلَكَ مَن معي؟! فهَلاكُنا لا يَدفَعُ عنكمُ العذابَ المُعَدَّ للكافِرين، وأُقحِمَ الشَّرطُ بيْن فِعلِ الرُّؤيةِ وما سدَّ مَسدَّ مَفعولَيْه[١].

- قولُه: ﴿إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ﴾، قيل: أي: أماتَنِي، والإهلاكُ: الإماتةُ، والتَّعبيرُ عنه بالإهلاكِ لِما كانُوا يَدْعون عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعلى المؤمنينَ بالهلاكِ، وعلى هذا القولِ فمُقابَلةُ ﴿أَهْلَكَنِى﴾ بـ ﴿رَحِمَنَا﴾ يدُلُّ على أنَّ المرادَ: أو رَحِمَنا بالحياةِ، فيُفيدُ أنَّ الحياةَ رحمةٌ، وأنَّ تأْخيرَ الأجَلِ مِن النِّعَمِ[٢]. وأيضًا على هذا القولِ إنَّما سمَّى الحياةَ رحمةً للرَّسولِ ولِمَن معه؛ لأنَّ في حَياتِه نِعمةً له وللنَّاسِ ما دام اللهُ مُقدِّرًا حياتَه، وحياةُ المؤمنِ رحمةٌ؛ لأنَّه تَكثُرُ له فيها بَرَكةُ الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ[٣].

- والاستفهامُ بقولِه: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ إنكاريٌّ، أي: لا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٢).

يُجِيرُهم منه مُجيرٌ، أي: أظنَنْتُم أنْ تَجِدوا مُجيرًا لكم إذا هَلَكْنا؟! فذلك مُتعذِّرٌ، فماذا يَنفَعُكم هَلاكُنا[١]؟!

- والمرادُ بالكافِرين جميعُ الكافرينَ، فيَشملُ المُخاطَبينَ. والكلامُ بمَنزِلةِ التَّذييلِ، وفيه حذْفٌ، تَقديرُه: مَن يُجيرُكم مِن عذابٍ؛ فإنَّكم كافِرون، ولا مُجيرَ للكافِرين. وذُكِرَ وصْفُ الكافرين؛ لِما فيه مِن الإيماءِ إلى عِلَّةِ الحكْمِ؛ لأنَّه وصْفٌ إذا عُلِّقَ به حكْمٌ أفاد تَعليلَ ما منه اشتقاقُ الوصْفِ[٢].

وقيل: قولُه: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: فمَن يُجيرُكم، ووُضِعَ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مَوضِعَ ضَميرِهم؛ للتَّسجيلِ عليهم بالكفرِ، وتَعليلِ نَفْيِ الإنجاءِ به[٣].

- وتَنكيرُ ﴿عَذَابٍ﴾ للتَّهويلِ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ جاء الأمرُ بقولٍ يَقولُه لهم بمُناسَبةِ قولِه: ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ [الملك: ٢٨]؛ فإنَّه بعْدَ أنْ سوَّى بيْن فرْضِ إهلاكِ المسلمينَ وإحيائِهم في أنَّ أيَّ الحالينِ فُرِضَ لا يُجيرُهم معه أحدٌ مِن العذابِ؛ أعقَبَه بأنَّ المسلمينَ آمَنوا بالرَّحمنِ، فهم مَظِنَّةُ أنْ تَتعلَّقَ بهم هذه الصِّفةُ، فيَرحَمَهم اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ، فيَعلَمَ المشركون عِلمَ اليقينِ أيُّ الفريقينِ في ضَلالٍ حينَ يَرَون أثَرَ الرَّحمةِ على المسلمينَ، وانتِفاءَه عن المشركين في الدُّنيا، وخاصةً في الآخرةِ، وضَميرُ ﴿هُوَ﴾ عائدٌ إلى اللهِ تعالَى الواقعِ في الجُملةِ قبْلَه، أي: اللهُ هو الَّذي وَصْفُه الرَّحمنُ فهو يَرحَمُنا، وإنَّكم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٣).

أنْكَرْتُم هذا الاسمَ، فأنتم أحرياءُ بأنْ تُحرَموا آثارَ رَحمتِه، ونحن تَوكَّلْنا عليه دونَ غيرِه، وأنتم غَرَّكم عِزُّكم، وجعَلْتُم الأصنامَ مُعتمَدَكم ووُكلاءَكم. وبهذه التَّوطئةِ يقَعُ الإيماءُ إلى الجانبِ المهْتدي والجانبِ الضَّالِّ مِن قولِه: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ لأنَّه يَظهرُ بَداءَ تأمُّلٍ أنَّ الَّذين في ضَلالٍ مُبينٍ هم الَّذين جَحَدوا وصْفَ الرَّحمنِ، وتَوكَّلوا على الأوثانِ[1].

- وخَصَّ اللهُ التَّوكُّلَ مِن بيْنِ سائرِ الأعمالِ، معَ أنَّه داخِلٌ في الإيمانِ، ومِن جُملةِ لَوازِمِه؛ لأنَّ وُجودَ الأعمالِ وكَمالَها مُتوَقِّفٌ على التَّوكُّلِ[2].

- وتَقديمُ مَعمولِ ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ عليه؛ لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: تَوكَّلْنا عليه دونَ غيرِه؛ تَعريضًا بمُخالَفةِ حالِ المشركينَ؛ إذ تَوكَّلوا على أصنامِهم، وأشْرَكوها في التَّوكُّلِ مع اللهِ، أو نَسُوا التَّوكُّلَ على اللهِ باشتغالِ فِكرتِهم بالتَّوجُّهِ إلى الأصنامِ. وإنَّما لم يُقدَّمْ مَعمولُ ﴿ءَامَنَّا﴾ عليه، فلم يُقَلْ: (به آمَنَّا)؛ لمُجرَّدِ الاهتمامِ إلى الإخبارِ عن إيمانِهم باللهِ؛ لوُقوعِه عقِبَ وصْفِ الآخَرينَ بالكفْرِ في قولِه: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك: ٢٨]؛ فإنَّ هذا جوابٌ آخَرُ عن تَمنِّيهم له الهلاكَ سُلِكَ به طَريقُ التَّبكيتِ، أي: هو الرَّحمنُ يُجيرُنا مِن سُوءٍ تَرُومُونه لنا؛ لأنَّنا آمَنَّا به، ولم نَكفُرْ به كما كفَرْتُم، فلمْ يكُنِ المقصودُ في إيرادِه نفْيَ الإشراكِ وإثباتَ التَّوحيدِ؛ إذ الكلامُ في الإهلاكِ والإنجاءِ المعبَّرِ عنه بـ﴿رَحِمَنَا﴾ [الملك: ٢٨]، فجِيءَ بجُملةِ ﴿ءَامَنَّا﴾ على أصلِ مُجرَّدِ معْناها دونَ قصْدِ الاختصاصِ، بخِلافِ قولِه: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾؛ لأنَّ التَّوكُّلَ يَقْتضي مُنجيًا وناصرًا، والمشركون مُتوكِّلون على أصنامِهم وقوَّتِهم وأموالِهم، فقيل: نحنُ لا نتَّكِلُ على ما أنتُم مُتَّكِلون عليه، بلْ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

الرَّحمنِ وحْدَه توكَّلْنا[1].

- قولُه: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (مَن) موصولةٌ، وماصَدَقَ[2] (مَن) فريقٌ مُبهَمٌ مُتردِّدٌ بيْن فريقَينِ تَضمَّنَهما قولُه: ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾ [الملك: ٢٨]، وقولُه: ﴿فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ﴾ [الملك: ٢٨]؛ فأحدُ الفريقَينِ فريقُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَن معه، والآخرُ فريقُ الكافِرين، أي: فسَتعْلَمون اتِّضاحَ الفريقِ الَّذي هو في ضَلالٍ مُبينٍ[3].

- قولُه: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ قُرِئَ بياءِ الغائبِ[4]، على أنْ يكونَ إخبارًا مِن اللهِ لرسولِه بأنَّه سيُعاقِبُهم عِقابَ الضَّالِّينَ[5].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾ هذا إيماءٌ إلى أنَّهم يَترقَّبُهم عَذابُ الجُوعِ بالقحْطِ والجَفافِ؛ فإنَّ مكَّةَ قَليلةُ المياهِ، ولم تكُنْ بها عُيونٌ ولا آبارٌ قبْلَ زَمزمَ[6].

- وأصْلُ الغَورِ: ذَهابُ الماءِ في الأرضِ، مَصدرُ: غار الماءُ؛ إذا ذهَبَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٤، ٥٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦٢).

(٢) الماصَدَق: اسمٌ صِناعيٌّ مأخوذٌ في الأصلِ مِن كَلِمةِ (ما) الاستِفهاميَّة أو الموصوليَّة، وكَلِمةِ (صَدَق) الَّتي هي فِعلٌ ماضٍ مِنَ الصِّدقِ، كأنْ يُقالَ مَثلًا: على ماذا صَدَق هذا اللَّفظُ؟ فيُقالُ في الجوابِ: صدَقَ على كذا أو كذا؛ فاشتَقُّوا من ذلك أو نَحَتوا كَلِمةَ (ماصَدَق)، والمرادُ: الفَردُ أو الأفرادُ الَّتي يَنطَبِقُ عليها اللَّفظُ، أو: الأفرادُ الَّتي يَتحقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ. يُنظر: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٤).

(٤) وهي قِراءةُ الكِسائيِّ، وقرأها الباقونَ بالتَّاءِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

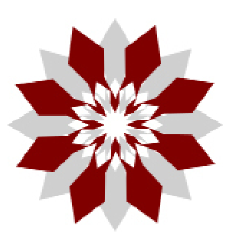
الأرضِ، والإخبارُ به عن الماءِ مِن بابِ الوصْفِ بالمصدَرِ للمُبالَغةِ[١].

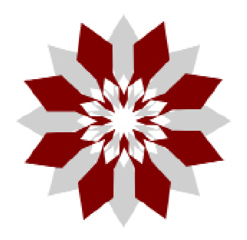
- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، أي: لا يأْتِيكم أحدٌ بماءٍ مَعينٍ، أي: غيرُ اللهِ، واكْتُفِيَ عن ذِكرِه؛ لظُهورِه مِن سِياقِ الكلامِ، ومِن قولِه قبْلَه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الملك: ٢٠] الآيتَينِ[٢].

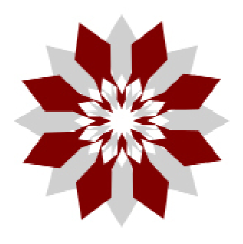


(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

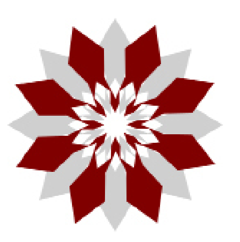


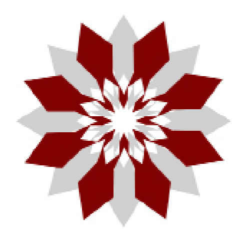


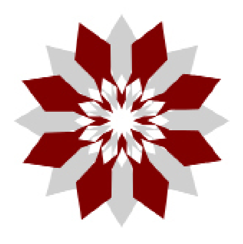


تَفْسِيرُ

سُورَةِ القَلَمِ







سورةُ القَلَمِ

أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسُورةِ (القَلَم)[١].

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

سُورةُ القَلَمِ مِن أوائِلِ ما نزَلَ مِن القرآنِ الكريمِ[٢].

وهي آخِرُ سورةٍ في ترتيبِ المُصحَفِ افتُتِحَتْ بواحدٍ مِن هذه الحروفِ المُقطَّعةِ[٣].

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ القَلَمِ مكِّيَّةٌ[٤]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٥].

---

(١) اشتُهِرت تَسميةُ هذه السُّورةِ بسُورةِ (القَلَم)؛ لافتتاحِها بما أقسَمَ اللهُ به، وهو قولُه: ﴿وَٱلۡقَلَمِ﴾، وتُسمَّى سُورةَ ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾ على حِكايةِ اللَّفظَينِ الواقِعَينِ في أوَّلِها، وتُسمَّى سُورةَ (ن) اقتصارًا على الحرفِ المفردِ. يُنظر: ((جمال القراء وكمال الإقراء)) للسخاوي (ص: ٩٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣٦).

(٤) وقيل: مِن قولِه: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ ...﴾ آية (١٧) إلى قولِه: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ آية (٣٣)، ومِن قولِه: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ آية (٤٨) إلى قولِه: ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ آية (٥٠) مَدَنيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٤٠)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١).

(٥) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣١٨)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١١٠).

وقال السمعاني: (هي مكِّيَّةٌ في قولِ الأكثَرينَ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٦).

مَقاصِدُ السُّورةِ:

مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

١- إبطالُ مَطاعِنِ المشركينَ في النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبَيانُ ضَلالِهم[١].

٢- إثباتُ كَمالاتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الدُّنيا والآخِرةِ، وتَثبيتُه[٢].

مَوضوعاتُ السُّورةِ:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

١- تَحدِّي المشركينَ بهذا القُرآنِ الكريمِ.

٢- الثَّناءُ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأفضَلِ أنواعِ الثَّناءِ، وتَسليتُه عمَّا أصابَه مِن أعدائِه.

٣- نهْيُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن مُداهَنةِ المشركينَ، أو مُلايَنَتِهم، أو مُوافَقتِهم على مُقترَحاتِهم الماكرةِ.

٤- بَيانُ سُوءِ أخلاقِ بَعضِ الكُفَّارِ وجَزائِهم.

٥- ضَرْبُ المثَلِ لأهلِ مكَّةَ بأصحابِ الجنَّةِ؛ لَعلَّهم يَعتبِرونَ.

٦- الموازنةُ بيْن عاقِبةِ الأخيارِ والأشرارِ.

٧- تَسفيهُ المشركينَ وتَوبيخُهم، وإقامةُ الحُجَجِ عليهم، وتَهديدُهم.

٨- تُختَتَمُ السُّورةُ بتَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأمْرِه بالصَّبرِ على أذى أعدائِه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الآيات (١-٧)

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٧﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَسۡطُرُونَ﴾: أي: يَكتُبونَ ويَخُطُّونَ، والسَّطرُ: الصَّفُّ مِن الكِتابةِ، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطِفافِ شَيءٍ[1].

﴿مَمۡنُونٖ﴾: أي: مَقطوعٍ مَنقوصٍ، وأصلُ (منن): يدُلُّ على قَطعٍ[2].

﴿ٱلۡمَفۡتُونُ﴾: أي: الَّذي فُتِنَ بالجُنونِ، وقيل: مَفتونٌ: بمعنى فِتنةٍ، كما يُقالُ: ليس له معقولٌ، أي: عقلٌ، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على اختبارٍ وامتحانٍ[3].

مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾

قَولُه تعالى: ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾: في تعَلُّقِه أوجُهٌ؛ أحَدُها: أَنْ تكونَ الباءُ سَبَبيَّةً،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤).

وتتعلَّقُ حينَئذٍ بمَضمونِ الجُملةِ المنفيَّةِ، والمعنى: انتفَى عنك الجُنونُ؛ بسَبَبِ نِعمةِ اللهِ عليك. الثَّاني: أنَّ الباءَ للمُلابَسةِ، تتعَلَّقُ بمحذوفٍ في مَوضِعِ نَصبٍ على الحالِ اللَّازِمةِ، والتَّقديرُ: ما أنت مجنونًا مُتلبِّسًا بنِعمةِ ربِّك الَّتي هي النُّبوَّةُ. الثَّالثُ: أنَّه مُقْسَمٌ به متوسِّطٌ بيْن اسمِ (ما) وخبَرِها، وجَوابُ القَسَمِ مَحذوفٌ لِدَلالةِ هذا المذكورِ عليه، والتَّقديرُ: ونِعمةِ ربِّك ما أنتَ بمجنونٍ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾

فيه أوجُهٌ مِنَ الإعرابِ: الأوَّلُ: ﴿بِأَيِيِّكُمُ﴾: شِبهُ جُملةٍ مُتعَلِّقٌ بمحذوفٍ خَبَرٌ مقدَّمٌ. ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾: مبتدَأٌ مُؤخَّرٌ. والباءُ: ظَرفيَّةٌ بمعنى «في»، والمعنى: في أيِّ فِرقةٍ وطائفةٍ منكم المفتونُ، والمَفْتونُ: مصدرٌ جاء على مَفْعولٍ، بمعنى الفِتنةِ، أي: بأيِّكم الفِتنةُ والفَسادُ. الثَّاني: ﴿بِأَيِيِّكُمُ﴾: الباءُ: حرفُ جَرٍّ زائدٌ. و«أَيِّكُم»: مبتدأٌ مجرورٌ لَفظًا مرفوعٌ محَلًّا. ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾: خبَرٌ مرفوعٌ، والمعنى: أيُّكم المفتونُ. وزِيدَت الباءُ في المُبتدَأِ كما زِيدَت في قَولِه: «بحَسْبِك دِرهَمٌ». والجملةُ كلُّها في محلِّ نَصبٍ مَفعولٌ لـ «يُبْصِرُون»، ولا يُوقَفُ على (يُبْصِرونَ). أو الكَلامُ تمَّ عندَ «يُبْصِرُونَ»، ثمَّ استأنفَ: ﴿بِأَيِيِّكُمُ﴾. والجُملةُ استئنافيَّةٌ لا محَلَّ لها مِن الإعرابِ. الثَّالثُ: أن تكونَ «أيُّكم» مَوصولةً لا استِفهاميَّةً، وتكونَ مَفعولًا به للفِعلِ قَبْلَها، والباءُ زائِدةٌ في المفعولِ، وصدرُ الصِّلةِ محذوفٌ، والتَّقديرُ: فستُبصِرُ ويُبصِرونَ الَّذي هو المفتونُ منكم[2].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٥، ٣٩٩)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٩/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٧)، ((التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل)) لأبي حيان (٦/ ٨٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٠١)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ١٤٨).

المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بأحَدِ الحُروفِ المُقَطَّعةِ ﴿نٓ﴾، ثمَّ أقسَمَ اللهُ سبحانَه بالقَلَمِ وما يَكتُبونَ على نَفيِ الجُنونِ عن نَبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لتَلَبُّسِه بنِعمةِ رَبِّه عليه مِنَ الهُدى والوَحيِ، ثمَّ أخبَرَ نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ له ثَوابًا عظيمًا غيرَ مَقطوعٍ أو مَنقوصٍ، وأثنَى عليه بأجمَلِ ثَناءٍ وأطْيَبِه بأنَّه على خُلُقٍ كَريمٍ، وأدَبٍ عَظيمٍ.

ثمَّ خاطَبَه تعالى قائلًا: فستَرى وتَعلَمُ -يا محمَّدُ- ويَرى كُفَّارُ قُرَيشٍ ويَعلَمونَ: أيُّكم المَفتونُ بالجُنونِ، والضَّلالِ عن الحَقِّ؟! إنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- هو أعلَمُ بمَن ضَلَّ عن طريقِ الحَقِّ، وهو أعلَمُ بالمهتَدينَ.

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾.


﴿نٓ﴾.

افتُتِحَت هذه السُّورةُ بهَذا الحرْفِ مِن الحُروفِ المقطَّعةِ التي تُستفتَحُ بها كَثيرٌ مِن سُوَرِ القرآنِ؛ لبَيانِ إعجازِه، حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحُروفِ العربيَّةِ التي يَتحدَّثونَ بها[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

قال ابنُ عطية: (﴿نٓ﴾ حرفٌ مُقَطَّعٌ في قولِ الجُمهورِ مِن المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٥).

وقال ابنُ القيِّم: (الصَّحيحُ أنَّ «ن» و«ق» و«ص» مِن حروف الهجاءِ الَّتي يَفتتِحُ بها الرَّبُّ سُبحانَه بعضَ السُّوَرِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٠٣). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٤).

﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

أي: أُقسِمُ بالقَلَمِ وما يَكتُبونَ[1].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤، ٥].

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾.

أي: لستَ -يا محمَّدُ- بسَبَبِ ما أنعَمَ اللهُ به عليك مِنَ الهُدى والوَحيِ والنُّبوَّةِ؛ بمَجنونٍ كما يَزعُمُ المُشرِكونَ[2]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٤٥-١٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٤، ٢٢٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠٦-٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٠).

والقَلَمُ المذكورُ هنا: قيل: هو الَّذي خلَقَه اللهُ تعالى فأمَرَه فجرى بكتابةِ جميعِ ما هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٤٥).

قال الواحديُّ: (... جميع المفسِّرينَ قالوا: هو القلمُ الَّذي كُتِب به اللَّوحُ المحفوظُ). ((البسيط)) (٢٢/ ٧٣).

وقيل: المرادُ: جِنسُ القلمِ الَّذي يُكتَبُ به، فهو عامٌّ في كُلِّ قَلَمٍ ممَّا يَكتُبُ به مَن في السَّماءِ ومَن في الأرضِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٧).

قال الماوَرْدي: (أمَّا ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ ففيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: أنَّه القَلَمُ الَّذي يَكتُبونَ به؛ لأنَّه نِعمةٌ عليهم، ومَنفعةٌ لهم، فأقسَمَ بما أنعَمَ. قاله ابنُ بحر. الثَّاني: أنَّه القَلَمُ الَّذي يُكتَبُ به الذِّكرُ على اللَّوحِ المحفوظِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦٠).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾: ما تَكتُبُ الملائكةُ الحَفَظةُ مِن أعمالِ بني آدمَ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٤٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: =

كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ثَبَّتَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فدفَعَ بُهتانَ أعدائِه؛ أعقَبَه بإكرامِه بأجْرٍ عظيمٍ على ما لَقِيَه مِن المشرِكينَ مِن أذًى بقولِه[(١)]:

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾.

أي: وإنَّ لك -يا محمَّدُ- لَثوابًا عظيمًا غيرَ مَقطوعٍ أو مَنقوصٍ[(٢)].

= ٢١٣-٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

قال الواحديُّ: (هذا جوابٌ لِقَولِهم: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، فأقسَمَ اللهُ بنُون، وبالقَلَمِ، وبأعمالِ بني آدمَ، فقال: ما أنت -يا محمَّدُ- بنعمةِ رَبِّك، أي: بإنعامِه عليك بالإيمانِ والنُّبُوَّةِ؛ بمَجنونٍ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٣٣). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦١).

وقال ابنُ القيِّم: (المُقسَمُ عليه بالقَلَمِ والكتابةِ في هذه السُّورةِ تنزيهُ نَبيِّه ورَسولِه عمَّا يقولُ فيه أعداؤُه، وهو قَولُه تعالى: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، وأنت إذا طابَقْتَ بيْنَ هذا القسَمِ والمقسَمِ به وجَدْتَه دالًّا عليه أظهَرَ دَلالةٍ وأبيَنَها؛ فإنَّ ما سَطَرَ الكاتِبُ بالقلَمِ مِن أنواعِ العُلومِ الَّتي يتلقَّاها البشَرُ بَعضُهم عن بعضٍ لا تَصدُرُ من مجنونٍ، ولا تَصدُرُ إلَّا مِن عَقلٍ وافرٍ، فكيف يَصدُرُ ما جاء به الرَّسولُ مِن هذا الكتابِ الَّذي هو في أعلى دَرَجاتِ العُلومِ، بل العلومُ الَّتي تضمَّنَها ليس في قُوى البشَرِ الإتيانُ بها، ولا سيَّما مِن أُمِّيٍّ لا يقرأُ كِتابًا ولا يخُطُّ بيَمينِه؟! مع كَونِه في أعلى أنواعِ الفصاحةِ، سليمًا مِن الاختلافِ، بَريًّا مِن التَّناقُضِ، يَستحيلُ مِن العقلاءِ كلِّهم لو اجتمَعوا في صعيدٍ واحدٍ أنْ يأتوا بمِثْلِه ولو كانوا في عَقلِ رجُلٍ واحدٍ منهم، فكيف يَتأَتَّى ذلك من مجنونٍ لا عَقْلَ له يُمَيِّزُ به ما عسى كثيرٌ مِن الحيوانِ أنْ يُمَيِّزَه؟! وهل هذا إلَّا مِن أقْبَحِ البُهتانِ، وأظهَرِ الإفكِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٣)، ((تفسير =

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا كالتَّفسيرِ لِما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ [القلم: ٢]، وتَعريفٌ لِمَن رماهُ بالجنونِ بأنَّ ذلك كذِبٌ وخطأٌ؛ وذلك لأنَّ الأخلاقَ الحميدةَ، والأفعالَ المَرْضيَّةَ كانت ظاهرةً منه، ومَن كان موصوفًا بتلك الأخلاقِ والأفعالِ لم يَجُزْ إضافةُ الجنونِ إليه؛ لأنَّ أخلاقَ المجانينِ سيِّئةٌ[1].

فبَعْدَ أنْ آنَسَ اللهُ سُبحانَه نفْسَ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالوعْدِ، عاد إلى تَسفيهِ قولِ الأعداءِ، فحقَّقَ أنَّه مُتلبِّسٌ بخُلقٍ عَظيمٍ، وذلك ضِدُّ الجُنونِ[2].

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

أي: وإنَّك -يا محمَّدُ- لَعلى طَبعٍ كَريمٍ، وأدَبٍ عَظيمٍ بهذا الدِّينِ القويمِ، والقُرآنِ الكَريمِ[3].

= القرطبي)) (١٨/ ٢٢٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

قال الشوكاني: (﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غيرَ مَقطوعٍ، يُقالُ: مَنَنْتُ الحبْلَ: إذا قطَعْتَه. وقال مجاهدٌ: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾: غيرَ محسوبٍ. وقال الحسَنُ: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾: غيرَ مُكَدَّرٍ بالمَنِّ. وقال الضَّحَّاكُ: أجرًا بغيرِ عمَلٍ. وقيل: غيرَ مُقَدَّرٍ. وقيل: غيرَ مَمنونٍ به عليك مِن جِهةِ النَّاسِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦١).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: وإنَّك يا محمَّدُ لَعلَى أدبٍ عظيمٍ، وذلك أدبُ القرآنِ الَّذي أدَّبه اللهُ به، وهو الإسلامُ وشرائعُه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٠).

=

كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وعن سَعدِ بنِ هِشامِ بنِ عامِرٍ، أنَّه قال لعائشةَ رضيَ الله عنها: ((يا أمَّ المؤمنينَ، أنبِئيني عن خُلُقِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. قالت: ألَسْتَ تَقرَأُ القُرآنَ؟ قُلتُ: بلى. قالت: فإنَّ خُلُقَ نَبيِّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان القُرآنَ))(١).

وعن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((خدَمْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عَشْرَ سِنينَ، واللهِ ما قال لي أُفًّا قَطُّ، ولا قال لي لشَيءٍ: لِمَ فَعَلْتَ كذا؟ وهلَّا فعَلْتَ كذا!))(٢).

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((ما ضرَبَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

= قال الشوكاني: (﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قيل: هو الإسلامُ والدِّينُ، حكى هذا الواحديُّ عن الأكثَرينَ. وقيل: هو القرآنُ، رُويَ هذا عن الحسَنِ والعَوْفيِّ. وقال قَتادةُ: هو ما كان يأتَمِرُ به مِن أمرِ اللهِ، ويَنْتَهي عنه مِن نَهيِ اللهِ. قال الزَّجَّاجُ: المعنَى: إنَّك على الخُلُقِ الَّذي أمَرَكَ اللهُ به في القُرآنِ. وقيل: هو رِفْقُه بأُمَّتِه، وإكرامُه إيَّاهم. وقيل: المعنَى: إنَّك على طبعٍ كريمٍ. قال الماوَرْديُّ: وهذا هو الظَّاهِرُ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٤).

قال الرَّسْعَني: (أقوالُ المفسِّرينَ فيه [أي: الخُلُقِ] تَرجِعُ إلى معنًى واحدٍ، وهو: الأخْذُ بما أُمِر به). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢١٨).

وقال الماوَرْدي: (حقيقةُ الخُلُقِ في اللُّغةِ هو ما يأخُذُ به الإنسانُ نفْسَه مِن الآدابِ، سُمِّيَ خُلُقًا؛ لأنَّه يَصيرُ كالخِلقةِ فيه). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦١).

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦).

(٢) رواه البخاري (٢٧٦٨)، ومسلم (٢٣٠٩) واللَّفظُ له.

وسلَّم شيئًا قَطُّ بيَدِه، ولا امرأةً، ولا خادِمًا، إلَّا أن يُجاهِدَ في سَبيلِ اللهِ))[(١)].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((لم يكُنْ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فاحِشًا ولا مُتفَحِّشًا، وإنَّه كان يقولُ: إنَّ خيارَكم أحاسِنُكم أخلاقًا))[(٢)].

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾.

أي: فسترى وتَعلَمُ -يا محمَّدُ-، ويرى كُفَّارُ قُرَيشٍ ويَعلَمونَ يَقينًا: مَن مِنكم المفتونُ بالجُنونِ، والضَّلالِ عن الحَقِّ[(٣)]؟!

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٢٨).

(٢) رواه البخاري (٦٠٣٥) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٣٢١).

(٣) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٥-٦٧).

قال الرَّسْعَني: (﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ قال الحسَنُ: المفتونُ: الضَّالُّ. وقال مجاهدٌ: الشَّيطانُ. وقال الضَّحَّاكُ: المجنونُ.

والباءُ زائدةٌ في قول أبي [عُبَيدةَ] وابنِ قُتَيْبَةَ... وأصليَّةٌ في قولِ الفرَّاءِ والزَّجَّاجِ، وقولِ الضَّحَّاكِ...

فإن قُلْنا: الباءُ زائدةٌ، فيكونُ التَّقديرُ: أيُّكم المجنونُ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه مُجِنَ بالجنونِ، أو لِكَونِه من تخييلِ الجِنِّ، وهم الفُتَّانُ.

وإن قُلْنا: الباءُ أصليَّةٌ، كان «المَفْتونُ» مصدرًا، [كمَعْقُودٍ] ومَعْقُولٍ... فيكونُ التَّقديرُ: بأيِّكم الفُتُونُ، أي: الجنونُ.

وقيل: الباءُ بمعنى «في»، تقديرُه: في أيِّكم، أي: في [أيِّ] الفريقَينِ المجنونُ؛ في [فريقِك]، أو في فريقِهم؟ ومَن يَستحِقُّ هذا الاسمَ، أنتم أم هم؟). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢١٩). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١١)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٢).

ممَّن اختار أنَّ الباءَ زائدةٌ: أبو عُبَيْدةَ، والأخفشُ، وابنُ قُتَيْبةَ، والواحديُّ -ونسَبَه إلى أكثَرِ المفسِّرينَ وأهلِ المعاني-، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٦٤)، ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٤٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٧)، ((الوسيط)) =

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٧﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قولُه تعالى: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ إخبارًا بجُنونِهم المُستلزِمِ لضَلالِهم على هذا الوجْهِ المتَّصفِ، وكان مِثلُ هذا قدْ يَقَعُ في مُحاوَراتِ النَّاسِ بضَرْبٍ مِن الظَّنِّ؛ استأنَفَ تعالَى ما هو كالتَّعليلِ لِما أفادَه السِّياقُ مِن هذا الحُكمِ عليهم، إعلامًا بأنَّه ناشئٌ عن عِلمٍ قَطعيٍّ لا مِرْيَةَ فيه بوَجْهٍ، فقال مُؤكِّدًا مِن أجْلِ إنكارِهم

= للواحدي (٤/ ٣٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٩).

وممَّن اختار أنَّ الباءَ ليست زائدةً وأنَّها أصليَّةٌ: الفرَّاءُ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٤).

وقيل: في الكلامِ تقديرُ حذفِ مضافٍ، والمعنى: بأيِّكم فتنةُ المفتونِ. وقيل: فيه تقديرُ حذفِ فعلٍ، والمعنى: بأيِّكم فُتِن المفتونُ. يُنظر: ((التحصيل)) للمهدوي (٦/ ٤٥١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالمَفْتونِ المجنونُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨١).

وممَّن اختار أنَّ المفتونَ مصدرٌ، أي الجنونُ: الفرَّاءُ، وابنُ جرير، وجلال الدين المحلِّي، والعُلَيمي. ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٢٤).

وقال ابن كثير: (معنى المَفْتونِ ظاهرٌ، أي: الَّذي قد افتُتِنَ عن الحقِّ وضلَّ عنه، وإنَّما دخلَتِ الباءُ في قولِه: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ لتدُلَّ على تضمينِ الفعلِ في قولِه: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾، وتقديرُه: فسَتَعلَمُ ويَعلَمونَ، أو: فسَتُخبَرُ ويُخبَرونَ بأيِّكم المَفْتونُ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٠).

وقال ابنُ عاشور: (المفتونُ: ... يجوزُ أن يرادَ بها هنا الجنونُ...، ويجوزُ أن يرادَ ما يَصدُقُ على المضطربِ في أمرِه، المفتونِ في عَقْلِه حَيرةً وتقلقلًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٦).

وقال البِقاعي: (﴿ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ أي: بالضَّلالِ والجُنونِ، حتَّى صدَّ عن الهُدى ودينِ الحقِّ، أو بأيِّكم الفِتنةُ بالجُنونِ وغيرِه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢٩٥).

لأنْ يكونَ الأمْرُ على ما أفادَه ما تَقدَّمَ[١]:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

أي: إنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- هو أعلَمُ بمَن ضَلَّ عن طريقِ الحَقِّ، فلم يتَّبِعْ دِينَ اللهِ تعالى[٢].

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

أي: واللهُ أعلَمُ بالَّذين اهتَدَوا، فأقَرُّوا بالحَقِّ واتَّبَعوه[٣].

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قد أُمِرْنا بالتَّأسِّي بالنَّبيِّ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليه، فكان مِن أهَمِّ ما يجِبُ على الأُمَّةِ مَعرفةُ تَفصيلِ إجمالِ هذه الآيةِ؛ ليَتِمَّ التَّأسِّي المطلوبُ[٤].

٢- حُسنُ الخُلُقِ قد يُرادُ به التَّخَلُّقُ بأخلاقِ الشَّريعةِ، والتَّأدُّبُ بآدابِ اللهِ الَّتي أدَّبَ بها عبادَه في كتابِه، كما قال تعالى لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وقالت عائشةُ رضيَ الله عنها: ((كان خُلُقُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم القُرآنَ))[٥]، يعني: أنَّه يتأدَّبُ بآدابِه، فيَفعَلُ أوامِرَه، ويتجَنَّبُ نواهيَه،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٩٥، ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٠).

قال الزمخشري: (إنَّ رَبَّك هو أعلَمُ بالمجانينِ على الحقيقةِ، وهم الَّذين ضلُّوا عن سبيلِه، وهو أعلَمُ بالعُقلاءِ، وهم المهتَدونَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٤٨).

(٥) تقدَّم تخريجُه (ص: ٣٧٩).

فصار العَمَلُ بالقرآنِ له خُلُقًا كالجِبِلَّةِ والطَّبيعةِ لا يُفارِقُه، وهذا أحسَنُ الأخلاقِ وأشرَفُها وأجمَلُها. وقد قيل: إنَّ الدِّينَ كُلَّه خُلُقٌ(١).

٣- ينبغي لطالبِ العِلمِ أن يحرِصَ كلَّ الحرصِ على حُسنِ الخُلقِ، وأن يتخلَّقَ بالأخلاقِ الفاضلةِ؛ لأنَّه لا فائدةَ للعلمِ إلَّا أنْ يعمَلَ به، ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، وهذا العلم: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٢).

٤- حُسنُ الخُلقِ لا تخفَى في الدِّين فضيلتُه، وهو الذي مدَح الله سبحانَه به نبيَّه عليه السَّلامُ، إذ قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٣). والله لا يمدحُ إلَّا على الشيءِ العظيم(٤).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ فيه تهديدٌ للضَّالِّينَ، ووعدٌ للمُهتَدينَ، وبيانٌ لِحكمةِ اللهِ تعالى؛ حيثُ كان يَهدي مَن يَصلُحُ للهِدايةِ دونَ غَيرِه(٥).

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿نٓ﴾ وغيرِها من حروفِ الهجاءِ الَّتي يَفتَتِحُ بها الرَّبُّ سُبحانَه بعضَ السُّوَرِ: تنبيهٌ على شَرَفِ هذه الحُروفِ، وعِظَمِ قَدْرِها وجلالتِها؛ إذْ هي مباني كلامِه وكُتُبِه الَّتي تَكَلَّمَ سُبحانَه بها، وأنزَلَها على رُسُلِه، وهَدَى بها عبادَه، وعَرَّفَهم بواسِطتِها نفْسَه، وأسماءَه وصِفاتِه، وأفعالَه، وأَمْرَه ونهيَه،

---

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (رقم اللقاء: ٦٧).

(٣) يُنظر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (٢/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار)) لعبد العزيز السلمان (٢/ ٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

ووعيدَه ووعْدَه، وعَرَّفَهم بها الخيرَ والشَّرَّ، والحَسَنَ والقَبيحَ، وأقْدَرَهم على التَّكلُّمِ بها بحيثُ يَبلُغونَ بها أقصى ما في أنفُسِهم بأسهَلِ طريقٍ، وقِلَّةِ كُلْفَةٍ ومَشَقَّةٍ، وأوصَلِه إلى المقصودِ، وأدَلِّه عليه، وهذا مِن أعظَمِ نِعَمِه عليهم، كما هو مِن أعظَمِ آياتِه؛ ولهذا عاب سُبحانَه على مَن عَبَدَ إلهًا لا يَتكلَّمُ، وامْتَنَّ على عبادِه بأنْ أقدَرَهم على البيانِ بها بالتَّكَلُّمِ، فكان في ذِكْرِ هذه الحُروفِ التَّنبيهُ على كَمالِ ربوبيَّتِه، وكمالِ إحسانِه وإنعامِه، وهي دالَّةٌ أظْهَرَ دَلالةٍ على وحدانيَّتِه وقُدرتِه، وحِكمتِه وكَمالِه، وكَلامِه وصِدْقِ رُسُلِه[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ مِن فوائدِ هذا القَسَمِ أنَّ هذا القُرآنَ كِتابُ الإسلامِ، وأنَّه سيكونُ مَكتوبًا مقروءًا بيْنَ المسلمينَ؛ ولهذا كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأمُرُ أصحابَه بكتابةِ ما يُوحَى به إليه[2].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ أُوثِرَ القَسَمُ بالقَلَمِ والكتابةِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ باعِثَ الطَّاعنينَ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واللَّامِزينَ له بالمجنونِ: إنَّما هو ما أتاهم به مِن الكتابِ[3]!

٤- حُروفُ الهِجاءِ الَّتي يَفتَتِحُ بها الرَّبُّ سُبحانه بعضَ السُّوَرِ، وهي أُحاديَّةٌ وثُنائيَّةٌ، وثُلاثيَّةٌ ورُباعيَّةٌ، وخُماسيَّةٌ، ولم تُجاوِزِ الخَمْسةَ، ولم تُذكَرُ قَطُّ في أوَّلِ سُورةٍ إلَّا وعقَّبَها بذِكرِ القرآنِ؛ إمَّا مُقسَمًا به، وإمَّا مُخبَرًا عنه، ما خَلا سُورتَينِ: سُورةَ (مريم) و(القلم)[4]، أمَّا غيرُ ذلك فلا تُذكَرُ الحروفُ المقطَّعةُ إلَّا ذُكِرَ بعْدَها التَّنويهُ بشَأنِ القُرآنِ، والرَّفعُ مِن أمْرِه؛ قال في (البقرةِ): ﴿الٓمٓ﴾ فأتْبَعَه

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠٣).

بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢]، وقال في (آل عِمران): ﴿الٓمٓ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ فأتْبَعه بقولِه: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآيةَ [آل عمران: ١ - ٣]، وقال في الأعرافِ: ﴿الٓمٓصٓ﴾ ثمَّ أتبَعَه بقولِه: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١، ٢]، وقال في سُورةِ (يُونَس): ﴿الٓر﴾، ثمَّ أتْبَعَه بقولِه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، وقال في سُورةِ (يُوسف): ﴿الٓر﴾ ثمَّ قال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]، وقال في (الرَّعد): ﴿الٓمٓر﴾ ثمَّ قال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ الآيةَ [الرعد: ١]، وقال في سُورةِ (إبراهيم): ﴿الٓر﴾ ثمَّ قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، وقال في سُورةِ (الحِجْر): ﴿الٓر﴾ ثمَّ قال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١]، وهكذا في سائرِ القُرآنِ، إلَّا في سُورةِ (مَريمَ) و(القَلَم)، حيث أُتبِعَ الحروفُ المقطَّعةُ في سُورةِ (مريم) في قولِه: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ بقولِه: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ١، ٢]، وقال في (القَلَم): ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، مع أنَّ هذه يَحتمِلُ أنَّ المرادَ بـ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ هو هذا القرآنُ العظيمُ؛ لأنَّه أعظَمُ ما يُسطَرُ، فيكونُ في (مَريم) فقطْ[1].

٥- قال تعالى: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، فأقسَمَ بالقلمِ في كتابِه المنزَّلِ، على نبيِّه المرسَلِ، ووضَعه في المكانِ الرَّفيعِ، ونوَّه بذكرِه في المنصبِ الشَّريفِ، أقسَم بالقلمِ كما أقسَم بما يخطُّ بالقلمِ، وقد ذكَر الله عزَّ وجلَّ في كتابِه مِن فضيلةِ الخطِّ والإنعامِ بمنافعِ الكتابِ، ومِن ذلك قولُه لنبيِّه عليه السَّلامُ: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٣ - ٥] ولذلك قالوا:

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٧، ٨).

القلمُ أحدُ اللسانين. وقالوا: القلمُ أبقَى أثرًا، واللِّسانُ أكثرُ هذرًا[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فيه تنزيهُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن رذائِلِ المُشرِكينَ ونقائِصِهم، وبيانُ الفَرقِ والبَونِ الشَّاسِعِ بيْنَه وبيْنَهم؛ ففي الوَقتِ الَّذي وصَفَه بأنَّه على خُلُقٍ عَظيمٍ، وصَفَهم بعكسِ ذلك؛ مِن كَذِبٍ، ومُداهَنةٍ، وكَثرةِ حَلِفٍ ومَهانةٍ، وهَمزٍ، ومَشْيٍ بنَميمةٍ، ومَنعٍ للخَيرِ، وعَتْلٍ، وتجبُّرٍ، واعتداءٍ وظُلمٍ، وانقِطاعِ زَنيمٍ؛ عَشرُ خِصالٍ ذَميمةٌ[٢]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ سُؤالٌ: أنَّه إذا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على خُلُقٍ عظيمٍ، فما الفائِدةُ مِن قَولِه في الحَديثِ الشَّريفِ: ((اهْدِني لأحسَنِ الأخلاقِ))[٣]؟

الجوابُ مِن وجهَينِ:

أوَّلًا: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذا الحَديثِ دعا إلى ما هو أكمَلُ ممَّا أخْبَرَ اللهُ به عنه: «لأحسَنِ الأخلاقِ».

ثانيًا: أنَّ الدُّعاءَ قد يكونُ المرادُ به الثَّباتَ على أحسَنِ الأخلاقِ، وإنْ كان في الدَّاعي أصْلُ الخُلُقِ الحَسَنِ، لكنْ يَسأَلُ اللهَ أنْ يُثبِّتَه[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ إثباتُ صيغةِ «أفضَل» في عِلْمِ اللهِ تعالى، ومِن الخطأِ تفسيرُ بعضِهم لـ «أعلَم»

(١) يُنظر: ((البيان والتبين)) للجاحظ (١/ ٨٥)، ((الحيوان)) للجاحظ (١/ ٣٧).
(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٥٣).
(٣) أخرجه مسلم (٧٧١) مطوَّلًا من حديث عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ الله عنه.
(٤) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (٢/ ٣٨).

في القرآنِ بـ «عالِم». والرَّدُّ عليهم مِن جهتَين:

الجهةُ الأُولى: أنَّ هذا إبطالٌ لِمَا دلَّ عليه القرآنُ، والقرآنُ نزَلَ باللُّغةِ العربيَّةِ، واللُّغةُ العربيَّةُ تُفَرِّقُ بيْن «أعلَم» و «عالِم».

الجهةُ الثَّانيةُ: أنَّك إذا جاءتك آيةٌ بمعنى «عالِم» فقد أثْبَتَّ العِلمَ للهِ ولغيره على حدٍّ سواءٍ؛ لأنَّ اللهَ عالِمٌ، ونحن أيضًا عالِمون؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، لكنْ إذا قلتَ: اللهُ أعلَمُ، فحينَئذٍ تَميَّزَ الخالقُ مِن المخلوقِ، وأنَّه أعلَمُ -عزَّ وجلَّ- وهذا هو الأكمَلُ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]؛ ولهذا نقولُ: اللهُ أعلَمُ وأقدَرُ وأبصَرُ وأقوى... إلى آخِره في الصِّفاتِ الَّتي يَشترِكُ في أصْلِها الخالِقُ والمخلوقُ، فله منها أكمَلُها وأعلاها. هذه قاعِدةٌ معروفةٌ عندَ الَّذين يَتكلَّمونَ في أسماءِ اللهِ وصِفاتِه[١].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ جاء في هذه السُّورةِ الإيماءُ بالحَرفِ الَّذي في أوَّلِها إلى تَحدِّي المُعانِدينَ بالتَّعجيزِ عن الإتيانِ بمِثلِ سُوَرِ القرآنِ، وهذا أوَّلُ التَّحدِّي الواقعِ في القُرآنِ نُزولًا؛ إذ ليس في سُورةِ (العلَقِ)، ولا في (المُزَّمِّلِ)، ولا في (المُدَّثِّرِ) إشارةٌ إلى التَّحدِّي ولا تَصريحٌ[٢].

- وقدْ أقسَمَ اللهُ تعالَى بالقلَمِ تَعظيمًا له؛ لِما في خلْقِه وتَسويتِه مِن الدَّلالةِ على الحِكمةِ العظيمةِ، ولِما فيه مِن المنافعِ والفوائدِ الَّتي لا يُحيطُ بها الوصْفُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (٦/ ٥١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦٤).

- قولُه: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ الضَّميرُ لأصحابِ القَلمِ المدلولِ عليهم بذِكرِه. وقيل: للقلَمِ على أنَّ المُرادَ به أصحابُه، كأنَّه قيلَ: وأصحابِ القلَمِ ومَسْطوراتِهم، على أنَّ (ما) مَوصولةٌ، أو وسَطْرِهم، على أنَّها مَصدريَّةٌ. وقيل: للقَلَمِ نفْسِه بإسنادِ الفعلِ إلى الآلَةِ، وإجرائِه مُجْرَى العُقلاءِ؛ لإقامتِه مُقامَهم. وقيل: المُرادُ بالقلَمِ ما خَطَّ اللَّوحَ خاصَّةً، والجمْعُ للتَّعظيمِ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ أُجيبَ قولُهم وتأْكيدُهم ذلك بحرْفِ (إنَّ) ولامِ الابتداءِ؛ إذ قالوا: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ [القلم: ٥١]؛ بمُؤكِّداتٍ أقْوى ممَّا في كَلامِهم؛ إذ أُقسِمَ عليه، وجِيءَ بعْدَ النَّفيِ بالباءِ الَّتي تُزادُ بعْدَ النَّفيِ لتَأكيدِه، وبالجُملةِ الاسميَّةِ مَنفيَّةً؛ لدَلالةِ الجُملةِ الاسميَّةِ على ثَباتِ الخبَرِ، أي: تَحقُّقِه، فهذه ثلاثةُ مُؤكِّداتٍ(٢).

- قولُه: ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ قيل: هو قسَمٌ اعترِضَ به بيْن المحكومِ عليه والحُكْمِ على سَبيلِ التَّوكيدِ والتَّشديدِ والمُبالَغةِ في انتفاءِ الوصْفِ الذَّميمِ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٣).

- والتَّعرُّضُ لوصْفِ الرُّبوبيَّةِ المُنبئةِ عن التَّبليغِ إلى مَعارجِ الكَمالِ، مع الإضافةِ إلى ضَميره صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لتَشريفِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والإيذانِ بأنَّه تعالَى يُتِمُّ نِعمتَه عليه، ويُبلِّغُه مِن العُلوِّ إلى غايةٍ لا غايةَ وَراءَها(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٥).
ويُنظر ما تقدَّم (ص ٣٧٣ و٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١).

- والمُقسَمُ عليه نفْيُ أنْ يكونَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَجنونًا، والخِطابُ له بهذا تَسليةٌ له؛ لئلَّا يَحزُنَه قولُ المشرِكين لَمَّا دَعاهم إلى الإسلامِ: هو مَجنونٌ، وذلك ما شافَهُوا به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحَكاهُ اللهُ عنهم في آخِرِ السُّورةِ: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١]، وهكذا كلُّ ما ورَدَ فيه نفْيُ صِفةِ الجُنونِ عنه، فإنَّما هو ردٌّ على أقوالِ المشرِكين، كقولِه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]، والمقصودُ مِن نفْيِ الجُنونِ عنه إثباتُ ما قصَدَ المشرِكون نفْيَه؛ وهو أنْ يكونَ رسولًا مِن اللهِ؛ لأنَّهم لَمَّا نَفَوا عنه صِفةَ الرِّسالةِ وَضَعوا مَوضعَها صِفةَ الجنونِ، فإذا نُفِيَ ما زَعَموه فقدْ ثَبَتَ ما ادَّعاهُ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾

- أكَّد ذلك بحرْفِ (إنَّ)، وبلامِ الابتِداءِ، وبتَقديمِ المجرورِ، وهو في قولِه: ﴿لَكَ﴾[2].

- قولُه: ﴿مَمْنُونٍ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ مُشتقًّا مِن: مَنَّ المُعطِي على المُعطَى: إذا عَدَّ عليه عَطاءَه وذكَرَه له، أو افتَخَرَ عليه به؛ فإنَّ ذلك يَسوءُ المُعطَى. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿مَمْنُونٍ﴾ مُشتقًّا من قولِهم: مَنَّ الحبْلَ؛ إذا قطَعَه، أي: أجْرًا غيرَ مَقطوعٍ عنك، وهو الثَّوابُ المُتزايِدُ كلَّ يومٍ، أو أجْرًا أبدِيًّا في الآخرةِ، ولهذا كان لإيثارِ كَلمةِ ﴿مَمْنُونٍ﴾ هنا مِن الإيجازِ بجمْعِ مَعنيينِ، بخِلافِ قولِه: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ في سُورةِ (هودٍ) [١٠٨]؛ لأنَّ ما هنا تَكرِمةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦١، ٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٦٣).

- في قولِه: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾ فَنُّ المُناسَبةِ اللَّفظيَّةِ، وهي عبارةٌ عن الإتيانِ بلَفظاتٍ مُتَّزِناتٍ مُقفَّاتٍ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾

- أكَّد ذلك بثَلاثةِ مُؤكِّداتٍ -القَسَم، و(إنَّ)، واللَّام- مِثلَ ما في الجُملةِ قبْلَه[٢].

- و(على) للاستعلاءِ المُرادِ به التَّمكُّنُ، فالرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُتمكِّنٌ منه الخُلقُ العظيمُ في نفْسِه، ومُتمكِّنٌ منه في دَعوتِه الدِّينيَّةِ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾

- قولُه: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾ الفاءُ للتَّفريعِ على قولِه: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ [القلم: ٢] باعتبارِ ما اقتَضاهُ قولُه: ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ [القلم: ٢] من إبطالِ مَقالةٍ قِيلَت في شأْنه قالَها أعداؤُه في الدِّين؛ ابتَدَأَ بإبطالِ بُهتانِهم، وفرَّعَ عليه أنَّهم إذا نَظَروا الدَّلائلَ، وتَوسَّموا الشَّمائلَ، عَلِموا أيُّ الفريقَينِ المَفْتونُ؛ أهمْ مَفْتونون بالانصِرافِ عن الحقِّ والرُّشد، أمْ هو باختلالِ العقْلِ كما اختَلَقوا! والمقصودُ هو ما في قولِه: ﴿وَيُبۡصِرُونَ﴾، ولكنْ أُدمِجَ فيه قولُه: ﴿فَسَتُبۡصِرُ﴾؛ ليَتأتَّى بذِكرِ الجانبَينِ إيقاعُ كَلامٍ مُنصِفٍ -أي: داعٍ إلى الإنصافِ- على طَريقةِ قولِه: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]؛ لأنَّ القرآنَ يَبلُغُ مَسامِعَهم، ويُتْلَى عليهم[٤].

(١) يُنظر: ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٧/ ١٥٩)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (١/ ٣٧٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٦٣، ٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٦٥).

- إنْ كان البصَرُ هنا بمعْنى العِلمِ، فالسِّينُ في قولِه: ﴿فَسَتُبۡصِرُ﴾ للتَّأكيدِ، وأمَّا المشرِكون فسَيَرَوْن ذلك، أي: يَعلَمون آثارَ فُتونِهم، وذلك فيما يَرَونَه يومَ بدْرٍ ويومَ الفتحِ، وإنْ كان بمعْنى البصَرِ الحسِّيِّ، فالسِّينُ والتَّاءُ في كِلا الفِعلينِ للاستِقبالِ(١).

- وضَميرُ ﴿وَيُبۡصِرُونَ﴾ عائدٌ إلى مَعلومٍ مُقدَّرٍ عندَ السَّامعِ، وهم المشرِكون القائلون: هو مَجْنونٌ(٢).

- قيل: تمَّ الكلامُ في قولِه: ﴿وَيُبۡصِرُونَ﴾، ثمَّ استأْنَف قوله: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾، فالاستفهامُ في قولِه: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ استفهامٌ يُرادُ به التَّردادُ بيْنَ أمْرَينِ، ومَعلومٌ نفْيُ الحكْمِ عن أحَدِهما، ويُعيِّنُه الوجودُ، وهو المؤمنُ، ليس بمَفتونٍ ولا به فُتونٌ(٣).

- والمفتونُ: اسمُ مَفعولٍ، وهو الَّذي أصابَتْه فِتنةٌ، فيَجوزُ أنْ يُرادَ بها هنا الجنونُ؛ فإنَّ الجُنونَ يُعَدُّ في كَلامِ العربِ مِن قَبيلِ الفِتنةِ؛ يَقولونَ للمَجنونِ: فتَنَتْه الجِنُّ، ويَجوزُ أنْ يُرادَ ما يَصدُقُ على المُضطربِ في أمْرِه المَفتونِ في عَقْلِه حَيرةً وتَقلقلًا، وإيثارُ هذا اللَّفظِ دونَ لَفظِ (المَجنونِ) مِن الكلامِ المُوجَّهِ (الصالح لاحتمال معنيين) أو التَّوريةِ؛ ليَصِحَّ فَرْضُه للجانبَينِ، فإنْ لم يكُنْ بَعضُ المشركينَ بمَنزلةِ المجانينِ الَّذين يَندفِعون إلى مُقاوَمةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بدُونِ تَبصُّرٍ يَكُنْ في فِتنةٍ واضطرابِ أقوالِه وأفعالِه، كأبي جَهلٍ والوليدِ بنِ المُغيرةِ وأضْرابِهما الَّذين أغْرَوُا العامَّةَ بالطَّعنِ في النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأقوالٍ مُختلِفةٍ. والباءُ على هذا الوجْهِ مَزيدةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٧).



لتأكيدِ تَعلُّقِ الفِعلِ بمَفعولِه، والأصلُ: أيُّكم المفتونُ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الباءُ للظَّرفيَّةِ، والمعْنى: في أيِّ الفريقينِ منكم يُوجَدُ المَجنونُ، أي: مَن يَصدُقُ عليه هذا الوصفُ؟ فيَكونَ تَعريضًا بأبي جَهلِ بنِ هشامٍ والوليدِ بنِ المُغيرةِ وأضرابِهما مِن مُدَبِّري السُّوءِ على دَهْماءِ قُريشٍ بهذه الأقوالِ الشَّبيهةِ بأقوالِ المجانينِ؛ ذلك أنَّهم وَصَفوا رجُلًا مَعروفًا بيْن العقلاءِ، مَذكورًا برَجاحةِ العقلِ والأمانةِ في الجاهليَّةِ، فوَصَفُوه بأنَّه مَجنونٌ، فكانوا كمَن زعَمَ أنَّ النَّهارَ لَيلٌ، ومَن وصَفَ اليومَ الشَّديدَ البرْدِ بالحرارةِ، فهذا أشبهُ بالمجنونِ، ولذلك يُجعَلُ المَفتونُ في الآيةِ وصْفًا ادِّعائيًّا على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ مَصدرًا على وزْنِ المفعولِ، مِثل المعقول بمعْنى العقلِ، والمَجلودِ بمعْنى الجَلْدِ، والميسورِ لليُسْرِ، والمعسورِ لضِدِّه، وفي المَثَلِ (خُذْ مِن مَيسورِه، ودَعْ مَعسورَه). والباءُ على هذا للمُلابَسةِ في مَحلِّ خبَرٍ مُقدَّمٍ على ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾، وهو مُبتدَأٌ. ويُضمَّنُ فِعلُ (تُبصِر ويُبصِرون) معْنى: تُوقِنُ ويُوقِنونَ، على طَريقِ الكِنايةِ بفِعلِ الإبصارِ عن التَّحقُّقِ؛ لأنَّ أقْوى طُرقِ الحِسِّ البصَرُ، ويكونُ الإتيانُ بالباءِ للإشارةِ إلى هذا التَّضمينِ، والمعْنى: فسَتعلَمُ يَقينًا ويَعلَمون يَقينًا بأيِّكم المفتونُ، فالباءُ على أصْلِها مِن التَّعديةِ مُتعلِّقةٌ بـ(تُبصِر ويُبصِرون)[1].

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾

- تَعليلٌ لجُملةِ ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٥، ٦]، باعتبارِ ما تَضمَّنَتْه مِن التَّعريضِ بأنَّ الجانبَ المفتونَ هو الجانبُ القائلُ له: ﴿إِنَّكَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٥، ٥٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٦، ٦٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦٥).

لَمَجْنُونٌ ﴾[الحجر: ٦]، وأنَّ ضِدَّه بضِدِّه هو الرَّاجحُ العقلِ، أي: الَّذي أخْبَرَك بما كنَّى عنه قولُه: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ [القلم: ٥] مِن أنَّهم المجانينُ، هو الأعلَمُ بالفريقَينِ، وهو الَّذي أنْبَأَك بأنْ سيَتَّضِحُ الحقُّ لأبصارِهم، فتَعيَّنَ أنَّ المفتونَ هو الفريقُ الَّذين وَسَمُوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه مَجنونٌ، المَردودُ عليهم بقولِه تعالَى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢]؛ إذ همُ الضَّالُّون عن سَبيلِ ربِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا مَحالةَ، ويَنتظِمُ بالتَّدرُّجِ مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا أقْيِسةُ مُساواةٍ مُندرِجٌ بَعضُها في بَعضٍ، تَقْتضي مُساواةَ حَقيقةِ مَن ضلَّ عن سبيلِ ربِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحَقيقةِ المَفتونِ، ومُساواةَ حَقيقةِ المَفتونِ بحَقيقةِ المَجنونِ، فتُنتِجُ أنَّ فَريقَ المشركين هم المتَّصِفون بالجُنونِ، بقاعدةِ قِياسِ المُساواةِ: أنَّ مُساويَ المُساوي لشَيءٍ مُساوٍ لذلك الشَّيءِ. وهذا الانتقالُ تَضمَّنَ وعْدًا ووَعيدًا؛ بإضافةِ السَّبيلِ إلى اللهِ، ومُقابَلةِ مَن ضلَّ عنه بالمُهتدِينَ[1].

- وقولُه: ﴿أَعْلَمُ﴾ قيل: هو كِنايةٌ عن جَزاءِ الفريقَينِ[2].

- وإعادةُ ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ لزِيادةِ التَّقريرِ[3].

- وعُمومُ (مَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ) وعُمومُ (الْمُهْتَدِينَ) يَجعَلُ هذه الجُملةَ مع كَونِها كالدَّليلِ هي أيضًا مِن التَّذييلِ، وهو بعْدَ هذا كلِّه تَمهيدٌ وتَوطئةٌ لقولِه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[4] [القلم: ٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٧، ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٨).

الآيات (٨-١٦)

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿وَدُّوا۟﴾: أي: تَمَنَّوا، وأصلُ (ودد): يدُلُّ على محبَّةِ الشَّيءِ، وتمنِّي كَونِه[١].

﴿تُدْهِنُ﴾: أي: تَلينُ لهم، وتوافِقُهم، وتُصانِعُهم على باطِلِهم، والإدهانُ: اللِّينُ والمُصانَعةُ. والمُداهَنةُ: عِبارةٌ عن المُداراةِ والمُلايَنةِ، مَأخوذةٌ مِنَ الدُّهنِ؛ لِلِينه وإملاسِه، وأصلُ (دهن): يدُلُّ على لِينٍ وسُهولةٍ[٢].

﴿هَمَّازٍ﴾: أي: عَيَّابٍ، مُغتابٍ للنَّاسِ، وهمزُ الإنسانِ: اغتيابُه، وأصلُ (همز): يدُلُّ على ضَغطٍ وعَصرٍ[٣].

﴿مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾: أي: كثيرِ المَشيِ بالنَّميمة، نقَّالٍ للحَديثِ على وَجهِ الإفسادِ، والنَّمُّ: إظهارُ الحَديثِ بالوِشايةِ، ونميمٌ ونميمةٌ بمعنًى واحدٍ، وقيل: النَّميمُ جمعُ نميمةٍ، وأصلُ (مشي) هنا: يدُلُّ على حركةِ الإنسانِ وغيرِه، وأصلُ (نمم): يدُلُّ على الهَمسِ والحَركةِ الخفيفةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٦، ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن =

﴿أَثِيمٍ﴾: أي: فاجرٍ كثيرِ الإثمِ، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتَّأخُّرِ، واشتُقَّ الإثمُ مِن ذلك؛ لأنَّ ذا الإثمِ بطيءٌ عن الخَيرِ، مُتأخِّرٌ عنه[1].

﴿عُتُلٍّ﴾: أي: فَظٍّ، غليظٍ، جافي الخُلُقِ، وأصلُ (عتل): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ في شَيءٍ[2].

﴿زَنِيمٍ﴾: أي: دَعِيٍّ مُلصَقٍ بالقَومِ، وليس منهم، وأصلُ (زنم): يدُلُّ على تعليقِ شَيءٍ بشَيءٍ[3].

﴿أَسَٰطِيرُ﴾: أي: أباطيلُ، جمعُ أُسطُورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلِينَ وكَذِبِهم، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطِفافِ الشَّيءِ[4].

﴿سَنَسِمُهُۥ﴾: أي: نُعَلِّمُه بعَلامةٍ يُعرَفُ بها، وأصلُ (وسم): يدُلُّ على أثَرٍ ومَعْلَمٍ[5].

= جزي)) (٢/ ٣٩٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠، ٣٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢١).

﴿الْخُرْطُومِ﴾: أي: الأنْف. والرَّاءُ فيه زائِدةٌ، والأصلُ فيه الخَطْمُ، وأصلُ (خطم): يدُلُّ على تقَدُّمِ شَيءٍ في نُتُوٍّ يكونُ فيه[1].

مُشكِلُ الإعرابِ:

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

في المصدَرِ المؤوَّلِ ﴿أَن كَانَ﴾ أوجُهٌ:

أحَدُها: أنَّه مَفعولٌ مِن أجْلِه مجرورٌ بلامٍ مُقَدَّرةٍ، واللَّامُ متعلِّقةٌ بِفعلِ النَّهي: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ في الآياتِ السَّابِقةِ، أي: ولا تُطِعْ مَنْ هذه صِفاتُه؛ لأنْ كان ذا مالٍ وبَنينَ.

الثَّاني: أنَّها مُتعَلِّقةٌ بـ﴿عُتُلٍّ﴾.

الثَّالِثُ: أنَّها مُتعَلِّقةٌ بـ﴿زَنِيمٍ﴾.

الرَّابعُ: أنَّها مُتعَلِّقةٌ بمحذوفٍ يدُلُّ عليه ما بعْدَه مِنَ الجُملةِ الشَّرطيَّةِ الدَّالَّةِ على معنى التَّكذيبِ، تقديرُه: لِكَونِه مُتمَوِّلًا مُستَظْهِرًا بالبنينَ كَذَّبَ بآياتِنا[2].

المعنى الإجماليُّ:

يحذِّرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم مِن طاعةِ المشركينَ، مبيِّنًا بعضَ صِفاتِهم القبيحةِ، فيقولُ: فلا تُطِعِ المكذِّبينَ -يا محمَّدُ- لقد تَمَنَّوا لو تَلينُ لهم

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٨، ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٣٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٠٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢).

قال الألوسي: (ولم يُجوِّزْ تعَلُّقُه بـ﴿قَالَ﴾ المذكورِ بَعْدُ؛ لأنَّ ما بعْدَ الشَّرطِ لا يَعمَلُ فيما قَبْلَه، ولعَلَّ مَن يقولُ باطِّرادِ التَّوسُّعِ في الظَّرفِ يُجوِّزُ ذلك، وكذا مَن يَجعَلُ ﴿إِذَا﴾ هنا ظَرفيَّةً). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢).

في الدِّينِ وتُوافِقُهم وتُصانِعُهم على باطِلِهم، فيَلِينونَ لك، ويُصانِعونَك، ولا تُطِعْ -يا مُحمَّدُ- كلَّ حلَّافٍ ضَعيفٍ حَقيرٍ، عيَّابٍ للنَّاسِ طَعَّانٍ فيهم، نقَّالٍ للكَلامِ السَّيِّئِ للإفسادِ بيْنَ النَّاسِ، مَنَّاعٍ لكلِّ خَيرٍ وللمالِ عن إنفاقِه في الخَيرِ، مُتَجاوِزٍ للحَدِّ، كَثيرِ الإثمِ، فَظٍّ، غَليظٍ في خَلقِه وخُلُقِه، جافٍ شَديدٍ، بعْدَ ذلك الَّذي وصَفْناه به، دَعِيٍّ مُلصَقٍ في قَومٍ ليس منهم، مِن أجْلِ أنَّه كان صاحِبَ مالٍ كثيرٍ وأبناءٍ، إذا تُتلَى عليه آياتُ القُرآنِ قال مُكذِّبًا: تلك أكاذيبُ الأوَّلينَ وخُرافاتُهم!

ثمَّ توعَّد اللهُ تعالى مَن هذه صِفاتُه، فقال: سنَجعَلُ له على أنْفِه علامةً يُعرَفُ بها بيْنَ النَّاسِ!

تَفسيرُ الآياتِ:


﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٨﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ ما عليه الكفَّارُ في أمرِ الرَّسولِ، ونِسبته إلى الجنونِ، مع الَّذي أنعَمَ اللهُ به عليه مِن الكمالِ في أمرِ الدِّينِ والخُلقِ؛ أتْبَعه بما يَدْعوه إلى التَّشدُّدِ مع قَومِه، وقوَّى قلبَه بذلك، مع قلَّةِ العددِ، وكثرةِ الكفَّارِ، وذلك أنَّهم دَعَوْه إلى دينِ آبائِه، فنَهاه اللهُ أن يُطيعَهم، وهذا مِن اللهِ إلهابٌ وتهييجٌ للتَّشدُّدِ في مُخالَفَتِهم[١].

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٨﴾.

أي: فكما أنعَمْنا عليك -يا مُحمَّدُ- بالدِّينِ المستقيمِ والخُلُقِ العَظيمِ، لا تُطِعِ المكذِّبينَ بالحَقِّ؛ فليسُوا أهلًا لأن يُطاعوا؛ إذ لا يَأمُرونَ إلَّا بما يُوافِقُ أهواءَهم،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٣).

ولا يُريدونَ سِوى الباطِلِ[1].

كما قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢].

﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ ﴾.

أي: أحَبَّ مُشرِكو قُرَيشٍ -يا مُحمَّدُ- وتَمَنَّوا لو تَلينُ لهم في الدِّينِ وتُوافِقُهم وتُصانِعُهم على باطِلِهم؛ كتَرْكِ النَّهيِ عن الشِّركِ، أو السُّكوتِ عن عَيبِ آلهتِهم، وتَسفيهِ آبائِهم، أو الرُّكونِ إلى آلهتِهم، فيَلينونَ لك أيضًا، ويُصانِعونَك فيما تَدْعوهم إليه مِنَ الحَقِّ؛ كتَركِ الطَّعنِ فيه، أو موافقَتِه، وامتِثالِ بَعْضِه[2].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

قال القرطبي: (نَهاه عن مُمايَلةِ المشرِكينَ، وكانوا يَدْعونَه إلى أن يَكُفَّ عنهم لِيَكُفُّوا عنه، فبَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ مُمايلتَهم كُفرٌ!). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٧٩، ٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٩٧، ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٩).

قال ابنُ جرير: (شبَّه التَّليينَ في القَولِ بتَليينِ الدُّهنِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٧).

وقال الواحديُّ: (قال الكلبيُّ: لو تُصانِعُهم في الدِّينِ فيُصانِعونَك. والمعنى: تَترُكُ بعضَ ما أنت عليه ممَّا لا يَرضَونَه؛ مُصانَعةً لهم، فيَفعَلوا مِثلَ ذلك، ويَترُكوا بعضَ ما لا تَرضى، فتَلينُ لهم ويَلينونَ. وهذا قولُ مجاهدٍ: تَركَنُ إليهم وتَترُكُ ما أنت عليه مِن الحَقِّ، فيُمالِئونَك. وهذا قولُ أكثَرِ المفَسِّرينَ، ومعنى روايةِ الوالبي عن ابنِ عبَّاسٍ). ((البسيط)) (٢٢/ ٨٠).

وقال البِقاعي: (قال ابن بَرَّجان: «والإدهانُ: مُلايَنةٌ وانجِرارٌ بالباطِلِ، وإغماضٌ عن الحَقِّ مع المعرفةِ بذلك»). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢٩٨).

[الإسراء: ٧٤].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾ [الواقعة: ٨١].

﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نهَى اللهُ تعالى رَسولَه عن طاعةِ المكَذِّبِ وعَلَّلَه، وكان مِن النَّاسِ مَن يُخفي تكذيبَه؛ أظهَر علاماتِ المكَذِّبِ، فقال تعالى[(١)]:

﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠﴾

أي: ولا تُطِعْ -يا مُحمَّدُ- كلَّ مُكثِرٍ للحَلِفِ، ضَعيفٍ حَقيرٍ، خَسيسِ النَّفْسِ، ناقِصِ الهِمَّةِ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٢).

قال ابن جرير: (ولا تُطِعْ -يا محمَّدُ- كُلَّ ذي إكثارٍ للحَلِفِ بالباطِلِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٧).

وقال الزمخشري: (﴿حَلَّافٖ﴾ كثيرِ الحَلِفِ في الحَقِّ والباطِلِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (مَن كان كثيرَ الحَلِفِ كان كثيرَ الكَذِبِ في العَهدِ، مُحتاجًا إلى النَّاسِ؛ فهو مِن أذَلِّ النَّاسِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٦٦).

وقال ابن عاشور: (قال جمْعٌ مِن المفسِّرينَ: المرادُ بالحلَّافِ المَهينِ: الوليدُ بنُ المُغيرةِ. وقال بعضُهم: الأخنسُ بنُ شَريقٍ. وقال آخَرونَ: الأسودُ بنُ عبدِ يَغوثَ. ومِن المفسِّرينَ مَن قال: المرادُ: أبو جهلٍ. وإنَّما عَنَوْا أنَّ المرادَ التَّعريضُ بواحدٍ مِن هؤلاءِ، وإلَّا فإنَّ لفظَ ﴿كُلَّ﴾ المفيدَ للعمومِ لا يَسمَحُ بأنْ يُرادَ النَّهيُ عن واحدٍ مُعيَّنٍ، أمَّا هؤلاء فلعلَّ أربعتَهم اشترَكوا في مُعظَمِ هذه الأوصافِ، فهم ممَّن أُريدَ بالنَّهيِ عن إطاعتِه، ومَن كان على شاكلتِهم مِن أمثالِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧١). ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢).

﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ١١﴾.

﴿هَمَّازٖ﴾.

أي: كَثيرِ العَيبِ للنَّاسِ، والطَّعنِ فيهم حالَ غَيبتِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ * ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ * يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ﴾ [الهمزة: ١ - ٣].

﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾.

أي: نقَّالٍ للكَلامِ السَّيِّءِ مِن بَعضِ النَّاسِ إلى بَعضٍ، بغَرَضِ الإفسادِ بيْنَهم[2].

عن حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لا يَدخُلُ الجنَّةَ نمَّامٌ))[3].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((مرَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحائطٍ[4] مِن حيطانِ المدينةِ أو مكَّةَ، فسَمِعَ صَوتَ إنسانَينِ يُعذَّبانِ في قُبورِهما، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يُعَذَّبانِ، وما يُعذَّبانِ في كبيرٍ! ثمَّ قال: بلى؛ كان أحدُهما لا يَستَتِرُ مِن بَولِه، وكان الآخَرُ يمشي بالنَّميمةِ. ثمَّ دعا بجَريدةٍ، فكسَرَها كِسرَتينِ، فوضَعَ على كُلِّ قبرٍ منهما كِسْرةً، فقيل له: يا رَسولَ اللهِ، لِمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٠٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

(٣) رواه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥) واللَّفظُ له.

(٤) بحائطٍ: أي: بُستانٍ مِن النَّخلِ عليه جِدارٌ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (١/ ٢٨٦).

فَعلْتَ هذا؟ قال: لعَلَّه أن يُخَفَّفَ عنهما ما لم تَيْبَسا، أو إلى أن يَيْبَسا))[1].

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾.

أي: شَديدِ المَنعِ لكلِّ خَيرٍ، بخيلٍ بالمالِ عن إنفاقِه في وُجوهِه المطلوبةِ[2].

(١) رواه البخاري (٢١٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٣).

قال الرَّازيُّ في قولِه تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾: (فيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّ المرادَ أنَّه بخيلٌ، والخَيرُ المالُ. والثَّاني: كان يَمنعُ أهْلَه مِن الخَيرِ، وهو الإسلامُ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٤).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ المرادَ: بخيلٌ بالمالِ-: ابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ -أي: أنَّه كان يَمنعُ أهْلَه مِن الخَيرِ وهو الإسلامُ-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٥).

وقال البيضاوي: (﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ يَمنَعُ النَّاسَ عن الخَيرِ مِن الإيمانِ والإيقانِ والعمَلِ الصَّالحِ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٤).

وقال ابن عطيَّة: (وقال آخَرون: بل هو على عُمومِه في المالِ والأفعالِ الصَّالحةِ، ومَن يَمنع إيمانَه وطاعتَه لله تعالى فقد منَع الخيرَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٧).

وقال العُلَيمي: (﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ شَحيحٍ بالمالِ، والأفعالِ الصَّالحةِ). ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٢٦).

وممَّن جمَع بيْن المعاني السَّابقةِ: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٠). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ - ٢١].

﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾.

أي: مُتَجاوِزٍ للحُدودِ[١]، كثيرِ الإثمِ والذُّنوبِ[٢].

= قال البقاعي: (﴿مَّنَّاعٍ﴾ أي: كثيرِ المَنْعِ شَديدِه ﴿لِّلْخَيْرِ﴾ أي: كلِّ خَيرٍ؛ مِن المالِ والإيمانِ وغيرِهما، مِن نفْسِه ومِن غيرِه، مِن الدِّينِ والدُّنيا، إلى غيرِ ذلك). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٠١).

وذكر ابنُ عثيمين في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ (ق) الآية (٢٥) أنَّ قولَه: ﴿لِّلْخَيْرِ﴾ لفظٌ يَشمَلُ كلَّ خيرٍ؛ فيَمنعُ الدَّعوةَ إلى الله، ويمنعُ بَذْلَ أموالِه فيما يُرضي اللهَ، ويَمنعُ كلَّ خَيرٍ، وكأنَّه يَلتَمِسُ كلَّ خيرٍ فيَمْنَعُه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٠).

(١) مِن المفسِّرينَ مَن قال: ﴿مُعْتَدٍ﴾: أي: مُتجاوِزٍ في الظُّلْمِ. ومنهم: الزَّجَّاجُ، والسَّمْعانيُّ، والشَّوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢١).

ومنهم مَن قال: المعتدي: المُتجاوِزُ لحدودِ الأشياءِ. ومنهم: ابنُ عطيَّة، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٢٦).

ومنهم مَن قال: المرادُ: مُعتَدٍ على النَّاسِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

ممَّن قال: إنَّ معنى الأثيمِ: كثير الإثمِ: السَّمْعانيُّ، والرَّسْعَني، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٤).

وقريبٌ مِن القولِ السَّابقِ قولُ مَن قال مِن المفسِّرينَ: إنَّ الأثيمَ: الفاجرُ. وممَّن قال بهذا: السمرقنديُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢٥).

وقال ابن كثير: (﴿مُعْتَدٍ﴾ في تَناوُلِ ما أحلَّ اللهُ له، يَتجاوَزُ فيه الحدَّ المشروعَ. ﴿أَثِيمٍ﴾: =

﴿عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ١٣﴾.

﴿عُتُلِّۭ﴾.

أي: فَظٍّ غَليظٍ في خَلقِه وخُلُقِه، شديدِ الخصومةِ، جافٍ شَديدٍ[1].

= يَتناوَلُ المُحرَّماتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٤).

قال الرازي: (الصِّفةُ الثَّامِنةُ: العُتُلُّ. وأقوالُ المفسِّرينَ فيه كثيرةٌ، وهي محصورةٌ في أمْرَينِ: أحدُهما: أنَّه ذمٌّ في الخَلْقِ. والثَّاني: أنَّه ذَمٌّ في الخُلُقِ، وهو مأخوذٌ مِن قَولِك: عتَلَه: إذا قاده بعُنفٍ وغِلظةٍ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾ [الدخان: ٤٧].

أمَّا الَّذين حَمَلوه على ذَمِّ الخَلْقِ، فقال ابنُ عبَّاسٍ في روايةِ عَطاءٍ: يُريدُ: قَويٌّ ضَخمٌ. وقال مقاتِلٌ: واسِعُ البَطنِ، وثيقُ الحلقِ. وقال الحسَنُ: الفاحِشُ الخَلْقِ، اللَّئيمُ النَّفْسِ. وقال عُبَيْدُ بنُ عُمَيرٍ: هو الأكولُ الشَّروبُ، القَويُّ الشَّديدُ. وقال الزَّجَّاج: هو الغليظُ الجافي.

أمَّا الَّذين حمَلوه على ذمِّ الأخلاقِ، فقالوا: إنَّه الشَّديدُ الخُصومةِ، الفَظُّ العَنيفُ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٨٤).

قال الواحدي: (المفسِّرون يقولونَ: هو الشَّديدُ الخَلْقِ، الفاحِشُ الخُلُقِ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٣٥).

وممَّن ذهب في الجملةِ إلى أنَّ قوله: ﴿عُتُلِّۭ﴾ أي: جافٍ غليظٌ قاسٍ سيِّئُ الخُلُقِ: الزمخشريُّ، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والعُلَيمي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٢٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

قال ابنُ تيمية: (أمَّا العُتُلُّ...: فهو الجبَّارُ الفَظُّ الغليظُ، الَّذي قد صار من شِدَّةِ تجَبُّرِه وغِلظِه معروفًا بالشَّرِّ، مَشهورًا به). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٦٧).

وذهب ابنُ جريرٍ والقرطبيُّ إلى أنَّه هو الجافي الشَّديدُ في كُفرِه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٢). =

عن حارِثةَ بنِ وَهبٍ الخُزاعيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((ألَا أُخبِرُكم بأهلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ[1] مُسْتَكْبِرٍ))[2].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال عندَ ذِكرِ أهلِ النَّارِ: ((كُلُّ جَعْظَرِيٍّ[3] جَوَّاظٍ، مُستَكْبِرٍ، جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ))[4].

﴿بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾.

= قال الزَّجاجُ: (جاء في التَّفسيرِ أنَّ العُتُلَّ هاهنا الشَّديدُ الخُصومةِ، وجاء في التَّفسيرِ أنَّه الجافي الخُلقِ اللَّئيمُ الضَّريبةِ، وهو في اللُّغةِ الغَليظُ الجافي). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٠٦).

وقال البقاعي: (﴿عُتُلٍّ﴾ أي: أَكُولٍ، شديدِ الخُصومةِ، جافٍ غليظٍ في خَلْقِه وخُلُقِه، ثقيلٍ مرٍّ، كأنَّه قِطعةُ جبَلٍ قد انقطَع عن سائرِه، لا يَنجَرُّ إلى خيرٍ إلا بعُسرٍ وصُعوبةٍ وعُنفٍ، مِن عَتَلَه: إذا قاده بغِلظةٍ، فهو في غايةِ ما يكونُ مِن يبسِ الطِّباعِ، وعدَمِ الطَّواعيةِ في الخيرِ والانطباعِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٠٢).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (العُتلُّ: القَويُّ البِنيةِ، الغليظُ الأعضاءِ، المُصَحَّحُ، القاسي القلْبِ، البَعيدُ الفَهمِ، الأَكُولُ الشَّروبُ، الَّذي هو باللَّيلِ جِيفةٌ، وبالنَّهارِ حِمارٌ؛ فكلُّ ما عبَّر به المفسِّرون عنه مِن خِلالِ النَّقصِ، فعنْ هذه الَّتي ذَكَرْتُ تَصدُرُ، وقد ذكَرَ النَّقَّاشُ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فسَّر العُتُلَّ بنحْوِ هذا، وهذه الصِّفاتُ كثيرةُ التَّلازُمِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٧).

(١) الجَوَّاظُ: قيل: هو الكثيرُ اللَّحمِ المختالُ في مَشْيِه. وقيل: هو الأكولُ. وقيل: الفاجرُ. وقيل: الجَوَّاظُ: الفَظُّ الغليظُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٦٣).

(٢) رواه البخاري (٤٩١٨)، ومسلم (٢٨٥٣).

(٣) الجَعْظريُّ: قيل: هو الفَظُّ الغليظُ. وقيل: الذي لا يَمرَضُ. وقيل: الذي يُتمدَحُ بما ليس فيه أو عندَه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٦٣).

(٤) أخرجه أحمد (٦٥٨٠) واللَّفظُ له، والحاكمُ (٣٨٤٤)، والبَيْهَقيُّ في ((شعب الإيمان)) (٨١٧٢). صحَّحه الحاكمُ، وقال: (على شرطِ مُسلمٍ). وصحَّح إسنادَه ابنُ القيِّم في ((حادي الأرواح)) (١١٢)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٠/ ٨٦)، والألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٤/ ٣٢١).

أي: بعدَ ذلك الَّذي وصَفْناه به: دَعِيٍّ، مُلصَقٍ في قَومٍ ليس منهم[١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩، ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٥).

قيل: معنى ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: مع ذلك. وممن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والثعلبيُّ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٥).

وقيل: المعنى: بعْدَ ما عُدَّ له مِن المَعايبِ والنَّقائصِ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والنَّسَفي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢١).

قال الشوكاني: (﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ أي: هو بعدَ ما عُدَّ مِن معايبِه زَنِيم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢١).

وقال الكوراني: (﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ بعدَ ما ذُكر مِن المثالبِ دعيٌّ، لا نسبَ له، وهذا كما إذا عدَّدتَ مثالبَ إنسانٍ، ثمَّ تقولُ: وبعدَ ذلك لا يحبُّ أبا بكرٍ وعمرَ رضِي اللَّه عنهما). ((تفسير الكوراني (ص: ٢٠٨).

وقال الرازي: (قول: ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ معناه: أنَّه بعْدَ ما عدَّ له مِن المَثالِبِ والنَّقائصِ فهو عُتُلٌّ زَنيمٌ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٥). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦٤).

وممَّن قال بالمعنى المذكور للزَّنيمِ في الجُملةِ: الفرَّاءُ، والزمخشريُّ، والقرطبي، والبيضاوي، وأبو حيَّان، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٧٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩، ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ في روايةٍ عنه، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ المُسَيِّبِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٣). =

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: مِن أجْلِ أنَّه صاحِبُ مالٍ كثيرٍ وأبناءٍ، فيَتقَوَّى بهم ويتجَبَّرُ ويتكَبَّرُ[1]!

= قال ابنُ تيميَّةَ: (له زَنَمةٌ مِن الشرِّ أي: علامةٌ يُعرفُ بها). ((الجواب الصحيح)) (٦/ ٤٨٦).
وقال ابنُ كثير: (الزَّنيمُ هو: المشهورُ بالشَّرِّ، الَّذي يُعرَفُ به مِن بيْنِ النَّاسِ، وغالبًا يكونُ دَعِيًّا ولَدَ زِنًا؛ فإنَّه في الغالبِ يَتسَلَّطُ الشَّيطانُ عليه ما لا يتسَلَّطُ على غيرِه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٤).
وقال البِقاعيُّ: (﴿زَنِيمٍ﴾ أي: صارتْ له عَلامةُ سُوءٍ وشَرٍّ، وثَناءٌ قَبيحٌ، ولَأْمةٌ بيِّنةٌ، ومَعرِفةٌ يُعرَفُ بها كما تُعرَفُ الشَّاةُ بزَنَمتِها -وهي الجِلدةُ الَّتي تكونُ تحتَ حَلْقِها مُدلاةً تَنوسُ [أي: تتحرَّكُ]-، والعبدُ بمَعايبِه وسَفسافِ أخْلاقِه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٠٢، ٣٠٣).
وقال القرطبي: (مُعظَمُ المفسِّرينَ على أنَّ هذا نزل في الوليدِ بنِ المُغيرةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٥).

وقال ابنُ عاشور: (قيل: أُريدَ بالزَّنيم الوَليدُ بنُ المغيرةِ؛ لأنَّه ادَّعاه أبوه بعدَ ثماني عَشْرةَ سَنةً من مَولِدِه. وقيل: أُريدَ الأخنَسُ بنُ شَريقٍ؛ لأنَّه كان مِن ثَقيفٍ، فحالَف قُرَيشًا وحَلَّ بيْنَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٩)، ((الهداية)) لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٧٦٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).
قال ابنُ جُزَي: (﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ في موضِعِ مَفعولٍ مِن أجْلِه يتعَلَّقُ بقَولِه: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾، أي: لا تُطِعْه بسَبَبِ كَثرةِ مالِه وبَنيه. ويجوزُ أن يتعَلَّقَ بما بَعْدَه، والمعنى على هذا أنَّه قال في القرآنِ: أساطيرُ الأوَّلينَ؛ لأنَّه ذو مالٍ وبَنينَ، يتكبَّرُ بمالِه وبَنيه... والأوَّلُ أظهَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٩، ٤٠٠).
وممَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ في الجملةِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢).
وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّاني: الزَّجَّاجُ، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٦، ٧٩).
قال السعدي: (هذه الآياتُ وإن كانت نزَلَت في بعضِ المشركينَ، كالوليدِ بن المُغيرةِ أو غيرِه؛ لِقَولِه عنه: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: لأجْلِ كَثرةِ مالِه ووَلَدِه، طغى واستكبَرَ عن الحَقِّ، ودفَعَه حين جاءَه، وجعَلَه مِن جملةِ أساطيرِ الأوَّلينَ- =

كما قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١١ - ١٦].

﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: إذا تُتلَى على هذا الكافِرِ آياتُ القُرآنِ قال مُكذِّبًا: تلك أكاذيبُ الأوَّلينَ وخُرافاتُهم الَّتي سَطَروها في كُتُبِهم[1].

﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

لَمَّا ذَكَر قَبائحَ أفعالِه وأقوالِه؛ ذَكَر ما يُفعَلُ به على سَبيلِ التَّوعُّدِ، فقال[2]:

﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

أي: سنَجعَلُ له على أنْفِه علامةً يُعرَفُ بها بيْنَ النَّاسِ[3]!

= فإنَّها عامَّةٌ في كُلِّ مَن اتَّصَف بهذا الوَصفِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

وقال ابنُ عطية: (العامِلُ في ﴿أَن كَانَ﴾ فِعلٌ مُضمَرٌ تَقديرُه: كفَرَ أو جَحَد أو عَنَدَ، وتفسيرُ هذا الفِعلِ قولُه: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ...﴾ الآيةَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٨).

وقال القرطبي: (قال ابنُ الأنباري: ومَن قرَأ بلا استِفهامٍ لم يحسُنْ أن يَقِفَ على ﴿زَنِيمٍ﴾؛ لأنَّ المعنى: لِأَنْ كان وبأنْ كان، فـ﴿أَن﴾ مُتعَلِّقةٌ بما قَبْلَها. قال غيرُه: يجوزُ أن يتعلَّقَ بقَولِه: ﴿مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾، والتَّقديرُ: يَمشي بنَميمٍ لأنْ كان ذا مالٍ وبنينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٦).

ويُنظر: ((إيضاح الوقف والابتداء)) لابن الأنباري (٢/ ٩٤٤).

وقولُه ﴿أَن﴾ قرأه بهمزةٍ واحدةٍ على الخبرِ نافعٌ، وابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو والكِسائيُّ وخَلَفٌ، وحفصٌ، وقرأه الباقونَ (ابنُ عامرٍ وحمزةُ وأبو جَعفرٍ، ويعقوبُ، وأبو بكرٍ) بهمزتيْنِ على الاستفهامِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (١/ ٣٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٠، ١٧١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٦)، ((الوجيز)) =

= للواحدي (ص: ١١٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٥، ٣٠٦).

قال أبو السعود: (﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ بالْكَيِّ على أكرمِ مَواضِعِه؛ لغايةِ إهانتِه وإذلالِه، قيلَ: أصابَ أنْفَ الوليدِ جراحةٌ يومَ بدرٍ فبقيتْ علامتُها، وقيلَ: معناهُ: سنعلِّمُه يومَ القيامةِ بعلامةٍ مشوَّهةٍ يُعلَمُ بها عن سائرِ الكفرةِ). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤)، ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢١).

قيل: المراد: نُسَوِّدُ وجْهَه يومَ القيامةِ، فعبَّر عن الوجهِ بالأنفِ؛ لأنَّه منه. وممَّن قال بهذا في الجملة: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمعاني، والخازن، ونسَبَه الواحديُّ إلى الأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو العاليةِ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣٧).

قال السمرقندي: (﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ يعني: سنَضرِبُه على الوجهِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٢).

وقيل: سنَجعَلُ على أنفِه علامةً باقيةً في الدُّنيا بأن نَخطِمَ أنْفَه بالسَّيفِ يومَ بَدرٍ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: الواحديُّ، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٥٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٠).

وقال ابن قُتَيْبةَ: (أُلحِقُ به عارًا لا يُفارِقُه في الدُّنيا ولا في الآخرةِ؛ كالوسمِ على الخُرطومِ، وأبْيَنُ ما يكونُ الوَسمُ في الوجهِ). ((تأويل مُشْكِل القرآن)) (ص: ١٠٢)، ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٩٨).

وقال ابن جرير: (معنى ذلك: سنُبَيِّنُ أمْرَه بيانًا واضِحًا حتَّى يَعرِفوه، فلا يَخفى عليهم، كما لا تَخفى السِّمةُ على الخُرطومِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٠، ١٧١).

وقال ابنُ عاشور: (الوَسْمُ للإبلِ ونَحوِها: جَعلُ سِمةٍ لها أنَّها من مملوكاتِ القَبيلةِ أو المالِكِ المعَيَّنِ؛ فالمعنى: سنُعامِلُه مُعامَلةً يُعرَفُ بها أنَّه عَبدُنا، وأنَّه لا يُغْني عنه مالُه وولدُه مِنَّا شَيئًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٧).

وقال البِقاعي: (لَمَّا كان هذا المذكورُ قد أغرَقَ في الشَّرِّ، فتَوقَّعَ السَّامعُ جَزاءَه؛ قال مُعلِمًا =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ أنَّه لا يجوزُ للمُؤمِنِ أنْ يُدَاهِنَ، والمُدَاهَنةُ في الحقيقةِ أشْبَهُ ما تكونُ في وقتِنا الحاضرِ بما يُسمُّونَه بالعَلمَنةِ؛ فإنَّ العَلمانيِّينَ يقولونَ: دَعْ كلَّ إنسانٍ وشأنَه؛ الدَّولةُ دولةٌ، والدِّينُ دِينٌ؛ فالدَّولةُ لا بُدَّ أنْ تَتَّحِدَ، وأمَّا الدِّينُ فلكُلٍّ دِينُه، فلا تُنْكِرْ على الكافرِ ولا على الفاسِقِ! دَعْ كلَّ إنسانٍ يَعْمَلُ ما شاء! وهذه الآيةُ صريحةٌ في وُجوبِ الإنكارِ على الكافِرينَ كُفْرَهم، وألَّا نُداهِنَهم[1].

= أنَّه يَجعَلُ له مِن الخِزْيِ والفضائحِ ما يَصيرُ به شُهرةً بيْنَ الخلائقِ في الدُّنيا والآخرةِ: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾، أي: نَجعَلُ ما يَلحَقُ به مِن العارِ في الدَّارَينِ كالوسْمِ الَّذي لا يَنْمحي أثَرُه... وَسْمًا مُستعليًا عليه بوُضوحٍ جدًّا؛ لِيَكونَ هُتْكةً بيْنَ النَّاسِ، وفَضيحةً لقَومِه وذُلًّا وعارًا، وكذا كان -لَعَمْري- له بهذا الذِّكرِ الشَّنيعِ والذَّنْبِ القبيحِ مِن الكفرِ وما معه، وسيَكونُ له يومَ الجَمْعِ الأعظَمِ ما هو أشنَعُ مِن هذا، على أنَّه قد حُقِّقَ في الدُّنيا هذا الخَطْمُ حِسًّا بأنَّه ضُرِبَ يومَ بدْرٍ ضَربةً خَطَمَتْ أنْفَه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٠٥، ٣٠٦).

وقال ابن تيمية: (وقولُه: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ فيه إطلاقٌ يتضمَّنُ الوسمَ في الآخرةِ وفي الدُّنيا أيضًا). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٥٨).

قال ابن القيِّم: (المُداراةُ صِفةُ مدحٍ، والمُداهَنةُ صِفةُ ذمٍّ، والفرقُ بيْنَهما أنَّ المُداريَ يَتلطَّفُ بصاحِبِه حتَّى يَستخرِجَ منه الحقَّ، أو يَرُدَّه عن الباطِلِ، والمُداهِنَ يَتلطَّفُ به لِيُقِرَّه على باطِلِه، ويَترُكَه على هَواه، فالمُداراةُ لأهلِ الإيمانِ، والمُداهَنةُ لأهلِ النِّفاقِ، وقد ضُرِب لذلك مَثَلٌ مُطابِقٌ، وهو حالُ رجُلٍ به قَرْحةٌ قد آلَمَتْه، فجاءه الطَّبيبُ المداوي الرَّفيقُ فتعرَّفَ حالَها، ثمَّ أخَذ في تليينِها، حتَّى إذا نَضِجَتْ أخَذ في بَطِّها برِفْقٍ وسُهولةٍ حتَّى أخرَج ما فيها، ثمَّ وضع على مكانِها مِن الدَّواءِ والمرهمِ ما يَمنَعُ فَسادَها، ويَقطَعُ مادَّتَها، ثمَّ تابَع عليها بالمراهِمِ الَّتي تُنبِتُ اللَّحمَ، ثمَّ يَذُرُّ عليها بعْدَ نباتِ اللَّحمِ ما يُنشِفُ رُطوبتَها، ثمَّ يَشُدُّ عليها الرِّباطَ، ولم يَزَلْ يُتابِعُ ذلك حتَّى صلَحَتْ. والمُداهِنُ قال لصاحِبِها: لا بأْسَ عليك منها، وهذه لا شيء، فاستُرْها عن العُيوبِ بخِرقةٍ ثمَّ الْهُ عنها، فلا تَزالُ مِدَّتُها تَقوى وتَستَحْكِمُ حتَّى عَظُمَ فَسادُها). ((الروح)) (ص: ٢٣١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ الحَلَّافُ مَن كان كثيرَ الحَلِفِ في الحَقِّ والباطِلِ -على قولٍ-، وكفى به مَزجَرةً لِمَن اعتاد الحَلِفَ(١)!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ أنَّ مَن أكثَرَ الأيْمانَ، هان على الرَّحمنِ، واتَّضَعتْ مرتبتُه عندَ النَّاسِ(٢). فلا يَنبغي للإنسانِ أنْ يُكثِرَ مِن الأيْمانِ؛ فإنَّ اللهَ ذَكَر الإكثارَ مِن الأيْمانِ بصيغةِ الذَّمِّ(٣).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلِّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴾ حاصِلُه أنَّ اللهَ تعالى نهى عن طاعةِ كُلِّ حَلَّافٍ كَذَّابٍ، خَسيسِ النَّفْسِ، سَيِّئِ الأخلاقِ، خُصوصًا الأخلاقَ المُتضَمِّنةَ للإعجابِ بالنَّفْسِ، والتَّكبُّرِ على الحَقِّ وعلى الخَلْقِ، والاحتِقارِ للنَّاسِ؛ كالغِيبةِ والنَّميمةِ، والطَّعنِ فيهم، وكثرةِ المعاصي، وهذه الآياتُ وإن كانت نزَلَت في بعضِ المُشرِكينَ فإنَّها عامَّةٌ في كُلِّ مَنِ اتَّصَف بهذا الوَصفِ(٤).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴾ التَّحذيرُ مِن النَّمَّامِ وإنْ حَلَفَ(٥).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾، وقَولِه: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ نَهاه عن طاعةِ هذَينِ الضَّربينِ، فكان فيه فوائدُ:

منها: أنَّ النَّهيَ عن طاعةِ المرءِ نهيٌ عنِ التَّشَبُّهِ به بالأَولى، فلا يُطاعُ المُكَذِّبُ والحَلَّافُ، ولا يُعْمَلُ بمِثْلِ عَمَلِهما، كقَولِه: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٣، ٦٠٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

(٥) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٦/ ٦٨٠).

[الأحزاب: ١] وأمثالِه؛ فإنَّ النَّهيَ عن قَبولِ قولِ مَن يأمُرُ بالخُلُقِ النَّاقِصِ أبلَغُ في الزَّجرِ مِن النَّهيِ عن التَّخَلُّقِ به.

ومنها: أنَّ ذلك أبلغُ في الإكرامِ والاحترامِ؛ فإنَّ قولَه: «لا تَكْذِبْ، ولا تَحْلِفْ، ولا تَشْتِمْ، ولا تَهْمِزْ» ليس هو مِثلَ قَولِه: «لا تُطِعْ مَن يكونُ مُتَلَبِّسًا بهذه الأخلاقِ»؛ لِمَا فيه مِن تشريفِه وبراءتِه.

ومنها: أنَّ الأخلاقَ مُكتَسَبةٌ بالمعاشَرةِ؛ ففيه تحذيرٌ عنِ اكتسابِ شيءٍ مِن أخلاقِهم بالمُخالَطةِ لهم، فلْيأخُذْ حِذْرَه؛ فإنَّه مُحتاجٌ إلى مُخالَطَتِهم مِن أجْلِ دَعوتِهم إلى اللهِ تعالى.

ومنها: أنَّهم يُبدونَ مَصالحَ فيما يأمُرونَ به؛ فلا تُطِعْ مَن كان هكذا ولو أَبْداها؛ فإنَّ الباعثَ لهم على ما يأمُرونَ به هو ما في نُفوسِهم مِن الجَهلِ والظُّلمِ، وإذا كان الأصلُ المقتضي للأمرِ فاسِدًا لم يُقبَلْ مِن الآمِرِ؛ فإنَّ الأمرَ مَدَارُه على العِلمِ بالمصلحةِ وإرادتِها، فإذا كان جاهِلًا لم يَعلَمِ المصلحةَ، وإذا كان الخُلُقُ فاسِدًا لم يُرِدْها، وهذا مَعنًى بليغٌ[(١)].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾، أي: بعدَ ما عُدَّ له مِن المَثالِبِ والنَّقائِصِ؛ فهو عُتُلٌّ زَنيمٌ -على قولٍ-، وهذا يدُلُّ على أنَّ هذَينِ الوصفَينِ -وهو كَونُه عُتُلًّا زَنيمًا- أشَدُّ مَعايبِه؛ لأنَّه إذا كان جافيًا غليظَ الطَّبعِ، قَسا قَلْبُه، واجترَأَ على كُلِّ مَعصيةٍ، ولأنَّ الغالبَ أنَّ النُّطفةَ إذا خبُثَتْ خبُثَ الولدُ[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ أنَّه سبحانَه لا بُدَّ أنْ يَسِمَ صاحِبَ هذه

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٥).

الأخلاقِ الخَبيثةِ على خُرطومِه -وهو أنْفُه الَّذي هو عُضوه البارزُ الَّذي يَسبقُ البصرُ إليه عندَ مُشاهَدتِه-؛ لِتَكونَ السِّيما ظاهِرةً مِن أوَّلِ ما يُرَى، وهذا ظاهِرٌ في الفَجَرةِ الظَّلَمةِ الَّذين وَدَعَهم النَّاسُ اتِّقاءَ شَرِّهم وفُحْشِهم؛ فإنَّ لهم سِيما مِن شَرٍّ يُعرَفونَ بها، وكذلك الفَسَقةُ وأهلُ الرِّيَبِ[1].

٣- قال الله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ لَمَّا كان الوَسمُ مُنكِئًا، وكان جَعْلُه في موضِعٍ لا يُستَرُ أنكَأَ، وكان الوَجهُ أشرَفَ ما في الإنسانِ، وكان أظهَرُ ما فيه وأكرَمُه الأنفَ؛ ولذلك جَعَلوه مكانَ العِزِّ والحَمِيَّةِ، واشتَقُّوا منه الأَنَفةَ- قال: ﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾[2].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ الخُرْطومُ: الأنفُ، وإنَّما ذُكِرَ هذا اللَّفظُ على سَبيلِ الاستِخفافِ به؛ لأنَّ التَّعبيرَ عن أعضاءِ النَّاسِ بالأسماءِ الموضوعةِ لأشباهِ تلك الأعضاءِ مِن الحيواناتِ: يكونُ استِخفافًا! كما يُعبَّرُ عن شِفاه النَّاسِ بالمشافِرِ، وعن أيديهم وأرجُلِهم بالأظلافِ والحوافِرِ[3].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾، استُدِلَّ به على ضَعفِ القَولِ بـ(واوِ الثَّمانيةِ)، فقد وصَفَه بأوصافٍ تِسعةٍ، ولم يُدخِلْ بيْنَها واوَ العَطفِ، ولا بعْدَ السَّابعِ[4].

٦- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ فذكَرَ أربَعَ آياتٍ، كُلُّ آيتَيْنِ جمَعَت نَوعًا مِن

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٩).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤٠٧-٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٦).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٩). ويُنظر أيضًا: ((مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)) لابن هشام (ص: ٤٧٤-٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٢) و(٢٨/ ٣٦٢-٣٦٤).

الأخْلاقِ الفاسِدةِ المَذمُومةِ، وجَمَعَ في كُلِّ آيةٍ بيْنَ النَّوعِ المُتَشابه خَبرًا وطَلبًا؛ فالحَلَّافُ مَقْرونٌ بالمَهينِ؛ لأنَّ الحَلَّافَ هو كثيرُ الحَلِفِ، وإنَّما يكونُ على الخَبَرِ أو الطَّلَبِ، فهو إمَّا تَصْديقٌ أو تَكْذيبٌ، أو حَضٌّ أو مَنْعٌ، وإنَّما يُكثِرُ الرَّجلُ ذلك في خَبَرِه إذا احتاج أنْ يُصدَّقَ ويُوثَقَ بخَبَرِه. ومَن كان كثيرَ الحَلِفِ كان كثيرَ الكذِبِ في العَهدِ مُحتاجًا إلى النَّاسِ؛ فهو من أذَلِّ النَّاسِ ﴿حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾؛ حَلَّافٌ في أقْوالِه، مَهينٌ في أفْعالِه. وأمَّا الهَمَّازُ المَشَّاءُ بِنَميمٍ: فالهَمْزُ أقْوَى مِن اللَّمْزِ وأشدُّ -سَواءٌ كان هَمْزَ الصَّوتِ أو هَمْزَ حَرَكةٍ-. فالهَمَّازُ المُبالِغُ في العَيبِ نَوعًا وقَدْرًا. والمَشَّاءُ بِنَميمٍ هو مِن العَيبِ، ولكنَّه عَيبٌ في القَفَا، فهو عَيبُ الضَّعيفِ العاجِزِ؛ فذَكَر العَيَّابَ بالقُوَّةِ، والعَيَّابَ بالضَّعْفِ، والعَيَّابَ في مَشهَدٍ، والعَيَّابَ في مَغيبٍ.

وأمَّا ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾ فإنَّ الظُّلْمَ نَوعانِ: تَرْكُ الواجِبِ، وهو مَنْعُ الخَيرِ وتَعَدٍّ على الغَيرِ، وهو المُعْتَدي. وأمَّا الأثيمُ مع المُعْتَدي فكقَولِه: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

وأمَّا العُتُلُّ الزَّنيمُ: فهو الجَبَّارُ الفَظُّ الغَليظُ الَّذي قدْ صار مِن شِدَّةِ تجَبُّرِه وغِلَظِهِ مَعروفًا بالشَّرِّ مَشهُورًا به لهُ زَنَمةٌ كزَنَمةِ الشَّاةِ. ويُشْبِهُ -واللهُ أعلَمُ- أنْ يكونَ الحَلَّافُ المَهينُ الهَمَّازُ المَشَّاءُ بِنَميم مِن جِنْسٍ واحدٍ، وهو في الأقوالِ وما يَتْبَعُها مِن الأفْعالِ، والمَنَّاعُ المُعْتَدي الأثيمُ العُتُلُّ الزَّنيمُ مِن جِنْسٍ، وهو في الأفعالِ وما يَتبَعُها مِن الأقوالِ. فالأوَّلُ الغالِبُ على جانِبِ الأعْراضِ، والثَّاني الغالِبُ على جانِبِ الحُقُوقِ في الأحوالِ والمَنافِعِ، ونَحوِ ذلك. ووَصَفَه بالظُّلْمِ والبُخلِ والكِبْرِ كما في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴾﴿ٱلَّذِينَ

يَبۡخَلُونَ ﴾ الآيةَ[(١)] [النساء: ٣٦، ٣٧].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ * وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ لتَرتيبِ النَّهْيِ على جَميعِ ما فُصِّلَ مِن أوَّلِ السُّورةِ، أو على ما يُنبِئُ عنه ما قبْلَه مِن اهتدائِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وضَلالِهم[(٢)]. فهو تَفريعٌ على جُملةِ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [القلم: ٧] إلى آخِرِها، باعتبارِ ما تَضمَّنَتْه مِن أنَّه على الهُدى، وأنَّ الجانبَ الآخَرَ في ضَلالِ السَّبيلِ؛ فإنَّ ذلك يَقْتضي المُشادَّةَ معهم، وألَّا يَلينَ لهم في شَيءٍ؛ فإنَّ أذاهُم إيَّاه آلَ إلى مُحارَبةِ الحقِّ والهُدى، وتَصلُّبٍ فيما همْ عليه مِن الضَّلالِ عن سَبيلِ اللهِ، فلا يَستأهِلونَ به لِينًا، ولكنْ يَستأهِلون إغلاظًا، وليس المرادُ أنَّهم وَدُّوا ذلك في نُفوسِهم فأطْلَعَ اللهُ عليه رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لعدَمِ مُناسَبتِه لقولِه: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾، وقد ورَدَ أنَّ المشركينَ تقدَّموا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمِثلِ هذا العرْضِ، ووسَّطوا في ذلك عمَّه أبا طالبٍ وعُتبةَ بنَ رَبيعةَ، فيَنتظِمُ مِن هذا أنَّ قولَه: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ نهْيٌ عن إجابتِهم إلى شَيءٍ عَرَضُوه عليه عندَ ما قَرَعَهم بأوَّلِ هذه السُّورةِ، وبخاصَّةٍ مِن وقْعِ معْنى التَّعريضِ البديعِ المَمزوجِ بالوعيدِ بسُوءِ المُستقبَلِ مِن قولِه: ﴿ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ﴾ إلى قولِه: ﴿ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾[(٣)] [القلم: ٥- ٧].

- وهو تَهييجٌ وإلهابٌ للتَّصميمِ على مُعاصاتِهم، أيْ: دُمْ على ما أنت عليه

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٨).

مِن عدَمِ طاعتِهم وتَصلُّبْ في ذلك، أو نهْيٌ عن مُداهنَتِهم ومُداراتِهم بإظهارِ خِلافِ ما في ضَميرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم استجلابًا لقُلوبِهم لا عن طاعتِهم، كما يُنبِئُ عنه قولُه تعالَى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ﴾؛ فإنَّه تَعليلٌ للنَّهيِ أو الانتهاءِ، وإنَّما عبَّر عنها بالطَّاعةِ؛ للمُبالَغةِ في الزَّجرِ والتَّنفيرِ، أيْ: أحَبُّوا لو تُلاينُهم وتُسامِحُهم في بَعضِ الأمورِ فيُدهِنون[١].

- ووُقوعُ فِعلِ ﴿تُطِعِ﴾ في حيِّزِ النَّهيِ يَقْتضي النَّهيَ عن جِنسِ الطَّاعةِ لهم، فيَعُمُّ كلَّ إجابةٍ لطَلَبٍ منهم[٢].

- واختيرَ تَعريفُهم بوصْفِ ﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ دونَ غيرِه مِن طُرقِ التَّعريفِ؛ لأنَّه بمَنزلةِ الموصولِ في الإيماءِ إلى وجْهِ بِناءِ الحُكمِ، وهو حُكمُ النَّهيِ عن طاعتِهم؛ فإنَّ النَّهيَ عن طاعتِهم لأنَّهم كذَّبوا رِسالتَه، ومِن هنا يتَّضِحُ أنَّ جُملةَ ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ بَيانٌ لمُتعلَّقِ الطَّاعةِ المَنهيِّ عنها؛ ولذلك فُصِلَت ولم تُعطَفْ[٣].

- وحرْفُ (لو) يَحتمِلُ أنْ يكونَ شَرطيًّا، ومَفعولُ (وَدَّ) مَحذوفًا، ويكونَ فِعلُ ﴿تُدْهِنُ﴾ شَرْطًا، وأنْ يكونَ جَوابُ الشَّرطِ مَحذوفًا، ويكونَ التَّقديرُ: ودُّوا إدْهانَكَ، لو تُدهِنُ لحَصَل لهم ما يَوَدُّون، أو لَسُرُّوا بذلك. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ (لوْ) حَرفًا مَصدريًّا مِثلَ (أنْ)، فيكونَ التَّقديرُ: وَدُّوا إدهانَك، فهم الآنَ يُدهِنونَ لطمعِهم في إدهانِك[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢، ١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير =

- والفاءُ في ﴿فَيُدۡهِنُونَ﴾ للعطفِ والتَّسبُّبِ عن جُملةِ ﴿لَوۡ تُدۡهِنُ﴾ جوابًا لمعْنى التَّمنِّي المدلولِ عليه بِفعلِ ﴿وَدُّواْ﴾، لقَصدِ بَيانِ سَببِ وَدادتِهم ذلك، فلذلك لم يُنصَبِ الفعلُ بعْدَ الفاءِ بإضمارِ (أنْ)؛ لأنَّ فاءَ السَّببيَّةِ كافيةٌ في إفادةِ ذلك، فالكلامُ بتَقديرِ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: فهمْ يُدهِنونَ، وسُلِكَ هذا الأسلوبُ ليَكونَ الاسمُ المقدَّرُ مُقدَّمًا على الخبرِ الفِعليِّ، فيُفيدَ معْنى الاختصاصِ، أي: فالإدهانُ منهم لا منك، أي: فاترُكِ الإدهانَ لهم، ولا تَتخلَّقْ أنت به، وهذه طَريقةٌ في الاستِعمالِ إذا أُريدَ بالتَّرتُّباتِ أنَّه ليس تَعليقَ جَوابٍ، وقدْ يُفيدُ مَوقعُ الفاءِ تَعليلًا لمَودَّتِهم منه أنْ يُدهِنَ، أي: وَدُّوا ذلك منك لأنَّهم مُدهِنون، وصاحبُ النِّيَّةِ السَّيِّئةِ يَوَدُّ أنْ يكونَ النَّاسُ مِثلَه[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ * هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ * مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾ إعادةُ فِعلِ النَّهيِ عن الطَّاعةِ لِمَن هذه صِفاتُهم؛ للاهتمامِ بهذا الأدَبِ، فلم يُكتَفَ بدُخولِ أصحابِ هذه الأوصافِ في عُمومِ المكذِّبين، ولا بتَخصيصِهم بالذِّكرِ بمُجرَّدِ عطْفِ الخاصِّ على العامِّ، بأنْ يُقالَ: ولا كلَّ حلَّافٍ، بل جِيءَ في جانبِهم بصِيغةِ نهْيٍ أُخرى مُماثِلةٍ للأُولى، وليُفيدَ تَسليطَ الوعيدِ الخاصِّ -وهو في مَضمونِ قولِه: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ [القلم: ١٦]- على أصحابِ هذه الصِّفاتِ الخاصَّةِ

= أبي السعود)) (٩/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٩، ٧٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٩، ٧٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧١).

زِيادةً على وَعيدِ المُكذِّبين[١].

- وكَلمةُ (كُلّ) مَوضوعةٌ لإفادةِ الشُّمولِ والإحاطةِ لأفرادِ الاسمِ الَّذي تُضافُ هي إليه، فهي هنا تُفيدُ النَّهيَ العامَّ عن طاعةِ كلِّ فرْدٍ مِن أفرادِ أصحابِ هذه الصِّفاتِ الَّتي أُضِيفَ إليها (كُلّ) بالمباشَرةِ وبالنُّعوتِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ تَقديمُ هذا الوصْفِ على سائرِ الأوصافِ الزَّاجرةِ عن الطاعةِ؛ لِكَونِه أدخلَ في الزَّجرِ[٣]، وكَفى بكَثرةِ الحلِفِ سُوءَ خُلقٍ وعَيبًا أنَّه قدَّمَه على جَميعِ العيوبِ، وفيه تَعظيمٌ للحَلِفِ، وبيانُ أنَّها أقبَحُ مَعايِبِه وأعظَمُها[٤].

- وقيل: أُرِيدَ بقولِه: ﴿كُلَّ حَلَّافٍ﴾ الكِنايةُ عن عَدَمِ المُبالاةِ بالكذِبِ وبالأيْمانِ الفاجرةِ، فجُعِلَت صِيغةُ المُبالَغةِ كِنايةً عن تَعمُّدِ الحِنثِ، وإلَّا لم يكُنْ ذَمُّه بهذه المَثابةِ[٥].

- والهمَّازُ كثيرُ الهمْزِ. وصِيغةُ المُبالَغةِ راجعةٌ إلى قوَّةِ الصِّفةِ، فإذا كان أذًى شَديدًا فصاحِبُه همَّازٌ، وإذا تَكرَّرَ الأذى فصاحِبُه همَّازٌ[٦].

- المشَّاءُ بالنَّميمِ: الَّذي يَنُمُّ بيْن النَّاسِ، ووَصْفُه بالمشَّاءِ للمُبالَغةِ[٧].

- وذِكرُ المشْيِ لتَشويهِ حالِه بأنَّه يَتجشَّمُ المَشقَّةَ مِن أجْلِ النَّميمةِ، مِثلُ ذِكرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

السَّعيِ في قولِه تعالَى: ﴿وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗا﴾ [المائدة: ٦٤]؛ ذلك أنَّ أسماءَ الأشياءِ المحسوسةِ أشدُّ وقْعًا في تَصوُّرِ السَّامعِ مِن أسماءِ المعقولاتِ، فذِكرُ المشْيِ بالنَّميمةِ فيه تَصويرٌ لحالِ النَّمَّامِ[١].

- قولُه: ﴿مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾ مَذمَّتانِ قُرِنَ بيْنَهما لمُناسَبةِ الخُصوصِ والعُمومِ. والاعتِداءُ: مُبالَغةٌ في العُدوانِ، فالافتِعالُ فيه للدَّلالةِ على الشِّدَّةِ، والأثيمُ: كثيرُ الإثمِ، وهو فَعيلٌ مِن أمثلةِ المُبالَغةِ[٢].

- على تَفسيرِ العُتُلِّ بالشَّديدِ الخِلقةِ والرَّحيبِ الجَوفِ، يكونُ وجْهُ ذِكرِه أنَّ قَباحةَ ذاتِه مُكمِّلةٌ لِمَعايبِه؛ لأنَّ العَيبَ المُشاهَدَ أجلَبُ إلى الاشمئزازِ، وأوغَلُ في النَّفرةِ مِن صاحِبِه[٣].

- ومَوقِعُ ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ مَوقعُ الجُملةِ المُعترِضةِ، والظَّرفُ خبَرٌ لمَحذوفٍ تَقديرُه: هو بعْدَ ذلك. ويجوزُ اتِّصالُ ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾ بقولِه: ﴿زَنِيمٍ﴾، على أنَّه حالٌ مِن ﴿زَنِيمٍ﴾[٤].

- وقيل: قولُه: ﴿بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾، أي: عِلاوةً على ما عُدِّدَ له مِن الأوصافِ هو سَيِّئُ الخِلقةِ، سَيِّئُ المُعامَلةِ، فالبَعديَّةُ هنا بَعديَّةٌ في الارتقاءِ في دَرَجاتِ التَّوصيفِ المذكورِ، فمُفادُها مُفادُ التَّراخي الرُّتبيِّ[٥].

- والزَّنيمُ: اللَّصيقُ، وهو مَن يكونُ دَعيًّا في قَومِه ليس مِن صَريحِ نَسَبِهم:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٧٣، ٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٧٤، ٧٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧١).

إمَّا بمَغمزٍ في نَسَبِه، وإمَّا بكونِه حليفًا في قومٍ أو مَولًى، وأيًّا ما كان المرادُ به فإنَّ المرادَ به خاصٌّ، فدُخولُه في المعطوفِ على ما أُضِيفَ إليه ﴿كُلَّ﴾ إنَّما هو على فرْضِ وُجودِ أمثالِ هذا الخاصِّ، وهو ضرْبٌ مِن الرَّمزِ، كما يُقالُ: ما بالُ أقوامٍ يَعمَلونَ كذا، ويُرادُ واحدٌ مُعيَّنٌ[1].

- قولُه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ في مَجيءِ هذه الصِّفاتِ مَسرودةً على نَمَطٍ عَجيبٍ خلَّابٍ فنُّ المُناسَبةِ؛ فجاء ﴿حَلَّافٍ﴾ وبعْدَه ﴿مَّهِينٍ﴾؛ لأنَّ النُّونَ فيها مع الميم تَراخٍ، ثمَّ جاء ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ﴾ بصِفتَيِ المُبالَغةِ، ثمَّ جاء ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾، وبعْدَ ما عَدَّ له مِن المَثالبِ والنَّقائصِ أتى بصِفتَينِ مِن أشدِّ مَعايِبِه، وقد جاءتِ البَعديَّةُ لتَدُلَّ على ذلك[2]. وذلك على قولٍ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ المرادُ: كلُّ مَن كان ذا مالٍ وبَنينَ مِن كُبراءِ المشركين، كقولِه تعالَى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ﴾ [المزمل: ١١]. وقيل: أُريدَ به الوليدُ بنُ المغيرةِ؛ إذ هو الَّذي اختلَقَ أنْ يقولَ في القرآنِ: أساطيرُ الأوَّلينَ. والوجهُ ألَّا يَختَصَّ هذا الوصْفُ به، وأنْ يكونَ تَعريضًا به[3].

- قولُه: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ استِئنافٌ جارٍ مَجْرَى التَّعليلِ للنَّهيِ، وقيلَ: مُتعلِّقٌ بما دلَّ عليهِ الجُملةُ الشَّرطيَّةُ مِن معْنى الجُحودِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٦).

والتَّكذيبِ لا بجَوابِ الشَّرطِ، كأنَّه قيلَ: لِكَونِه مُستظهِرًا بالمالِ والبنينَ كذَّبَ بآياتِنا، وفيه أنَّه يدُلُّ أنَّ مَدارَ تكذيبِه كونُه ذا مالٍ وبَنينَ، مِن غيرِ أنْ يكونَ لسائرِ قَبائِحِه دخْلٌ في ذلك[(١)].

- قولُه: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ خُتِمَت الأوصافُ المُحذَّرُ عن إطاعةِ أصحابِها بوصْفِ التَّكذيبِ؛ ليَرجِعَ إلى صِفةِ التَّكذيبِ الَّتي انتَقَلَ الأُسلوبُ منها مِن قولِه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[(٢)] [القلم: ٨].

٤- قولُه تعالَى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ جَوابًا لسُؤالٍ يَنشَأُ عن الصِّفاتِ الذَّميمةِ الَّتي وُصِفوا بها، أنْ يَسأَلَ السَّامعُ: ما جَزاءُ أصحابِ هذه الأوصافِ مِن اللهِ على ما أَتَوه مِن القبائحِ، والاجتراءِ على ربِّهم[(٣)]؟

- والوسْمُ: كِنايةٌ عن التَّمكُّنِ منه وتَمامِ الغَلَبةِ، وإظهارِ عَجْزِه عن المُقاوَمةِ، وذِكرُ الخُرطومِ والتَّعبيرُ به عن الأنفِ فيه جمْعٌ بيْن التَّشويهِ والإهانةِ؛ فإنَّ الوسْمَ يَقْتضي التَّمكُّنَ، وكَونُه في الوجْهِ إذلالٌ وإهانةٌ، وكونُه على الأنْفِ أشدُّ إذلالًا؛ لأنَّ الأنْفَ أبرزُ ما في الوجْهِ، وهو مَجرى النَّفَسِ، ولذلك غَلَبَ ذِكرُ الأنفِ في التَّعبيرِ عن إظهارِ العِزَّةِ في قولِهم: شَمَخَ بأنْفِه، وهو أشَمُّ الأنْفِ، وهم شُمُّ العَرانينِ، وعُبِّرَ عن ظُهورِ الذِّلَّةِ والاستكانةِ بكسْرِ الأنْفِ، وجَدْعِه، ووُقوعِه في التُّرابِ في قولِهم: رَغِمَ أنْفُه، وعلى رَغْمِ أنْفِه[(٤)]، وذلك

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٧، ٧٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٢).

على قولٍ في التَّفسير.

- قيل: هذا وَعيدٌ بتَشويهِ أنْفِه يومَ القيامةِ، مِثل قولِه: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وجُعِلَ تَشويهُه يومَئذٍ في أنْفِه؛ لأنَّه إنَّما بالَغَ في عَداوةِ الرَّسولِ والطَّعنِ في الدِّينِ بسَبَبِ الأنَفةِ والكِبرياءِ، وقد كان الأنْفُ مَظهَرَ الكِبرِ، فجُعِلَت شَوهَتُه في مَظهَرِ آثارِ كِبريائِه[1].

- وفي قولِه تعالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ إلى قولِه: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال في سُورةِ (المُطفِّفينَ): ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ * كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٠ - ١٦]، فانقَطَعَت الآيةُ الأُولى إلى الجَزاءِ في الدُّنيا -وذلك على قولٍ- والآيةُ الثَّانيةُ إلى الجزاءِ في الآخِرةِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ الموصوفَ في الآيةِ الأُولى مَوصوفٌ بجامعةٍ لخِصالِ الذَّمِّ، فاضحةٍ، وهي الحَلِفُ بالكذِبِ، والنَّميمةُ، والبُخلُ، والاعتداءُ؛ فلمَّا وَصَفَه بهذه الأشياءِ الظَّاهِرةِ القُبحِ، جَعَلَ في مُقابلتِها نَكالًا ظاهرًا يَبِينُ على الوجْهِ، فقال: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾، أي: نُشهِّرُه بعلامةٍ تُنبئُ عن قَبائحِه وفَضائحِه. وأمَّا الآيةُ الأخيرةُ في (المُطفِّفين) فإنَّ قبْلَها: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المطففين: ١١-١٣]، فأخبَرَ عنهم أنَّهم لا يُؤمِنونَ بالبَعثِ، وأنَّ الذُّنوبَ الَّتي قارَفوها غَلَبَت على قُلوبِهم، حتَّى كأنَّها تَنكَّرَت لها؛ فلمَّا لم يَنعَتْهم إلَّا بالكُفْرِ، أخبَرَ عن جَزائِهم في الآخِرةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٨).

فأتْبَعَ كُلًّا مِن المكانَينِ ما لاقَ به، وصَلَحَ في مُقابِلِه ما تَقدَّمَ عليه[١].

وفيه وجْهٌ آخَرُ: أنَّ آيَةَ (القلَمِ) نَزَلَتْ في شَخصٍ بعَينِه، قيل: هو الأخنسُ بنُ شَريقٍ، وقيل: الوليدُ بنُ المُغيرةِ، وكان مُظهِرًا لعَداوةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو القائلُ: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وكان مِن أكثَرِ قريشٍ مالًا وولَدًا، فلهذا قِيل فيه: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ [القلم: ١٤]؛ ففي هذا نَزَلَت الآيةُ مِن قولِه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [القلم: ١٠-١٢] إلى آخِرِها، فأغْنى استيفاءُ صِفاتِه المذمومةِ عن تَعيينِ اسمِه بقولِه سُبحانَه: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾، إخبارٌ منه تعالَى بأوَّلِ عِقابٍ يَنزِلُ بعدُوِّ اللهِ المذكورِ، فهذا وَعيدٌ لخاصٍّ مُعيَّنٍ أُنزِلَ به مُعجَّلًا، ولَعذابُ الآخِرةِ أكبَرُ. وأمَّا آيةُ (المُطفِّفينَ) فليستْ في مُعيَّنينَ بغيرِ مُرتكباتِهم؛ فقال تعالَى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، أي: إنَّ المانعَ لهم مِن فَهمِ الوحْيِ بأنَّه مُنزَّلٌ مِن عندِ اللهِ ما غطَّى قُلوبَهم مِن الرَّينِ، وهو ما يَغشى القلبَ، ويَمنَعُه مِن الوصولِ إلى ما يَنفَعُه، وأعاد الضَّميرَ في ﴿قُلُوبِهِم﴾ على المعْنى مِن حيثُ إنَّ المرادَ هنا جَميعُ مَن وَقَعَ عليهم (كلّ)، بخِلافِ آيةِ (القلَمِ)؛ فإنَّ (كلّ) فيها واقعةٌ على مُفرَدٍ، وعُبِّرَ بـ (كلّ) ليَعُمَّ المقصودُ بذلك المرادَ، ومَن كان على صِفتِه إبلاغًا في ذَمِّه، والضَّميرُ في ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ لمُفرَدٍ، ولَفظُ (كلّ) مُطابِقٌ بمعناه[٢].



(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٩٠-١٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٨٠، ٤٨١).

الآيات (١٧-٢٢)

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَلَوْنَٰهُمْ﴾: أي: امتَحَنَّاهم واختَبَرْناهم، والبلاءُ: الاختبارُ والامتحانُ، وأصلُ (بلو) هنا: نوعٌ مِن الاختبارِ[1].

﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾: أي: لَيَجتَنُونَها، ويَقطَعونَ ثَمَرَها، وأصلُ (صرم): يدُلُّ على قَطعٍ[2].

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾: أي: ولا يَقولونَ: إن شاء اللهُ. يُقالُ: حلَفَ فُلانٌ يمينًا ليس فيها ثُنْيا ولا ثَنْوَى ولا ثَنِيَّةٌ ولا مَثْنَوِيَّةٌ ولا استِثناءٌ، كلُّه واحدٌ، وأصلُ هذا كلِّه مِن الثَّنْيِ، وهو الكفُّ والرَّدُّ؛ وذلك أنَّ الحالِفَ إذا قال: واللهِ لَأفعَلَنَّ كذا إلَّا أن يَشاءَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣٧).

قال الراغب: (يُقالُ: بَلِيَ الثَّوبُ بِلًى وبَلاءً، أي: خَلَقَ، ومنه قيل لِمَن سافَر: بِلْوُ سَفَرٍ وبِلْيُ سفرٍ، أي: أبلاه السَّفرُ، وبَلَوْتُه: اختَبَرْتُه، كأنِّي أخلَقْتُه مِن كثرةِ اختباري له). ((المفردات)) (ص: ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٠).

اللهُ غَيْرَه، فقد ردَّ ما قاله بمشيئةِ الله غيرَه[١].

﴿طَآئِفٌ﴾: أي نارٌ أو عَذابٌ، وأصلُ (طوف): يدُلُّ على دَوَرانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، وإحاطتِه به[٢].

﴿كَٱلصَّرِيمِ﴾: أي: كاللَّيلِ المُظلِمِ البَهيم، أو كالمَصرومةِ المقطوعةِ لهلاكِ ثَمَرِها. وكُلُّ شَيءٍ قُطِعَ فهو صَريمٌ، وأصلُ (صرم): يدُلُّ على قَطعٍ[٣].

﴿ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾: أي: أقبِلُوا على ثِمارِكم وزُروعِكم باكِرينَ، أو: اخرُجوا غُدوةً، يقالُ: غَدا يَغْدو غُدُوًّا، والغُدُوُّ: سيرُ أوَّلِ النَّهارِ، وأصلُ (غدو): يدُلُّ على زمانٍ، وأصلُ (حرث) هنا: يدُلُّ على الجمعِ والكسبِ[٤].

﴿صَٰرِمِينَ﴾: أي: حاصِدينَ زَرْعَكم أو عازِمينَ، وأصلُ (صرم): يدُلُّ على قَطعٍ[٥].

﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾: أي: يَتهامَسونَ بيْنَهم، ويُسِرُّ بَعضُهم إلى بعضٍ، وأصلُ (خفت):

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧١)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ١٠٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٤، ٣٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩) و(٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٩٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٠)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٨)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٤).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٧).

يدُلُّ على إسرارٍ وكِتمانٍ[(١)].

﴿حَرْدٍ﴾: الحَرْدُ: المَنعُ مِن حِدَّةٍ وغَضَبٍ، ويُطلَقُ الحرْدُ على القَصدِ والغَضَبِ والمَنْعِ[(٢)].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى ضاربًا المثَلَ للمشركينَ بقصَّةِ أصحابِ الجنَّة: إنَّا امتَحَنَّا أهلَ مكَّةَ كما امتحَنَّا أصحابَ البُستانِ حينَ حَلَفوا فيما بيْنَهم على قَطْعِ ثمارِ بُستانِهم أوَّلَ النَّهارِ قبْلَ مَجيءِ المساكينِ إليه؛ لِيَحرِموا المساكينَ مِن ثمارِ بُستانِهم، ولم يَسْتَثْنوا في قَسَمِهم بقَولِهم: إنْ شاء اللهُ. فنَزَل على بُستانِهم ليلًا وهم نائمونَ عَذابٌ مِن رَبِّك -يا مُحمَّدُ- فأهلَكَه وأباده، فصار مُحترقًا، أسْوَدَ كسَوادِ اللَّيلِ المُظلِمِ!

فنادى أصحابُ البُستانِ بَعضُهم بَعضًا في أوَّلِ الصَّباحِ؛ لِيَذهَبوا لقَطعِ ثَمَرِهم: بَكِّروا في الخُروجِ إلى بُستانِكم إنْ كُنتُم اليومَ عازِمينَ على قَطعِ ثَمَرِه قبْلَ مَجيءِ المساكينِ إليه! فانطَلَقوا إلى بُستانِهم وهم يُسِرُّونَ الحديثَ فيما بيْنَهم: لا يَدخُلَنَّ اليومَ بُستانَكم أحدٌ مِن المساكينِ. وخَرَجوا في أوَّلِ الصَّباحِ قاصِدينَ في غَضَبٍ مَنْعَ المساكينِ مِن ثمارِهم، قادِرينَ على ما عَزَموا عليه مِن قَطْعِ الثِّمارِ ومَنْعِ المساكينِ، فلمَّا رأَوا بُستانَهم أنكَروا أن يكونَ هو! وقال

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٠، ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٩٦).

بعضُهم لبَعضٍ: إنَّا قد ضلَلْنا الطَّريقَ إلى بُستانِنا! وقالوا: لا، لم نَضِلَّ الطَّريقَ، بل حُرِمْنا مِن ثَمَرِه!

قال أعدَلُهم وأعقَلُهم: ألَمْ أقُلْ لكم ناصِحًا: هلا نزَّهتُم اللهَ عن السُّوءِ بقَولِكم: سُبْحانَ اللهِ؟! فقالوا مُعترِفينَ بخَطَئِهم: نُنَزِّهُ ربَّنا عن أن يكونَ ظالِمًا فيما فَعَل ببُسْتانِنا، بل كنَّا نحن الظَّالِمينَ. فأقْبَلَ بَعضُهم على بَعضٍ لائِمينَ أنفُسَهم، قالوا: يا حَسْرَتَنا وهَلاكَنا، إنَّا قد تجاوَزْنا حدودَ اللهِ تعالى، نَرجو مِن ربِّنا بَعْدَ أن تُبْنا إليه أن يُعوِّضَنا خيرًا مِن بُستانِنا الَّذي هلَك، إنَّا إلى رَبِّنا وَحْدَه راغِبونَ وراجُونَ.

ثمَّ يختِمُ اللهُ تعالى قصَّتَهم بقولِه: مِثلَ هذا العذابِ الدُّنيويِّ الَّذي حَلَّ بأصحابِ البُستانِ يُعَذِّبُ اللهُ تعالى أيضًا كُلَّ مَن خالَفَ أمْرَه، فبَخِلَ بما أنعَمَ به عليه، ومَنَع المحتاجينَ، ولَعَذابُ اللهِ في الآخِرةِ لِمَن يَستَحِقُّه أكبَرُ مِن عذابِ الدُّنيا لو كان الكُفَّارُ يَعلَمونَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا قال: مِن أجْلِ أنْ كان ذا مالٍ وبَنِينَ جَحَد وكفَرَ وعَصى وتمرَّدَ؟! وكان هذا استِفهامًا على سَبيلِ الإنكارِ -على قولٍ-؛ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّه تعالَى إنَّما أعطاهُ المالَ والبَنينَ على سَبيلِ الابتلاءِ والامتحانِ، وليَصرِفَه إلى طاعةِ اللهِ، وليُواظِبَ على شُكرِ نِعَمِ اللهِ، فإنْ لم يَفعَلْ ذلك فإنَّه تعالَى يَقطَعُ عنه تلك النِّعَمَ، ويَصُبُّ عليه أنواعَ البلاءِ والآفاتِ، فقال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾، أي: كلَّفْنا هؤلاء أنْ يَشكُروا على النِّعَمِ، كما كلَّفْنا أصحابَ الجنَّةِ ذاتِ

الثِّمارِ أنْ يَشكُروا ويُعطُوا الفُقراءَ حُقوقَهم[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ سُبحانه المتَّصِفينَ بتِلك الأوصافِ الذَّميمةِ -وهم كُفَّارُ قُريشٍ- أخبَرَ تعالَى بما حلَّ بهم مِن الابتلاءِ بالقحْطِ والجُوعِ بدَعوةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((اللَّهُمَّ اشدُدْ وَطْأَتَك على مُضَرَ، واجْعَلَها عليهم سِنينَ كَسِنِي يُوسفَ))[٢].

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾.

أي: إنَّا امتحَنَّا أهلَ مَكَّةَ كما امتحَنَّا أصحابَ البُستانِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤١).

والحديث أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٨٠٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٦٧٥) من حديث أبي هريرةَ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٦، ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٩).

قيل: المرادُ أنَّ اللهَ تعالى أنعَمَ على أهلِ مكَّةَ كما أنعَمَ على أصحابِ الجنَّةِ بجَنَّتِهم، ثمَّ اختَلَفوا في النِّعَمِ الَّتي أُعطِيَها أهلُ مكَّةَ؛ فقيل: هي نُبُوَّةُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جُزَي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٥).

وقيل: هي الأموالُ. والمعنى: أعطَيْناهم أموالًا لِيَشكُروا لا لِيَبطَروا، فلمَّا بَطِروا وعادَوا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ابتَلَيْناهم بالجُوعِ والقَحْطِ كما بَلَونا أهلَ الجنَّةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: القرطبيُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٣).

وقال السعدي: (يقولُ تعالى: إنَّا بَلَونا هؤلاء المكَذِّبينَ بالخَيرِ وأمهَلْناهم، وأمدَدْناهم بما شِئْنا مِن مالٍ ووَلَدٍ، وطولِ عُمُرٍ، ونحوِ ذلك ممَّا يُوافِقُ أهواءَهم، لا لكرامتِهم علينا، بل رُبَّما يكونُ استدراجًا لهم مِن حيثُ لا يَشعُرونَ؛ فاغتِرارُهم بذلك نظيرُ اغتِرارِ أصحابِ الجنَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ * فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٢ - ١١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠ - ١٧].

﴿إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾.

= وذكَر ابنُ عاشور أنَّ البلوى هنا بالخيرِ، وأنَّ اللهَ أمدَّ أهلَ مكَّةَ بنعمةِ الأمنِ، والرِّزقِ الذي يأتيهم مِن كلِّ جهةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٩). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٦، ٣٠٧).

وقيل: المرادُ: إنَّا ابتَلَيْنا أهلَ مكَّةَ بالجُوعِ كما ابتَلَيْنا أصحابَ الجنَّةِ حينَ هلكَت جَنَّتُهم. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والزمخشريُّ، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن حيان)) (١٠/ ٢٤١).

قال ابنُ عطية: (قال كثيرٌ مِن المفسِّرينَ: السِّنُونَ السَّبْعُ التي أصابت قُرَيشًا هي بمثابةِ ما أصاب أولئك في جنَّتِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٩).

وقال البقاعي: (﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ عرَّفَها؛ لأنَّها كانت شهيرةً عِندَهم... كان صاحِبُه يُنادي الفُقَراءَ وقْتَ الصِّرامِ، ويَترُكُ لهم ما أخطأَ المِنجَلَ [ما يُحْصَدُ به]، أو ألقَتْه الرِّيحُ، أو بَعُدَ عن البِساطِ الَّذي يُبسَطُ تحت النَّخلةِ، فلمَّا مات شَحَّ بنوه بذلك، فحَلَفوا على أن يَجُذُّوها قبْلَ الشَّمسِ؛ حتَّى لا يأتيَ الفُقَراءُ إلَّا بعْدَ فَراغِهم!). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٠٧).

أي: حينَ حَلَفَ أصحابُ البُستانِ فيما بيْنَهم على جَذِّ ثِمارِ بُستانِهم في أوَّلِ الصَّباحِ قبْلَ مَجيءِ المساكينِ إليه؛ لئلَّا يَعلَموا بهم، فتتوفَّرَ ثمارُه عليهم بالكامِلِ، ولا يتصَدَّقوا منه بشَيءٍ[(١)]!

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ١٨﴾.

أي: ولم يَسْتَثْنِ أصحابُ الجَنَّةِ في قَسَمِهم، ولم يَقولوا: إنْ شاء اللهُ[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٠، ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

قال الماوَرْدي: (﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: لا يَستَثنونَ حقَّ المساكينِ. قاله عِكْرِمةُ. الثَّاني: استثناؤُهم: قَولُ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾. قاله أبو صالحٍ. الثَّالثُ: قَولُ: إن شاء اللهُ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦٧).

وممَّن نَصَّ على أنَّ المرادَ أنَّهم لم يقولوا: إنْ شاء اللهُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ، ونسَبَه الرَّازيُّ إلى الأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٠)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٧).

قال الرَّسْعَني: (وقال جمهورُ المفسِّرينَ واللُّغَويِّينَ: لا يَقولون: إن شاء اللهُ. وسُمِّيَ استثناءً؛ لأنَّه يؤدِّي مؤدَّى الاستثناءِ، مِن حيث إنَّ قولَك: لَأخرجَنَّ إن شاء الله، في معنى: لا أخرجُ إلَّا أن يشاءَ اللهُ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٣١).

وقال البِقاعي: (والحالُ أنَّهم لا ﴿يَسْتَثْنُونَ﴾، أي: لا يَطلُبونَ ولا يُوجِدونَ ثُنْيَا -أي: عَودًا- إلى ما قبْلَ اليَمينِ بقَولِهم: «إنْ شاء اللهُ» أو غيرَ ذلك مِن الألفاظِ المُوجِبةِ لأنْ يكونَ شَيءٌ مِن جَنَّتِهم مُطلَقًا غيرَ ممنوعٍ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٠٨).

وممَّن قال بأنَّهم لا يَستَثْنُونَ مِن الثَّمَرةِ شَيئًا للمَساكينِ، أي: أقسَموا لَيَصرِمُنَّ جميعَ الثَّمَرِ، ولا يَترُكونَ منه شيئًا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٤).

قال ابن عطية: (قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ ولا يَتوقَّفونَ في ذلك، أو ولا يَنثَنونَ عن رأيِ مَنْعِ المساكينِ. وقال مجاهدٌ: معناه: لا يَقولونَ: إن شاء اللهُ، بل عَزَموا على ذلك عَزْمَ مَن يَملِكُ =

﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ١٩﴾.

أي: فوَقَع على بُستانِهم ليلًا عَذابٌ مِن رَبِّك -يا مُحمَّدُ- فأهلَكَه وأباده ودَمَّرَه كلَّه، وأصحابُه نائِمونَ، وعمَّا أصابه غافِلونَ[1]!

﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ ٢٠﴾.

أي: فصار ذلك البُستانُ مُحترِقًا، أسْوَدَ كسَوادِ اللَّيلِ المظلِمِ[2]!

= أمْرَه!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٨، ٣٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

ممَّن قال: المرادُ بالطَّائفِ: العذابُ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، والبغوي، والرازي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

قيل: كان نارًا أحرَقتِ الجنَّةَ، وممن نصَّ على ذلك: الواحديُّ، والسمعانيُّ، والبغويُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣٨).

قال القرطبي: (قيل: الطَّائفُ جبريلُ عليه السَّلامُ...، وقال ابنُ عبَّاسٍ: أمرٌ مِن رَبِّك. وقال قتادةُ: عذابٌ مِن رَبِّك. [وقال] ابنُ جُرَيجٍ: عُنُقٌ مِن نارٍ خَرَج من وادي جهنَّمَ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤١).

وقال ابنُ عاشور: (لم يُعَيِّنْ جنسَ الطَّائِفِ؛ لظُهورِ أنَّه من جِنسِ ما يُصيبُ الجنَّاتِ مِن الهلاكِ، ولا يتعلَّقُ غَرَضٌ بتَعيينِ نَوعِه؛ لأنَّ العِبرةَ في الحاصِلِ به). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨١).

وقال ابن كثير: (أصابَتْها آفةٌ سماويَّةٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦).

وقال الفرَّاءُ، وابنُ جرير: الطَّائِفُ لا يكونُ إلَّا باللَّيلِ، ولا يكونُ نَهارًا. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨١).

قال ابن جُزَي: (﴿فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾ فيه أربعةُ أقوالٍ: =

= الأوَّل: أصبحتْ كاللَّيلِ؛ لأنَّها اسوَدَّتْ لِما أصابها، والصَّريمُ في اللُّغةِ اللَّيلُ.
الثَّاني: أصبحتْ كالنَّهارِ؛ لأنَّها ابيضَّتْ كالحَصيدِ، ويُقالُ: «صَريمٌ» لِلَّيلِ والنَّهارِ.
الثَّالثُ: أنَّ الصَّريمَ: الرَّمادُ الأسْوَدُ بلُغةِ بعضِ العربِ.
الرَّابعُ: أصبحت كالمَصرومةِ، أي: المقطوعةِ. ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٠). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦٧، ٦٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٣).
وممَّن ذهب إلى القَولِ الأوَّلِ -أي: أنَّها أصبحتْ كاللَّيلِ سَوْداءَ-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبةَ، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٦)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٧٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٩)، ((معاني القرآن)) للزَّجَّاج (٥/ ٢٠٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٥١).
قيل: سُمِّيَ اللَّيلُ صَريمًا؛ لأنَّه يَقطَعُ بظُلمتِه عن التَّصرُّفِ، وعلى هذا هو فَعيلٌ بمعنى فاعِلٍ. وقيل: سُمِّيَتِ اللَّيلةُ بالصَّريمِ؛ لأنَّها تَصرِمُ نورَ البصرِ وتَقطَعُه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٨).

وممَّن قال في الجُملةِ بالقَولِ الرَّابعِ -أي: أنَّها صارت كالمَصرومةِ، أي المقطوعةِ المَجذوذةِ، قد ذهَبَ ما فيها مِن الثَّمَرِ، فكأنَّه قد قُطِع لهَلاكِه-: ابنُ أبي زَمَنِين، والزمخشريُّ، والبِقاعي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٤). ويُنظر أيضًا: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٧).
وممَّن قال بنحوِ ذلك مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ، والثَّوريُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦).
وقال القرطبيُّ بعدَ أنْ ذكَر أنَّه يُقالُ أيضًا للنَّهارِ: صَرِيمٌ: (إنْ كان أراد بالصَّريمِ النَّهارَ فلِذَهابِ الشَّجرِ والزَّرعِ ونقاءِ الأرضِ منه. وكان الطَّائفُ الَّذي طاف عليها جبريلُ عليه السَّلامُ =

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: فنادى أصحابُ الجنَّةِ بَعضُهم بَعضًا في أوَّلِ الصَّباحِ؛ لِيَذهَبوا لجَذاذِ ثَمرِهم[١].

﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: قالوا: بَكِّروا في الخُروجِ إلى بُستانِكم إنْ كُنتُم اليومَ عازِمينَ على قَطعِ ثَمَرِه قبْلَ مَجيءِ المساكينِ إليه[٢]!

﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: فانطَلَق أصحابُ البُستانِ إلى بُستانِهم وهم يَتناجَونَ فيما بَيْنَهم بحيثُ لا يَسمَعُ حَديثَهم أحدٌ[٣].

﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾.

= فاقتَلَعها). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٩).

وقال ابن قُتَيبَةَ: (يُقالُ للصُّبحِ: صَريمٌ، ولِلَّيلِ: صَريمٌ...؛ لأنَّ اللَّيلَ يَنصَرِمُ عن النَّهارِ، والنَّهارَ يَنصرِمُ عن اللَّيلِ). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ١١٩).

قال الرَّازيُّ: (وعلى هذا الصَّريمُ بمعنى الصَّارِمِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٩، ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

أي: قال بَعضُهم لبَعضٍ سِرًّا: لا يَدخُلَنَّ بُستانَكم أحدٌ مِن المساكينِ في هذا اليَومِ[(١)]!

﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: وخَرَجوا في أوَّلِ الصَّباحِ وهم قاصِدونَ بإرادةٍ جازِمةٍ وغَضَبٍ وحِدَّةٍ مَنْعَ المساكينِ مِن ثمارِهم، وقادِرونَ على ما عَزَموا عليه مِن قَطْعِ الثِّمارِ، ومَنْعِ المساكينِ[(٢)].

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: فلمَّا رأى أصحابُ البُستانِ بُستانَهم أنكَروا أن يكونَ هو! وقال بعضُهم لبَعضٍ: إنَّا قد ضلَلْنا وأخطَأْنا الطَّريقَ إلى بُستانِنا[(٣)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٧، ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٣-١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٤، ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٥٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ للضَّلالِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن كثير، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقال ابنُ عاشور: (معنى ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أنَّهم عَلِموا أنَّهم كانوا في ضَلالٍ، أي: عن طريقِ الشُّكرِ، أي: كانوا غيرَ مُهتَدينَ...، ويحتَمِلُ أن يكونَ الضَّلالُ حقيقيًّا، أي: ضلالُ طريقِ الجنَّةِ، أي: قالوا: إنَّا أخطَأْنا الطَّريقَ في السَّيرِ إلى جنَّتِنا؛ لأنَّهم توَهَّموا أنَّهم شاهَدوا جنَّةً أُخرى غيرَ جَنَّتِهم الَّتي عَهِدوها، قالوا ذلك تحيُّرًا في أمرِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٥، ٨٦).

﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٢٧﴾.

أي: قالوا: كلَّا، لم نَضِلَّ الطَّريقَ إليه، وإنَّما حقيقةُ الأمرِ أنَّنا حُرِمْنا الانتِفاعَ به، فلا حظَّ لنا في شَيءٍ مِن ثماره[(١)]!

﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ ٢٨﴾.

أي: قال أعدَلُهم وأعقَلُهم وأفضَلُهم: ألم أقُلْ لكم ناصِحًا: هلا نزَّهتُم اللهَ عن السُّوءِ بقَولِكم: سبحانَ اللهِ[(٢)]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٩، ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٠-١٨٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٥، ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٦).

قال الثعلبي: (﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ﴾ أعدلُهم وأعقلُهم وأفضلُهم). ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٧).

قيل: المعنى: أنَّه أمَرَهم مِن قَبْلُ بذِكرِ اللهِ وتَنزيهِه عن السُّوءِ. وممَّن استظهر هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جُزَي، وذهب إليه أبو حيَّان، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٦).

قال أبو حيان: (أنَّبهم ووبَّخهم على تَرْكِهم ما حَضَّهم عليه مِن تسبيحِ اللهِ، أي: ذِكْرِه وتنزيهِه عن السُّوءِ، ولو ذكَروا اللهَ وإحسانَه إليهم لَامتَثَلوا ما أَمَر به مِن مُواساةِ المساكينِ، واقتَفَوا سُنَّةَ أبيهم في ذلك. فلمَّا غَفَلوا عن ذِكرِ اللهِ تعالى وعَزَموا على مَنعِ المساكينِ، ابتلاهم اللهُ، وهذا يدُلُّ على أنَّ أوسَطَهم كان قد تقَدَّمَ إليهم وحرَّضَهم على ذِكرِ اللهِ تعالى). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٣).

وقال ابن عاشور: (المرادُ بـ﴿تُسَبِّحُونَ﴾ تنزيهُ اللهِ عن أن يُعصى أمرُه في شأنِ إعطاءِ زكاةِ ثمارِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٦).

وقيل: المرادُ: هلَّا قُلْتُم: إنْ شاء اللهُ، فأنكر عليهم تَرْكَ الاستِثناءِ في قَولِه: ﴿أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ * وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ﴾، فسَمَّى الاستثناءَ تَسبيحًا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والسعدي، ونسَبَه ابنُ الجوزيِّ إلى =

﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أنَّبهم، رَجَعوا إلى ذِكرِ اللهِ تَعالى، واعتَرَفوا على أنفُسِهم بالظُّلمِ، وبادَروا إلى تَسبيحِ اللهِ تعالَى[1].

﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

أي: قالوا مُعترِفينَ بخَطَئِهم: نُنَزِّهُ ربَّنا عن أن يَكونَ ظالِمًا فيما فَعَل ببُسْتانِنا، وإنَّما نحن الَّذين وقَعْنا في الظُّلمِ فجَنَيْنا على أنفُسِنا[2]!

= الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وأبو صالحٍ، والسُّدِّيُّ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٢)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦).

قيل: سُمِّيَ الاستثناءُ تسبيحًا؛ لأنَّه تعظيمٌ لله، وإقرارٌ بأنَّه لا يَقدِرُ أحدٌ أن يَفعلَ شيئًا إلَّا بمشيئةِ الله تعالى، وكلُّ تعظيمٍ لله فهو تسبيحٌ له. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٨).

قال الشوكاني: (وهذا يدُلُّ على أنَّ أوْسَطَهم كان أمَرَهم بالاستثناءِ فلم يُطيعوه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٥).

وقال البِقاعي: (لَمَّا كان منْعُ الخَيرِ -ولا سيَّما في مِثلِ هذا- مُستلزِمًا لظنِّ النَّقصِ في اللهِ تعالى: إمَّا بأنَّه سُبحانَه لا يُخلِفُ ما حصَل التَّصدُّقُ به، وإمَّا أنَّه لا يَقدِرُ على إهلاكِ ما شحَّ الإنسانُ به؛ قال مُستأنِفًا: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هَلَّا ولِمَ لا ﴿تُسَبِّحُونَ﴾ أي: تُوقِعونَ التَّنزيهَ لله سُبحانَه وتعالى عمَّا أوهَمَه فِعلُكم، وأقَلُّ التَّسبيحِ الاستِثْناءُ عندَ الإقسامِ شكًّا في قُدرةِ الإنسانِ، وإثباتًا لقدرةِ الملِكِ الدَّيَّانِ؛ استِحضارًا لعَظَمَتِه سُبحانَه وتعالى). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣١٢).

وقال الشوكاني: (قيل: المعنَى: هَلَّا تَستَغفِرونَ اللهَ مِن فِعْلِكم، وتَتوبونَ إليه مِن هذه النِّيَّةِ الَّتي عَزَمْتُم عليها). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير =

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ٣٠﴾.

أي: فأقبَلَ بَعضُهم على بَعضٍ لائِمينَ أنفُسَهم على ما وَقَع منهم مِن ظُلمٍ[1]!

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ٣١﴾.

أي: قالوا: يا حَسْرَتَنا وهَلاكَنا، إنَّا قد اعتَدَيْنا وبَغَيْنا وتَجاوَزْنا حدودَ اللهِ تعالى حتَّى أصابَنا ما أصابَنا[2].

﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ٣٢﴾.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾.

أي: نَرجو مِن ربِّنا بَعْدَ أن تُبْنا إليه أن يُعوِّضَنا خيرًا مِن بُستانِنا الَّذي هلَك[3].

= القرطبي)) (١٨/ ٢٤٤، ٢٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٧).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: قال أصحابُ الجنَّةِ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ في تَرْكِنا الاستثناءَ في قَسَمِنا، وعَزْمِنا على تَركِ إطعامِ المساكينِ مِن ثَمَرِ جَنَّتِنا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٣).

قال ابنُ عاشور: (﴿يَتَلَاوَمُونَ﴾: أيْ: يَلومُ بعضُهم بعضًا... واللَّوْمُ: إنكارٌ مُتَوسِّطٌ على فِعلٍ أوْ قولٍ، وهو دونَ التَّوبيخِ، وفوقَ العِتابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٣، ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٨).

قال البقاعي: (أي: هذا وَقتُ حُضورك -أيُّها الوَيلُ- إيَّانا، ومُنادَمَتك لنا؛ فإنَّه لا نديمَ لنا إلَّا أنت، والوَيلُ هو الهَلاكُ والإشرافُ عليه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٤، ٣١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾.

أي: إنَّا إلى رَبِّنا وَحْدَه راغِبونَ وراجُونَ؛ فلذا نَطمَعُ أن يُبْدِلَنا خيرًا مِن بُستانِنا[١].

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾.

أي: مِثلَ هذا العذابِ الدُّنيويِّ الَّذي حَلَّ بأصحابِ البُستانِ يُعَذِّبُ اللهُ تعالى أيضًا كُلَّ مَن خالَفَ أمْرَه، فبَخِلَ بما أنعَمَ به عليه ومَنَع المحتاجينَ، فبَدَّلَ نِعمةَ اللهِ كُفرًا، وطغى وبغى وآثَرَ الحياةَ الدُّنيا؛ فإنَّ اللهَ تعالى يَسلُبُه نِعمتَه ويُزيلُها عنه[٢].

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولَعَذابُ اللهِ في الآخِرةِ لِمَن يَستَحِقُّه أكبَرُ مِن عذابِ الدُّنيا، فلو كان الكُفَّارُ يَعلَمونَ ذلك لَتابُوا، وانتَهَوا عن كُلِّ سَبَبٍ يُوجِبُ عَذابَهم، ولكِنَّهم لا يَعلَمونَ[٣]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٧).

قال الشوكاني: (﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ أي: طالِبونَ منه الخيرَ، راجُون لِعَفوِه، راجِعونَ إليه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٦).

وقال أبو السعود: (﴿إِلَىٰ﴾ لانتِهاءِ الرَّغبةِ، أو لِتَضَمُّنِها معنى الرُّجوعِ). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٣، ١٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٠).

قال الواحدي: (تمَّت قِصَّةُ أصحابِ الجنَّةِ، ثمَّ قال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ إلى آخرِ السِّياقِ: بيانُ حالِ البُخَلاءِ وما يُعاقَبونَ به في الدُّنيا قبْلَ الآخرةِ من تَلَفِ الأموالِ؛ إمَّا إغراقًا وإمَّا إحراقًا، وإمَّا نهبًا وإمَّا مصادَرةً، وإمَّا في شَهواتِ الغَيِّ، وإمَّا في غيرِ ذلك ممَّا يُعاقَبُ به البُخلاءُ الَّذين يَمنعونَ الحَقَّ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ عِظَةٌ شديدةٌ، وتنبيهٌ لِمَن يُرسِلُ كلامَه ولا يُقَيِّدُه بالاستِثناءِ الَّذي هو سَبَبُ النَّجاحِ والظَّفَرِ بالحاجةِ، ومُخْرِجٌ مِن المآثِمِ، ومُؤَمِّنٌ دَرَكَ العُقوبةِ، وقد عَلَّمَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأدَّبَه ألَّا يَقولَ لِفعلِ شَيءٍ: هو فاعِلُه، إلَّا مَقرونًا بالاستِثناءِ[٢]. فالآيةُ فيها حَثٌّ على الاستثناءِ في اليَمينِ، وذَمُّ تَرْكِه، وأنَّ تَرْكَه سبَبٌ للحِنْثِ[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ عَجَّلَ العِقابَ لهم قبْلَ التَّلَبُّسِ بمَنعِ الصَّدَقةِ؛ لأنَّ عَزْمَهم على المَنعِ، وتقاسُمَهم عليه حَقَّقَ أنَّهم مانِعونَ صَدَقاتِهم، فكانوا مانِعينَ. ويُؤخَذُ مِن الآيةِ مَوعِظةٌ للَّذين لا يُواسُونَ بأموالِهم[٤].

٤- قال الله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ أرسَلَ

= المُشرِكينَ). ((التفسير الوسيط)) (٤/ ٣٣٨).

وقال ابنُ عطية: (﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ ابتداءُ مُخاطَبةٍ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في أمرِ قُريشٍ، والإشارةُ بذلك إلى العَذابِ الَّذي نَزَل بالجنَّةِ، أي: ذلك العذابُ هو العذابُ الَّذي يَنزِلُ بقُرَيشٍ بَغتةً، ثمَّ عَذابُ الآخرةِ بَعْدَ ذلك أشَدُّ عليهم من عذابِ الدُّنيا!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥١).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٢).

اللهُ على جنَّتِهم طائِفًا وهم نائِمونَ، فأصبَحَت كالصَّريمِ؛ عُقوبةً على احتيالِهم لِمَنعِ الحَقِّ الَّذي كان للمَساكينِ في أموالِهم، فكان في ذلك عِبرةٌ لكُلِّ مَن احتالَ لِمَنعِ حقٍّ لله أو لعِبادِه؛ مِن زكاةٍ أو شُفعةٍ[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ لَمَّا كان هذا مَقْتًا في الصُّورةِ أخبَرَ بأنَّه لُطفٌ وتربيةٌ في المعنى بقَولِه: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: المعروفِ بالعَظَمةِ الَّتي لا تُحَدُّ، وبالإحسانِ إليك؛ فهو جديرٌ بأن يؤدِّبَ قومَك؛ ليَقبَلوا منك، كما أدَّبَ أصحابَ الجنَّةِ بما أوجَبَ توبتَهم، وهو الحَقيقُ بتربيةِ العِبادِ ليَعقِلوا عنك، ويكونوا خليقينَ بالتَّجنُّبِ للدُّنيا، والإقبالِ على المعالي[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ الشَّيءَ المُتَقرَّبَ به إلى اللهِ -فرضًا كان أو ندبًا- إذا فُرِّطَ فيه: تُلوفي؛ فنفَعَ، إذْ تسبيحُ القومِ بعدَ وقتِه -الَّذي كان موضِعُه- نَفَعَهم تَدارُكُه[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ المذنِبَ الظَّالِمَ لنَفْسِه مُحتاجٌ مع ربِّه إلى الاعترافِ بذَنْبِه وسوءِ صَنيعِه بلِسانِه، وإنْ كان نادِمًا عليه بقَلْبِه، وكذا كان نبيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ في دُعاءِ الاستِفتاحِ: ((ظَلَمْتُ نفْسي، واعترَفْتُ بذَنْبي))[٤] فكان هذا الاعترافُ مِن تمامِ التَّوبةِ، وتحقيقِ الاستكانةِ والتَّواضُعِ[٥].

٨- قال تعالى: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ تَضمَّنَ جوابُهم إقرارًا بأنَّ

---

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٨٣).

(٤) أخرجه مسلم (٧٧١) مطوَّلًا من حديث عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ الله عنه.

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٨٣).

أوسَطَهم وعَظَهم فعَصَوه، ودلُّوا على ذلك بالتَّسبيحِ حِين نَدَمِهم على عدَمِ الأخْذِ بنَصيحتِه فقالوا: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ أرادوا إجابةَ تَقريرِه بإقرارٍ بتَسبيحِ اللهِ عن أنْ يُعصى أمْرُه في إعطاءِ حقِّ المساكينِ؛ فإنَّ مِن أُصولِ التَّوبةِ تَدارُكَ ما يُمكِنُ تَدارُكُه، واعترافُهم بظُلمِ المساكينِ مِن أُصولِ التَّوبةِ؛ لأنَّ التَّسبيحَ مُقدِّمةُ الاستغفارِ مِن الذَّنْبِ؛ قال تعالَى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾[1] [النصر: ٣].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ * وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ * فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ * فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ مَن نَقَص مِن النِّصابِ قبْلَ الحَولِ قَصْدَ الفِرارِ مِن الزَّكاة، أو خالَطَ غيرَه، أو فارَقَه بعْدَ الخُلْطةِ؛ فإنَّ ذلك لا يُسقِطُ الزَّكاةَ عنه[2]، خِلافًا للشَّافِعيِّ. ووَجْهُ الاستدلالِ بالآيةِ أنَّهم قَصَدوا بقَطعِ الثِّمارِ إسقاطَ حَقِّ المساكينِ، فعاقَبَهم اللهُ سُبحانه وتعالى بإتلافِ ثمارِهم[3].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ دلَّ القُرآنُ على أنَّ المقاصِدَ والنِّيَّاتِ مُعتبَرةٌ في التَّصَرُّفِ والعاداتِ، كما هي مُعتبَرةٌ في القُرُباتِ والعِباداتِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٦، ٨٧).

(٢) وهذا مذهَبُ المالكيَّةِ والحنابلة. يُنظر: ((الشرح الكبير)) للدردير و((حاشية الدسوقي)) (١/ ٤٣٧)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٢/ ١٧٩).

وذهب الحنفيَّةُ والشَّافعيَّةُ إلى أنَّ المالكَ إنْ فعَلَ ما تَسقُطُ به الزَّكاةُ عنه -ولو بنيَّةِ الفِرارِ منها- سقطَتْ. يُنظر: ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٢/ ١٥)، ((فتح القدير)) لابن الهُمَام (٢/ ١٦٢)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٢/ ١٩٠)، ((مغني المحتاج)) للشربيني (١/ ٣٧٩)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٣/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥٩٢).

فتَجْعَلُ الفِعلَ حلالًا أو حَرامًا، وصَحيحًا أو فاسِدًا، وصَحيحًا مِن وجهٍ، فاسدًا مِن وَجهٍ، كما أنَّ القَصدَ والنِّيَّةَ في العباداتِ تَجْعَلُها كذلك، ومِن ذلك: أنَّ جَدَادَ النَّخلِ عَمَلٌ مُباحٌ أيَّ وقتٍ شاء صاحِبُه، لكنْ لَمَّا قَصَد به أصحابُه في اللَّيلِ حِرمانَ الفُقَراءِ عاقبَهم اللهُ تعالى بإهلاكِه[1].

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ إلى آخرِ السِّياقِ: استدلَّ به بعضُهم على كَراهةِ الجَدادِ والحَصادِ باللَّيلِ[2]. فقولُه: ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي: لأوَّلِ وقتٍ يُنسَبُ إلى الصَّباحِ، وذلك يكونُ في آخِرِ اللَّيلِ، كما يُقالُ: مُمْسِينَ، لأوَّلِ وقتٍ يُنسَبُ إلى المساءِ، وإذا كان كذلك فالانصرامُ يقَعُ باللَّيلِ؛ ألَا ترى إلى قولِه: ﴿لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾، وهم لا يَملِكونَ بعدَ مُضيِّ اللَّيلِ منْعَ المَساكينِ عن الدُّخولِ[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ بعْدَ أنْ قال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾: عِبرةٌ لِمَن مَنَعَ الخيرَ، فإنْ كان هؤلاء عُوقِبوا على قَصْدِ مَنْعِ الخيرِ المُستحَبِّ، فكيف بمَنْ قَصَدَ مَنْعَ الواجِبِ؟! وإنْ كانوا إنَّما قَصَدوا مَنْعَ واجبٍ -وهو الصَّوابُ- فهُم لم يَمنَعوه بعدَ وُجوبِه؛ لأنَّه لو كان قد وَجَبَ لم يكُنْ فَرْقٌ بيْنَ صَرْمِه باللَّيلِ وصَرْمِه بالنَّهارِ، وإنَّما قَصَدوا بالصَّرْمِ لَيلًا الفِرارَ ممَّا كان للمَساكينِ فيه من اللُّقاطِ؛ فعُلِمَ أنَّ الأمرَ -كما ذَكَره المفَسِّرون- مِن أنَّ حقَّ المساكينِ كان فيما يَتساقَطُ، ولم يكُنْ شَيئًا مُوَقَّتًا، ووُجوبُ هذا مَشروطٌ بسُقوطِه وحُضورِ مَن يأخُذُه مِن المساكينِ، كأنَّ السَّاقِطَ عَفْوُ المالِ وفَضْلُه، وحُضورَ أهلِ الحاجةِ

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ١٤٥).

بمنزلةِ السُّؤالِ والفاقةِ، ومِثلُ هذه الحالِ يجِبُ فيها ما لا يجِبُ في غيرِها، كما يَجِبُ قِرَى الضَّيفِ، وإطعامُ المضطرِّ، ونَفَقةُ الأقاربِ، وحَمْلُ العَقلِ، ونحوُ ذلك، فيكونُ هذا فِرارًا مِن حقٍّ قدِ انعقَدَ بسببِ وُجوبِه قبْلَ وقتِ وجوبِه، فهو مِثلُ الفِرارِ مِن الزَّكاةِ قبْلَ حُلولِ الحَولِ بعدَ مِلْكِ النِّصابِ، والفِرارِ مِن الشُّفعةِ بعدَ إرادةِ البَيعِ قبْلَ تمامِه، والفِرارِ مِن قِرَى الضَّيفِ قبْلَ حُضورِه، ونحوِ ذلك[١].

٥- يَنبغي لصاحبِ الحائطِ إذا أراد الجِذاذَ ألَّا يَمنَعَ المساكينَ مِن الدُّخولِ، وأن يَتصدَّقَ عليهم؛ لقولِ الله تعالى في ذمِّ أصحابِ الجنَّةِ: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ...﴾، والعِلمُ عندَ الله تعالى[٢].

٦- قال الله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ فلمَّا عزَموا على ما عزَموا عليه عُوقِبوا بنقيضِ قصدِهم، فأذْهَب الله ما بأيديهم بالكُليَّةِ؛ رأسَ المالِ، والرِّبحَ، والصَّدقةَ، فلم يَبْقَ لهم شيءٌ[٣]، وقد استقرَّتْ سُنَّةُ الله في خلقِه شرعًا وقدرًا على معاقبةِ العبدِ بنقيضِ قصدِه، فمَن كاد كيدًا محرَّمًا فإنَّ الله يَكيدُه، ويُعامِلُه بنقيضِ قصدِه، وبمِثلِ عملِه، وهذه سنَّةُ الله في أربابِ الحِيلِ المحرَّمةِ؛ أنَّه لا يُباركُ لهم فيما نالوه بهذه الحيلِ، كما هو الواقعُ، ويُهيِّئُ لهم كيدًا على يدِ مَن يشاءُ مِن خلقِه يُجزَوْنَ به مِن جنسِ كيدِهم وحِيلِهم[٤].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ العَزمَ ممَّا يُؤاخَذُ به الإنسانُ؛ لأنَّهم عَزَموا على أن يَفعَلوا، فعُوقِبوا

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ٢٤).
(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٥٢٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٧).
(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٥/ ١٦١، ١٩٥).

قبْلَ فِعْلِهم(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ دليلٌ على أنَّ الشَّيءَ يُسمَّى باسمِ غَيرِه وإنْ لَمْ يُشْبِهْه بجَميعِ صِفاتِه؛ ألَا ترى أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه قد جَمَعَ بيْن جَنَّةِ الدُّنيا الَّتي هي بُستانٌ، وجَنَّةِ الآخِرةِ بالاسمِ، وهما لا يجتَمِعانِ في جميعِ صِفاتِهما؟! وهذا رَدٌّ على المعتزلةِ -فيما يَزعُمون أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه لا يجوزُ أنْ يُوصَفَ بشَيءٍ ممَّا يَقَعُ اسمُه مُوافِقًا لاسمِ ما في المخلوقِ- وأغفَلوا مِثلَ هذا وأشباهَه، وما هو أعظمُ مِن هذا، وهو الجَمعُ بيْن أسمائِه سبحانَه وأسماءِ خلْقِه، مِثلُ: «المَلِك» و«الجبَّار» و«العزيز» و«العظيم» و«الكريم» وما ضاهاها! فلَمْ يُوجِبْ ذلك أنْ يُساويَ خلْقَه في جميعِ صِفاتِه، ولا على خلْقِه أنْ يُساوُوه في جميعِ صِفاتِهم، وإذا كان هذا غيرَ ضَيِّقٍ في الاسمِ وَجَبَ ألَّا يَضِيقَ فيما وَقَعَ عليه الاسمُ(٢).

٩- قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾، قَولُه: ﴿ كَذَلِكَ الْعَذَابُ ﴾، أي: الدُّنيويُّ، لِمَن أتى بأسبابِ العَذابِ؛ أن يَسلُبَ اللهُ العَبْدَ الشَّيءَ الَّذي طغى به وبغى، وآثَرَ الحياةَ الدُّنيا، وأن يُزيلَه عنه أحوَجَ ما يكونُ إليه(٣).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾

- جُملةُ ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا دَعت إليه مُناسَبةُ قولِه: ﴿ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [القلم: ١٤-١٥]؛ فإنَّ الازدهاءَ والغُرورَ بسَعةِ الرِّزقِ المُفضِيَينِ إلى الاستِخفافِ بدَعوةِ الحقِّ، وإهمالِ النَّظَرِ في كُنْهِها ودَلائِلِها؛ قدْ أوقَعَا مِن قَديمِ الزَّمانِ أصحابَهما في بَطَرِ النِّعمةِ، وإهمالِ الشُّكرِ، فجَرَّ ذلك عليهم شَرَّ العواقبِ، فضَرَبَ اللهُ للمشركينَ مثَلًا بحالِ أصحابِ هذه الجنَّةِ؛ لعلَّهم يَستفِيقونَ مِن غَفْلتِهم وغُرورِهم، كما ضُرِبَ المثَلُ بقَريبٍ منه في سُورةِ (الكهْفِ)، وضُرِبَ مَثَلًا بقارونَ في سُورةِ (القَصصِ)[١].

- والبَلْوى: الاختبارُ، وهي هنا تَمثيلٌ بحالِ المُبتلَى في إرخاءِ الحبْلِ له بالنِّعمةِ لِيَشكُرَ أو يَكفُرَ، فالبَلْوى المذكورةُ هنا بَلوى بالخَيرِ -على قولٍ-؛ فإنَّ اللهَ أمدَّ أهلَ مكَّةَ بنِعمةِ الأمْنِ، ونِعمةِ الرِّزقِ، وجَعَل الرِّزقَ يأْتيهم مِن كلِّ جِهةٍ، ويسَّرَ لهم سُبلَ التِّجارةِ في الآفاقِ بنِعمةِ الإيلافِ برِحلةِ الشِّتاءِ ورِحلةِ الصَّيفِ، فلمَّا أكمَلَ لهم النِّعمةَ بإرسالِ رَسولٍ منهم لِيُكمِلَ لهم صَلاحَ أحوالِهم، ويَهْدِيَهم إلى ما فيه النَّعيمُ الدائمُ، فدَعاهم وذكَّرهم بنِعَمِ اللهِ؛ أعْرَضوا وطَغَوا، ولم يَتوجَّهوا إلى النَّظَرِ في النِّعَمِ السَّالفةِ، ولا في النِّعمةِ الكاملةِ الَّتي أكْمَلَت لهم النِّعَمَ، ووَجْهُ المُشابَهةِ بيْنَ حالِهم وحالِ أصحابِ الجنَّةِ المذكورةِ هنا هو الإعراضُ عن طَلَبِ مَرضاةِ اللهِ، وعن شُكرِ نِعمته. وهذا التَّمثيلُ تَعريضٌ بالتَّهديدِ بأنْ يَلحَقَ قُرَيشًا ما لَحِقَ أصحابَ الجنَّةِ مِن البُؤسِ بعْدَ النَّعيمِ، والقحْطِ بعْدَ الخِصبِ، وإنِ اختَلَفَ السَّببُ في نَوعِه فقدِ اتَّحَدَ جنسُه[٢]. وأهلُ هذه الجنَّةِ لم يَكونوا كُفَّارًا، فوَجْهُ الشَّبَه بيْنَهم وبيْنَ المشركينَ المَضروبِ لهم هذا المَثَلُ هو بَطَرُ النِّعمةِ، والاغترارُ بالقوَّةِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٨١).

- قولُه: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ معناه: لا يَسْتثنُون لأيْمانِهم، بأنْ يَقولوا: إنْ شاء اللهُ، وعلى هذا التَّفسيرِ يكونُ قولُه: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ مِن قَبيلِ الإدماجِ[1]، أي: لِمَبلَغِ غُرورِهم بقوَّةِ أنفُسِهم صاروا إذا عَزَموا على فِعلِ شَيءٍ لا يَتوقَّعون له عائقًا[2].

- قولُه: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ التَّعبيرُ بالفِعلِ المضارعِ لاستحضارِ حالتِهم العجيبةِ مِن بُخْلِهم على الفُقراءِ والأيتامِ[3]. وذلك على أنَّ المرادَ أنَّهم لا يَسْتَثْنونَ مِن الثَّمرةِ شيئًا للمساكينِ.

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ الطَّوافُ: المشْيُ حولَ شَيءٍ مِن كلِّ جَوانبِه، يُقالُ: طاف بالكَعبةِ، وأُريدَ به هنا تَمثيلُ حالةِ الإصابةِ لشَيءٍ كلِّه بحالِ مَن يَطوفُ بمَكانٍ[4].

- إسنادُ فِعلِ (طاف) إلى (طائف) بمَنزلةِ إسنادِ الفِعلِ المَبنيِّ للمَجهولِ، كأنَّه قِيل: فطِيفَ عليها وهمْ نائِمون، فلا يَتعلَّقُ غرَضٌ بتَعيينِ نَوعِ الطَّائفِ؛ لأنَّ العِبرةَ في الحاصلِ به[5].

- وتَنكيرُ (طائف) وتَنوينُه الفائدةُ منه الإبهامُ؛ تَعظيمًا لِما أصاب جنَّتَهم، أي: أمْرٌ عَظيمٌ أصابَها، وقد بيَّنَه بقولِه: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾، فهو طائفُ سَوءٍ[6].

- قولُه: ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ تَقييدٌ لوقْتِ الطائفِ -إذا كان تَمثيلًا لحالةِ الإصابةِ لشَيءٍ كلِّه بحالِ مَن يطوفُ بمكانٍ-، وهو تأْكيدٌ لمعْنى (طائف) -إنْ كان

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٨١، ٨٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٨).

الطائفُ لا يكونُ إلَّا باللَّيلِ-، وفائدتُه تَصويرُ الحالةِ(١).

- والصَّريمُ قِيل: هو اللَّيلُ، والصَّريمُ مِن أسماءِ اللَّيلِ، ومِن أسماءِ النَّهارِ، كما سُمِّيَ كلٌّ مِن اللَّيلِ والنَّهارِ مَلًا، فيُقال: المَلَوَانِ، وعلى هذا فَفي الجمْعِ بيْنَ (أصبَحَت) و(الصَّريم) مُحسِّنُ الطِّباقِ، وقيل: الصَّريمُ: الرَّمادُ الأسْوَدُ بلُغةِ جَذِيمةَ أو خُزَيمةَ، وقيل: الصَّريمُ: اسمُ رَمْلةٍ مَعروفةٍ باليمَنِ لا تُنبتُ شيئًا، وإيثارُ كَلمةِ (الصَّريمِ) هنا لكَثرةِ مَعانيها، وصَلاحيةِ جَميعِ تلك المعاني لأنْ تُرادَ في الآيةِ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ الفاءُ للتَّفريعِ على ﴿أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾، أي: فلمَّا أصْبَحوا تَنادَوا لإنجازِ ما بيَّتوا عليه أمْرَهم(٣).

- والتَّنادي: أنْ يُناديَ بَعضُهم بعضًا، وهو مُشعِرٌ بالتَّحريضِ على الغُدُوِّ إلى جنَّتِهم مُبكِّرينَ(٤).

- قولُه: ﴿اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ﴾ يجوزُ أنْ يُضمَّنَ الغُدُوُّ معْنى الإقبالِ، كقولِهم: يُغدَى عليه بالجَفنةِ ويُراحُ، أي: فأقْبِلوا على حَرْثِكم باكِرينَ، ويجوزُ أنْ تكونَ (على) مُستعمَلةً في تَمكُّنِ الوُصولِ إليه، كأنَّه قِيل: اغْدُوا تَكونوا على حَرْثِكم، أي: مُستقرِّينَ عليه(٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٨٢، ٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٣)، ((إعراب =

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ﴾ (إنْ) شَرطيَّةٌ، وجَوابُها مَحذوفٌ، أي: إنْ كُنتُم صارمينَ فاغْدُوا(١). وقيل: ليس قولُه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰرِمِينَ﴾ بشَرطِ تعليقٍ، ولكنَّه مُستعمَلٌ في الاستبطاءِ، فكأنَّهم لإبطاءِ بَعضِهم في الغُدُوِّ قد عَدَلَ عن الجِذاذِ ذلك اليومَ(٢).

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ * أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ * وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾ فيه تأْكيدُ فِعلِ النَّهيِ ﴿لَّا يَدۡخُلَنَّهَا﴾ بنُونِ التَّوكيدِ؛ لِزيادةِ تَحقيقِ ما تَقاسَموا عليه(٣).

- وأُسنِدَ إلى ﴿مِّسۡكِينٞ﴾ فِعلُ النَّهيِ عن الدُّخولِ، والمرادُ نهْيُ بَعضِهم بعضًا عن دُخولِ المسكينِ إلى جنَّتِهم، أي: لا يَترُكْ أحدٌ مِسكينًا يَدخُلُها، وهذا مِن قَبيلِ الكِنايةِ، فالمرادُ بنهْيِ المسكينِ عن الدُّخولِ المُبالَغةُ في النَّهيِ عن تَمكينِه مِن الدُّخولِ، كقولِهم: لا أرَيَنَّك هاهنا(٤).

- وجُملةُ ﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾ في مَوضعِ الحالِ بتَقديرِ (قد)، أي: انْطَلَقوا في حالِ كَونِهم غادِينَ قادرينَ على حَرْدٍ. وذُكِرَ فِعلُ ﴿وَغَدَوۡاْ﴾ في جُملةِ الحالِ؛ لقصْدِ التَّعجيبِ مِن ذلك الغُدُوِّ النَّحسِ(٥).

- والحرْدُ: يُطلَقُ على المنْعِ، وعلى القصْدِ القويِّ، أي: السُّرعةِ، وعلى الغضَبِ، وفي إيثارِ كَلمةِ ﴿حَرۡدٖ﴾ في الآيةِ نُكتةٌ مِن نُكَتِ الإعجازِ المُتعلِّقِ

= القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٦).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٤).

بشَرَفِ اللَّفظِ ورَشاقتِه مِن حيثُ المعْنى، ومِن جِهةِ تَعلُّقِ المجرورِ به بما يُناسِبُ كلَّ معْنًى مِن مَعانيه، أي: بأنْ يَتعلَّقَ ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ بـ﴿قَٰدِرِينَ﴾، أو بقولِه: (غَدَوْا)؛ فإذا عُلِّقَ بـ﴿قَٰدِرِينَ﴾ فتَقديمُ المُتعلَّقِ يُفيدُ تَخصيصًا، أي: قادرينَ على المنْعِ، أي: منْعِ الخيرِ، أو منْعِ ثَمَرِ جَنَّتِهم غيرَ قادرينَ على النَّفعِ. والتَّعبيرُ بـ﴿قَٰدِرِينَ﴾ على ﴿حَرْدٍ﴾ دونَ أنْ يقولَ: (وَغَدَوا حارِدينَ) تهكُّمٌ؛ لأنَّ شأْنَ فِعلِ القدرةِ أنْ يُذكَرَ في الأفعالِ الَّتي يشُقُّ على الناسِ إتيانُها، فقولُه: ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ على هذا الاحتمالِ مِن بابِ قَولِهم: فلانٌ لا يَملِكُ إلَّا الحرمانَ، أو لا يَقدِرُ إلَّا على الخَيبةِ! وإذا حُمِلَ الحرْدُ على معْنى السُّرعةِ والقصْدِ، كان ﴿عَلَىٰ حَرْدٍ﴾ مُتعلِّقًا بـ(غَدَوْا) مُبيِّنًا لنَوعِ الغُدُوِّ، أي: غَدَوا غُدُوَّ سُرعةٍ واعتناءٍ، فتَكون (على) بمعْنى باءِ المصاحَبةِ، والمعْنى: غَدَوا بسُرعةٍ ونَشاطٍ، ويَكون ﴿قَٰدِرِينَ﴾ حالًا مِن ضَميرِ (غَدَوْا) حالًا مُقدَّرةً، أي: مُقدِّرينَ أنَّهم قادِرونَ على تَحقيقِ ما أرادوا، وفي الكلامِ تَعريضٌ بأنَّهم خابُوا، دلَّ عليه قولُه بعْدَه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ [القلم: ٢٦]، وقولُه قبْلَه: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ [القلم: ١٩]. وإذا أُريدَ بالحرْدِ الغضَبُ والحَنَقُ؛ فإنَّه يُقالُ: حَرَدٌ بالتَّحريكِ، وحرْدٌ بسُكونِ الرَّاءِ، ويَتعلَّقُ المجرورُ بـ﴿قَٰدِرِينَ﴾، وتَقديمُه للحصْرِ، أي: غَدَوا لا قُدرةَ لهم إلَّا على الحَنَقِ والغضَبِ على المساكينِ، فتَحيَّلوا عليهم بالتَّبكيرِ إلى جِذاذِها، أي: لم يَقدِروا إلَّا على الغضَبِ والحَنَقِ، ولم يَقدِروا على ما أرادُوه من اجتناءِ ثَمَرِ الجنَّةِ[1].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۞ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أفادتْ (لَمَّا) اقترانَ جَوابِها بشَرْطِها بالفَورِ والبَداهةِ، والمقصودُ مِن هذا التَّعريضُ للمشركينَ بأنْ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٠، ٥٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٤، ٨٥).

يكونَ حالُهم في تَدارُكِ أمْرِهم، وسُرعةِ إنابتِهم كحالِ أصحابِ هذه الجنَّةِ؛ إذ بادَرُوا بالنَّدمِ، وسَأَلوا اللهَ عِوَضَ خَيرٍ[١].

- وإسنادُ هذه المَقالةِ إلى ضَميرِ أصحابِ الجنَّةِ يَقْتضي أنَّهم قالوه جَميعًا، أي: اتَّفَقوا على إدراكِ سَببِ ما أصابَهم[٢].

- قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾، أي: قالوا: إنَّا أخْطَأْنا الطَّريقَ في السَّيرِ إلى جنَّتِنا، ويكون الإضرابُ في قولِه: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ إبطاليًّا، أي: أبْطَلوا أنْ يَكونوا ضَلُّوا طَريقَ جَنَّتِهم، وأثْبَتوا أنَّهم مَحرومونَ مِن خَيرِ جَنَّتِهم، فيكون المعنى: أنَّها هي جَنَّتُهم، ولكنَّها هَلَكَت فحُرِموا خَيراتِها بأنْ أتلَفَها اللهُ[٣].

وعلى القولِ بأن معْنى ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: عن طَريقِ الشُّكرِ، أي: كانوا غيرَ مُهتدِينَ، فهو كِنايةٌ عن كَونِ ما أصابَهم عِقابًا على إهمالِ الشُّكرِ، وأكَّدوا الكلامَ لتَنزيلِ أنفُسِهم مَنزلةَ مَن يشُكُّ في أنَّهم ضالُّون طَريقَ الخيرِ؛ لقُرْبِ عَهْدِهم بالغَفلةِ عن ضَلالِهم، ففيه إيذانٌ بالتَّحسُّرِ والتَّندُّمِ[٤]. وقولُه: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ إضرابٌ للانتقالِ إلى ما هو أهمُّ بالنَّظَرِ لحالِ تَبْييتِهم؛ إذ بَيَّتوا حِرمانَ المساكينِ مِن فُضولِ ثَمرتِهم، فكانوا همُ المَحرومينَ مِن جَميعِ الثِّمارِ، فالحِرمانُ الأعظمُ قدِ اختَصَّ بهم؛ إذْ ليس حِرمانُ المساكينِ بشَيءٍ في جانبِ حِرمانِهم، والكلامُ يُفيدُ ذلك إمَّا بطَريقِ تَقديمِ المُسنَدِ إليه، بأنْ أُتِيَ به ضَميرًا بارزًا مع أنَّ مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يكونَ ضَميرًا مُستتِرًا في اسمِ المفعولِ، مُقدَّرًا مُؤخَّرًا عنه؛ لأنَّه لا يُتصوَّرُ إلَّا بعْدَ سَماعِ مُتحمَّلِه، فلمَّا أُبرزَ الضَّميرُ وقُدِّمَ، كان تَقديمُه مُؤذِنًا بمعْنى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الاختصاصِ، أي: القصرِ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ[١]، وهذا مِن مُستتبَعاتِ التَّراكيبِ والتَّعويلِ على القرائنِ[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ حُكِيَ هذا القولُ بدُونِ عاطفٍ؛ لأنَّه قولٌ في مَجرى المُحاوَرةِ جوابًا عن قولِهم: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [القلم: ٢٧]، قالهُ لهم على وَجْهِ تَوقيفِهم على تَصويبِ رأْيِه، وخَطَلِ رَأْيِهم[٣].

- والاستفهامُ ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ تقريريٌّ، أو إنكاريٌّ[٤].

- و﴿تُسَبِّحُونَ﴾ مَفعولُه مَحذوفٌ، أي: تُسبِّحون اللهَ[٥].

- قولُه: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّندُّمِ[٦].

- قيل: جُعِلَ التَّسبيحُ مَوضعَ الاستثناءِ بقولِ: إنْ شاء اللهُ؛ لأنَّ المعْنى تَنزيهُ اللهِ أنْ يكونَ شَيءٌ إلَّا بمَشيئتِه، أو لالتِقائِهما في معْنى التَّعظيمِ للهِ؛ لأنَّ الاستثناءَ تَفويضٌ إليه، والتَّسبيحَ تَنزيهٌ له، وكلٌّ واحدٍ مِن التَّفويضِ والتَّنزيهِ تَعظيمٌ له[٧]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ التَّسبيحِ هنا.

- وجُملةُ ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ إقرارٌ بالذنْبِ، والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) لتَحقيقِ الإقرارِ

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٧).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٦، ٨٧).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦).

والاهتمامِ به، ويُفيدُ حرْفُ (إنَّ) مع ذلك تَعليلًا للتَّسبيحِ والتَّنزيهِ الَّذي قبْلَه[1].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿ظَالِمِينَ﴾؛ ليَعُمَّ ظُلْمَهم أنفُسَهم بما جَرُّوه على أنفُسِهم مِن سَلْبِ النِّعمةِ، وظُلْمَ المساكينِ بمَنْعِهم مِن حقِّهم في المالِ[2].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ لَمَّا استقَرَّ حالُهم على المُشارَكةِ في منْعِ المساكينِ حقَّهم، أخَذَ بعضُهم يَلومُ بَعضًا على ما فَرَطَ مِن فِعلِهم، كلٌّ يَلومُ غيرَه بما كان قدْ تَلبَّسَ به في هذا الشَّأنِ؛ مِن ابتكارِ فِكرةِ منْعِ المساكينِ ما كان حقًّا لهم مِن حياةِ الأبِ، ومِن المُمالأةِ على ذلك، ومِن الاقتناعِ بتَصميمِ البقيَّةِ، ومِن تَنفيذِ جَميعِهم ذلك العزْمَ الذَّميمَ، فصَوَّرَ قولُه: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ هذه الحالةَ، والتَّقاذُفَ الواقعَ بيْنَهم بهذا الإجمالِ البالغِ غايةَ الإيجازِ؛ ألَا تَرى أنَّ إقبالَ بَعضِهم على بَعضٍ يُصوِّرُ حالةً تُشبِهُ المُهاجَمةَ والتَّقريعَ، وأنَّ صِيغةَ التَّلاوُمِ مع حذْفِ مُتعلَّقِ التَّلاوُمِ تُصوِّرُ في ذِهنِ السَّامعِ صُوَرًا مِن لَومِ بَعضِهم على بَعضٍ[3].

- وأُسنِدَ هذا القولُ إلى جَميعِهم؛ لأنَّه قد تلقَّى كلُّ واحدٍ منهم لَومَ غَيرِه عليه بإحقاقِ نفْسِه بالمَلامةِ، وإشراكِ بَقيَّتِهم فيها[4].

- الإقبالُ: المَجيءُ إلى الغيرِ مِن جِهةِ وَجْهِه، وهو مُشتَقٌّ مِن القُبُلِ، وهو ما يَبْدو مِن الإنسانِ مِن جِهةِ وَجْهِه، ضِدُّ الإدبارِ، وهو هنا تَمثيلٌ لحالِ العِنايةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

باللَّومِ[1].

٨- قولُه تعالَى: ﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ * عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴾

- جُملةُ ﴿ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾ إلى آخِرِها يجوزُ أنْ تكونَ مُبيِّنةً لجُملةِ ﴿يَتَلَٰوَمُونَ﴾، أي: يَلومُ بَعضُهم بَعضًا بهذا الكلامِ، فتَكونَ خبَرًا مُستعمَلًا في التَّقريعِ على طَريقةِ التَّعريضِ بغَيرِه، والإقرارِ على نفْسِه، مع التَّحسُّرِ والتَّندُّمِ بما أفادهُ ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾، وذلك كَلامٌ جامعٌ للمَلامةِ كلِّها، ولم تُعطَفِ الجُملةُ؛ لأنَّها مُبيِّنةٌ. ويجوزُ أنْ تكونَ جَوابَ بَعضِهم بَعضًا عن لَومِه غيرَه؛ فكما أجْمَعوا على لَومِ بَعضِهم بَعضًا، كذلك أجْمَعوا على إجابةِ بَعضِهم بَعضًا عن ذلك المَلامِ، فقال كلُّ مَلومٍ لِلائمِه: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ...﴾ إلخ، جَوابًا بتَقريرِ مَلامِه، والاعترافِ بالذَّنْبِ، ورَجاءِ العفْوِ مِن اللهِ، وتَعويضِهم عن جنَّتِهم خَيرًا منها إذا قَبِلَ توبتَهم، وجَعَلَ لهم ثَوابَ الدُّنيا مع ثَوابِ الآخرةِ، فيكونُ تَرْكُ العطْفِ؛ لأنَّ فِعلَ القولِ جَرى في طَريقةِ المُحاوَرةِ[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ بدَلٌ مِن جُملةِ الرَّجاءِ، أي: هو رَجاءٌ مُشتمِلٌ على رَغبةٍ إليه بالقَبولِ والاستجابةِ، والتأْكيدُ في ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ للاهتمامِ بهذا التَّوجُّهِ[3].

- والمقصودُ مِن الإطنابِ في قولِهم بعْدَ حُلولِ العذابِ بهم، تَلقينُ الَّذين ضُرِبَ لهم هذا المَثَلُ بأنَّ في مُكْنتِهم الإنابةَ إلى اللهِ بنَبْذِ الكُفرانِ لنِعمتِه؛ إذ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٨٧، ٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٨٨).

أشْرَكوا به مَن لا إنعامَ لهم عليه(١).

٩- قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ هذا رُجوعٌ إلى تَهديدِ المشركين المَبدوءِ مِن قولِه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ [القلم: ١٧]، فالكلامُ فَذْلَكةٌ(٢) وخُلاصةٌ لِما قبْلَه، وهو استئنافٌ ابتدائيٌّ(٣).

- وقولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مُسنَدٌ مُقدَّمٌ، و﴿ٱلْعَذَابُ﴾ مُسنَدٌ إليه، وتَقديمُ المُسنَدِ للاهتمامِ بإحضارِ صُورتِه في ذِهنِ السَّامعِ، ولإفادةِ القَصرِ. والتَّعريفُ في ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، وفيه تَوجيهٌ بالعهْدِ الذِّهنيِّ، أي: عَذابُكم الموعودُ مِثلُ عَذابِ أولئك(٤).

- والمُماثَلةُ في إتلافِ الأرزاقِ والإصابةِ بقطْعِ الثَّمراتِ؛ فالمُماثَلةُ بيْنَ المُشبَّهِ والمُشبَّهِ به مُماثَلةٌ في النَّوعِ، وإلَّا فإنَّ ما تُوُعِّدوا به مِن القحْطِ أشدُّ ممَّا أصاب أصحابَ الجنَّةِ وأطولُ(٥).

وقيل: تَشبيهُ بَلاءِ قُريشٍ ببَلاءِ أصحابِ الجنَّةِ هو أنَّ أصحابَ الجنةِ عَزَموا على الانتفاعِ بثَمَرِها، وحِرمانِ المساكينِ، فقَلَبَ اللهُ تعالَى عليهم وحَرَمَهم، وأنَّ قُريشًا حينَ خَرَجوا إلى بدْرٍ حَلَفوا على قتْلِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه، فإذا فَعَلوا ذلك رَجَعوا إلى مكَّةَ، وطافوا بالكعبةِ، وشَرِبوا الخُمورَ، فقَلَبَ اللهُ عليهم بأنْ قُتِلوا، وأُسِروا(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٨).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٢).

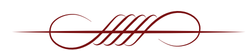
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٩، ٩٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٤).

- قولُه: ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ جوابُ (لو) مَحذوفٌ دلَّ عليه سِياقُ الكلامِ، تَقديرُه: لَمَا فَرَط منهم ما سَلَف مِن ظُلمٍ وإحجامٍ عن الاستثناءِ[1].



(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٨).

الآيات (٣٤-٤١)

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

غَريبُ الكَلِمات:

﴿زَعِيمٌ﴾: أي: كَفيلٌ وضَمينٌ، وأصْلُ (زعم): يدُلُّ على تكفُّلٍ بالشَّيءِ[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا حُسنَ عاقبةِ المؤمنينَ: إنَّ للمتَّقينَ عِندَ ربِّهم جنَّاتِ النَّعيمِ الدَّائمِ الَّذي لا يَنقَضي.

ثمَّ يسألُ المشركينَ السُّؤالَ تلوَ السُّؤالِ؛ إلزامًا لهم بالحجةِ، وتقريعًا لهم على غفلتِهم: أفنُساوي بيْنَ المُسلِمينَ الَّذين خَضَعوا لله تعالى وانقادُوا لأمْرِه، والمجرِمينَ الَّذي اكتَسَبوا الذُّنوبَ؟! ما لَكم -أيُّها المُشرِكونَ- كيف تَحكُمونَ بمُساواةِ المسلمينَ والمُجرِمينَ؟

أَلَكم كِتابٌ منزَّلٌ مِن عندِ اللهِ تَقرَؤونَ فيه أنَّ لكم فيه ما تختارونَه مِن أحكامٍ؟!

أمْ لكم -أيُّها المُشرِكونَ- عُهودٌ ومواثيقُ مُؤبَّدةٌ مُستَمِرَّةٌ إلى يومِ القيامةِ بأنَّ لكم حُكمَكم الَّذي تَختارونَه؟!

سَلْ -يا محمَّدُ- مُشرِكي قَومِك: مَن الضَّامِنُ المتكَفِّلُ بصِحَّةَ ذلك؟

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٤).

أمْ للكُفَّارِ شُرَكاءُ لله في استِحقاقِ العبادةِ؟ فلْيَأتوا بهم إن كانوا صادِقينَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكر اللهُ تعالى حالَ أهلِ الجنَّةِ الدُّنيويَّةِ، وما أصابهم فيها مِن النِّقمةِ حينَ عصَوُا اللهَ عزَّ وجلَّ وخالَفوا أمْرَه؛ بيَّن أنَّ لِمَن اتَّقاه وأطاعه في الدَّارِ الآخرةِ جنَّاتِ النَّعيمِ الَّتي لا تَبيدُ ولا تفرغُ ولا يَنقضي نعيمُها(١).

وأيضًا لَمَّا فَرَغ سبحانَه مِن ذِكرِ حالِ الكفَّارِ، وتشبيهِ ابتلائِهم بابتلاءِ أصحابِ الجنَّةِ المذكورةِ؛ ذَكَر حالَ المتَّقينَ، وما أعدَّه لهم مِن الخيرِ، فقال(٢):

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: إنَّ الذين اتَّقَوُا اللهَ تعالى بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نَواهيه: لهم في الآخِرةِ عِندَ رَبِّهم جنَّاتُ النَّعيمِ الدَّائمِ الَّذي لا يَبيدُ ولا يَنقَضي، الخالي مِن كُلِّ ما يُنغِّصُه ويُكَدِّرُه(٣).

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: أفنُساوي بيْنَ المُسلمينَ الَّذين خَضَعوا لله تعالى، وانقادُوا لأمْرِه، واجتَنَبوا نَهْيَه، وذَلُّوا بالطَّاعةِ والعُبوديَّةِ له وَحْدَه، والمجرِمينَ الَّذي اكتَسَبوا الذُّنوبَ، ورَكِبوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩١).

المعاصيَ، وخالَفوا أمْرَ اللهِ ونَهْيَه؟! كَلَّا؛ فإنَّما يُثيبُ اللهُ المسلِمينَ، ويُعَذِّبُ المُجرِمينَ، كما تَقتَضيه حِكمتُه سُبحانَه[1].

كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [السجدة: ١٨ - ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦)﴾.

أي: أيُّ شيءٍ حصَل لكم مِن خللِ الفكرِ وفسادِ الرَّأيِ، كيف تَحكُمونَ هذا الحُكمَ الجائرَ، كأنَّ أمرَ الجزاءِ في الآخرةِ مفوَّضٌ إليكم، تَحكمونَ فيه بما شِئْتُم[2]!

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨)﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٤)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٣/ ٨٨، ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٨).

قال البقاعي: (﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: أيُّ عَقلٍ دعاكم إلى هذا الحُكمِ الَّذي يتضمَّنُ التَّسويةَ مِنَ السَّيِّدِ بيْنَ المحسنِ مِن عبيدِه والمُسيءِ؟!). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣١٩).

أي: أَلكم كتابٌ منزَّلٌ مِن عندِ اللهِ تَقرَؤونَ فيه مِرارًا حتَّى تَحفَظوا أنَّ لكم فيه ما تختارونَه مِن أحكامٍ حتَّى تُساووا بيْنَ المسلمينَ والمُجرِمينَ(١)؟!

كما قال تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الصافات: ١٥٦، ١٥٧].

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۝٣٩﴾.

أي: أمْ لكم -أيُّها المُشرِكونَ- عُهودٌ ومواثيقُ مُؤكَّدةٌ قد أقسَمْنا عليها، وهي مُؤبَّدةٌ مُستَمِرَّةٌ إلى يومِ القيامةِ، بأنَّ لكم حُكمَكم الَّذي تَختارونَه(٢)؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٦، ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٩، ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٣، ٩٤).

قال ابن عطية: (قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ قال بعضُ المتأوِّلينَ: هذا استئنافُ قولٍ، على معنَى: إن كان لكم كتابٌ، فلَكم فيه مُتخَيَّرٌ. وقال آخَرون: «إنَّ» معمولةٌ لـ ﴿تَدْرُسُونَ﴾، أي: تَدرُسونَ في الكتابِ إنَّ لكم ما تَختارونَ مِن النَّعيم، وكُسِرت الألِفُ مِن «إنَّ» لِدُخولِ اللَّامِ في الخبَرِ، وهي في معنَى «أنَّ» بفتحِ الألِفِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٠، ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٤، ٩٥).

قال الزمخشري: (﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ جوابُ القسَمِ؛ لأنَّ معنى ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا﴾: أمْ أقْسَمْنا لكم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٣).

وقال الشوكاني: (﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ﴾ أي: عهودٌ مؤكَّدةٌ موثَّقةٌ مُتناهيةٌ، والمعنى: أمْ لكم أيْمانٌ على الله استوثَقْتُم بها في أنْ يُدخِلَكم الجنَّةَ، ... وجوابُ القسَمِ قولُه: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾؛ =

﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لمُشركي قَومِك هؤلاء: مَن الضَّامِنُ المتكَفِّلُ الملتَزِمُ بادِّعائِه صِحَّةَ ذلك[١]؟

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَفى اللهُ تعالى أن يكونَ للمُجرِمينَ مِنه في تَسويتِهم بالمُسلِمينَ دَليلٌ عَقليٌّ أو نقليٌّ أو عَهدٌ وَثيقٌ على هذا التَّرتيبِ المحكَمِ، والمِنهاجِ الأقوَمِ؛ أتْبَعَه ما يكونُ مِن عندِ غَيرِه إن كان ثَمَّ غَيرٌ على ما ادَّعَوا[٢]!

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

أي: أم للكُفَّارِ شُركاءُ لله في استِحقاقِ العبادةِ؟ فلْيَأتوا بهم إذَن لِيَجعَلوا لهم نصيبًا مِن ثوابِ اللهِ تعالى أو يَجعلوهم مِثلَ المسلمينَ في الآخرةِ، إن كانوا صادِقينَ في زَعْمِهم أنَّهم شُرَكاءُ للهِ سُبحانَه[٣]!

= لأنَّ معنى ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ ﴾ أي: أمْ أقْسَمْنا لكم. قال الرازي: والمعنى: أمْ ضَمِنَّا لكم وأقسَمْنا لكم بأيْمانٍ مُغَلَّظةٍ مُتناهيةٍ في التَّوكيدِ. وقيل: قد تمَّ الكلامُ عندَ قولِه: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، ثمَّ ابتدأ فقال: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾، أي: ليس الأمرُ كذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٧). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

قال السعدي: (أي: أيُّهم الكفيلُ بهذه الدَّعوى الفاسِدةِ؛ فإنَّه لا يمكِنُ التَّصَدُّرُ بها، ولا الزَّعامةُ فيها؟!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن =

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۞ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أنَّ مِن السَّفَهِ ومِن الخَطَأِ في الحُكْمِ أنْ نَجعَلَ المسلِمَ كالمجرِمِ، أوِ الفاسِقَ كالمؤمِنِ[1]! فاللهُ تعالى يُخبِرُ أنَّ حِكمتَه لا تَقتَضي أن يَجعَلَ المُسلِمينَ القانِتينَ لرَبِّهم، المُنقادِينَ لأوامِرِه، المتَّبِعينَ لمَراضِيه؛ كالمجرِمينَ الَّذين أسرَعوا في مَعاصيه، والكُفرِ بآياتِه، ومُعانَدةِ رُسُلِه، ومُحارَبةِ أوليائِه، وأنَّ مَن ظَنَّ أنَّه يُسَوِّيهم في الثَّوابِ فإنَّه قد أساء الحُكمَ، وأنَّ حُكمَه حُكمٌ باطِلٌ، ورأيَه فاسِدٌ[2].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أضاف ﴿جَنَّٰتِ﴾ إلى ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾؛ لأنَّ النَّعيمَ لا يُفارِقُها، إذ ليس فيها إلَّا هو، فلا يَشوبُه كَدَرٌ كما يَشوبُ

= كثير)) (٨/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٦).

وممَّن ذهب إلى أنَّ معنى الشُّرَكاءِ هنا: الشُّرَكاءُ لله تعالى في العبادةِ بحَسَبِ زَعمِ عابِدِيها: الواحديُّ، وابن كثير، والبِقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٦).

وقيل: شُرَكاءُ، أي: شُهداءُ مِن غَيرِهم يَشهَدونَ لهم بما يَدَّعونَ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٨).

وقيل: المرادُ: ناسٌ يُشارِكونَهم في هذا القَولِ، ويوافِقونَهم عليه، ويَذهَبونَ مَذهَبَهم فيه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشري، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

جَنَّاتِ الدُّنيا[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ بيانُ أنَّه لا يَجوزُ لأحدٍ أنْ يُعارِضَ كِتابَ اللهِ بغيرِ كِتابٍ، فمَن عارَضَ كتابَ اللهِ، وجادَلَ فيه بما يُسمِّيه مَعقولاتٍ وبَراهينَ وأقْيسةً، أو ما يُسمِّيه مُكاشَفاتٍ[٢] ومَواجيدَ[٣] وأذواقًا[٤]، مِن غيرِ أنْ يأتيَ على ما يقولُه بكتابٍ مُنَزَّلٍ- فقد جادَلَ في آياتِ اللهِ بغَيرِ سُلطانٍ. هذه حالُ الكُفَّارِ الَّذين قال اللهُ فيهم: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، فهذه حالُ مَن يُجادِلُ في آياتِ اللهِ مُطلقًا[٥].

٣- يُبَيِّنُ الله تعالى الحَقائقَ بالمَقاييسِ العَقليَّةِ والأمثالِ المَضروبةِ، ويُبَيِّنُ طُرُقَ التَّسويةِ بيْن المتماثِلَين، والفَرْقِ بيْن المختلِفَين، ويُنكِرُ على مَن يَخرُجُ عن ذلك؛ كما في قولِه تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، أي: هذا حُكمٌ جائرٌ لا عادلٌ؛ فإنَّ فيه تسويةً بيْنَ المختلِفَين. ففيه التَّنبيهُ أنَّ الميزانَ العَقليَّ حقٌّ كما ذَكَر اللهُ تعالى في كتابِه، وليس هو مختصًّا بمنطقِ اليُونانِ، بل هي الأقْيسةُ الصَّحيحةُ المتضَمِّنةُ للتَّسويةِ بيْن المتماثلَين، والفَرقِ بيْن المختلِفَين، سواءٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٥).

(٢) الكشفُ عندَ الصوفيَّةِ: هو الاطِّلاعُ على ما وراءَ الحِجابِ مِن المعاني الغَيبيَّةِ، والأمورِ الحقيقيَّةِ وُجودًا وشُهودًا. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١٨٤)، ((التوقيف على مهمات التعاريف)) للمُناوي (ص: ٢٨٢)، ((جامع العلوم في اصطلاحات الفنون)) للتهانوي (٣/ ٨٩).

(٣) الوجْدُ عندَ الصوفيَّةِ: ما يُصادِفُ القلبَ ويَرِدُ عليه بلا تكلُّفٍ وتصَنُّعٍ. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٢٥٠)، ((التوقيف)) للمُناوي (ص: ٣٣٤)، ((جامع العلوم)) للتهانوي (٣/ ٣١٠).

(٤) الذَّوقُ عندَ الصُّوفيَّةِ: عبارةٌ عن نورٍ عرفانيٍّ يَقذِفُه الحقُّ بتجلِّيه في قلوبِ أوليائِه، يُفرِّقونَ به بيْن الحقِّ والباطلِ، مِن غيرِ أن يَنقُلوا ذلك مِن كتابٍ ولا غيرِه. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١٠٧)، ((التوقيف)) للمناوي (ص: ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٢٢).

صِيغَ ذلك بصيغةِ قياسِ الشُّمولِ، أو بصيغةِ قياسِ التَّمثيلِ[(١)]، وصِيَغُ التَّمثيلِ هي الأصلُ، وهي أكمَلُ، والميزانُ هو القَدْرُ المُشترَكُ، وهو الجامِعُ[(٢)].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ أصلٌ في مَشروعيَّةِ الضَّمانِ[(٣)].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ مِن شأْنِ ما ذُكِرَ مِن عذابِ الآخرةِ للمُجرمينَ أنْ يَنشَأَ عنه سُؤالٌ في نفْسِ السَّامعِ يقولُ: فما جَزاءُ المتَّقينَ؟ وهو كَلامٌ مُعترِضٌ بيْنَ أجزاءِ الوَعيدِ والتَّهديدِ، وبيْن قولِه: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦]، وقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ [القلم: ٣٣]، وقد أشعَرَ بتَوقُّعِ هذا السُّؤالِ قولُه بعْدَه: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥][(٤)]؛ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ لبَيانِ ما أعدَّ اللهُ للمتَّقينَ يومَ القيامةِ، وللرَّدِّ على صَناديدِ قُريشٍ الَّذين كانوا يَقولون: إنْ صحَّ أنَّا نُبعَثُ لم تكُنْ حالُنا وحالُ المؤمنينَ إلَّا مِثلَ ما هي في الدُّنيا[(٥)].

- وتَقديمُ المُسنَدِ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ على المُسنَدِ إليه ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ للاهتِمامِ بشأْنِ المُتَّقينَ؛ ليَسبِقَ ذِكرُ صِفتِهم العَظيمةِ ذِكرَ جَزائِها، واللَّامُ للاستحقاقِ،

---

(١) قياسُ التَّمثيلِ: هو: حَملُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتِراكِهما في عِلَّةِ الحُكمِ؛ لأنَّ ذلك الحُكمَ يلزمُ المُشتَرَكَ الكُلِّيَّ، مثلُ: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامِعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ: هو القياسُ الأُصوليُّ (إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعِلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما). يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٩).

و(عِندَ) ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بمعْنى الكَونِ الَّذي يَقْتضيهِ حرْفُ الجرِّ، ولذلك قُدِّمَ مُتعلَّقُه معه على المُسنَدِ إليه؛ مِن أجْلِ ذلك الاهتمامِ، وقد حصَلَ مِن تَقديمِ المسنَدِ بما معه طُولٌ يُثيرُ تَشويقَ السَّامعِ إلى المُسنَدِ إليه[١].

- وإضافةُ جنَّاتٍ إلى النَّعيمِ تُفيدُ أنَّها عُرِفَت به، فيُشارُ بذلك إلى مُلازَمةِ النَّعيمِ لها؛ لأنَّ أصلَ الإضافةِ أنَّها بتَقديرِ لامِ الاستِحقاقِ، فـ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ مُفيدٌ أنَّها استَحقَّها النَّعيمُ؛ لأنَّها ليس في أحوالِها إلَّا حالُ نَعيمِ أهلِها، وأنَّ النَّعيمَ لا يُفارِقُها، فلا يكونُ فيها ما يكونُ في جنَّاتِ الدُّنيا مِن المتاعِبِ، مِثل الحرِّ في بَعضِ الأوقاتِ، أو شِدَّةِ البرْدِ، أو مِثل الحشراتِ والزَّنانيرِ، أو ما يُؤذي، مِثلُ شَوكِ الأزهارِ والأشجارِ، ورَوَثِ الدَّوابِّ، وذَرْقِ الطَّيرِ[٢].

فأفاد التَّركيبُ اختصاصَ الجنَّاتِ بالتَّنعُّمِ الخالصِ؛ إذ ليس فيها إلَّا هو، فلا يَشوبُه كَدَرٌ كما يشوبُ جنَّاتِ الدُّنيا، وجاء هذا التَّخصيصُ مِن جانبِ المقامِ التَّعريضيِّ؛ مِن تَقديمِ الخبَرِ -﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾- على المبتدَأِ، ومَجيءِ الآيةِ بعْدَ ذِكرِ أصحابِ الجنَّةِ وأحوالِ قُريشٍ، وإردافِه بقولِه: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فاءُ التَّفريعِ في ﴿أَفَنَجْعَلُ﴾ تَقْتضي أنَّ هذا الكلامَ مُتفرِّعٌ على ما قبْلَه مِن استحقاقِ المتَّقينَ جنَّاتِ النَّعيمِ، ومُقابَلتِه بتَهديدِ المشركينَ بعَذابِ الدُّنيا والآخرةِ، ولكنَّ ذلك غيرُ مُصرَّحٍ فيه بما يُناسِبُ أنْ يَتفرَّعَ عليه هذا الإنكارُ والتَّوبيخُ، فتَعيَّنَ تَقديرُ إنكارٍ مِن المُعرَّضِ بهم؛ ليَتوجَّهَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٩١).

إليهم هذا الاستفهامُ المُفرَّعُ(١).

وقيل: جُملةُ ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ مَعطوفةٌ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ السِّياقُ، أي: أَنَحِيفُ في الحكْمِ فنَجعَلُ المسلمين كالكافرينَ(٢)؟! وهي تَقريرٌ لِما قبْلَه مِن فَوزِ المُتَّقينَ بجنَّاتِ النَّعيمِ، ورَدٌّ لِما يَقولُه الكَفَرةُ عندَ سَماعِهم بحديثِ الآخرةِ وما وَعَدَ اللهُ المسلمينَ فيهَا؛ فإنَّهم كانُوا يقولونَ: إنْ صحَّ أنَّا نُبعَثُ كما يَزعُمُ محمَّدٌ ومَنْ معَه، لم يكُنْ حالُنَا وحالُهُم إلَّا مِثلَ ما هيَ في الدُّنيا، وإلَّا لم يَزِيدُوا علينَا ولم يَفضُلونَا، وأقْصى أمْرِهم أنْ يُساوونَا(٣).

- وقولُه: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قيل: هو كَلامٌ مُوجَّهٌ إلى المشركين، وهم المقصودُ بالمُجرمين، عُبِّرَ عنهم بطَريقِ الإظهارِ دونَ ضَميرِ الخِطابِ؛ لِما في وصْفِ المجرمينَ مِن المُقابَلةِ؛ ليَكونَ في الوصفَينِ إيماءٌ إلى سَببِ نفْيِ المُماثَلةِ بيْنَ الفريقينِ، فلذلك لم يكُنْ ضَميرُ الخِطابِ في قولِه: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ الْتفاتًا عن ضَمائرِ الغَيبةِ مِن قولِه: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، وقولِه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾(٤) [القلم: ١٧].

- والهمزةُ في ﴿أَفَنَجْعَلُ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّفريعيِّ؛ فُرِّعَ إنكارُ التَّساوي بيْنَ المسلِمينَ والكافرينَ على ما سَبَق مِن اختلافِ جَزاءِ الفَريقينِ؛ فالإنكارُ مُتسلِّطٌ على ما دارَ بيْنَ المشرِكينَ مِن القولِ عندَ نُزولِ الآيةِ السَّابقةِ، أو عندَ نُزولِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٢).

ما سَبَقَها مِن آيِ القُرآنِ الَّتي قابَلَت بيْن جَزاءِ المؤمنينَ وجَزاءِ المشرِكين، كما يَقتضيهِ صَريحًا قولُه: ﴿مَا لَكُمْ﴾، إلى قولِه: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٩]، والاستِفهامُ وما بعْدَه مِن التَّوبيخِ، والتَّخطئةِ، والتَّهكُّمِ على إدْلالِهم الكاذبِ؛ مُؤذِنٌ بأنَّ ما أُنكِرَ عليهم ووُبِّخوا عليه وسُفِّهوا على اعتقادِه، كان حَديثًا قدْ جَرى في نَوادِيهم، أو استَسْخَروا به على المسلِمينَ في مَعرضِ جُحودِ أنْ يكونَ بَعثٌ، وفرْضِهم أنَّه على تَقديرِ وُقوعِ البعثِ والجزاءِ لا يكونُ للمُسلِمينَ مَزيةٌ وفضْلٌ عندَ وُقوعِه[1].

- وإنكارُ جَعْلِ الفَريقينِ مُتشابهَينِ كِنايةٌ عن إعطاءِ المسلمينَ جَزاءَ الخَيرِ في الآخرةِ، وحِرمانِ المشرِكين منه؛ لأنَّ نفْيَ التَّساوي واردٌ في معْنى التَّضادِّ في الخيرِ والشَّرِّ في القرآنِ وكَلامِ العرَبِ، وإذا انْتَفَى أنْ يكونَ للمشركينَ حظٌّ في جَزاءِ الخَيرِ انْتَفى ما قالُوه مِن أنَّهم أفضَلُ حظًّا في الآخرةِ مِن المسلمينَ كما هو حالُهم في الدُّنيا، بطَريقِ فَحوى الخِطابِ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾

- قولُه: ﴿مَا لَكُمْ﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ لحالةِ حُكْمِهم، و﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ ثانٍ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿لَكُمْ﴾، أي: انْتَفى أنْ يكونَ لكم شَيءٌ في حالِ حُكْمِكم، أي: فإنْ ثَبَتَ لهم كان مُنكَرًا باعتبارِ حالةِ حُكْمِهم، والمعْنى: لا تَحكُمون أنَّكم مُساوُونَ للمسلمينَ في جَزاءِ الآخرةِ، أو مُفضَّلون

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٢).
وتقدَّم تعريفُ فحوى الخِطابِ (ص: ٢٥١).

عليهم[(١)].

- قيل: الالْتفاتُ مِن الغائبِ ﴿كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ إلى الخِطابِ في قولِه: ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ فيه تَعجُّبٌ مِن حُكْمِهم، واستبعادٌ له، وإشعارٌ بأنَّه صادرٌ مِن اختلالِ فِكرٍ، واعوجاجِ رأْيٍ[(٢)].

٤- قولُه تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ﴾ إضرابُ انتقالٍ مِن تَوبيخٍ إلى احتجاجٍ على كَذِبِهم، والاستفهامُ المُقدَّرُ مع (أَمْ) إنكارٌ لأنْ يكونَ لهم كتابٌ إنكارًا مَبنيًّا على الفرْضِ، وإنْ كانوا لم يَدَّعوه، وحاصلُ هذا الانتقالِ والانتقالاتِ الثَّلاثةِ بعْدَه -وهي ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا ...﴾ [القلم: ٣٩] إلخ، ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: ٤٠]، ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ ...﴾ [القلم: ٤١] إلخ- أنَّ حُكْمَكم هذا لا يَخلو مِن أنْ يكونَ سَنَدُه كتابًا سَماويًّا نزَلَ مِن لَدُنَّا، وإمَّا أنْ يكونَ سَنَدُه عهْدًا منَّا بأنَّا نُعطِيكم ما تَقترِحون، وإمَّا أنْ يكونَ لكمْ كَفيلٌ علينا، وإمَّا أنْ يكونَ تَعويلًا على نصْرِ شُركائِكم[(٣)].

- وضَميرُ ﴿فِيهِ﴾ عائدٌ إلى الحُكْمِ المُفادِ مِن قولِه: ﴿كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٦]، أي: كِتابٌ في الحكْمِ. و(في) للتَّعليلِ أو الظَّرفيةِ، كما تقولُ: وَرَدَ كتابٌ في الأمْرِ بكذا، أو في النَّهيِ عن كذا، فيَكونُ ﴿فِيهِ﴾ ظَرفًا مُستقَرًّا[(٤)]

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٩، ١٨٠).

(٤) الظَّرْفُ المُستقَرُّ -بفتحِ القافِ-: سُمِّيَ بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ مِن عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ =

صِفةً لـ ﴿كِتَٰبٌ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ عائدًا إلى ﴿كِتَٰبٌ﴾، ويَتعلَّقُ المجرورُ بفِعلِ ﴿تَدۡرُسُونَ﴾؛ جُعِلَت الدِّراسةُ العميقةُ بمَزيدِ التَّبصُّرِ في ما يَتضمَّنُه الكتابُ بمَنزلةِ الشَّيءِ المظروفِ في الكتابِ، كما تقولُ: لنا درْسٌ في كِتابِ سِيبويْهِ. وفي هذا إدماجٌ بالتَّعريضِ بأنَّهم أُمِّيُّونَ لَيسوا أهلَ كتابٍ، وأنَّهم لَمَّا جاءهم كتابٌ لهَدْيِهم وإلْحاقِهم بالأُمَمِ ذاتِ الكتابِ، كَفَروا نِعمتَه وكذَّبوه[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ في مَوضعِ مَفعولِ ﴿تَدۡرُسُونَ﴾، على أنَّها مَحكيٌّ لَفْظُها، أي: تَدرُسونَ هذه العبارةَ، أي: تَدرُسون جُملةَ ﴿إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾، ويكونُ ﴿فِيهِ﴾ تَوكيدًا لفظيًّا لنَظيرِها مِن قولِه: ﴿فِيهِ تَدۡرُسُونَ﴾، قُصِدَ مِن إعادتِها مَزيدُ ربْطِ الجُملةِ بالَّتي قبْلَها[٢].

- و﴿تَخَيَّرُونَ﴾ أصْلُه تَتخيَّرون بتاءينِ، حُذِفَت إحداهما تَخفيفًا[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ (أم) للانتقالِ إلى دَليلٍ آخَرَ،

= فيه؛ وبسببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وُجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّي ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِف الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٩٣، ٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٩٤).

وهو نفْيُ أنْ يكونَ مُستنَدُ زَعْمِهم عهْدًا أخَذوه على اللهِ لأنفُسِهم؛ أنْ يُعامِلَهم يومَ القيامةِ بما يَحكُمونَ به لأنفُسِهم، فالاستفهامُ اللَّازمُ تَقديرُه بعْدَ (أَمْ) إنكاريٌّ تَقريعيٌّ[١].

- وقولُه: ﴿عَلَيْنَا﴾ صِفةٌ ثانيةٌ لـ﴿أَيْمَنٌ﴾، أي: أقسَمْناها لكم لإثباتِ حقِّكم علينا؟ و﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ صِفةٌ ثالثةٌ لـ﴿أَيْمَـٰنٌ﴾، أي: أيْمانٌ مُؤبَّدةٌ لا تَحِلَّةَ منها؛ فحَصَل مِن الوصفينِ أنَّها عُهودٌ مُؤكَّدةٌ ومُستمرَّةٌ طولَ الدَّهرِ، فليس يومُ القيامةِ مُنْتهى الأخْذِ بتلك الأيْمانِ، بلْ هو تَنصيصٌ على التَّأبيدِ[٢].

٧- قولُه تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ عن جُملةِ ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَـٰنٌ عَلَيْنَا بَـٰلِغَةٌ﴾ [القلم: ٣٩]؛ لأنَّ الأيْمانَ -وهي العهودُ- تَقْتضي الكُفلاءَ عادةً، فلمَّا ذُكِرَ إنكارُ أنْ يكونَ لهم عُهودٌ، كُمِّلَ ذلك بأنْ يُطلَبَ منهم أنْ يُعيِّنوا مَن هم الزُّعماءُ بتلك الأيْمانِ[٣].

- وفي ﴿سَلْهُمْ﴾ تَلوينٌ للخِطابِ، وتَوجيهٌ لهُ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإسقاطِهم عن رُتبةِ الخِطابِ[٤].

- قولُه: ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ الاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ؛ زِيادةً على الإنكارِ عليهم، والزَّعيمُ: الكفيلُ، وقد جُعِلَ الزَّعيمُ أحدًا منهم زِيادةً في التَّهكُّمِ[٥].

٨- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ﴾

- (أم) إضرابٌ انتقاليٌّ ثالثٌ إلى إبطالِ مُستنَدٍ آخَرَ مَفروضٍ لهم في سَنَدِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٥).

قولِهم: إنَّا نُعطى مِثلَ ما يُعطى المسلِمونَ، أو خيرًا ممَّا يُعطَونه، وهو أنْ يُفرَضَ أنَّ أصنامَهم تَنصُرُهم، وتَجعَلُ لهم حظًّا مِن جَزاءِ الخَيرِ في الآخرةِ، والمعْنى: بلْ أثبَتَتْ لهم -أي: مِن أجْلِهم ونفْعِهم- شُركاءُ، أي: شُركاءُ لنا في الإلهيَّةِ في زَعْمِهم! فحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿شُرَكَآءُ﴾ لشُهرتِه عِندهم، فصار ﴿شُرَكَآءُ﴾ بمَنزلةِ اللَّقَبِ، أي: أمْ آلِهَتُهم لهم؟! فلْيَأتوا بهم ليَنفَعوهم يومَ القيامةِ، واللَّامُ في ﴿لَهُمْ﴾ لامُ الأجْلِ، أي: لأجْلِهم بتَقديرِ مُضافٍ، أي: لأجْلِ نَصْرِهم[(١)].

- وتَنكيرُ ﴿شُرَكَآءُ﴾ في حيِّزِ الاستِفهامِ المُستعمَلِ في الإنكارِ يُفيدُ انتفاءَ أنْ يكونَ أحدٌ مِن الشُّركاءِ -أي: الأصنامِ- لهم، أي: لنَفْعِهم، فيَعُمُّ أصنامَ جَميعِ قَبائلِ العرَبِ: المُشترَكَ في عِبادتِها بيْن القبائلِ، والمَخصوصةَ ببَعضِ القبائلِ[(٢)].

- وقد نُقِلَ أُسلوبُ الكلامِ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ لمُناسَبةِ وُقوعِه بعْدَ: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: ٤٠]؛ لأنَّ أخصَّ النَّاسِ بمَعرفةِ أحقِّيَّةِ هذا الإبطالِ هو النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذلك يَستتبِعُ تَوجيهَ هذا الإبطالِ إليهم بطَريقةِ التَّعريضِ[(٣)].

- والتَّفريعُ في قولِه: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ تَفريعٌ على نفْيِ أنْ تَنفَعَهم آلهتُهم؛ فتَعيَّنَ أنَّ أمْرَ ﴿فَلْيَأْتُوا۟﴾ أمْرُ تَعجيزٍ[(٤)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وإضافةُ (شُركاء) إلى ضَميرِهم لإبطالِ صِفةِ الشَّرِكةِ في الإلهيَّةِ عنهم، أي: لَيسوا شُركاءَ في الإلهيَّةِ إلَّا عندَ هؤلاء؛ فإنَّ الإلهيَّةَ الحقَّ لا تكونُ نِسبيَّةً بالنِّسبةِ إلى فَريقٍ أو قَبيلةٍ[١].

- قولُه: ﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ (إنْ) شَرطيَّةٌ، والجوابُ مَحذوفٌ دلَّ عليه ما تَقدَّمَ، أي: فلْيَأتوا بشُركائِهم[٢].

- مِن قولِه: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ الاستِفهاماتُ الَّتي وَرَدَت في هذه الآياتِ سَبْعةٌ، وقد خَرَجَت عن معْناها الأصليِّ إلى الإنكارِ والتَّوبيخِ والتَّقريعِ على ما أرْجَفُوا به مِن زَعْمِهم أنَّ اللهَ فضَّلنا عليكم في الدُّنيا، فلا بُدَّ مِن أنْ يُفضِّلَنا عليكم في الآخرةِ، أو على الأقلِّ إنْ لم يَحصُلِ التَّفضيلُ فلا أقلَّ مِن المُساواةِ؛ ففنَّد اللهُ مَزاعِمَهم مُقرِّعًا وموبِّخًا، وجاءت مُتعاقِبةً: أوَّلُها ﴿أَفَنَجۡعَلُ﴾، والثَّاني ﴿مَا لَكُمۡ﴾، والثَّالثُ ﴿كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾، والرَّابعُ ﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٌ﴾، والخامسُ ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ﴾، والسَّادسُ ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾، والسَّابعُ ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ﴾، وقد انتَظَمَت في سِلكٍ مِن الفصاحةِ والبَيانِ يَعْنو له كلُّ بَيانٍ[٣].

- مِن قولِه: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ نَبَّه سُبحانه وتَعالى في هذه الآياتِ على نفْيِ جَميعِ ما يُمكِنُ أنْ يَتشبَّثوا به مِن عقْلٍ -بقولِه تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾- أو نقْلٍ -بقولِه سبحانَه: ﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٌ ...﴾ إلخ- أو وعْدٍ -بقولِه سبحانَه: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٨١، ١٨٢).

عَلَيْنَا ...﴾ إلخ-، أو مَحضِ تَقليدٍ -بقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾؛ على القولِ بأنَّ المرادَ مَن شارَكهم في هذه المقالةِ، وسبَقهم لها، فنبَّه على مَراتبِ النَّظرِ، وزيف ما لا سَنَدَ له[1].



(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦، ٢٣٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٩٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٩).

الآيات (٤٢-٤٧)

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

غريبُ الكَلِمات:

﴿خَٰشِعَةً﴾: أي: ذليلةً خاضِعةً، وأصلُ (خشع): يدُلُّ على التَّطامُنِ[1].

﴿تَرْهَقُهُمْ﴾: أي: تَغشاهم وتَلحَقُهم، وأصلُ (رهق): يدُلُّ على غِشيانِ الشَّيءِ الشَّيءَ[2].

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾: أي: سنأخُذُهم قليلًا قليلًا، درجةً فدرجةً، ولا نُباغِتُهم، وأصلُه مِنَ الدَّرْج: وهو لفُّ الشَّيءِ وطَيُّه، والاستِدراجُ هو طَيُّ مَنزلةٍ بعْدَ مَنزلةٍ، ويجوزُ أن يكونَ مِنَ الدَّرَجةِ، فيكونَ معنى الاستدراجِ في الأمرِ: أن يُحَطَّ دَرَجةً بعدَ دَرَجةٍ حتَّى يَنتهيَ إلى مَقصودِه[3].

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾: أي: أؤَخِّرُهم وأُمْهِلُهم؛ وأطيلُ لهم المدَّةَ، وأترُكُهم مُلاوةً مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧، ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١١).

الدَّهْرِ، أي: حِينًا مِن الدَّهرِ، والمُلاوةُ المُدَّةُ مِن الدَّهرِ، وأصلُ (ملي): الزَّمَنُ الطَّويلُ[١].

﴿مَتِينٌ﴾: أي: قَويٌّ شَديدٌ، وأصلُ (متن): يدُلُّ على صَلابةٍ في الشَّيءِ[٢].

﴿مَّغْرَمٍ﴾: أي: غُرمٍ، وهو: ما يَنوبُ الإنسانَ في مالِه مِن ضَرَرٍ لغَيرِ جِنايةٍ منه أو خيانةٍ، والغرمُ أداءُ كلِّ شيءٍ يَلزَمُ، وأصلُ (غرم): يدُلُّ على مُلازَمةٍ[٣].

﴿مُّثْقَلُونَ﴾: أي: مُجهَدونَ لِما كلَّفْتَهم به، وأصلُ (ثقل): يدُلُّ على ضِدِّ الخِفَّةِ[٤].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبينًا جانبًا مِن مَشاهِدِ يومِ القيامةِ: يَوْمَ يَكشِفُ الرَّبُّ سُبحانَه وتعالى عن ساقِه الكريمةِ يومَ القِيامةِ، ويُدْعَون إلى السُّجودِ لله تعالى فلا يَستطيعونَ، خاضِعةً ساكِنةً أبصارُهم تَغشاهم ذِلَّةٌ، وقد كانوا في الدُّنيا يُؤمَرونَ بالسُّجودِ للهِ، وهم أصِحَّاءُ مُعافَونَ!

ثُمَّ يقولُ تعالى مهدِّدًا: فدَعْني -يا مُحمَّدُ- ومَن يُكذِّبونَ بهذا القُرآنِ، ولا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥، ٤٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٩)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٣٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨١).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨١).

تَستَعجِلْ هَلاكَهم، سنُقَرِّبُهم مِن هَلاكِهم شَيئًا فشَيئًا مِن حيثُ لا يَعلَمونَ، وأُمهِلُهم ولا أُعاجِلُهم بالعُقوبةِ؛ إنَّ مَكري وكَيدي بهم قَويٌّ شَديدٌ!

ثمَّ يُبطِلُ اللهُ تعالى حُجَجَهم، فيقولُ: أم تَسألُ قَومَك -يا مُحمَّدُ- مالًا لإبلاغِهم دعوتي، فيُثقِلُهم ويَشُقُّ عليهم ذلك، فلا يَستجيبونَ لك؟!

أم عِندَ أولئك المُشرِكينَ عِلمُ الغَيبِ فهم يَكتُبونَه؟!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٤٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى أنَّ للمتَّقينَ عِندَه جَنَّاتِ النَّعيمِ؛ بَيَّنَ متى ذلك كائنٌ وواقِعٌ[١].

وأيضًا لَمَّا نَفى اللهُ تعالَى جَميعَ شُبَهِ المشركينَ الَّتي يُمكِنُ أنْ يَتشبَّثوا بها، مع البيانِ لقُدرتِه على ما يُريدُ مِن تَفتيقِ الأدِلَّةِ، وتَشقيقِ البَراهينِ، الدَّالِّ على تَمامِ العِلمِ اللَّازمِ منه كَمالُ القُدرةِ، فأوصَلَهم مِن وُضوحِ الأمرِ إلى حدٍّ لم يَبْقَ معه إلَّا العِنادُ؛ أتْبَعَ ذلك تَهديدَهم بما يُثبِتُ قُدرتَه عليه؛ مِن يومِ الفَصْلِ، ومُعامَلتِهم فيه بالعدْلِ[٢].

﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾.

أي: يَوْمَ[٣] ....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٢، ٣٢٣).

(٣) قال الألوسي: (﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه تعالى: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ﴾... ويجوزُ تعلُّقُه بمُقدَّرٍ، كاذْكُرْ، أو يكونُ كَيْتَ وكَيْتَ. وقيل: بـ﴿خَٰشِعَةً﴾. وقيل: بـ﴿تَرۡهَقُهُمۡ﴾. وأيًّا ما كان فالمرادُ بذلك اليومِ عندَ الجمهورِ: يومُ القيامةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) =

يَكشِفُ الرَّبُّ سُبحانَه عن ساقِه الكريمةِ، وذلك يومَ القِيامةِ[1].

= (١٨/ ٢٤٨).

ممَّن اختار أنَّه متعلِّقٌ بقولِه: ﴿فَلْيَأْتُوا﴾: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، وابنُ الجوزي، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١١١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٩).

وممَّن اختار أنَّه متعلِّقٌ بمُقدَّرٍ تقديرُه: اذكُرْ: السمرقنديُّ، ومكِّي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٤٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٣٤).

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ٤٧٣، ٤٧٤)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٢٥٢، ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣١، ٣٣٢).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ وطائِفةٍ أنَّ المرادَ به الشِّدَّةُ؛ أنَّ اللهَ يَكشِفُ عن الشِّدَّةِ في الآخِرةِ. وعن أبي سعيدٍ وطائفةٍ: أنَّهم عَدُّوها في الصِّفاتِ). ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ٣٩٤، ٣٩٥). ويُنظر: ((الرد على الجهمية)) لابن منده (ص: ١٥).

وقال أيضًا: (الصَّحابةُ قد تَنازَعوا في تفسيرِ الآيةِ: هل المرادُ به الكشفُ عن الشِّدَّةِ، أو المرادُ به أنه يَكشِفُ الرَّبُّ عن ساقِه ... وذلك أنَّه ليس في ظاهرِ القرآنِ أنَّ ذلك صِفةٌ لله تعالى؛ لأنَّه قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، ولم يقُلْ: «عن ساقِ الله»، ولا قال: «يَكشِفُ الرَّبُّ عن ساقِه». وإنَّما ذكَر ساقًا مُنكَّرةً غيرَ مُعرَّفةٍ ولا مُضافةٍ، وهذا اللَّفظُ بمُجَرَّدِه لا يدُلُّ على أنَّها ساقُ الله، والَّذين جعَلوا ذلك مِن صفاتِ الله تعالى أثبتوه بالحديثِ الصَّحيحِ المفسِّرِ للقرآنِ، وهو حديثُ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ المُخَرَّجُ في الصَّحيحَينِ، الَّذي قال فيه: «فيَكشِفُ الرَّبُّ عن ساقِه»). ((بيان تلبيس الجهمية)) (٥/ ٤٧٢ - ٤٧٤).

وقال ابنُ عثيمين: (يحتَمِلُ أنْ يُرادَ بذلك ساقُ اللهِ تعالى، ويحتَمِلُ أن يُرادَ بالسَّاقِ الشِّدَّةُ، وقد قال السَّلَفُ بهذينِ القَولَينِ). ((شرح العقيدة السفارينية)) (١/ ٢٦٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ في الآيةِ: ساقُ الرَّبِّ سبحانه وتعالى: ابنُ جُزَي في ظاهرِ اختيارِه، واختاره الشوكاني، وابن باز، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٤/ ١٣١) و(٢٤/ ٣١٩)، ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٢٦٣). ويُنظر أيضًا: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ٤٧٣، ٤٧٤)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٢٥٢، ٢٥٣).

وعقد البخاريُّ في صحيحه في كتاب (تفسير القرآن): باب ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، وأورد تحتَه =

= حديثَ أبي سعيدٍ (٤٩١٩)، وفيه: ((يَكْشِفُ رَبُّنا عن ساقِه...)).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ مسعودٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٥٤).
قال الرَّسْعَنيُّ: (وذهَبَ جماعةٌ مِن عُلماءِ السُّنَّةِ إلى إلْحاقِ هذا بنظائرِه مِن آياتِ الصِّفاتِ وأخبارِ الصِّفاتِ...). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٤١).
قال الشوكاني: (قد أغنانا اللهُ سبحانه في تفسيرِ هذه الآيةِ بما صَحَّ عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم...، وذلك لا يَستلزِمُ تَجسيمًا ولا تشبيهًا؛ فليس كمِثْلِه شَيءٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣١، ٣٣٢).

وقال ابن عثيمين: (سياقُ الحديثِ يجاري سياقَ الآيةِ تمامًا، فتُحمَلُ الآيةُ على ما جاء في الحديثِ، وتكونُ إضافتُنا السَّاقَ لله في الآيةِ بناءً على الحديثِ، ومِن المعلوم أنَّ الحديثَ يفسِّرُ القرآنَ، وبهذا تكونُ القاعدةُ مُطَّردةً ليس فيها نقصٌ). ((شرح العقيدة السفارينية)) (١/ ٢٦٣).
وقال ابنُ تَيميَّةَ: (وقد يُقالُ: إنَّ ظاهرَ القُرآنِ يدُلُّ على ذلك مِن جِهةِ أنَّه أخبَرَ أنه يُكشَفُ عن ساقٍ، ويُدْعَون إلى السُّجودِ، والسُّجودُ لا يَصلُحُ إلَّا لله، فعُلِمَ أنَّه هو الكاشفُ عن ساقِه، وأيضًا فحَمْلُ ذلك على الشِّدَّةِ لا يصِحُّ؛ لأنَّ المستعمَلَ في الشِّدَّةِ أنْ يُقال: كَشَفَ اللهُ الشِّدَّةَ، أي: أزالها، كما قال: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾[الزخرف: ٥٠]، وقال: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ﴾ [الأعراف ١٣٥]، وقال: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون ٧٥]، وإذا كان المعروفُ مِن ذلك في اللُّغةِ أنَّه يُقال: كشَفَ الشِّدَّةَ، أي: أزالها، فلَفظُ الآيةِ: ﴿يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ﴾، وهذا يُرادُ به الإظهارُ والإبانةُ، كما قال: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمُ﴾، وأيضًا فهناك تَحدُثُ الشِّدَّةُ ولا يُزيلُها، فلا يَكشِفُ الشِّدَّةَ يومَ القيامةِ، لكنَّ هذا الظَّاهرَ ليس ظاهرًا مِن مُجرَّدِ لَفظِ «ساقٍ»، بلْ بالتَّركيبِ والسِّياقِ وتَدبُّرِ المعنى المقصودِ). ((بيان تلبيس الجهمية)) (٥/ ٤٧٢ - ٤٧٤).
وقال ابنُ القيِّمِ: (قالوا: وحمْلُ الآيةِ على الشِّدَّةِ لا يصِحُّ بوجْهٍ؛ فإنَّ لُغةَ القومِ في مِثلِ ذلك أنْ يُقال: كُشِفَت الشِّدَّةُ عن القومِ، لا: كُشِفَ عنها، كما قال اللهُ تَعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾[الزخرف: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾[المؤمنون: ٧٥]، فالعذابُ والشِّدَّةُ هو المكشوفُ لا المكشوفُ عنه، وأيضًا فهناك تَحدُثُ الشِّدَّةُ وتَشتَدُّ، ولا تُزالُ إلَّا بدُخولِ الجنَّةِ، وهناك لا يُدْعَون إلى السُّجودِ، وإنَّما يُدعَون إليه أشَدَّ ما كانت الشِّدَّةُ). ((الصواعق المرسلة)) (١/ ٢٥٣).
وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالسَّاقِ الشِّدَّةُ: ابنُ قُتَيْبةَ، والواحديُّ، والقرطبي، وذهب إليه البِقاعي، =

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقولُ: ((يَكشِفُ رَبُّنا عن ساقِه، فيَسجُدُ له كُلُّ مُؤمِنٍ ومُؤمِنةٍ، فيَبقى كُلُّ مَن كان يَسجُدُ في الدُّنيا رِياءً وسُمعةً، فيَذهَبُ ليَسجُدَ، فيَعودُ ظَهرُه طَبَقًا واحِدًا!))[1].

= وابنُ عاشور. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٧، ٩٨).

ونُسِب هذا القولُ إلى جمهورِ أهلِ اللُّغةِ والمفسِّرينَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٢٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٢٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقَتادةُ، وعِكْرِمةُ، وعَطاءٌ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١١١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٥٦).

وقال السعدي: (أي: إذا كان يومُ القيامةِ، وانكشَفَ فيه مِنَ القلاقِلِ والزَّلازِلِ والأهوالِ ما لا يدخُلُ تحتَ الوَهمِ، وأتى الباري لفَصلِ القَضاءِ بيْن عِبادِه ومجازاتِهم، فكَشَفَ عن ساقِه الكريمةِ الَّتي لا يُشبِهُها شَيءٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

(١) رواه البخاري (٤٩١٩) واللَّفظُ له، ومسلم (١٨٣).

وممَّا يُستأنسُ به حديثُ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سمِعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((إذا جمَع اللهُ العبادَ بصعيدٍ واحدٍ نادَى مُنادٍ: يَلحَقُ كلُّ قَومٍ بما كانوا يَعبُدونَ، ويبقَى النَّاسُ على حالِهم، فيأتيهم فيقولُ: ما بالُ النَّاسِ ذهَبوا وأنتم هاهنا؟ فيَقولونَ: نَنتَظِرُ إلهَنا، فيقولُ: هل تَعرِفونَه؟ فيقولونَ: إذا تعرَّف إلينا عرَفْناه، فيَكشِفُ لهم عن ساقِه، فيَقَعونَ سُجَّدًا، وذلك قولُ الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾، ويبقَى كلُّ منافقٍ، فلا يستطيعُ أن يَسجُدَ، ثمَّ يَقودُهم إلى الجنَّةِ)). أخرجه الدَّارميُّ (٢٨٠٣) واللَّفظُ له، وابنُ أبي عاصم في ((السُّنة)) (٧٣٢).

حسَّن إسنادَه الألبانيُّ في تخريج ((كتاب السنة)) (٧٣٢)، وجوَّده في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٥٨٤). وقال أيضًا (٢/ ١٢٩): (وهو نصٌّ في الخِلافِ السَّابقِ في «السَّاق»، وإسنادُه قويٌّ).

وأخرجه مِن طريقٍ آخَرَ ابنُ مَنْدَه في ((الإيمان)) (٨١١)، وقال: (مقبولٌ، رُواتُه مَشاهيرُ).

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

أي: ويُدْعَونَ إلى السُّجودِ لله تعالى في ذلك اليَومِ، فلا يَقدِرونَ على ذلك[1].

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضيَ اللهُ عنه -في حديثِ الرُّؤيةِ والشَّفاعةِ الطَّويلِ- أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((... فيُكشَفُ عن ساقٍ، فلا يبقَى مَن كان يَسجُدُ للهِ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه إلَّا أَذِنَ اللهُ له بالسُّجودِ، ولا يَبقى مَن كان يَسجُدُ اتِّقاءً ورياءً إلَّا جَعَل اللهُ ظَهْرَه طَبقةً واحِدةً، كلَّما أراد أن يَسجُدَ خَرَّ على قفاه!))[2].

---

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٨، ٩٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ المنافِقون: الزَّجَّاجُ، ومكِّي، والسمعاني، وابن الجوزي، وابن جُزَي، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٠)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٧٦٤٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٨).

قال ابن جُزَي: (وفي الحديثِ الصَّحيح عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: «... فيكشفُ لهم عن ساقٍ، فيَقولون: نعَمْ أنت ربُّنا، ويَخِرُّونَ للسُّجودِ، فيَسجُدُ كلُّ مؤمنٍ، وتَرجِعُ أصلابُ المنافِقين عَظمًا واحدًا، فلا يَستَطيعونَ سُجودًا»، وتأويلُ الحديثِ كتأويلِ الآيةِ. ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ تفسيرُه في الحديثِ الَّذي ذَكَرْنا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٢).

وذكر ابن عاشور أنَّ قولَه: ﴿وَيُدْعَوْنَ﴾ لا يعودُ إلى المشرِكينَ؛ لقولِه بعدَ ذلك: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾؛ فإنَّ المشرِكين لم يَكونوا في الدُّنيا يُدْعَون إلى السُّجودِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٨).

وقيل: المرادُ: الكفَّارُ. وممَّن اختاره: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والنَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٢٥).

وقيل: المرادُ: الكفَّارُ والمنافِقونَ. وممَّن اختاره: الواحديُّ -ونسَبَه لجميعِ المفسِّرينَ-، والبغويُّ، والخازنُ، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ القيِّم، واختاره العُلَيمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١١٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣٠)، ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٣٤).

(٢) رواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) واللَّفظُ له.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾.

أي: تكونُ أبصارُهم يومَ القيامةِ خاضِعةً ساكِنةً[1].

قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥].

﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾.

أي: تَغشاهم ذِلَّةٌ شديدةٌ[2].

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧].

﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾.

أي: وقد كانوا في الدُّنيا يُؤمَرونَ بالسُّجودِ لله، وهم أصِحَّاءُ، مُعافَونَ، لا يَمنَعُهم

---

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٤، ٣٢٥).

قال ابنُ تيميَّة: (... إنَّ الخُشوعَ يَجمَعُ مَعنيَين؛ أحدُهما: الذُّلُّ والخُضوعُ والتَّواضُعُ. والثَّاني: السُّكونُ والثَّباتُ. ومنه قولُه تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾، وقولُه: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، وهو الانخفاضُ والسُّكونُ. ومنه خُشوعُ الأرضِ، وهو سُكونُها وانخفاضُها، فإذا أُنزِلَ عليها الماءُ اهتزَّت بَدَلَ السُّكونِ، ورَبَت بَدَلَ الانخفاضِ). ((تفسير آيات أَشكلت على كثير من العلماء)) (١/ ٤٢٦، ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٩).

قال البِقاعي: (﴿تَرْهَقُهُمْ﴾ أي: تَغشاهم وتَقهَرُهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ أي: عَظيمةٌ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٢٥).

وقال ابن عاشور: (﴿تَرْهَقُهُمْ﴾: تحُلُّ بهم وتقتَرِبُ منهم بحِرصٍ على التَّمكُّنِ منهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٩).

شَيءٌ[١]!

كما قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨].

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا خوَّفَ الكفَّارَ بعَظَمةِ يومِ القيامةِ، زاد في التَّخويفِ، فخوَّفَهم بما عندَه، وفي قُدرتِه مِن القَهْرِ[٢].

وأيضًا بعْدَ أنِ استُوفِيَ الغرَضُ مِن مَوعظتِهم، ووَعيدِهم، وتَزْييفِ أوهامِهم؛ أُعقِبَ بهذا الاعتراضِ تَسليةً للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ اللهَ تَكفَّلَ بالانتِصافِ

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٦ - ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٩).

قال الواحدي: (قولُه: ﴿وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ يعني: في الدُّنيا، حينَ كانوا يُدْعَون إلى الصَّلاةِ المكتوبةِ ويُؤمَرون بها وهم مُعافَون، ليس في أصلابِهم مِثلُ سَفافيدِ الحديدِ. ومعنى قولِه: ﴿يُدْعَوْنَ﴾ أي: بالأذانِ والإقامة. وهذا الَّذي ذكَرْنا قولُ ابنِ عبَّاسٍ، ومُقاتلٍ، وإبراهيمَ التَّيْميِّ. قال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: كانوا يَسمَعونَ «حيَّ على الفلاحِ» فلا يُجيبونَ). ((البسيط)) (٢٢/ ١١٧). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٨، ٤٠٩).

وقال السمعاني: (وظاهِرُ الآيةِ أنَّ مَعْناها السُّجودُ في الصَّلاة). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٠).

وقال الشوكاني: (وقيل: يُدْعَونَ بالتَّكليفِ المُتوجِّهِ عليهم بالشَّرعِ فلا يُجيبون). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٩).

وقال القاسمي: (والمرادُ من السُّجودِ: عبادةُ اللهِ وحْدَه، وإسلامُ الوجهِ له، والعملُ بما أمَر به من الصَّالحاتِ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٥).

مِن المُكذِّبينَ ونصْرِه عليهم[(١)].

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾.

أي: فدَعْني -يا مُحمَّدُ- ومَن يُكذِّبونَ بالقُرآنِ، فخَلِّ بيْني وبيْنَهم، وفوِّضْ أمْرَهم إلَيَّ؛ فإنِّي أكفيكهم، فلا تَستعجِلْ هَلاكَهم، ولا يَنشَغِلْ قَلْبُك بهم[(٢)]!

كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا * وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُولِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١٠، ١١].

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: سنُقَرِّبُ هؤلاء المكَذِّبينَ بالقُرآنِ مِن عَذابِهم شَيئًا فشَيئًا بالتَّدريجِ مِن جِهاتٍ وأسبابٍ لا يتفَطَّنونَ إلى أنَّها مُفضِيةٌ بهم إلى الهلاكِ؛ حيثُ يَزيدُهم اللهُ تعالى مِن مَتاعِ الدُّنيا، فيَحسَبونَ ذلك خَيرًا لهم[(٣)]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالحديثِ هنا: القرآنُ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والزمخشري، والقرطبي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ عاشور: (وتَسميتُه حديثًا؛ لِما فيه مِن الإخبارِ عن اللهِ تعالى، وما فيه مِن أخبارِ الأُمَمِ، وأخبارِ المغَيَّباتِ ...). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٠).

وقيل: ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: يومَ القيامةِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠١).

قال الشوكاني: (المعنى: سنأخُذُهم بالعذابِ على غَفلةٍ، ونَسوقُهم إليه دَرَجةً فدَرَجةً حتَّى =

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٤ - ٥٦].

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾.

أي: وأُمهِلُهم، ولا أعاجِلُهم بالعُقوبة(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُملي للظَّالم حتَّى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه، ثمَّ قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]))(٢).

﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾.

أي: ذلك مِن مَكري وكَيدِي بهم، ومَكري قَويٌّ شَديدٌ(٣)!

= نوقِعَهم فيه مِن حيثُ لا يَعلَمونَ أنَّ ذلك استِدراجٌ؛ لأنَّهم يَظُنُّونَه إنعامًا، ولا يُفَكِّرونَ في عاقبتِه، وما سيَلقَونَ في نهايتِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٨).

قال ابن جرير: (لِتتكامَلَ حُجَجُ اللهِ عليهم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٨).

وقال الواحدي: (لِيَتمادَوا في المعاصي). ((البسيط)) (٩/ ٤٨٧).

(٢) رواه البخاري (٤٦٨٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٥٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن =

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعْدَ أنْ نَفى أنْ تكونَ لهم حُجَّةٌ تُؤيِّدُ صَلاحَ حالِهم، أو وعْدٌ لهم بإعطاءِ ما يَرغَبون، أو أولياءُ يَنصُرونهم؛ عَطَفَ الكلامَ إلى نفْيِ أنْ يكونَ عليهم ضُرٌّ في إجابةِ دَعوةِ الإسلامِ؛ استِقصاءً لقطْعِ ما يُحتملُ مِن المَعاذيرِ بافتراضِ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سَألَهم أجْرًا على هَدْيِه إيَّاهم، فصَدَّهم عن إجابتِه ثِقَلُ غُرمِ المالِ على نُفوسِهم [(١)].

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: أم تَسألُ قَومَك مالًا -يا مُحمَّدُ- مُقابِلَ إبلاغِهم الحَقَّ، فيُثقِلُهم ويَشُقُّ عليهم ذلك فيَمتَنِعون عن قَبولِ نَصيحتِك، والاستجابةِ لك[(٢)]؟!

قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾

= كثير)) (٨/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

قال البِقاعي: (﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ أي: سَتْري لأسبابِ الهَلاكِ عمَّن أُريدُ إهلاكَه، وإبدائي ذلك له في مَلابِسِ الإحسانِ، وخِلَعِ البِرِّ والامتنانِ ﴿مَتِينٌ﴾ أي: في غايةِ القوَّةِ؛ حيثُ كان حامِلًا للإنسانِ على إهلاكِ نَفْسِه باختيارِه، وسيَعلَمُ عندَ الأخذِ أنِّي لَمَّا أمهَلْتُه ما أهمَلْتُه، وأنَّ إمهالي إنَّما كان استدراجًا). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٢٨، ٣٢٩).

وقال الشنقيطي: (الكَيدُ في لُغةِ العَرَبِ معناه: المكرُ، وهو أن يكونَ الفاعِلُ يُبطِنُ غيرَ ما يُظهِرُ، وسَمَّى اللهُ هذا الاستدراجَ كَيدًا؛ لأنَّ ظاهِرَه إنعامٌ وإغداقُ نِعَمٍ، وباطِنَه استدراجٌ يَستَدنيهم به، ويَستَدرِجُهم إلى الموتِ والعذابِ الدَّائمِ الَّذي يُخلَّدونَ فيه). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٢، ١٠٣).

[ص: ٨٦، ٨٧].

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نفَى اللهُ تعالى أن يكونَ تَكذيبُ المُشرِكينَ بشَهوةٍ دَعَتْهم إلى ذلك؛ نفَى أن يكونَ لهم في ذلك شُبهةٌ مِن شَكٍّ في الذِّكرِ، أو حَيفٍ في المذكِّرِ، وأن يَكونوا على ثِقةٍ أو ظَنٍّ مِن سلامةِ العاقِبةِ[1].

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

أي: أم عِندَ أولئك المُشرِكينَ عِلمُ ما غاب عن الخَلقِ، فهم يَكتُبونَه[2]؟!

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ هذا الجزاءُ مِن جِنسِ عَمَلِهم؛ فإنَّهم كانوا يُدْعَونَ في الدُّنيا إلى السُّجودِ لله وتوحيدِه وعبادتِه وهم سالِمونَ، لا عِلَّةَ فيهم، فيَستَكبِرونَ عن ذلك ويأبَونَ، فلا تَسأَلْ يَومَئذٍ عن حالِهم وسُوءِ مآلِهم؛ فإنَّ اللهَ قد سَخِطَ عليهم، وحَقَّت عليهم كَلِمةُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٩، ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٣).

قال القرطبي: (﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي: عِلمُ ما غاب عنهم ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾. وقيل: أيَنزِلُ عليهم الوَحيُ بهذا الَّذي يَقولونَ. وعن ابنِ عبَّاسٍ: الغَيبُ هنا: اللَّوحُ المحفوظُ، فهم يكتُبونَ مِمَّا فيه يخاصِمونَك به، ويَكتُبونَ أنَّهم أفضَلُ منكم، وأنَّهم لا يُعاقَبونَ. وقيل: ﴿يَكْتُبُونَ﴾ يَحكُمونَ لأنفُسِهم بما يُريدونَ!). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٢).

وقال السعدي: (﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما كان عِندَهم مِن الغُيوبِ، وقد وَجَدوا فيها أنَّهم على حَقٍّ، وأنَّ لهم الثَّوابَ عِندَ اللهِ، فهذا أمرٌ ما كان، وإنَّما كانت حالُهم حالَ مُعانِدٍ ظالمٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

العذابِ، وتقَطَّعَت أسبابُهم، ولم تنفَعْهم النَّدامةُ، ولا الاعتِذارُ يومَ القيامةِ؛ ففي هذا ما يُزعِجُ القُلوبَ عن المُقامِ على المعاصي، ويُوجِبُ التَّدارُكَ مُدَّةَ الإمكانِ[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ حمَلَه بعضُهم على أنَّ ذلك يَعني: حينَ كانوا يُدْعَونَ إلى الصَّلَواتِ بالأذانِ والإقامةِ، وكانوا سالِمينَ قادِرينَ على الصَّلاةِ، وأنَّ فيه وَعيدًا لِمَن قَعَد عن الجَماعةِ، ولم يُجِبِ المؤذِّنَ إلى إقامةِ الصَّلاةِ في الجَماعةِ[2]! قال كعبُ الأحبارِ: (واللهِ ما نزلَتْ هذه الآيةُ إلَّا عن الَّذين يَتخلَّفونَ عن الجَماعاتِ)[3].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قد يُكَلِّفُ في الآخرةِ امتِحانًا، وإنْ كانت ليست دارَ تكليفٍ، بل هي دارُ جزاءٍ[4].

٢- قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ استدَلَّ به بعضُهم على أنَّ صلاةَ الجَماعةِ فَرْضٌ على الأعيانِ[5]، ووَجْهُ الاستِدلالِ: أنَّه سُبحانَه عاقَبَهم يومَ القيامةِ بأنْ حالَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١١٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٤).

(٥) وهو مذهبُ الحنابلةِ، واختاره عددٌ مِن المحقِّقينَ؛ كالبخاريِّ، وابنِ المُنذِرِ، وممَّن اختاره من المعاصِرينَ: ابنُ باز، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (١/ ٤٥٤، ٤٥٥)، ((صحيح البخاري)) (١/ ١٣١) (باب وجوب صلاةِ الجماعةِ)، قبلَ حديث (٦٤٤)، ((الأوسط)) =

بيْنَهم وبيْنَ السُّجودِ لَمَّا دعاهم إلى السُّجودِ في الدُّنيا فأَبَوا أنْ يُجيبوا الدَّاعيَ، إذا ثَبَتَ هذا فإجابةُ الدَّاعي هي إتيانُ المَسجِدِ بحُضورِ الجَماعةِ؛ لا فِعْلُها في بَيْتِه وَحْدَه، هكذا فَسَّر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الإجابةَ في قولِه صلَّى الله عليه وسلَّم للرَّجُلِ الأعمَى: ((هل تَسمَعُ النِّداءَ)). قال: نعَمْ. قال: ((فأجِبْ))[١]. فلم يُجعَلْ مُجيبًا له بصَلاتِه في بيتِه إذا سمِع النِّداءَ؛ فدلَّ على أنَّ الإجابةَ المأمورَ بها هي إتيانُ المسجِدِ للجَماعةِ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]: استُدِلَّ به على كُفرِ تارِكِ الصَّلاةِ[٣]، ووجْهُ الدَّلالةِ مِن الآيةِ أنَّه سُبحانَه أخبرَ أنَّه لا يَجعَلُ المُسلِمينَ كالمُجرِمينَ، وأنَّ هذا الأمرَ لا يَليقُ بحِكْمتِه ولا بحُكْمِه، ثُمَّ ذَكَرَ أحوالَ المجرِمينَ الَّذين هم ضِدُّ المُسلِمينَ، فقال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، وأنَّهم يُدْعَونَ إلى السُّجودِ لربِّهم تبارك وتعالى فيُحالُ بيْنَهم وبيْنَه، فلا يَستطيعونَ السُّجودَ مع المسلمينَ؛ عقوبةً لهم على تَركِ السُّجودِ

= لابن المنذر (٤/ ١٤٨)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١٢/ ١٣)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٥/ ١٨).

(١) أخرجه مسلم (٦٥٣) من حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ١٠٠).

(٣) وهذا مذهبُ الحنابلةِ أنَّ تارِكَ الصَّلاةِ تَهاوُنًا، كافرٌ كفرًا مُخرِجًا من المِلَّةِ. يُنظر: ((الإنصاف)) للمَرْداوي (١/ ٢٨٦)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (١/ ٢٢٩).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (وتكفيرُ تارِكِ الصَّلاةِ هو المشهورُ المأثورُ عن جمهورِ السَّلَفِ مِن الصَّحابةِ والتَّابعينَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٠/ ٩٧).

ومذهبُ الجمهورِ مِن الحنفيَّةِ والمالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ أنَّه لا يكفرُ. يُنظر: ((حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح)) (ص: ١١٦)، ((مواهب الجليل)) للحطَّاب (٢/ ٥٢)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٢/ ١٤٦). ويُنظر أيضًا: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٧/ ٥٣).

له مع المصَلِّينَ في دارِ الدُّنيا، ولو كانوا مِن المسلِمينَ لَأُذِنَ لهم بالسُّجودِ كما أُذِنَ للمُسلِمينَ(١)!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ بيانُ أنَّ جِنسَ السُّجودِ أفضَلُ مِن جِنسِ القيامِ والقِراءةِ؛ فقد أُمِروا بالسُّجودِ في عَرَصاتِ القيامةِ دونَ غَيرِه مِن أجزاءِ الصَّلاةِ؛ فعُلِمَ أنَّه أفضَلُ مِن غَيرِه(٢).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ أي: صَحيحونَ، فإنْ قيل: الصِّحَّةُ ليست شَرطًا في وُجوبِ الصَّلاةِ؟

الجوابُ: المرادُ: الخُروجُ إلى الصَّلاةِ في جماعةٍ مَشروطٌ بالصِّحَّةِ(٣).

أو يُجابُ بأنَّه تعليلٌ لعدمِ استِطاعتِهم السُّجودَ في الآخرةِ(٤).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّه لم يَسألْهم أجرًا على دَعوتِه إيَّاهم، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، فالأجرُ المَسؤولُ المُستَفهَمُ عنه هو الأجرُ المادِّيُّ بالمالِ ونَحوِه(٥).

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾

- على القولِ بأنَّ قولَه: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ [القلم: ٤١]، أي: فلْيَأتوا بالمَزعومينَ يومَ القِيامةِ، فهذا مِن حُسنِ التَّخلُّصِ إلى ذِكرِ

---

(١) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٤٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٧).

(٤) يُنظر: ((التفسير المظهري)) (١٠/ ٤٢).

(٥) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٥٤).

أهوالِ القِيامةِ عليهم. وعلى القولِ بأنَّه استئنافٌ مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ تَقديرُه: اذكُرْ يومَ يُكشَفُ عن ساقٍ، ويُدْعَون إلى السُّجودِ... إلخ؛ للتَّذكيرِ بأهوالِ ذلك اليومِ. أو يومَ يُكشَفُ عن ساقٍ كان كَيْتَ وكَيتَ، فإنَّه حُذِفَ للتَّهويلِ البليغِ، وأنَّ ثَمَّ مِن الكَوائنِ ما لا يُوصَفُ لِعِظَمِه[1].

- على القولِ بأنَّ الكشفَ عن ساقٍ مَثَلٌ لشِدَّةِ الحالِ وصُعوبةِ الخَطْبِ والهَولِ، فأصْلُه أنَّ المرءَ إذا هَلَعَ أنْ يُسرِعَ في المشْيِ ويُشمِّرَ ثِيابَه، فيَكشِفَ عن ساقِه، كما يُقالُ: شمَّرَ عن ساعدِ الجِدِّ، وأيضًا كانوا في الرَّوعِ والهزيمةِ تُشمِّرُ الحرائرُ عن سُوقِهنَّ في الهرَبِ أو في العمَلِ، فتَنكشِفُ سُوقُهنَّ بحيث يَشغَلُهنَّ هَولُ الأمرِ عن الاحترازِ مِن إبداءِ ما لا تُبْدينَه عادةً، فيُقالُ: كَشَفَت عن ساقِها، أو شمَّرَت عن ساقِها، أو أبْدَتْ عن ساقِها، فإذا قالوا: كَشَفَ المرْءُ عن ساقِه، فهو كِنايةٌ عن هَولٍ أصابَه وإنْ لم يَكُنْ كشَفَ ساقَه[2].

- قيل: تَنكيرُ السَّاقِ إبهامٌ للمُبالَغةِ في الدَّلالةِ على أنَّه أمْرٌ مُبهَمٌ في الشِّدَّةِ، مُنكَرٌ خارجٌ عن المألوفِ المُعتادِ[3].

- قيل: جُملةُ ﴿وَيُدۡعَوۡنَ﴾ ليس عائدًا إلى المشركينَ؛ إذ لا يُساعِدُ قولُه: ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾؛ فإنَّ المشركين لم يَكونوا في الدُّنيا يُدْعَون إلى السُّجودِ، فالوجهُ أنْ يكونَ عائدًا إلى غيرِ مَذكورٍ، أي: ويُدْعى مَدْعُوُّون،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٣، ٥٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٣).

فيَكونَ تَعريضًا بالمنافِقينَ بأنَّهم يُحشَرونَ معَ المسلمينَ ويُمتحَنُ النَّاسُ بدُعائِهم إلى السُّجودِ؛ ليَتميَّزَ المؤمنونَ الخُلَّصُ عن غَيرِهم تَميُّزَ تَشريفٍ، فلا يَستطيعُ المنافِقون السُّجودَ، فيُفتضَحُ كُفْرُهم، فيكون قولُه تعالَى: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ إدماجًا[1] لذِكرِ بَعضِ ما يَحصُلُ مِن أحوالِ ذلك اليومِ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ خُشوعُ الأبصارِ: هَيئةُ النَّظَرِ بالعَينِ بذِلَّةٍ وخَوفٍ، عُبِّرَ عنه بوصْفِ ﴿خَٰشِعَةً﴾؛ لأنَّ الخاشعَ يكونُ مُطَأْطِئًا مُختفيًا[3].

- وخَصَّ الأبصارَ بالخُشوعِ، وإنْ كانتْ الجوارِحُ كلُّها خاشِعةً؛ لأنَّ الخُشوعَ أبْيَنُ في البصرِ منه في كلِّ جارحةٍ، ولأنَّ ما في القلْبِ يُعرَفُ مِن العَينِ[4].

- وجُملةُ ﴿وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ ما قبْلَها وما تَفرَّعَ عنها، أي: كانوا في الدُّنيا يُدْعَون إلى السُّجودِ للهِ وحْدَه وهم سالِمون مِن مِثلِ الحالةِ الَّتي همْ عليها في يومِ الحشرِ، والواوُ للحالِ وللاعتِراضِ[5].

- قولُه: ﴿ٱلسُّجُودِ﴾ قيل: هو عِبارةٌ عن جَميعِ الطَّاعاتِ، وخُصَّ بالذِّكرِ مِن حيثُ هو أعظَمُ الطَّاعاتِ، ومِن حيثُ امتُحِنوا به في الآخِرةِ[6].

- وفي قولِه: ﴿وَقَدْ كَانُواْ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ إظهارٌ في مَوضعِ الإضمارِ -حيثُ

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٨).

لم يُقَلْ: (يُدْعَونَ إليهِ)-؛ لزيادةِ التَّقريرِ، أو لأنَّ المرادَ بهِ الصَّلاةُ، أو ما فيها مِن السُّجودِ[١].

- قولُه: ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾، أي: فلا يُجيبونَ إليهِ ويأبَونَه، وإنَّما تُرِكَ ذِكرُه؛ ثِقةً بظُهورِه[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾

- الفاءُ في ﴿فَذَرْنِي﴾ لتَفريعِ الكلامِ الَّذي عطَفَتْه على الكلامِ الَّذي قبْلَه؛ لِكَونِ الكلامِ الأوَّلِ سببًا في ذِكرِ ما بعْدَه. ويجوزُ أنْ تكونَ فَصيحةً؛ لأنَّها جَوابُ شَرطٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: إذا كانتْ أحوالُهم كذلك فذَرْني[٣].

- ويَتضمَّنُ هذا تَعريضًا بالتَّهديدِ للمُكذِّبين؛ لأنَّهم يَسمَعون كَلامَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهذا وعْدٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالنَّصرِ، ووَعيدٌ لهم بانتقامٍ في الدُّنيا؛ لأنَّه تَعجيلٌ لتَسليةِ الرَّسولِ[٤].

- قولُه: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ ...﴾ أفرَدَ الضَّميرَ؛ نصًّا على تهديدِ كلِّ واحدٍ مِن المكذِّبين[٥].

- قولُه: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ الحديثُ: القرآنُ، واسمُ الإشارةِ على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٦).

هذا للإشارةِ إلى مُقدَّرٍ في الذِّهنِ ممَّا سَبَق نُزولُه مِن القرآنِ. ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بالحديثِ الإخبارَ عن البعثِ، وهو ما تَضمَّنَه قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ الآيةَ [القلم: ٤٢]، ويكونَ اسمُ الإشارةِ إشارةً إلى ذلك الكلامِ، والمعْنى: حسْبُك إيقاعًا بهم أنْ تَكِلَ أمْرَهم إلَيَّ؛ فأنا أعلَمُ كيف أنْتصِفُ منهم، فلا تَشغَلْ نفْسَك بهم، وتوكَّلْ علَيَّ(١).

- وقولُه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لمَضمونِ ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ باعتبارِ أنَّ الاستدراجَ والإملاءَ يَعقُبُهما الانتقامُ، فكأنَّه قال: سنَأخُذُهم بأعمالِهم، فلا تَستبطِئِ الانتقامَ؛ فإنَّه مُحقَّقٌ وُقوعُه، ولكنْ يُؤخِّرُ لِحكمةٍ تَقْتضي تأْخيرَه(٢).

- والضَّميرُ في ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ لـ (مَنْ)، والجمْعُ باعتبارِ معناها، كما أنَّ الإفرادَ في ﴿يُكَذِّبُ﴾ باعتبارِ لَفظِها(٣).

- ومَوقعُ (إنَّ) مَوقعُ التَّسبُّبِ والتَّعليلِ(٤).

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ إضرابٌ آخَرُ للانتقالِ إلى إبطالٍ آخَرَ مِن إبطالِ مَعاذيرِهم في إعراضِهم عن استِجابةِ دَعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المُبتدِئِ مِن قولِه: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ﴾ [القلم: ٣٦، ٣٧]، ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ﴾ [القلم: ٣٩]، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ﴾(٥) [القلم: ٤١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٢).

- والاستِفهامُ الَّذي تُؤذِنُ به (أَمْ) استِفهامُ إنكارٍ، لفرْضِ أنْ يكونَ ذلك ممَّا يُخامِرُ نُفوسَهم فرْضًا اقتضاهُ استِقراءُ نيَّاتِهم مِن مَواقعِ الإقبالِ على دَعوةِ الخَيرِ والرُّشدِ[١].

- قولُه: ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ الفاءُ في ﴿فَهُم﴾ للتَّفريعِ والتَّسبُّبِ، أي: فيَتسبَّبُ على ذلك أنَّك شَقَقْتَ عليهم، فيكونُ ذلك اعتِذارًا منهم عن عَدَمِ قَبولِ ما تَدْعوهم إليه[٢].

- و﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿مُّثْقَلُونَ﴾، و(مِن) ابتدائيَّةٌ، وهو ابتداءٌ بمعْنى التَّعليلِ، وتَقديمُ المعمولِ على عامِلِه للاهتِمامِ بمُوجِبِ المَشقَّةِ قبْلَ ذِكرِها، مع الرِّعايةِ على الفاصلةِ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ إضرابٌ آخَرُ انتُقِلَ به مِن مَدارجِ إبطالِ مَعاذيرَ مَفروضةٍ لهم أنْ يَتمسَّكوا ببَعضِها تَعِلَّةً لإعراضِهم عن قَبولِ دَعوةِ القرآنِ، قطْعًا لِما عَسى أنْ يَنتحِلوه مِن المعاذيرِ على طَريقةِ الاستقراءِ، ومنْعِ الخُلوِّ[٤].

- وقد جاءتِ الإبطالاتُ السَّالفةُ مُتعلِّقةً بما يُفرَضُ لهم مِن المعاذيرِ الَّتي هي مِن قَبيلِ مُستنَداتٍ مِن المُشاهَداتِ، وانتُقِلَ الآنَ إلى إبطالٍ مِن نَوعٍ آخَرَ، وهو إبطالُ حُجَّةٍ مَفروضةٍ يَستنِدون فيها إلى عِلمِ شَيءٍ مِن المعلوماتِ المُغيَّباتِ عن النَّاسِ، وهي ممَّا استَأْثَرَ اللهُ بعِلمِه، وهو المُعبَّرُ عنه بالغَيبِ[٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٢).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٠٣).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والكلامُ هنا على حذْفِ مُضافٍ، أي: أعِندَهم عِلمُ الغَيبِ؟! فالمرادُ بقولِه: ﴿عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أنَّه حصَلَ في عِلمِهم ومُكْنَتِهم، أي: باطِّلاعِ جَميعِهم عليه، أو بإبلاغِ كُبرائِهم إليهم، وتَلقِّيهم ذلك منهم[١].

- وتَقديمُ ﴿عِندَهُمُ﴾ على المبتدأِ وهو مَعرِفةٌ؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: صار عِلمُ الغيبِ عندَهم لا عندَ اللهِ[٢]!

- ومَجيءُ جُملةِ ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ مُتفرِّعةً عن جُملةِ ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾، بِناءً على أنَّ ما في الغيبِ مَفروضٌ كَونُه شاهدًا على حُكْمِهم لأنفُسِهم المشارِ إليه بقولِه: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٣] [القلم: ٣٦].



(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٠٤).

الآيات (٤٨-٥٢)

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠) وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٥٢)﴾.

غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَكْظُومٌ﴾: مَكروبٌ، مُمتَلِئٌ خَوفًا وحُزنًا، والكَظْمُ: تَرَدُّدُ الغَيظِ والخَوفِ والحُزنِ في القَلبِ حتَّى يَضيقَ به، وأصلُ (كظم): يدُلُّ على إمساكٍ وجَمعٍ للشَّيءِ[(١)].

﴿لَنُبِذَ﴾: أي: لأُلقِيَ وطُرِحَ، وأصلُ (نبذ): يدُلُّ على إلقاءِ الشَّيءِ وطَرْحِه؛ لِقلَّةِ الاعتِدادِ به[(٢)].

﴿بِالْعَرَاءِ﴾: أي: المكانِ الخالي، لا يَتوارى فيه بشَجَرٍ ولا غَيرِه، وأصلُه: يدُلُّ على خُلُوٍّ ومُفارَقةٍ[(٣)].

﴿فَاجْتَبَاهُ﴾: أي: اصطَفاه واختارَه، والاجتِباءُ: الجَمعُ على طريقِ الاصطِفاءِ، وأصْلُ (جبي): يدُلُّ على جَمعِ الشَّيءِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾: أي: لَيَرمُونَك، ويُزيلونَك عن مَوضِعِك؛ مِن حِدَّةِ نَظَرِهم إليك بأبصارِهم، كما يُقالُ: كاد يَصرَعُني لشِدَّةِ نَظَرِه إلَيَّ؛ مِنْ: أزلَقَه عن مَوضِعِه: إذا رماه ونحَّاه، وأصلُ (زلق): يدُلُّ على تزلُّجِ الشَّيءِ عن مَقامِه[1].

المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى: فاصبِرْ -يا مُحمَّدُ- لِما حكَمَ اللهُ به شرعًا وقدَرًا، ولا تَكُنْ -يا مُحمَّدُ- في الغَضَبِ والعَجَلةِ على قَومِك كيُونُسَ الَّذي حُبِسَ في بَطنِ الحُوتِ، حينَ نادى رَبَّه قائِلًا: «لا إلهَ إلَّا أنتَ سُبحانَك إنِّي كُنتُ مِن الظَّالِمينَ»، وصَدْرُه مَملوءٌ غَيظًا وغمًّا.

لولا أنْ أدرَكَتْ يُونُسَ رَحمةٌ عَظيمةٌ مِن رَبِّه لَطُرِحَ بالأرضِ الخاليةِ مِن كلِّ شَيءٍ وهو يُذَمُّ ويُلامُ بالذَّنْبِ، فاصطفاه رَبُّه وجعَلَه مِن عِبادِه الصَّالِحينَ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ سبحانَه شِدَّةَ عداوةِ الكفَّارِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيقولُ: ولقد كاد الَّذين كفَروا أن يُسقِطوك ويَصرَعوك -يا مُحمَّدُ- مِن إحدادِ نظَرِهم إليك؛ عَداوةً وغَيظًا وحَسَدًا، ويقولونَ: إنَّ محمَّدًا لَمجنونٌ! وما هذا القُرآنُ إلَّا تذكيرٌ وعِظةٌ للعالَمينَ!

تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بالَغَ اللهُ تعالَى في تَزييفِ طَريقةِ الكفَّارِ، وفي زَجْرِهم عمَّا هُمْ عليه؛ قال

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٢).

لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١]:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

أي: فاصبِرْ -يا مُحمَّدُ- لِما حكَمَ اللهُ به شرعًا وقدَرًا: بتبليغ رِسالتِه، والانقيادِ التَّامِّ لأمرِه، وتحمُّلِ أذى الكُفَّارِ والمُشرِكينَ في سَبيلِ ذلك دونَ سخطٍ أو جزَعٍ لإمهالِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ...﴾ [الطور: ٤٨].

﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾.

أي: ولا تَكُنْ -يا مُحمَّدُ- في الضَّجَرِ والغَضَبِ، والعَجَلةِ وقِلَّةِ الصَّبرِ على قَومِك؛ كيُونُسَ الَّذي حُبِسَ بسَبَبِ ذلك في بَطنِ الحُوتِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٣٠، ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

قال الرازي: (فيه وَجهانِ؛ الأوَّلُ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ في إمهالِهم، وتأخيرِ نُصرتِك عليهم. والثَّاني: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ في أنْ أوجَبَ عليك التَّبليغَ والوَحيَ وأداءَ الرِّسالةِ، وتحمَّلْ ما يَحصُلُ بسَبَبِ ذلك مِنَ الأذى والمحنةِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٦).

ممَّن ذهب إلى الوجهِ الأوَّلِ: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، وأبو حيَّان، وأبو السعود، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠٦).

وممَّن ذهب إلى الوَجهِ الثَّاني: ابنُ جرير، وابن عطية، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠١).

وقال السعدي: (﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾: أي: لِمَا حكَم به شرعًا وقدرًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤١)، ((تفسير ابن =

﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾.

أي: حينَ نادى رَبَّه قائِلًا: «لا إلهَ إلَّا أنتَ سُبحانَك إنِّي كُنتُ مِن الظَّالِمينَ»، وصَدْرُه مَملوءٌ غَيظًا وغَمًّا وهَمًّا[1].

قال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩﴾.

أي: لولا أنْ أدرَكَتْ يُونُسَ رَحمةٌ عَظيمةٌ مِن رَبِّه لَطُرِحَ بالأرضِ الخاليةِ مِنَ النَّاسِ والأشجارِ والبِناءِ، وهو يُذَمُّ ويُلامُ بالذَّنْبِ[2]!

= عطية)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

قيل: العامِلُ في ﴿إِذۡ﴾ معنى قَولِه: ﴿كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾، أي: لا تَكُنْ كمَن صَحِبَ الحُوتَ حالَ نِدائِه؛ وذلك لأنَّه في ذلك الوَقتِ كان مكظومًا، فكأنَّه قيل: لا تكُنْ مَكظومًا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الرَّازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٦). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١١٨، ١١٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤١٩)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢١٦).

وقيل: المعنى: لا تكُنْ مُشابِهًا ليُونُسَ في الحالِ الَّتي أفضَت به إلى صُحبةِ الحُوتِ وحُصولِ النِّداءِ منه، وهي: ضَعفُ العزيمةِ والصَّبرِ لحُكمِه تعالى. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ القيِّم. يُنظر: ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) (ص: ٣٤، ٣٥).

وقيل: ﴿إِذۡ﴾ مُتعَلِّقةٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: اذكُرْ. وممَّن ذهب إلى هذا: مكِّيُّ بنُ أبي طالبٍ، والنَّسَفيُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٥٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٠، ٢٠١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١١٩، ١٢٠)، =

كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٥، ١٤٦].

﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾.

= ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٦، ١٠٧).

قال القرطبي: (والعراءُ: الأرضُ الواسعةُ الفضاءُ، الَّتي ليس فيها جبلٌ ولا شجرٌ يَستُرُ. وقيل: ولولا فضلُ الله عليه لَبَقِيَ في بطنِ الحوتِ إلى يومِ القيامةِ، ثمَّ نُبِذ بعراءِ القيامةِ مذمومًا. يدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٤).

قال الألوسي عن القولِ الثَّاني: (ولا يخفَى بُعْدُه). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٢).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: رحمةٌ مِن الله أدركَتْه فرَحِمَه، وتاب عليه: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن الجوزي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٣٧).

وقيل: المرادُ: أنَّ اللهَ أنعَمَ عليه بالتَّوفيقِ للتَّوبةِ، وقَبِلَها منه، وتاب عليه. وهو قريبٌ مِن القولِ السَّابقِ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والرازي، والبيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٢).

قال الشوكاني: (قال الضَّحَّاكُ: النِّعمةُ هنا النُّبُوَّةُ. وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: عبادتُه الَّتي سلَفَت. وقال ابنُ زَيدٍ: هي نداؤُه بقولِه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٠).

أي: فاصطفَى اللهُ يُونُسَ، وجعَلَه مِن عِبادِه الطَّائِعينَ الَّذين فَضَّلَهم؛ ممَّن صَلَحَت أعمالُهم، وأقوالُهم، ونيَّاتُهم، وأحوالُهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٥ - ٨٧].

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما يَنبغي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٧).

قال الرازي: (في الآيةِ وجهانِ؛ أحدُهما: قال ابنُ عبَّاسٍ: رَدَّ اللهُ إليه الوَحيَ وشَفَّعَه في قَومِه. والثَّاني: قال قومٌ: ولعَلَّه ما كان رَسولًا صاحِبَ وَحيٍ قبْلَ هذه الواقِعةِ، ثمَّ بعْدَ هذه الواقِعةِ جَعَله اللهُ رسولًا، وهو المرادُ مِن قَولِه: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٧). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٠).

وقال ابن جرير: (يقول تعالى ذِكْرُه: فاجتَبى صاحِبَ الحوتِ ربُّه، يعني: أنَّه اصطفاه واختاره لِنُبُوَّتِه ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: مِن المُرسَلينَ، العامِلينَ بما أمَرَهم به ربُّهم، المُنتَهينَ عمَّا نهاهم عنه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠١، ٢٠٢).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بـ﴿الصَّالِحِينَ﴾ المفَضَّلونَ مِن الأنبياءِ، وقد قال إبراهيمُ عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾[الشعراء: ٨٣]. ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٧).

وقيل: المرادُ بالصَّالحينَ: الأنبياءُ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والخازن، وأبو حيَّان، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٣٧).

قال الألوسي: (وهو مبنيٌّ على أنَّه لم يكُنْ قبْلَ الواقعةِ نبيًّا). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٢).

وقيل: المرادُ بالصَّالحينَ: الكامِلونَ في الصَّلاحِ. وممَّن اختاره: النَّسَفيُّ، والشَّوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٢).

لعبدٍ أن يقولَ: أنا خيرٌ مِن يُونُسَ بنِ مَتَّى[١]))[٢].

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ۝٥١﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَه تعالَى بالصَّبرِ لِما أرادهُ تعالَى ونَهاهُ عمَّا نَهاهُ؛ أخبَرَ بشِدَّةِ عَداوةِ الكفَّارِ؛ ليَتلقَّى ذلك بالصَّبرِ[٣].

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾.

أي: ولقد أوشَكَ الَّذين كَفَروا أن يُسقِطوك ويَصرَعوك -يا مُحمَّدُ- مِن إحدادِ نَظَرِهم إليك نَظَرَ عَداوةٍ وغَيظٍ منك، وحَسَدٍ لك، وذلك لَمَّا سَمِعوا كلامَ اللهِ يُتلَى عليهم[٤]!

---

(١) قوله: ((أنا)) يَحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ به رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقال ذلك تواضُعًا إنْ كان قالَه بعْدَ أنْ عَلِمَ أنَّه سيِّدُ البشَرِ. وقيل: هو عبارةٌ عن كلِّ قائلٍ يقولُ ذلك؛ كي لا يُفضِّلَ أحدٌ نفْسَه على يُونسَ عليه السَّلامُ. قيل: وخَصَّ يُونسَ بالذِّكرِ؛ لِما يُخْشى على مَن سَمِعَ قِصَّتَه أنْ يَقَعَ في نفْسِه تَنقيصٌ له، فبالَغَ في ذِكرِ فضْلِه لسَدِّ هذه الذَّريعةِ. وقد وَرَدَ ما يُؤيِّدُ هذا القولَ ويدُلُّ عليه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١٣٢)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٦٧)، ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (١/ ٤٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٣٠)، ومسلم (٢٣٧٧).

وأخرجه البخاري (٣٤١٦)، ومسلم (٢٣٧٦) أيضًا من حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٨، ١٠٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٢ - ٢٠٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٧).

قيل: المعنى: يَنظُرونَ إليك نَظَرًا شَديدًا بالعَداوةِ، يَكادُ يُزيلُ قدَمَك ويُسقِطُك ويَصرَعُك؛ لأنَّهم يَكرَهونَ سَماعَ القُرآنِ أشدَّ الكراهةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ قُتَيْبَةَ، =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [الحج: ٧٢].

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾.

أي: ويقولونَ: إنَّ محمَّدًا لَمجنونٌ، وهذا الَّذي جاءَنا به هَذَيانٌ يَهذِي به في جُنونِه[(١)]!

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾.

= وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والسمعاني، وابن الجوزي، والبِقاعي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الرَّسْعَني: (ويدُلُّ على صحَّةِ هذا المعنى: أنَّ اللهَ تعالى قرَن هذا النَّظرَ بسَماعِ القرآنِ، وهو قولُه تعالى: ﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾، وهم كانوا يَكرَهون ذلك أشدَّ الكراهةِ، فيُحِدُّونَ النَّظرَ إليه بالبَغضاءِ، والإصابةُ بالعَينِ تكونُ مع الإعجابِ والاستِحسانِ، ولا تكونُ مع البُغضِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٤٥).

وذهب الفرَّاءُ، والسَّمينُ الحلبيُّ، وابنُ كثير، والسعديُّ: إلى أنَّ المعنى: وإن يَكادُ الَّذين كفروا لَيَعِينُونَك بأبصارِهم؛ لحَسَدِهم لك، فلولا وقايةُ اللهِ لك مِن أعيُنِهم الخبيثةِ لأصابوك بها. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٧٩)، ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (١٠/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

قال ابنُ القيِّم: (فالكُفَّارُ كانوا يَنظُرونَ إليه نَظَرَ حاسِدٍ شَديدِ العدواةِ، فهو نظرٌ يكادُ يُزْلِقُه لولا حِفظُ اللهِ وعِصمتُه، فهذا أشدُّ مِن نظَرِ العائِنِ، بل هو جِنسٌ من نظَرِ العائِنِ، فمَن قال: إنَّه مِن الإصابةِ بالعَينِ، أراد هذا المعنى، ومَن قال: ليسَ به، أراد أنَّ نَظَرَهم لم يكُنْ نَظَرَ استِحسانٍ وإعجابٍ؛ فالقَولانِ حقٌّ). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢٣٢).

قال الرَّسْعَني: (وعباراتُ العلماءِ مُتقارِبةُ المعنى: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ أي: ليَنفُذونك بأبصارِهم، ... وقال الكلبيُّ: يَصْرَعُونك. ورُوِيَ عنه: يَصرِفونَك عمَّا أنت عليه مِن تبليغِ الرِّسالةِ. وقال المُؤَرِّجُ: يَرْمُونَك. وقال ابنُ كَيْسانَ: يَقتُلونَك. ورُوِيَ عن الحسَنِ أيضًا مِثلُه. وقال قَتادةُ: يُزهِقونك). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٤٧، ٢٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها إبطالٌ لِقَولِ المُشرِكينَ: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾؛ لأنَّهم قالوه في سِياقِ تَكذيبِهم بالقُرآنِ، فإذا ثَبَت أنَّ القُرآنَ ذِكرٌ، بَطَل أن يكونَ مُبَلِّغُه مَجنونًا[1].

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٥٢﴾.

أي: وما هذا القُرآنُ إلَّا تذكيرٌ وعِظةٌ مِنَ اللهِ لجَميعِ الإنْسِ والجِنِّ[2].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ * إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٦، ٨٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٨).

قال البقاعي: (﴿وَمَا﴾ أي: والحالُ أنَّ هذا القُرآنَ أو الرَّسولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما ﴿هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ﴾ أي: مَوعِظةٌ وشَرَفٌ ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: كُلِّهم). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٣٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَمَا هُوَ﴾ القرآنُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، الواحدي، والبغوي، وابن عطية، وابن الجوزي، والرازي، والقرطبي، وأبو حيَّان، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم: ابنُ جرير، والثعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٤).

وقال ابنُ عاشور: (أي: ما القُرآنُ إلَّا ذِكرٌ للنَّاسِ كُلِّهم، وليس بكَلامِ المجانينِ، وينتقلُ مِن ذلك إلى أنَّ النَّاطِقَ به ليس مِن المجانينِ في شَيءٍ. والذِّكرُ: التَّذكيرُ باللهِ والجَزاءِ، وهو أشرَفُ أنواعِ الكلامِ؛ لأنَّ فيه صلاحَ النَّاسِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٨).

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ أي: لِمَا حَكَم به شَرعًا وقَدَرًا، فالحُكمُ القَدَريُّ يُصبَرُ على المؤذي منه، ولا يُتلقَّى بالسَّخَطِ والجَزَعِ، والحُكمُ الشَّرعيُّ يُقابَلُ بالقَبولِ والتَّسليمِ، والانقيادِ التَّامِّ لأمْرِه[1].

٢- خَتَمَ اللهُ تعالَى السُّورةَ بالأمرِ بالصَّبرِ الَّذي هو جِماعُ الخُلُقِ العَظيمِ في قَولِه: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾، وذلك نصٌّ في الصَّبرِ على ما يَنالُه مِن أذَى الخلْقِ، وعلى المصائبِ السَّماويَّةِ، والصَّبرُ على الأوَّلِ أشَدُّ؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ إلخ، والإزْلاقُ بالبَصرِ هو الغايةُ في البُغْضِ والغضَبِ والأذَى. فالصَّبرُ على ذلك نَوعٌ مِن الحِلْمِ، وهو احتِمالُ أذى الخَلقِ، وفي ذلك ما يَدْفَعُ كَيدَهم وشَرَّهم. وما ذَكَره في قِصَّةِ أهْلِ الجَنَّةِ من أمْرِ السَّخاءِ والجُودِ، وما ذَكَره هنا مِن الحِلْمِ والصَّبرِ: هو جِماعُ الخُلُقِ الحَسَنِ، كما جَمَعَ بيْنَهما في قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، كما قِيل:

بِحِلْمٍ وبَذْلٍ سادَ في قَومِه الفَتَى ... وكَونُك إيَّاه عليْك يَسيرُ

فالإحسانُ إلى النَّاسِ بالمَالِ والمَنفَعةِ، واحتِمالُ أذاهُم مِن الخُلُقِ المَحمودِ، وجَمَع بيْنَهما أيضًا في قَولِه: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[2] [الأعراف: ١٩٩].

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٌ﴾ يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٧٠).

أنَّه لا يَتِمُّ شَيءٌ مِنَ الصَّالِحاتِ والطَّاعاتِ إلَّا بتوفيقِ اللهِ تعالى وهدايتِه[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ فيه سؤالٌ: لِمَ لَمْ يقلْ: (لولا أنْ تداركَتْه نِعمةٌ مِن رَبِّه)؟

الجوابُ: إنَّما حَسُنَ تذكيرُ الفِعلِ؛ لِفَصلِ الضَّميرِ (الهاءِ) في ﴿تَدَارَكَهُۥ﴾[2]، ولأنَّ تأنيثَ النِّعمةِ غيرُ حقيقيٍّ[3].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ احتُجَّ به على أنَّ فِعلَ العَبدِ خَلقُ اللهِ تعالى؛ فالآيةُ تدُلُّ على أنَّ ذلك الصَّلاحَ إنَّما حَصَل بجَعلِ اللهِ وخَلْقِه[4].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أصلٌ في أنَّ العَينَ حَقٌّ[5].

بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ تَفريعٌ على ما تَقدَّمَ مِن إبطالِ مَزاعمِ المشركين ومَطاعنِهم في القرآنِ والرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما تَبِعَه مِن تَكفُّلِ اللهِ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعاقبةِ النَّصرِ؛ وذلك أنَّ شِدَّتَه على نفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن شأْنِها أنْ تُدخِلَ عليه يَأْسًا مِن حُصولِ رَغبتِه، ونَجاحِ سَعْيِه، ففرَّعَ عليه تَثبيتَه وحثَّه على المُصابَرةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٧).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٢).

العينُ حقٌّ ولها تأثيرٌ، لكن لا تأثيرَ لها إلَّا بإذْنِ الله عزَّ وجلَّ؛ عن أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه، قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((العينُ حقٌّ)) [البخاري (٥٧٤٠) ومسلم (٢١٨٧)]. وعن عائشةَ رضيَ الله عنها، قالت: ((أمَرَني رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، أوْ أمَر أنْ يُسْتَرْقَى مِن العَيْنِ)) [البخاري (٥٧٣٨) ومسلم (٢١٩٥)]. يُنظر: ((معارج القبول)) للحكمي (٢/ ٥٠١).

واستِمرارِه على الهُدى، وتَعريفَه بأنَّ ذلك التَّثبيتَ يَرفَعُ دَرَجتَه في مَقامِ الرِّسالةِ لِيَكونَ مِن أُولي العزْمِ، فذَكَّرَه بمَثَلِ يُونسَ عليه السَّلامُ؛ إذ استَعجَلَ عن أمْرِ ربِّه، فأدَّبَه اللهُ ثمَّ اجتباهُ وتاب عليه، وجَعَلَه مِن الصَّالحينَ تَذكيرًا مُرادًا به التَّحذيرُ[1].

- قولُه: ﴿إِذۡ نَادَىٰ﴾ العاملُ في (إذْ) هو المحذوفُ المُضافُ، أي: كحالِ، أو كقصَّةِ صاحبِ الحوتِ وقتَ نِدائِه[2].

- جُملةُ ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿نَادَىٰ﴾، وعليها يَدورُ النَّهيُ لا على النِّداءِ؛ فإنَّه أمْرٌ مُستحسَنٌ، ولذلكَ لم يُذكَرِ المُنادَى[3].

- قولُه: ﴿وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ جِيءَ بهذه الحالِ جُملةً اسميَّةً؛ لدَلالتِها على الثَّباتِ، أي: هو في حَبْسٍ لا يُرجَى لمِثلِه سَراحٌ، وهذا تَمهيدٌ للامتِنانِ عليه بالنَّجاةِ مِن مِثلِ ذلك الحبْسِ[4]. وذلك على أنَّ معنَى ﴿مَكۡظُومٞ﴾: مَحبوسٌ.

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن مَضمونِ النَّهيِ مِن قولِه: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ﴾ إلخ؛ لأنَّه يَتضمَّنُ التَّحذيرَ مِن الوُقوعِ في كَرْبٍ مِن قَبيلِ كَرْبِ يُونسَ، ثمَّ لا يَدْري كيف يكونُ انفراجُه[5].

- واعتُمِدَ في جَوابِ (لولا) على الحالِ -أي: ﴿وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾-، فلَولاهُ لم يكُنْ لقولِه: ﴿لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ﴾ فائدةٌ؛ لأنَّه نُبِذَ فيه، يعني أنَّ حالَه كانت على خِلافِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٥).

الذَّمِّ حِينَ نُبِذَ بالعَراءِ، ولولا تَوبتُه لَكانت حالُه على الذَّمِّ[(١)].

- أو جَوابُ (لَولا) مَحذوفٌ، دلَّ عليه قولُه: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾، مع ما تُفِيدُه صِيغةُ الجُملةِ الاسميَّةِ مِن تَمكُّنِ الكظْمِ، فتلك الحالةُ إذا استَمرَّت لم يَحصُلْ نَبْذُه بالعَراءِ، ويكونُ الشَّرطُ بـ (لَوْلَا) لاحقًا لجُملةِ ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾، أي: لَبَقِيَ مَكظومًا، أي: مَحبوسًا في بطْنِ الحوتِ أبدًا -على قولٍ-، وهو معْنى قولِه في سُورةِ (الصافاتِ): ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، وتُجعَلُ جُملةُ ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن الإجمالِ الحاصلِ مِن مَوقعِ (لولا)، واللَّامُ فيها لامُ القسَمِ للتَّحقيقِ؛ لأنَّه خارقٌ للعادةِ، والمعْنى: لقدْ نُبِذَ بالعَراءِ وهو مَذمومٌ. والمذمومُ: إمَّا بمعْنى المُذْنِبِ؛ لأنَّ الذَّنْبَ يَقْتضي الذَّمَّ في العاجِلِ والعِقابَ في الآجِلِ، وهو معْنى قولِه في آيةِ (الصَّافَّاتِ): ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢]، وإمَّا بمعْنى العَيبِ، وهو كونُه عاريًا جائعًا، فيكونُ في معْنى قولِه: ﴿فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥]؛ فإنَّ السَّقَمَ عَيبٌ أيضًا[(٢)]. وفيه بُعْدٌ.

- والتَّدارُكُ: تَفاعُلٌ مِن الدَّرَكِ -بالتَّحريكِ-، وهو اللَّحاقُ، أي: أنْ يَلحَقَ بَعضُ السَّائرينَ بَعضًا، وهو يَقْتضي تَسابُقَهم، وهو هنا مُستعمَلٌ في مُبالَغةِ إدراكِ نِعمةِ اللهِ إيَّاهُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٦، ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٠٥).

- إنَّ اللهَ أنْعَمَ على يونسَ عليه السَّلامُ بأنْ أنبَتَ عليه شَجرةَ اليَقطينِ، كما في سُورةِ (الصَّافَّاتِ). وأُدمِجَ في ذلك فضْلُ التَّوبةِ والضَّراعةِ إلى اللهِ، وأنَّه لولا تَوبتُه، وضَراعتُه إلى اللهِ، وإنعامُ اللهِ عليه نِعمةً بعْدَ نِعمةٍ؛ لَقَذَفَه الحوتُ مِن بَطْنِه مَيِّتًا، فأخْرَجه الموجُ إلى الشَّاطئِ، فلَكانَ مُثلةً للنَّاظِرينَ، أو حيًّا مَنبوذًا بالعَراءِ لا يَجِدُ إسعافًا، أو لَنَجا بعْدَ شدَّةٍ وجهدٍ واللهُ غاضبٌ عليه، فهو مَذمومٌ عندَ اللهِ مَسخوطٌ عليه، وهي نِعَمٌ كثيرةٌ عليه؛ إذ أنْقَذَه مِن هذه الوَرَطاتِ كلِّها إنقاذًا خارقًا للعادةِ، وهذا المعْنى طُوِيَ طيًّا بَديعًا، وأُشيرَ إليه إشارةٌ بَليغةٌ بجُملةِ ﴿لَوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾[1].

- وتَنكيرُ ﴿نِعْمَةٌ﴾ للتَّعظيمِ؛ لأنَّها نِعمةٌ مُضاعَفةٌ مُكرَّرةٌ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ عطفٌ على مُقدَّرٍ، أي: فتَداركَتْه نِعمةٌ مِن ربِّه، فاجْتَباهُ[3].

- وفُرِّع على النَّفيِ في قولِه: ﴿لَوْلَآ أَن تَدَارَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ الإخبارُ بأنَّ اللهَ اجتباهُ، وجَعَلَه مِن الصَّالحينَ، وذلك إيماءٌ إلى أنَّ الصَّلاحَ هو أصلُ الخَيرِ، ورفْعِ الدَّرجاتِ[4].

- وتَعريفُ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يُفيدُ أنَّه جَعلَه مِن الكامِلينَ في الصَّلاحِ[5].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩).

- هو عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤]؛ عرَّفَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَعضَ ما تَنْطوي عليه نُفوسُ المشركين نحْوَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مِن الحِقدِ والغَيظِ وإضمارِ الشَّرِّ عندَما يَسمَعون القرآنَ(١).

- قولُه: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ جاء ﴿يَكَادُ﴾ بصِيغةِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على استِمرارِ ذلك في المُستقبَلِ. وجاء فِعلُ ﴿سَمِعُواْ﴾ ماضيًا؛ لوُقوعِه مع (لَمَّا)، وللإشارةِ إلى أنَّه قد حَصَل منهم ذلك، وليس مُجرَّدَ فرْضٍ(٢).

- ولَمَّا كان الزَّلَقُ يُفْضي إلى السُّقوطِ غالبًا، أُطلِقَ الزَّلَقُ وما يُشتَقُّ منه على السُّقوطِ والاندحاضِ على وَجْهِ الكِنايةِ، ومنه قولُه هنا: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾، أي: يُسقِطونك ويَصرَعونك(٣). على قولٍ في التَّفسير.

- قولُه: ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ ﴿لَمَّا﴾ ظرْفٌ، العاملُ فيه ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾، والجوابُ مَحذوفٌ لدَلالةِ ما قبْلَه عليه، أي: لَمَّا سَمِعوا الذِّكرَ كادُوا يُزلِقونك(٤).

- وفي قوله: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ مع قوله في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢] مُحسِّنُ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ(٥).

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ حيثُ كانُ مَدارُ حُكمِهم الباطلِ ما سَمِعُوه منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، رُدَّ ذلك ببَيانِ عُلوِّ شَأنِه، وسُطوعِ بُرهانِه؛ فقيل: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، على أنَّه حالٌ مِن فاعلِ (يقولونَ)، مُفيدةٌ لغايةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٠٨).

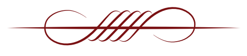
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٨). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٧٠).

بُطلانِ قولِهم، وفيه تَعجيبٌ للسَّامعينَ مِن جُرأتِهم على تَفَوُّهِ تلكَ العَظيمةِ، أي: يقولونَ ذلكَ والحالُ أنَّه ذِكرٌ للعالَمينَ[1]!

- وهو إبطالٌ لقولِهم: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾؛ لأنَّهم قالوهُ في سِياقِ تَكذيبِهم بالقرآنِ، فإذا ثبَتَ أنَّ القُرآنَ ذِكرٌ بطَلَ أنْ يكونَ مُبلِّغُه مَجنونًا، وهذا مِن قَبيلِ الاحتباكِ[2]؛ إذ التَّقديرُ: ويقولونَ: إنَّه لَمجنونٌ، وإنَّ القرآنَ كَلامُ مَجنونٍ، وما القرآنُ إلَّا ذِكرٌ، وما أنتَ إلَّا مُذكِّرٌ[3].



تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ التَّاسِعُ والثَّلاثونَ

ويليه المجلدُ الأربعونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الحاقَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٩).









الفهرس







الفهرس

سُورةُ الطَّلاقِ

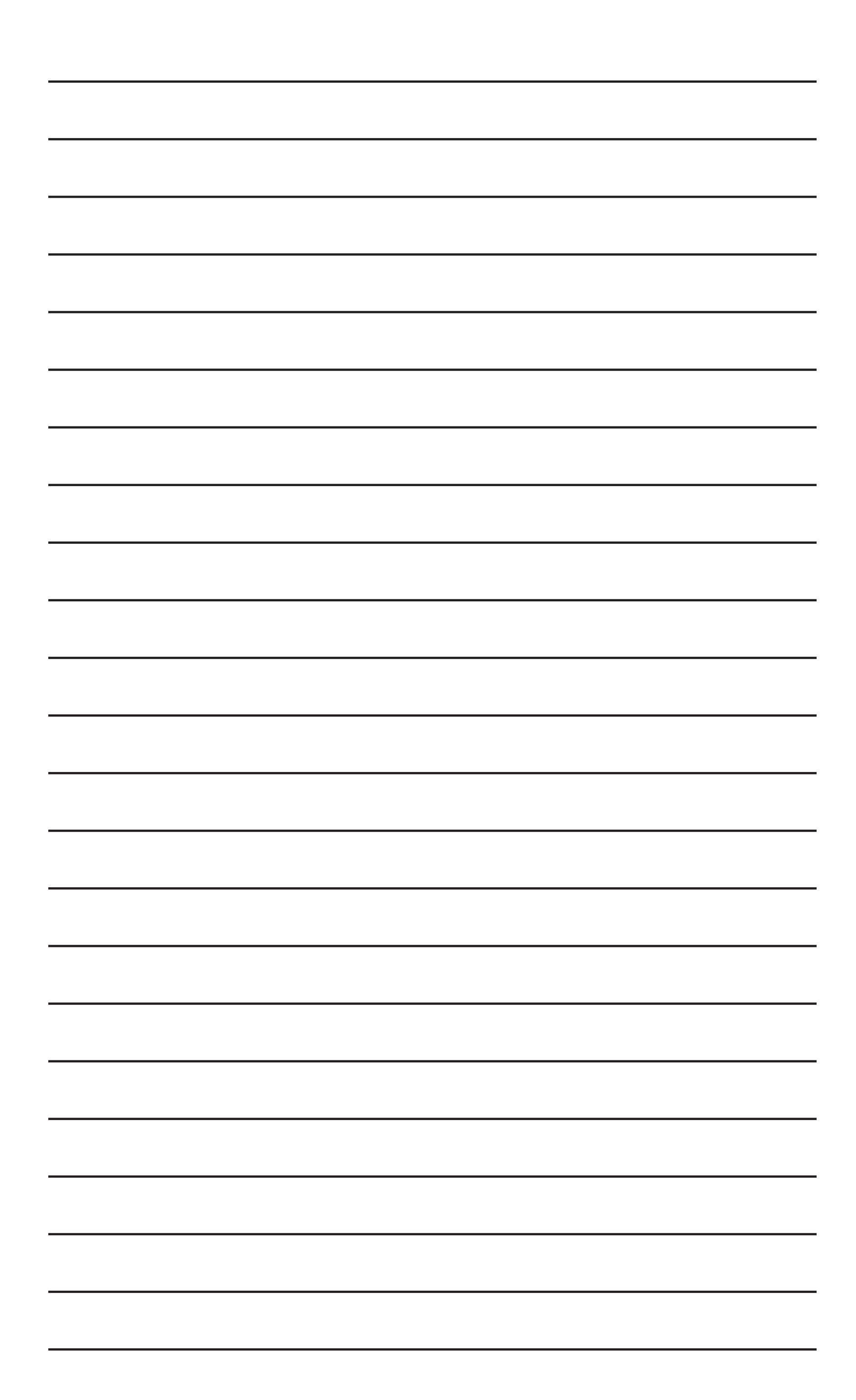
سورةُ التَّحريمِ

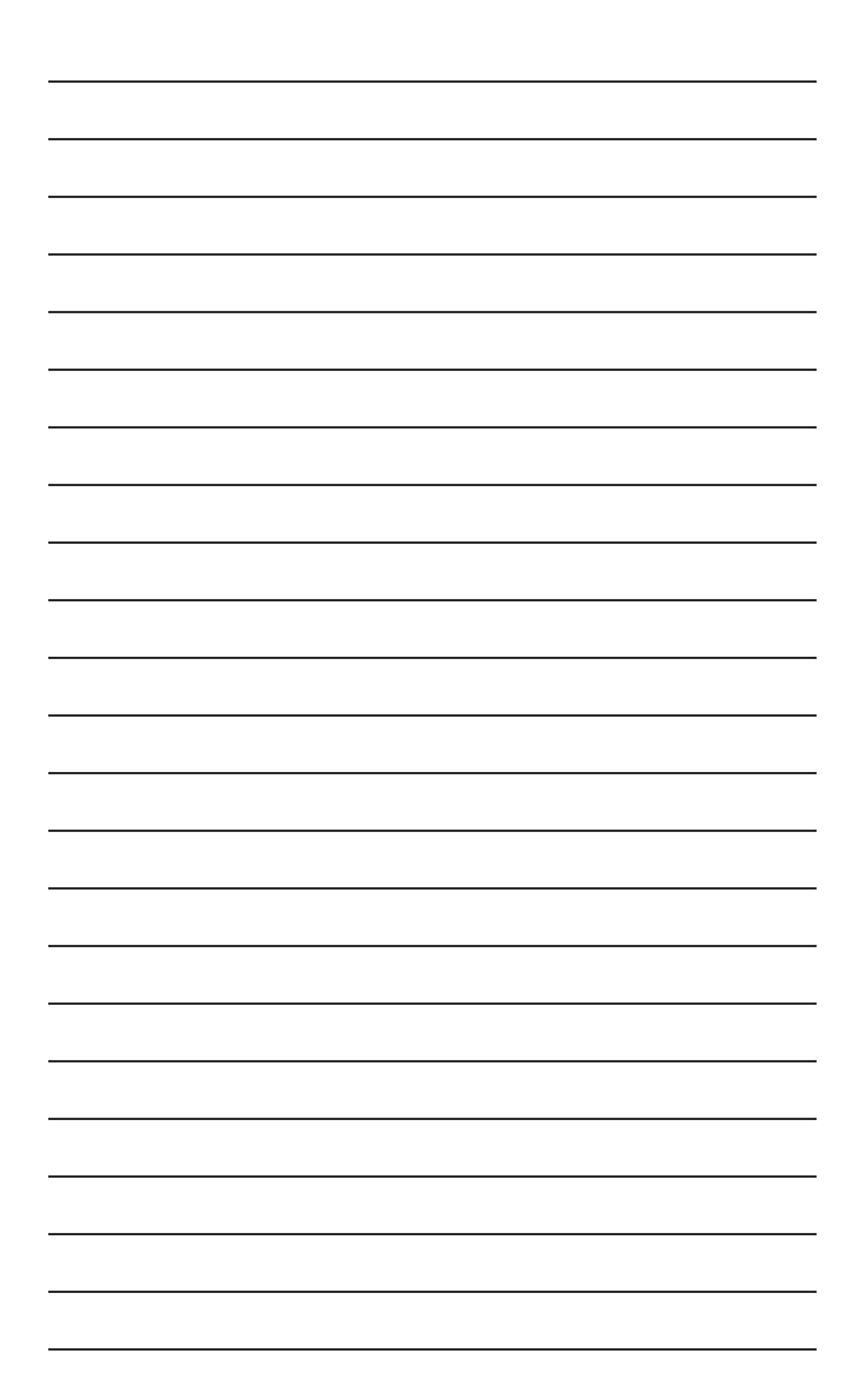
سورةُ المُلْكِ

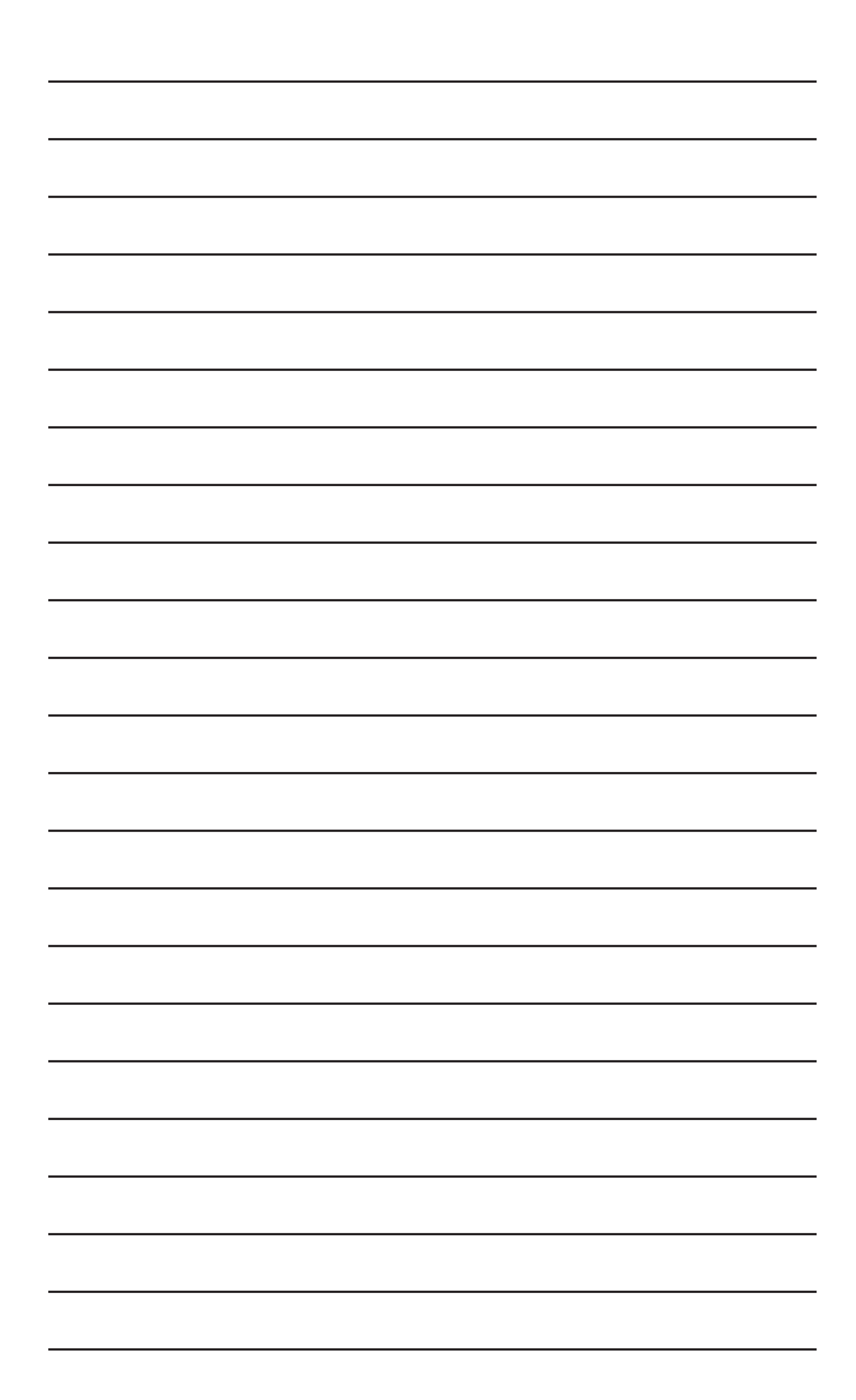
سورةُ القَلَمِ

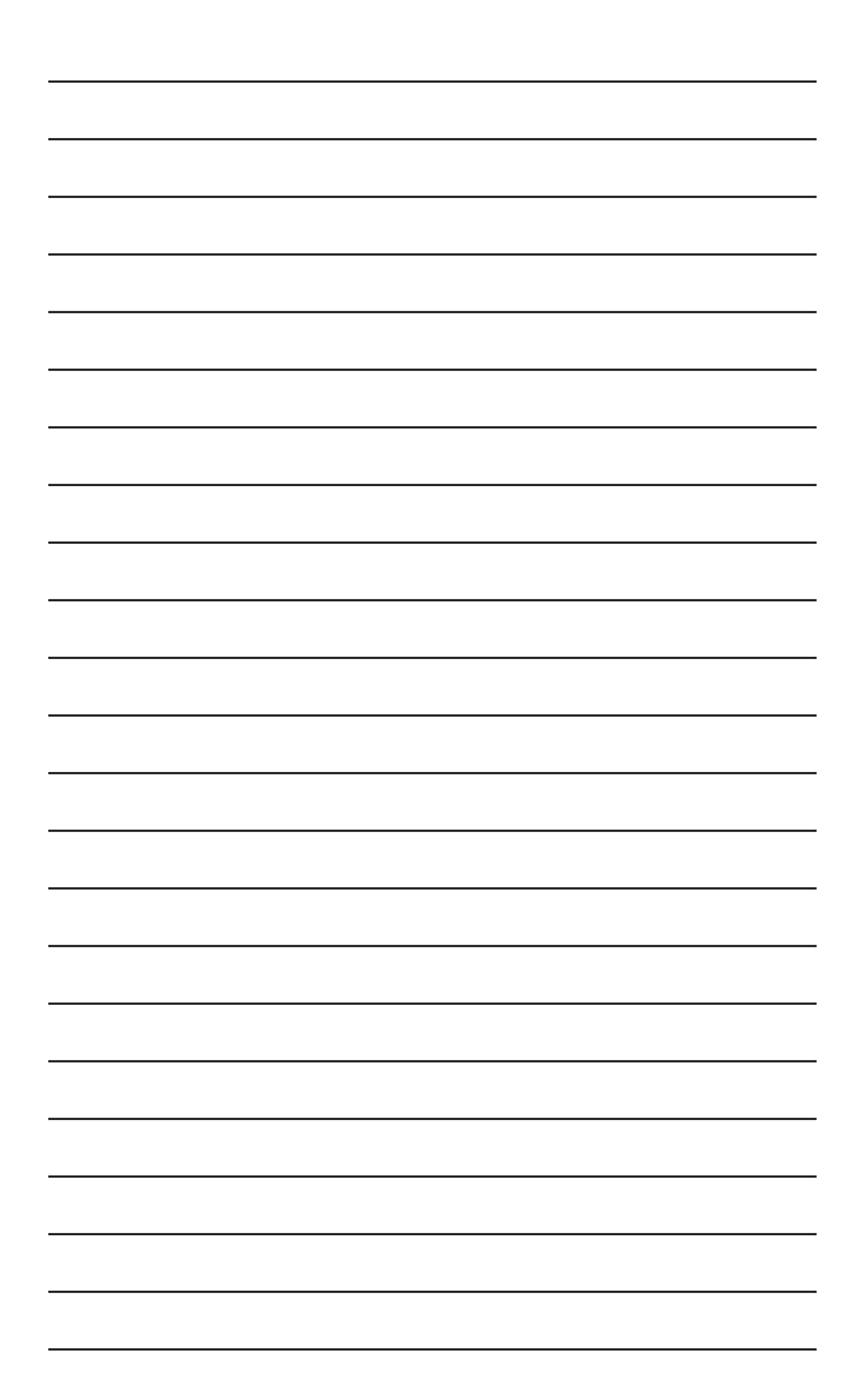


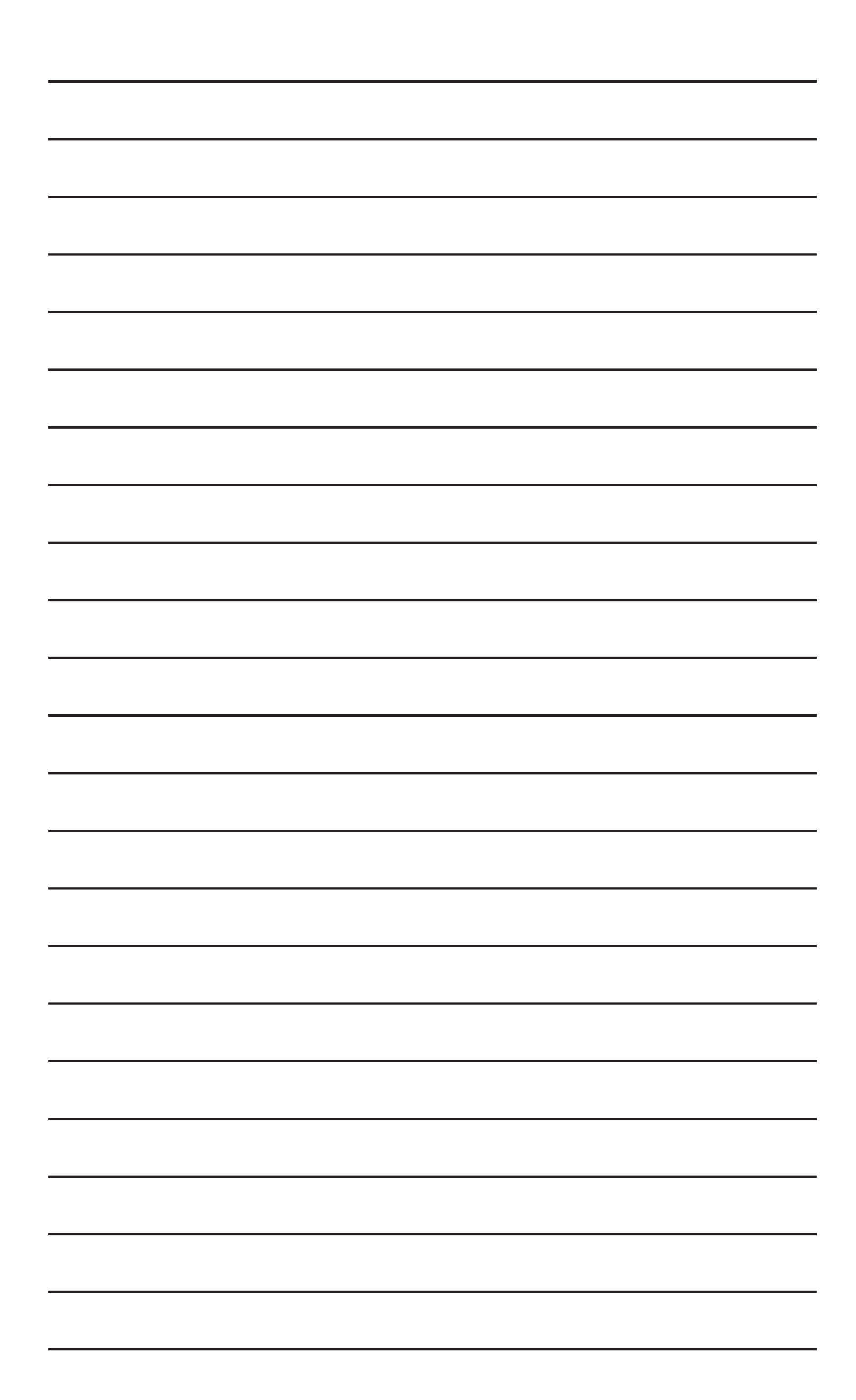


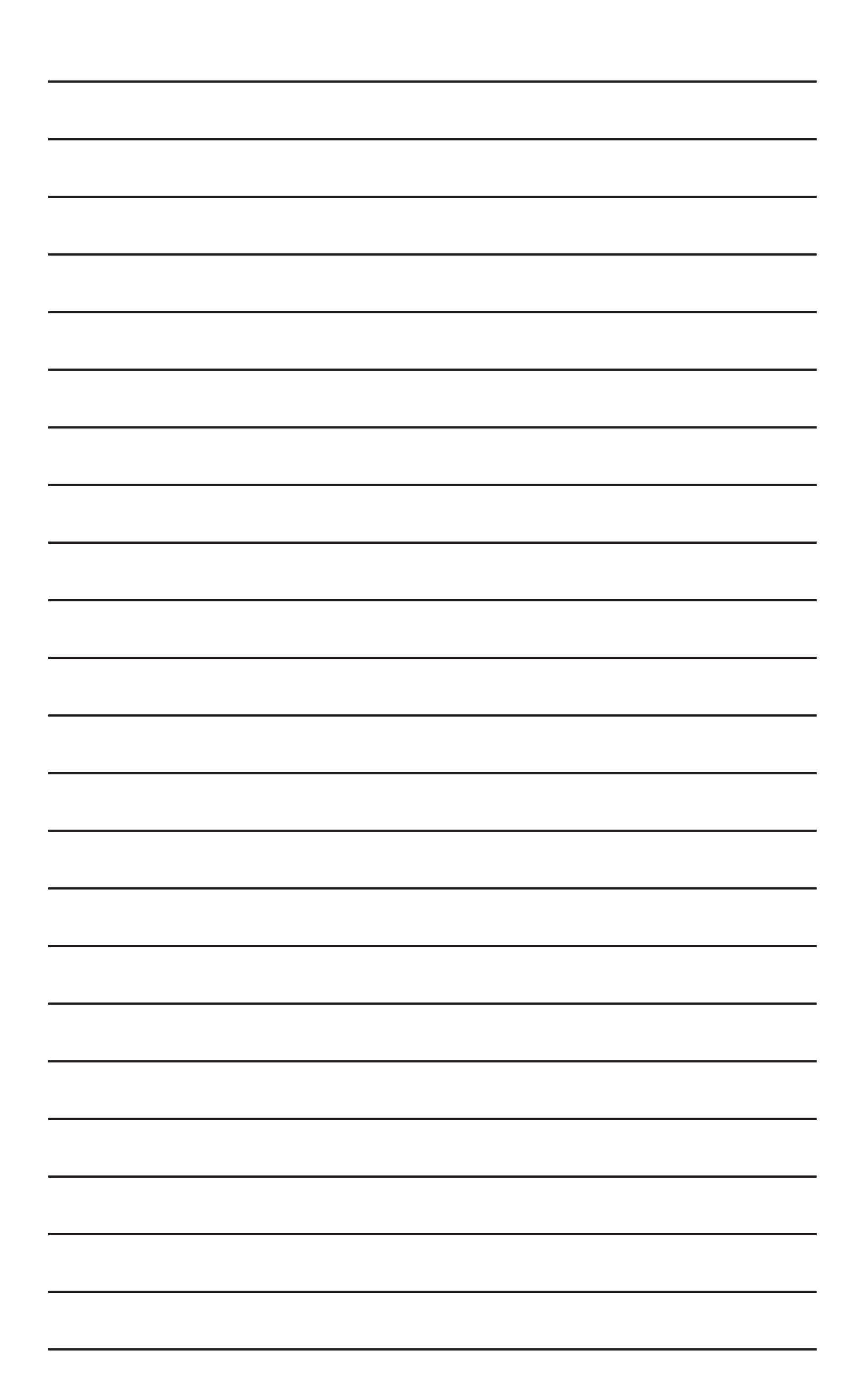














تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠